تفسير القرآن العظيم

المسمى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مَجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أوضح ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلّامة الشّيخ

رشيد الخطيب الموصلي

١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلّد السّابع

تفسير سورة الدّخان إلى نهاية سورة المعارج

اعتنى به وقدّم له

محمد أحمد مكّي



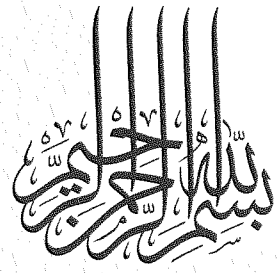
بسم الله الرحمن الرحيم



مكيَّة، وهي تسعٌ وخمسون آية

وجاء فيها: أن ما أُنذِرَ به المشركون في آخر السورة السابقة قد صار قريباً، وأصبح وقوعه مترقَّباً، ولهذه ذُكرت بعدها.

واشتمل سياقها على التَّوعُّد لهم بمثل ما جرى على مُتمرِّدي الأمم قبلَهم في الدنيا، وبعذاب الجحيم في الأُخرى.

وقد ابتدأت بتقرير نزول القرآن.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

﴿حمٓ ۝١﴾ وقد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيهُ الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها، اهتماماً به. ومنه هنا قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ يُقسِمُ به، ثم يُحدِّث عنه بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[1] هي ليلة القدر من رمضان. كما جاء مُصرَّحاً بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والمراد: أول ما نزل منه، لأنه نزل مُنَجَّماً في نيِّفٍ وعشرين سنة، ابتدأ في هذه الليلة بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وانتهى في تاسع ذي الحجَّة للسنة العاشرة من الهجرة بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وكان ذلك يوم عرفة من حَجَّة الوداع، وأعقَبَها العيد[2].

---

(١) الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ للقرآن، وأضمَرَه من دون ذكر تفخيماً لشأنه، وشهادةً له بالنباهة المُغنية عن التصريح، كما عظَّمه بإسناد إنزاله إليه، وتبريك الليلة التي نزل فيها. (المؤلف).

(٢) بل نزل بعدها عدةُ آيات، لكنْ ليس فيها حكم جديد، فلا تعارض الإكمال المنصوص عليه في =

ثم ذكر المقتضي لإنزاله، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ أي: إننا ـ إذ خلقنا الإنسان نوعاً ممتازاً بطبيعته، يفارق سائر الحيوان بفطرته وغايته في حياته الثانية، محتاجاً إلى التعليم والإرشاد بغريزته ـ قد كتبنا على أنفسنا أن نتعهَّده بالإنذار على ألسنة الرسل، فأنزلنا هذا القرآن لإنذار الناس بما سيُلاقون جَزاءً لأعمالهم، ولما تعقد عليه قلوبهم، ثواباً أو عقاباً، في حياةٍ أُخرى بعد هذه الحياة الدنيا.

ثم وصف هذه الليلة المباركة بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾[1] أي:

= آية سورة المائدة، وآخر ما نزل من القرآن على الإطلاق: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، كما ثبت عن ابن عباس في «صحيح البخاري» (٤٥٤٤).

(١) يقول الأستاذ الإمام محمد عبده: أما ما يقوله أكثر الناس من أنَّ الليلة المباركة التي يُفرَقُ فيها كلُّ أمر حكيم: هي ليلة النصف من شعبان، وأنَّ الأمور التي تفرق فيها الأرزاق والأعمار، وكذلك ما يقولونه من مثل هذا في ليلة القدر، هو من الجرأة على الكلام في الغيب بغير حُجَّة قاطعة، وليس من الجائز أن نعتقد بشيء من ذلك، ما لم يرد به خبر متواتر عنه ﷺ، ولم يرد عنه مثل ذلك؛ لاضطراب الروايات وضعف أغلبها، وكذب الكثر منها، ومثلها لا يصحُّ الأخذ به في باب العقائد. ومثل ذلك يقال في بيت العزَّة، ونزول القرآن فيه جملة واحدةً في تلك الليلة، فإنه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين؛ لعدم تواتر خبره عن النبيِّ ﷺ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظنِّ في عقيدة مثل هذه، وإلا كنا من الذين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾. نعوذ بالله. وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله، ويعدُّ من عقائد الدين، وبين ما لا يصحُّ اعتقاده، فاحذر أن تقع في مثله. (المؤلف).

قلت: هو كذلك في الجملة، لكن كثير مما ذكر من فروع العقائد، وهي مما يثبت بخبر الآحاد الصحيح، ولا يشترط فيها التواتر، كبيت العزة، ونزول القرآن فيه جملة واحدة ليلة القدر، فكما لا ينبغي الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله تعالى وما لا يصح، كذلك =

يُقضى في هذه الليلة كلُّ أمر منطبق على الحكمة والسَّداد مما لا يُمكِنُ أن يعرف البشر بنفسه من أحوال الآخرة وبعض أحوال الدنيا. يُنوِّه بشأن نزول هذا القرآن فيها، إذ به يُفرَقُ كلُّ أمر حكيم، أي: يُعْرَف ويُميَّز.

وعليه، فالآية تماثل من سورة القدر في وصف هذه الليلة قولَه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤].

وبعد أن ذكر هذا الشأن لهذه الليلة، إيماءً إلى نزول القرآن فيها، أو إلى اكتسابها هذا الشَّرَف به، أكمَلَ قولَه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ بقوله: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ مبالغةً في التفخيم، إذ هو حال من أحد ضميرَيْ ﴿أَنزَلْنَٰهُ ﴾، للإيماء إلى أنَّ القرآن وإنزاله أمر حكيم، فرِّق فيه بين الحق والباطل، لذلك شرفت به هذه الليلة. ويجوز أن يكون حالاً من ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾.

ثم أكمل المقتضي للإنزال بقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ ﴾ أي: إننا نرسل للبشر رسلاً وننزِّل عليهم كتباً، كلَّما دعت الحاجةُ إلى ذلك، ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ بالخلق، ونعمةً منه عليهم؛ لتكملَ بذلك غرائزهم ومواهبهم المعدَّة للكمال، وتتمَّ مصالحهم على أحسن حال، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ ﴾ يعلم ما يحتاجونه، فيُنزل تعاليمه بمقتضى احتياجهم، وقد نزَّلهم مَنزِلةَ من طلب ما يُصلِحُه فسُمِعَ وأجيب. ويجوز أن يكون في الفاصلة ترغيب وترهيب، أي: يعلم أمْرَ من يمتثل أو يخالف ويسمع أقوالهم. وعلى كلٍّ، فهو وَصْفٌ لتحقيق ربوبيته تعالى.

ثم أكمل هذا الوصف بإعادة ذكر الربوبيَّة المتضمِّنة لمعنى التربية والإرشاد،

= لا ينبغي الخلط بين أصول العقائد التي يُشترط فيها التواتر، وفروعها التي يكتفى فيها بالخبر الصحيح.

ليكون في موضع التعليل لمضمون ما سبق، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧﴾ أي: إن كنتم مُريدين لليقين. يحُقِّق بذلك ربوبيَّته ويُقرِّرها بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾[1].

﴿بَل هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓۚ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾.

ثمَّ أجرى الكلام على المعارضين وأضرَبَ عن هذا البيان والتحقيق إلى بيان شكِّهم في ذلك رغماً عن جلائه ووضوحه، فقال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ مما ذكر من شؤونه تعالى واختصاصه بالألوهية، وهم ﴿يَلۡعَبُونَ ٩﴾ في فهمهم لهذا الأمر لعباً؛ لأنهم لا يعلمون عن الله حقَّ العلم، ولذلك يشركون به غيره. أو: هم يلعبون في أمر الأديان، فيثبتون لهم ديناً لا يرتكز على عقل ولا نقل ولا تفكير. والمراد: أنهم لاهونَ ساهُون.

ثم توعَّدهم على ذلك بقوله: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحيط بهم، ويقال فيه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١﴾، وفي هذا التعبير تصويرٌ لزيادة شدَّة ذلك العذاب.

---

(١) أي: لا معبودَ بحقٍّ يستحقُّ أن يُعبَدَ إلا ربُّ السماوات والأرض وما بينهما، يُحيي سائر الأحياء ويُميتُهم، هو ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين الذين سَلَفوا في تاريخ البشريَّة من آدم جدِّكم الأول، وأنتم وآباؤكم موضوعون في الحياة الدنيا موضعَ الامتحان، والمطلوب منكم جميعاً في رحلة امتحانكم أن تعبدوا ربَّكم بالإيمان والإسلام والطاعة والانقياد.

والمعنى ـ كما نقل عن ابن مسعود[١] ومقاتل[٢] ومجاهد، واختاره الفرَّاء[٣] والزجّاج[٤] ـ: ارتَقِبْ يا محمد يومَ شدّة ومجاعة يأتي عليهم. لأنَّ العرب تُسمِّي الشرَّ الغالب دخاناً، ونَسَبَه إلى السماء؛ لأنه أتى من قلَّة المطر[٥].

وقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: إنا سنؤمن إنْ كشفتَ عنا العذاب.

فكذَّبهم الله في وعدهم هذا، مشيراً على أنَّ هذا الاتِّعاظ والتذكير وقتيٌّ، اعتراهم من الداهية، وهو غير ثابت فيهم، فقال: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين لهم ذلك التذكير الحقيقي والإيمان الصحيح، ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكير وموجبات الاتِّعاظ أسماها، حيث جاءهم رسولٌ عظيمُ الشأن، وبيَّن لهم مناهجَ الحق.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ أي: تارةً قالوا: مُعلَّمٌ يُعلِّمه غلام أعجمي لبعض ثقيف، وتارةً قالوا: إنه مجنون، أي: له تابع من الجن يُعلِّمه، كما يعتقدون مثل

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٨٢٤)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٢) «تفسير الرازي» (٢٧:٦٥٦).

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٣:٣٩).

(٤) «معاني القرآن» للزجاج (٤:٤٢٤).

(٥) لكن ثبت في «صحيح البخاري» (٤٧٧٤) و(٤٨٢١-٤٨٢٤)، و«صحيح مسلم (٢٧٩٨) عن ابن مسعود في هذه القصة: «فأخذتهم سَنَةٌ حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعِظام، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان»، زاد في رواية: «من الجهد»، وفي أخرى: «من الجوع»، فهذا يدلُّ على أنّ الدخان هو دخان متخيَّل متوهَّم من شدّة الجهد، وليس هو كناية عن الشر.

ذلك في كهَّانهم. أو أنَّ الذي يراه ويسمعه إنما هو صورة أخيلته وهواجسه. وربما كانوا يريدون بوَصْمِه بالجنون ـ على علمهم بكمال عقله ـ أن يَصُدُّوا عنه من لا يعرفه من القبائل الوافدة في موسم الحج. وعلى كلٍّ، فهل يتوقع ممَّن هذه صفتُهم وهذه حالُهم أن يؤمنوا إيماناً صحيحاً؟ كلا، وإنما هو تأثُّر وقتيٌّ من عروض الداهية، يزول بزوالها.

ثم أجاب دعاءهم بعد استبعاد إيمانهم، إجابةً لإقامة الحُجَّة عليهم، فقال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾، ثم ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ ويظهر كَذِبكم في ادِّعائكم الإيمان.

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ لمزيد التوبيخ، أي: إنكم ستعودون إلى شرككم بعد كشف هذا العذاب عنكم، ونُجازيكم عليه جزاءً شديداً، وذلك ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ﴾ بكم ﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ في الآخرة، أو يومَ بدرٍ فننتقم منكم، ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: من سُنَّة الله تعالى في مُعارضي الرسل إذا طلبوا شيئاً وعلّقوا إيمانهم عليه، فأعطاهم ولم يؤمنوا؛ أن يستأصلهم بعذاب، وقد خاب من استعلى.

والانتقام لغة: مُجَرَّد العقوبة، ويطلق في عرف التخاطب على العقوبة مع التشفِّي، وذلك محال على الله سبحانه، فلا يجوز أن يفسَّر الانتقام الوارد في القرآن عن الله سبحانه وتعالى بهذا المعنى، وإنما يفسَّر بمعناه اللغوي، وهو مجرَّد العقوبة.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا

قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى أنَّ معارضة الأمم لرسلها من سُنَّة الله في أخلاق مُخْتلِّي الطباع من البشر، الذين أفسدوا فِطَرَهم بسُوء التربية وجمود التقليد الأعمى، وأيَّد ذلك بتاريخ الأمم الماضية، تسليةً له ﷺ ووعيداً لهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي: اختبَرْنا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ يدعوهم إلى الله، وطلبَ منهم ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي: أطلِقُوا لي بني إسرائيل من العذاب والأسْر، وأرسِلوهم معي لِنَعبُدَ اللهَ وحده. ويجوز أن يكون المعنى: أدُّوا إليَّ حقَّ الله من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله؛ يريد: قوم فرعون.

ثم أيَّد دعوتَه إياهم إلى الله بقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

ثم عطف على قوله ﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ ـ الذي هو من مُتمِّمات الدعوة إلى الله ـ قولَه: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بالاستهانة بوحيه وبرسوله.

ثم أيَّد الدعوة بقوله: ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ أي: بحُجَّة واضحة على صدقي في دعوى الرسالة، لا سبيلَ إلى إنكارها. وقوله: ﴿ءَاتِيكُمْ﴾: يجوز أن يكون مضارعاً أو اسمَ فاعل.

ثم حكى سبحانه وتعالى عنه كيف تكفَّف شرَّهم بعد أن رأى منهم شدَّة الإعراض والوعيد، فقال: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ﴾ أي: التَجَأتُ إليه وتوكَّلتُ عليه من ﴿أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: مِن أن تُؤذوني قولاً أو فعلاً، ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ أي: وإنْ لم تُصَدِّقوا برسالتي فاتركوني وشأني، واعتزلوا عنّي، ولا تَتعرَّضوا لي بشرّ.

ولكنهم أبَوْا إلا المعارضة والأذى، حتى يئس منهم، ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فأجاب الله دعاءه وأمره أن يُنفِّذَ الخطة الآتية، وقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يتَّبعكم فرعونُ وجنودُه حين يعلمون بخروجكم من مصر، فأسْرِ ولا تزل سائراً حتى تأتي البحر، فاضرِبْه بعَصاك ينفتح منه طريقٌ يابس، وهو واسع، فادخله حتى تقطعَه، ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ مفتوحاً لا تضربه بعصاك. والرّهو: وَصْفٌ من قولهم: عيشٌ راهٍ وثوبٌ راهٍ، بمعنى: واسع. ويقال أيضاً: ثوبٌ رَهْو، بهذا المعنى. أي: اترُكْه على حاله ذا طريق واسع راهٍ يخدع فرعونَ وجندَه، فيدخلون فينبطق عليهم، ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أنَّبهم تأنيبَ تنديم، ونَعَى عليهم، فقال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: محافلَ منظَّمة، ومنازلَ عامرةٍ مزخرفة، ومراكزَ عاليةٍ مُفَخَّمة، ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: مُنعَّمين.

ثم فصَل الكلام بهذا الفاصل، للمبالغة في التحسيس، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كذلك كان أمرُ فرعون وقومه، أو كذلك أفعلُ بمَنْ عارَضَني وعصاني.

ثم عطف على قوله: ﴿تَرَكُوا۟ ..﴾ قولَه: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وأورثنا تلك الجنَّاتِ والعيونَ والزروع والمحافل والمنازل العامرة والمراكز العالية في أرض مصر، أورثناها من بعد فرعونَ وقومِه لبني إسرائيل؛ لكفر أولئك وإيمان هؤلاء.

وقيل: المراد بالقوم الآخرين: غير بني إسرائيل، لأنَّ بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها، ويجوز أن قد بقي منهم بقية في مصر بعد خروج موسى ببعضهم، وهو الأصحّ. والله أعلم.

ثم أضاف إلى تأنيبهم: الحطَّ من شأنهم، وقال: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وهذه الجملة مَجازٌ عن عدم الاكتراث بهم وبهلاكهم.

ثم زاد الأمر تهويلاً بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم يُمْهَلوا حين جاء وَعْدُ عذابهم. والمراد: تخويف مُشْركي قريش بأن لا يَغْتَرُّوا بهذا الإمهال الذي يُمهِلُهم الله به إلى حين مجيء وعيده، وحينئذ لم يُنظَروا.

ثم ذكر ما كان من أمر المؤمنين من بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ﴾ حيث استعبدهم، وقتل أبناءهم، واستَحْيَى نساءهم، على الخَسْف والضَّيْم، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: مُتَجبِّراً مُسْرِفاً في الظلم والاعتساف.

ثم نوَّه بشأن بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ لهذا الأمر من بين أهل ذلك الزمن ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منا بحالهم واستحقاقهم التفضيل والاختيار ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ قال قتادة والحسن ومجاهد: أي: على عالَمي زمانهم[1].

أقول: أي: على أهل زمانهم ومعاصريهم، كما اختار العرب لإنزال القرآن. واختيار بني إسرائيل لهذا الأمر، إما لأنهم أمْيَز ذلك العالم الفاسد[2]، أو لأنَّ الله سبحانه أراد أن يَمُنَّ عليهم ويُنجِّيهم من ظلم فرعون. والذُّل والضيمُ يُؤهِّل النفوس لطلب التخلُّص والسَّعي وراءه[3].

ثم بيَّن تعالى ما اختارهم له، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي: اختبارٌ ظاهر لينظر كيف يعملون، ويتميَّز بها المُصلِحون والمُفسِدون.

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» قول قتادة ومجاهد ـ بمعناه ـ (٢٢: ٣٧).

(٢) لأنهم كانوا مؤمنين وسواهم أغلبهم وثنيون.

(٣) ولكن بني إسرائيل لـمّا خالفوا واختلفوا ـ كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٧] ـ غضب سبحانه عليهم، كما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وهذه الآية تُؤذن بأنَّ شريعتهم كانت مشدَّدة، كما يُؤْذن به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقيل: المراد بالآيات: النِّعَمُ والمِنَنُ العظيمة، اختبرهم بها فكفروها، مثل الخلاص من فرعون، وفَلْق البحر، وتظليل الغمام، والمنّ والسلوى.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ الاستشهاد على سُنَّة الله في معارضة الأمم لرسلهم، باستطراد تاريخ موسى وفرعون وقومهما، عاد إلى أصل البحث، وهو الكلام عن مُشْركي قريش، وحكى إنكارهم للبعث، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ[1] وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾[2]، ويَسْتندون في إنكار البعث بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾، يقولون ذلك لِجاجاً وعِناداً، ولم يفكِّروا بما ساقه الله لهم من الأدلة العقليَّة على صحَّة البعث والنُّشور، وجهلوا أنَّ البعث والنشور لا يكون إلا عاماً للبشر كلِّهم في وقت واحد، بعد انتهاء أمد هذا العالم، حسب سُنَّة الله في ذلك، لأن في

---

(١) الأول عند العرب هو ما يحصلُ أولاً، وربما لا يكون له ثان، كما تقول: هذا أولُ ما كسبتُه اليوم، وقد لا تكسب شيئاً بعده. فمرادُهم مما هنا: هو مرادُهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

(٢) أي: مبعوثين أحياء من القبور، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢] أي: أحياه يوم القيامة. والعرب تقول: أنشره ونشره؛ بمعنى واحد.

طبيعة زمن الحشر خاصَّةَ إحياءِ الأموات، كما أن في طبيعة زمن الربيع خاصَّة إحياء النبات، ولا توجد هذا الخاصة في بقية الأزمان[١].

وقد تَوعَّدهم سبحانه وتعالى على هذا التَّعنُّت بما جرى على أمثالهم السابقين، وسَبَك الكلام على تفوُّق أولئك عليهم بالقوة والمدنية، زيادةً في الترهيب لهؤلاء، فقال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والـمَنَعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ[٢] وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ والمراد بهم: عاد وثمود وأضرابهم، ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بما ظلموا وأصرُّوا على مُعارَضة أنبيائهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ مِثلَهم، فَلْيعلم هؤلاء أنَّ مصيرهم ـ إنْ أصرُّوا ـ مصيرُ أولئك.

ثم ذكر دليل قدرته تحقيقاً لهذا التهديد، وأدمَجَ فيه أنه تعالى لم يخلق تلك العظائم عبثاً، يومئ إلى أنَّ وراءها امتداداً، بعثاً وحساباً، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ما خلقنا هذا الخلق العظيم سُدًى، ولكنه أمرٌ له ما بعده، ولم نخلق البشر بهذا الخلق العجيب لينتهيَ أمرُه بالموت والفناء كالحيوان، كما قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥].

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للغرَض[٣] الصحيح والأمر الحق، ولمقاصدَ

---

(١) الطبيعة والزمان لا تأثير لهما، وإنما التأثير لله تعالى وحده، كما تقدم التنبيه إليه مراراً. إلا إذا حُمل كلام المؤلف على المجاز كما يقال: أنبت الربيعُ البقلَ. والمُنْبت على الحقيقة هو الله. والأَوْلى تجنُّب الألفاظ الموهمة. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١: ٤٣٩).

(٢) تُبَّع: أحدُ ملوك اليمن، وكان معروفاً عند أهل مكة ما حصل لقومه، وكان رجلاً صالحاً، وهو الأكبر، واسمه أسعد، وهو أبو كرب، من بني حِميَر اليمانية. والاسم وزنه: فُعَّل، مبالغةٌ في اسم الفاعل المشتقّ من مصدر: تَبِعَ، سُمِّي به العظيمُ من ملوك اليمن لتوكيد المبالغة، وأصله «تُبَيِّع» أُدغِمَت الياء الأولى في الثانية.

(٣) الغرض باعثٌ على الفعل داعٍ له، فينافي كمال الإرادة، ولذا يمتنع تعليل أفعال الله بالأغراض، وإنما ترتبط بالحِكَم، لأن الحكمة تابعة للفعل مرتبة عليه.

نبيلة، وغاياتٍ جليلة، وهي البعث والنشور وما نعدكم به ونتوعَّدكم عليه في ذلك اليوم المأثور، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فلا ينظرون هذا النظر، ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]، كلا، ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وهو يوم القيامة والحساب، يوم الفَصْل فيه بين العباد. وفي كلمة ﴿الْفَصْلِ﴾ توعُّد لهم على إنكارهم، تمَّمه بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ أي: لا يُغْني مُوالٍ عن مُوالٍ، ولا قريبٌ عن قريبٍ شيئاً، ولا يدفع عنه أمراً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ فلا يُرجى لهم نجاة، ولا ينجو من عذاب الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ فآمن وعمل صالحاً يرضاه الله، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يَنصُرُ من أراد تعذيبه، ﴿الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ بعباده، يهديهم إلى طريق الفلاح والنجاة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

ثم ذكر شيئاً من صُورة ذلك العذاب وهَوْله، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ وقد بيَّنها سبحانه وتعالى في سُورة الصَّافَّات بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٥]، وهي ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ذي الإثم الكبير، وهو الكفر وما يلحق به.

ثم ذكر شدَّة أثر ذلك الطعام وهَـوْله، فقال: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو عكر الزيت، وقيل: النحاس المُذاب، ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ وهو الماء فوق درجة الغليان.

ويقال للزبانية: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: فجُرُّوه بقهر وعنف ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ أي: وَسَطِه وغَمْرته، ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾، وقولوا له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ زيادةً في التأليم والتقريع، واستهزاءً بما كان يزعمه في نفسه من العزَّة والكرامة في دار الدنيا.

وللمبالغة في التأنيب والتنديم، ويقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: تشكُّون به وتكذِّبونه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون.

ومن مباحث اللفظ: الوقف على ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾، فهو يدلُّ أنهما جملتان؛ الأولى محذوفة الخبر على طريقة إيجاز القرآن، والتقدير: إنَّ شجرة الزقوم هَوْلٌ عظيم. والثانية: محذوفة المبتدأ، أي: وهي ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾، ويدلُّ على أنَّ الأوقاف في القرآن توقيفية تُؤخَذُ عن الرسول ﷺ.

ثم قابل حالهم بحالِ المؤمنين، زيادةً في تحسيسهم وإيقاظهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ[1] ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ والسُّندُس: ما رقَّ من الحرير، والإستبرق: ما غَلُظ منه.

ثم ذكر وضعيَّتهم في مجالسهم، فقال: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ليزدادوا أُنساً وصفاءً.

---

(١) أي: إنَّ المتَّقينَ المُمتثلين أوامرَ الله والمُجْتَنبين نواهيَه في مكان إقامةٍ أمين، يأمنون فيه على أنفسهم من الآفات والمكاره، في جنّاتٍ كثيراتٍ يُنعَّمُون فيها، وعيونٍ من الماء جارية تحت الأشجار والقصور.

ثم فصَّل الكلام وخلَّله بما يُقرِّره ويُؤكِّده، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك[١]. ثم تابع البيان عنهم، فقال: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ والحور: جمع حَوْراء، وهي شديدةُ سواد العين وبياضها. والعِين: جمع عَيناء، وهي الواسعة العين.

ثم تابع البيان، فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه، لا يختصُّ شيءٌ منها بزمان ولا مكان ﴿ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ من كلِّ ما يَسُوؤهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قال الزَّجَّاج: معناه: سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا[٢]. فهذا الاستثناء على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، فإنَّ المعنى: سوى ما قد سلف. وقال البيضاوي: الاستثناء للمبالغة في تعميم النفي[٣].

أقول: ويجوز أن تكون الآية إيماءً إلى ما ينال أهل النار من تعدُّد الموت عليهم من شدَّة العذاب، وتَعدُّد إحيائهم ليذوقوا العذاب[٤]، المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا

---

(١) أي: كما أكرَمْناهم بما وَصَفْنا من الجنات والعيون واللباس، كذلك أكرَمْناهم بأنْ زوَّجْناهم بحُورٍ يحار الطَّرْف من بياضِهنَّ وصفاء لونهنَّ وسَعَةِ أعيُنهنّ.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٢٨).

(٣) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥: ١٠٤).

(٤) لم يثبت هذا! ومن العجب أن المؤلف يتابع الشيخ محمد عبده في رفض بعض الغيبيات لعدم ورودها في نص متواتر، مع ورودها في خبر آحاد صحيح، وهي من فروع العقائد، ثم يأتي لقضايا عقدية أخرى كهذه، فيُثبتها بلا دليل جلي عليها! وتبديل الجلود لا يدل على الإماتة والإحياء.

﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، لذلك قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم امتنَّ سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أُعطُوا ذلك كلَّه عطاءً وتفضُّلاً منه تعالى.

ثم نوَّه بشأنه، فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ الذي لا فوز وراءه؛ لأنه نجاةٌ من شقاءٍ ليس وراءه شقاء، ونَيْلٌ لسعادة ليس وراءها سعادة، فأيُّ فوز أعظم من ذلك! اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثم ختم السورة ببيان مِنَّته على رسوله والمؤمنين، وحُجَّته على المشركين المتمرِّدين، بإنزال هذا القرآن المُرْشِد لهذا الخير العظيم، والمُوقي من شقاء الجحيم، وقد أنزله بلغتهم ليَسهُلَ لهم فهمه، ويكون حُجَّة عليهم، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: أنزلناه بلغتك، وهي العربية؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ويفهمون عنه أحوال الآخرة، وما يُؤدِّي إلى نعيمها وشقائها، فيرتدعوا عمَّا هم عليه من أسباب الشقاء في الدنيا والأُخرى.

فإن لم يفعلوا ذلك ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ ما يحلُّ بهم من عذاب الدنيا قبل عذاب الأُخرى. وحينئذ يخيب فَأْلُهم في ترقُّبهم أن تدور الدوائر عليك، ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ذلك فيك. فقد كان مُشرِكو قريش يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ستظلُّ في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقي حتفه، عاجلاً أو آجلاً، تلاشَتْ دعوتُه وتفرَّق أصحابُه وعادوا إلى دينهم، هذا ما كانوا يعتقدون، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* * *

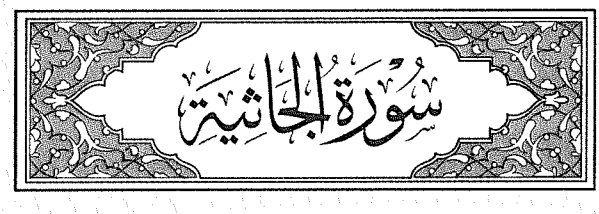

مكية، وهي سبع وثلاثون آية، وقيل: ست وثلاثون

والغرض منها:

الدعوة إلى التوحيد، لاختصاصه سبحانه بأفعال الألوهية وصفاتها، وإلى الإيمان بالبعث والحساب، والرد على مَنْ ينكر ذلك ويشرك بالله، ومقارعته تارةً بالدليل، وتارةً بالترهيب والترهيب، على نهج القرآن في مثل ذلك.

فشأن هذه السورة شأن ما قبلها وما بعدها من السور التي ابتدأت بالأحرف اهتماماً بموضوعاتها هذه، ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾، والتعرُّض لصفة العزَّة إيذانٌ بلزوم تنفيذ أوامر هذا الكتاب ونواهيه، بتحقُّق إنجاز الجزاء المقرَّر لهما فيه، أما التعرُّض لصفة الحكمة فللإيذان بظهور أثرها في الأحكام التي جاءت فيه، والإرشاد الذي منه قوله: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ أي: في وضعها وشكلها وعوالمها المختلفة من جماد ونبات وحيوان، ولكلٍّ منها نظام عجيب وسنن إلهيَّة مُطَّردة في تكوينها وتوالُدِ ما يتوالد من أحيائها، وغير ذلك من العجائب التي تُبهِرُ عقولَ المتخصِّصين من أرباب العلوم والفنون.

وإنما خصَّ المؤمنين بالذِّكر؛ لأنَّ المؤمن تجعله عقيدةُ الإيمان مُستعداً للنظر والتدقيق في آثار الله وعِظَم شأنه.

والمعنى: إن في كلِّ ذلك دلالةً واضحة على استحقاقه تعالى أن يُعبَدَ وحده، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿فِي خَلْقِكُمْ﴾ العجيب ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ في الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ وفي البدائع والحِكَم التي يخلقها عليها ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ والإيقان: الإيمان الراسخ بعلم يقين. أما غير الموقنين بالإيمان فـ﴿كَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[يوسف: ١٠٥].

﴿وَ﴾ كذلك في ﴿ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الناتج عن إبداع النظام الشمسي، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ أي: من مطر ناتج من نظام البحار ونظام البخار، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأخرج منها أصناف الزروع والنبات والثمرات، بعد أن كانت يابسة قاحلة، ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بنظامٍ عجيب له أثر عظيم في الحالات الجوية والحياتية، في كلِّ ذلك ﴿ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥﴾ لأنه هم الذين يفقهون عَظَمة تلك الأمور، أما غيرهم فلا ينظرون في مساتير الطبيعة وعَظَمتها، ولا يعلمون عنها إلا كما يعلم الحيوان الأعجم عمَّا حوله، فيمرُّون عليها مرورَ الأنعام في مَسَارحها، وذلك لإفسادهم لطبيعتهم. أما العقلاء فيرون في كل شيء له آية تدلُّ على أنه واحدٌ أحدٌ فردٌ صَمَد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤].

ثم ختم السياق بالإنكار على المُعرضين المعاندين الذين لا يتدبَّرون هذه الآيات، وهذا الذكر الحكيم، فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا يقبل الشك ولا الإنكار ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾؟! يُجهِّلهم بالإعراض عنها، ثم يتوعَّدهم بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ عن

الإيمانِ بما سمعه، والإذعانِ لِـمَا تنطق به من الحق، مُزْدرياً لها مُعْجَباً بما عنده من الأباطيل، فيُـعرِضُ عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، ثم كرَّر الوعيد بعبارة تـتضمَّن المبالغة في التحسيس به، وقال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾، والبشارة: هي الإخبار بشيء تتأثَّر به بِشْرة الوجه سروراً أو حزناً، وقيل: بل هي خاصَّة بما يَسُرّ، واستعمالُها بما يُحزن استعارةٌ تهكّمية مُؤْلمة، جيءَ بها للمبالغة في التحسيس.

ثم ذكر لهذا الأفَّاك قبيحةً أخرى، فقال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا﴾ يمكن أن يَتشبَّث به المُعانِد، ويجد له مُحْملاً فاسداً يتوصَّل به إلى الطعن والغمز؛ ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ أي: تلك الآيات ﴿هُزُوًا﴾، فسَجَّل عليه بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الصنف ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾ لإهانتهم آيات الله، و﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾[1]، وقد بالغ في تيئيسهم من النجاة مُتهكِّماً بهم بقوله: ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟﴾ من الأموال والأولاد ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذاب الله تعالى، ﴿وَلَا﴾ يغنيهم شيئاً كذلك ﴿مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾، بل هم خالدون في جهنم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾ لن يجدوا من دونه مَوْئلاً.

ثم ختم السياق بقوله: ﴿هَـٰذَا هُدًى﴾ أي: هذا البيان أو هذا القرآن: هو في غاية كمال الهداية، يُفلح من تـمسَّك به، ﴿وَ﴾ لكن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ لا يهتدون به، وقد أقام مقامَ عدم الهداية جزاءَه، فقال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾ والرِّجْز: أشدُّ العذاب.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾.

ثم أردف هذا الوعيد بدليل قدرته، تحقيقاً له، وتأييداً للقدرة على إنجازه،

---

(١) أي: من أمام هؤلاء المستهزئين بأيام الله جهنم تنتظرهم.

وعَوْداً للاستدلال على صفاته العليَّة بجلائل أعماله، وأدمَجَ فيه عظائمَ منَّته، تقريعاً لهم، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ حيث خلق فيه طبيعة حَمْل الأثقال، إذا كانت على وضع خاص؛ ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة وغيرها، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ نِعَمَ الله عليكم بطاعتكم وانقيادكم له.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الشمس والقمر والرياح والسحاب وغيرها، ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات والمحصولات ﴿جَمِيعًا﴾ مِنّةً ﴿مِّنْهُ﴾ تعالى عليكم، حيثُ جعلها مداراً لمنافعكم؛ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ في بدائع صُنع الله، ويقفون على جلائل نِعَمِه، ويعلمون أنه وحده مستحقٌّ لأن يُعبَد.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد هذا السياق الذي عدَّد فيه على المشركين قبائحَهم وهزَّأهم بالآيات، ذلك الهزؤ الذي يُؤْلم المؤمنين، ويُحنِّقهم عليهم، أردَفَه بما يُسلِّيهم ويُرشدهم أن يعاملوا المشركين بالعفو والصَّفح الذي يليق بإيمانهم وكمال أرواحهم وأخلاقهم، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[1] أي: يسامحوهم إذا نالوهم بأذى. وفي أمره تعالى لهم بذلك إشارةٌ إلى أن المؤمنين ـ على قلّتهم ـ هم أصحاب القدرة والشوكة، وإيذانٌ بأنَّ أهل الحق هم المُؤيَّدون بالعناية الإلهية.

---

(١) أي: لا يتوقعون مجيء أيام الله الجزائيّة ووقائعه بأعدائه، مثل المصائب التي أنزلها سبحانه بالأمم قبلهم، كما قال سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]. والعربُ تُطلِقُ الأيام على الحوادث الجسام التي وقعت فيها، فيُقال: أيام العرب في الجاهلية، أي: حروب العرب في الجاهلية.

وفي قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى أنهم لا يمنعهم عن الشرِّ مانع؛ لأنهم لا يعتقدون بالحشر والحساب، وأنهم سينالون جزاءهم الهائل في ذلك اليوم، كما صرَّح به بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ والتنكير للتعميم، أي: ليجزي الأقوام بما كانوا يكسبون.

ثم ذكر جزاء ذلك اليوم، بعبارة عامة ومُجمَلة، فيها تسليةٌ للمؤمنين وتأنيسٌ، فال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ ثوابُ عملِه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ عقابُ عملِه، ولا يَسْري جزاءُ عمل إلى غير عامله، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ فتُجْزَون خيراً أو شراً بحسب هذا القانون.

ويجوز أن يتعلق ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بـ﴿يَرْجُونَ﴾، ويكون المعنى: قل للذين آمنوا يغفروا للمشركين الذين لا يعتقدون بأيام الله التي يجازي فيها العباد، ثم قرَّر جزاء ذلك اليوم وبيَّنه بقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ...﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وبعد هذا السياق، ذكر سبحانه بني إسرائيل، وكيف أنعَمَ عليهم بنِعَم كثيرة

دينية ودنيوية، وكيف بيَّن لهم الدين ببيانات ظاهرة وبراهين باهرة، فاختلفوا رغم ذلك بغياً بينهم، ذكر ذلك إعلاماً بأن أمر هؤلاء المشركين في هذا الدين كأمر أولئك، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ قال قتادة والحسن ومجاهد: أي: على عالمي زمانهم[1].

أقول: بمعنى: اخترناهم من بين أهل زمانهم لهذه الكرامة المبيَّنة بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: دلائلَ ظاهرةً في أمر الدين ومعجزاتٍ باهرةً، ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾ فيه ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقته، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف مُوجباً لرسوخه، أو ما يُوجب الوفاق سبباً للخلاف، ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: عداوةً وحسداً، لا شكاً فيه. والمراد من هذا الحصر: الاستغراب والمبالغة في النقد على هذا الاختلاف، بمعنى: أنهم اختلفوا بعد أن علموا حقيقة الأمر وحقيَّته، وأنَّ الاختلاف فيه ضلال ولكنهم ـ رغماً عن ذلك ـ اختلفوا فيه وتفرقوا بغياً وحسداً، وطلباً للرئاسة. فقد كان الرؤساء يَتَصدَّون لتغيير بعض معالم الدين حسب أهوائهم وأغراضهم، فيجعلون لهم مذهباً في الدين خالصاً؛ ليكون لهم أتباع يختصُّون بهم ويتكتَّلون حولهم، وتكون لهؤلاء الرؤساء السيادة عليهم والرئاسة فيهم، فتوعَّدهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ في أمر الأديان لمصالح الدنيا وحُطامها الفاني.

ولما كان هذا البيان يتضمَّن اختلال شريعتهم بهذا التلاعب فيها، واحتياج البشر إلى شريعة جديدة تقوم مقامها، ذكر ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾، وأتى بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ إيذاناً بعُلوِّها ووضوحها، أي: طريقة واضحة جلية، ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ ويقولون: كيف جاء بشريعة مغايرة

---

(١) سلف الإحالة عليه (٢: ٩١).

لشريعة موسى؟ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ مما يريد بك إن اتَّبعتَهم، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لا يواليهم ولا يتَّبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم، ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ الذين أنت قدوتهم، فدُمْ على ما أنت عليه من تَوَلِّيه وحده والإعراض عمَّا سواه، ولا تَرْهَب غيره، فلن يَضُرُّك إلا بإذن الله.

وهذا النَّهيُ ليس على حقيقته؛ لأنه لا يُتصوَّر منه ﷺ أن يتَّبع أهواءهم، ولكنه لون من ألوان شدَّة البيان في أساليب القرآن، أو هو نهيٌ للأمة في شخص النبي ﷺ، كما يقال للرئيس: إن فعلتَ كذا كان كذا، والمراد: إن فَعَلَتْه أُمتُك أو قبيلتك أو جندك. ومثل ذلك من خصائص اللغة وجاري العرف. ويجوز أن يكون هذا الكلام لمجرَّد التنويه بأمر هذا القرآن، وأنه هو الشريعة الوحيدة، وما عداه أهواء للذين لا يعلمون.

ثم نوَّه بشأن السياق وقَدْره بقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1].

ثم توعَّد الظالمين، وضمَّنه إثباتَ الحشر والحساب، وبَنَاه على المباينة بينهم وبين المتَّقين، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: اكتسبوا الآثام والأعمال السيِّئة ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بمعنى: أيظنُّون أن يستووا في الممات، كما استووا في الحياة، ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

---

(١) أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك ـ يا رسول الله ـ معالمُ للناس في الحدود والأحكام، يشتمل على حُجَج وبراهين، تكشفُ الحقَّ وتُثبتُه، وتكشفُ الباطل وتزهقُه، وهُدىً من الضلالة، ورحمةٌ من الله لقوم لديهم الاستِعدادُ لأن يَستَبصِروا بما جاء في كتاب الله، ويُوقنوا بالحقِّ الذي جاء فيه.

(٢) يجوز أن تكون الآية إنكاراً لِمَا يعتقدونه من أنهم يتقرَّبون بعملهم إلى الله، وأنهم يُحسِنون صنعاً، ومرضيون عند الله، مستدلِّين بما يمدهم به من مال وبنين، وقد رد ذلك بما يلزم من حسبانهم =

كيف ﴿وَ﴾ قد ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: للغَرَض[1] الصحيح والأمر الحق المُسْتَتْبع للغايات الجليلة والمقاصد النبيلة، ولم يكن خَلْقُهما عبثاً ولا سُدىً، وإنما هو أمرٌ له ما بعده من الحشر والحساب؛ ليرى كلُّ عامل عَمَلَه، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم شرح بعض سيِّئاتهم وضلالهم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: اتَّخذ له معبوداً بحسب هواه، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: مع عِلمِه الفطري الوجداني بأنَّ ما يعبده لا يُغْني عنه من الله شيئاً، ولكنه لا زال يعالج غريزته ويفسد طبيعته، حتى مال إلى صحَّة عبادة ما يُعبَدُ من دون الله، واقتنع بذلك، ﴿وَخَتَمَ﴾ الله ﴿عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، وذلك بحكم سُنَّة الله في طبيعة الإنسان وجِبلَّته، فإنه إذا تشبَّع بأمر وانطبع عليه لا يميل إلى ضدِّه أبداً، ولا يُقلع عنه ولا يسمع ما يخالفه وإن كان حقاً واضحاً، ويلتمس له التأويلات والمُفنِّدات، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: مَنْ يهديه

= هذا، من نسبة التهويش والتخليط إلى الله. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومحصله: أن مثل هذا لا يصدر عمن خلق السماوات والأرض بالحق، والنظام العدل، وكل شيء عنده بمقدار، وكيف يجعل المسيء كالمحسن، مماته كمحياه، ساء ما يحكمون. (المؤلف).

(١) تقدَّم في التعليق على الآية ٣٩ من سورة الدخان ـ وفي مواضع أخرى كثيرة ـ بيانُ أن أفعال الله تعالى لا تُعلَّل بالأغراض، وإنما ترتبط بالحِكَم ينظر على سبيل المثال (٤: ٤٤٥).

بعد أن تعمل فيه سنة الله عَمَلَها هذا؟ أو المعنى: فهل من هدى غير هدى الله؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1] ذلك؟

وفي إسناد الإضلال والختم إلى الله تعالى تجوُّز، يُراد به عملُ سُنن الله العامة في أخلاق الإنسان وطبائعه، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم حكى لهم ضلالاً آخر في إنكار البعث، كان عقيدةَ الدهريِّين منهم، فقال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي: يموت بعضنا ويحيا بعضنا، بمعنى: تُولَدُ الأبناءُ وتموتُ الأجداد، وهكذا دواليك: أرحام تدفع وأرض تبلع، لا نهاية لذلك، ولا حَشْرَ ولا نَشْرَ ولا حياةَ أُخرى، وإنما هي هذه الحياة الدنيا فقط، نحيا فيها مدَّة العمر، وينتهي الأمر بانتهائه، ولا شيء وراءه، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[2] أي: مرورُ الزمن وأعراضُه وحوادثه من الأمراض والقتل وغيرها.

---

(١) ومعنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص٥٠١: أُنظُرْ بتفكير وإمعانِ نَظَرٍ ـ يا صاحبَ الرأي والفِكر ـ لترى من اتَّخذَ معبودَه في الحياة الدنيا هواه، فهو يُوجِّه كلَّ حركاتِ حياته لِـمَا تميلُ إليه نفسُه، كتوجُّه العابد لمعبوده، وحَكَمَ اللهُ عليه بالضلال حكماً مبنيّاً على عِلم بحاله؛ إذِ اختار لنفسه الضلال على الهدى، وسدَّ على مَنافِذِ سَمْعِه وقلبه سدّاً مانعاً من دخول الهداية إليهما؛ نتيجةَ اختياره الحرّ؛ ضمن نظام الله التكوينيّ، وجعل على بَصَره غطاءً مانعاً من إدراك أثر رؤية آيات الله في كونه، نتيجة اختياره الحرِّ أيضاً، لا يوجد أحدٌ في الوجود كلِّه يحكم له بالهداية من بعد أن حَكَمَ الله عليه بأنه ضالٌّ بإرادته الحرّة، أفلا تضعون هذه الحقائقَ التي عرضناها عليكم في خزائن معارفكم، وتستدعونها إلى ذاكرتكم عند كلِّ مناسبةٍ تدعو إلى تذكُّرها، لإيقاظ الإيمان بها، والعمل بمقتضاها.

(٢) الإلحاد والإنكار للآخرة: جفافٌ مُؤلم، وفراغٌ مفزع، ومحاربة للطبيعة الإنسانية المفطورة على الشعور بالله والاتكال عليه والأمل فيه، وبدونه تكون في الإنسان هوّة ساحقة لا أمل فيها ولا رجاء. أعاذنا الله. (المؤلف).

فأنكر عليهم هذا الجهل والسَّفَه بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إنهم اعتمدوا في هذا الأمر العظيم على الظنِّ والتخمين، وهو غيبٌ لا يُدرَكُ إلا بالوحي وعلم اليقين.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ في إثباته ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ في معارضتها وإنكارها ﴿إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾[1] وذلك لِفَرْط جهلهم في أن لله سُنناً لا تتغيَّر، ومنها: أن البعث والإحياء لا يكون إلا في أجله المؤجَّل له، وذلك عندما يُبدِّل الله هذا الكون بكون آخر يلائم الحياة الثانية، فيُبعَثون كلُّهم دفعة واحدة، فإنَّ زمن البعث في إحياء الأموات، كزمن الربيع في إحياء النبات، وليس لغيره من الزمان هذا التأثير[2].

لذلك أمر الله سبحانه نبيَّه ﷺ أن يجيبَهم بالدليل، مسبوكاً على ما ذكرنا، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ويُبقيكم إلى أجل معين، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ جميعاً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ذلك الأجل الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مَنْ قَدَرَ على البدء قَدَر على الإعادة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ لقصورهم في النظر والفكر والاستنباط وصحَّة القياس.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ

---

(١) مفاد هذا: ما يقوله الملحدون من العامة: لم نر أحداً خرج من قبره يرقص في كفنه. (المؤلف).

(٢) بل لا تأثير للزمان مطلقاً، لا زمن الربيع في إحياء النبات، ولا زمن البعث في إحياء الأموات، وإنما هو ظرفٌ لوقوع الحوادث بإرادة الله تعالى. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١: ٤٣٩).

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم أردف البيان بدليل قدرته وسلطانه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يتصرَّف فيهما بأمره وقدرته بسنن مطَّردة، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وينجز الوعد والوعيد ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ المنكرون، فيندمون ولاتَ ساعة مندم.

ثم صوَّر هَوْلَ ذلك اليوم، فقال: ﴿وَتَرَىٰ﴾ يومئذ ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ استسلاماً وخشوعاً وانتظاراً للفَصْل في أمرها. ويجوز أن يكون هذا التعبير على حقيقة معناه، أو على المجاز، فيكون تمثيلاً مُنتَزَعاً من حالة المأسورين أو المُعتَقَلين الأذِلّاء. والله أعلم.

ثم ذكر المستند في ذلك الفصل، فقال: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ المُنزَّل على رسولها ليُعرَضَ عليه عَمَلُهم وتصرُّفاتهم[1]، أو المراد: صحائف أعمالها، وجاء هذا التعبير باعتبار العموم، وإن كان لكلِّ فرد صحيفة، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: فلا نغادرُ كبيرة ولا صغيرة إلا كنا نُحصيها عليكم أو لكم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾، و﴿ذَٰلِكَ هُوَ

---

(١) هذا القول حكاه الماوردي في «النكت والعيون» (٥: ٢٦٨)، ونقله عن الجاحظ، وجعله آخر الأقوال؛ إشعاراً بضعفه، وجمهور المفسرين سلفاً وخلفاً على أن المراد: صحائف الأعمال.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ فيُدخِلُهم في عذابه، ويقول لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لكم: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والرحمة والعذاب ﴿حَقٌّ﴾ لا ريب فيه، ﴿وَٱلسَّاعَةُ﴾ حقٌّ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أنكرتُم و﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم صرّح بما حلَّ بهم نتيجةَ إنكارهم المبنيِّ على الظنّ والتخمين، في موضع العلم واليقين، فقال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وعاينوا وخامة عاقبتها، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَ﴾ زيادةً في الإيلام ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ في العقاب ونترككم فيه تَركَ المنسي ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: كما تركتم عُدّته وأسبابه ولم تُبالوا فيه، فأنتم خالدون في العذاب، ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ يُبيِّنُهم من النَّجاة، ويُعلِّل الأمر بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فحَسِبتُم أنْ لا حياة سواها.

ثم أسقطهم عن رتبة الخطاب، وتحدَّث عنهم بطريق الغيبة، إهانةً لهم، وقال: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ولا يُطلَبُ منهم أن يعتبوا ربَّهم ويُرضوه؛ لفوات الأوان.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) أي: فأما الذين آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً، وعملوا الصَّالحات التي تدلُّ على صحَّة إيمانهم، فيُدخِلُهم ربُّهم في رحمته التي من آثارها جنَّته العظيمة، ذلك الدخولُ في الجنَّة هو ـ وحده ـ الظفرُ المطلوب والربحُ الظاهرُ الجليُّ الواضح.

وختم السورة بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على ما أوقفكم على أمور الآخرة لتستعدُّوا لها، وعلى ما أَوْلاكُم من سائر النِّعم، ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فهو مُربِّي الجميع والمستحقّ فيهما لأن يُعْبَدَ وحده.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العَظَمة والجلال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لظهور آثارهما فيهما، فهو العظيم الشأن الذي ليس كمثله شيء، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ الذي لا يُغْلَب على أمره، ويضعُ كلَّ شيء في مَوْضِعه حَسْبَما تقتضيه الحكمة البالغة والمصلحة العامة، لا إله إلا هو.

* * *



مكية، وهي خمس وثلاثون آية

يجادل فيها المشركين، ويردُّ عليهم إنكارهم لهذا القرآن.

ثم يبيِّن حال من أفسد فطرته ولم يؤمن، ومن حافظ على فطرته فآمن، ويتوعَّد الأوَّلين ويؤنِّبهم، ويبالغ في ذلك بذكر إيمان الجن، فما عذر المشركين؟

ثم يذكر دليل قدرته على إنجاز الحشر.

ويُسلِّيه ﷺ على موقفهم هذا ويُهوِّنه عليه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَٰتِ ۖ ائْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: إنها لتنبيه الفكر وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به، ومنه هنا قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ هذا ﴿الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ والتعرُّض لوصفي العزَّة والحكمة للإشارة إلى ظهور آثارهما فيه، فكلُّ ما جاء فيه مبنيٌّ على الحِكَم، ومعارضُه مغلوب.

ثم أيَّد البعث الذي هو من مباحثه وموضوعاته المهمة، وقرَّره بقوله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي جاء في هذا الكتاب تفصيلاً له، أو للغَرَض الصحيح[1] والأمر الحق، وهو البعث والنشور، وفيه إشارة إجمالية إلى أنَّ الآخرة امتدادٌ للأولى، وإنْ تبدَّلت الأرض غير الأرض والسماوات، والله أعلم، وإلى أنَّ تكوين العالم

(١) أفعال الله تعالى لا تُعلَّل بالأغراض، وإنما ترتبط بالحِكَم، كما تقدَّم بيانه مراراً. ينظر على سبيل المثال (٤: ٤٤٥).

وإبداع بني آدم لم يكن عَبَثاً ولا شيئاً سُدىً، وإنما هو مُؤسَّس على قواعد الحكم البالغة المُسْتَتْبعة للغايات الجليلة والمقاصد النبيلة التي ستُحقَّق بعد آماد، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ينتهي إليه أمرُهما الأول بخرابهما، وهو يوم القيامة الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين، يَرَوْنَ حسابهم وينالون جزاءهم، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ به في ذلك اليوم ﴿مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ ومكذِّبون.

فأنَّبهم على تكذيبهم وسَخَّفهم في شركهم، ونَقَضَه عليهم بطريقة هازئة، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أَخَلَقوا شيئاً مما فيها ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وخَلقُ شيءٍ مما فيها؟!

وبعد أن بكَّتهم وأفحَمَهم عقلاً، بكَّتهم وأفحَمَهم نقلاً، فقال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ القرآن؛ مِن الكتب السماوية، ينطق بما تقولون وتفعلون، ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: بقيةٍ من علم يُؤْثر من كتب الأوَّلين.

ويجوز أن يعود هذا الكلام إلى مثل ما يقوله علماء المناظرة: إن كنت ناقلاً فالصحَّة، أو مدَّعياً فالدليل. فيريد بالكتاب: النقل الصحيح، وبالأثارة من العلم: النظر الصحيح؛ لأنَّ الإثبات لا يكون إلا بهما. أي: أثبِتوا ما تقولونه بأحد الطريقين ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ في دعواكم هذه. ومؤدَّى هذا الكلام: إثباتُ جهلهم وسَخافة عقولهم وشناعة ضلالهم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وفي هذه الغاية بلاغة عالية، وذلك لأنَّ طول المدة في النداء ولا مُجيبَ؛ يستوجب الانتباه طبعاً، حتى من البُلْه والحمقى. ففيه زيادةٌ في التبكيت والتسخيف.

ثم ترقَّى إلى ما هو أبلغ، فقال: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ فلا يشعرون به، فَضْلاً عن عدم إجابته.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل يتعدَّاه إلى ما هو أمَرُّ وأنكى، ﴿وَ﴾ ذلك أنه ﴿إِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يوم القيامة للمناقشة والحساب ﴿كَانُوا۟﴾ أي: هؤلاء المعبودون ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء العابدين ﴿أَعْدَآءً﴾ ينقمون عليهم ذلك، ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ لهم ﴿كَٰفِرِينَ ۝٦﴾، ينكرون أنهم كانوا يعبدونهم؛ لعدم شعورهم وعلمهم به. وفي هذا الإنكار من البُهت والفشل وانقلاب الخيال وخيبة الآمال لأولئك العابدين ما لا يُقدَر. والمراد بـ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾: صالحو الأموات.

ثم تابع البيان عن ضلالهم فقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مؤثِّراً على نفوسهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ أي: بليغ قويُّ التأثير. فيصرفون ذلك إلى السحر، ولا يصرفونه إلى ما فيه من الحق اليقين والنور المبين والصراط المستقيم، فينسبونه إلى الرسول، ولا يدركون بذلك أنه من العلي العظيم. خابوا وخَسِروا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾.

ثم أضرب إلى بيان ما هو أشنع مقالاً، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، و﴿أَمْ﴾ للعطف على محذوف، أو بمعنى: بل، أي: يقولون: إنَّ محمداً افترى هذا القرآن من عند نفسه، ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ لا يتركني الله أفتري عليه حتى يُعاجِلَني بالعقوبة، ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إذْ لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُنقِذَني منه، ولا يترك سبحانه مَنْ يفتري عليه أن ينجح في عمله. وفي إسناد هذه المُلكية إليهم بلاغةٌ عاليةٌ في تسخيفهم وتأنيبهم.

ثم قرن ذلك بتهديدهم، مفوِّضاً أمرَهم إلى الله، فقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: بما تخوضون فيه من تكذيب هذا القرآن.

ثم تابع الكلام بما فيه استنجادٌ واستعانةٌ عليهم، وتوثيقٌ لصدقه، فقال: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالجحود والإنكار. ثم ختم الكلام ببيان سبب أناة الله فيهم، مع فعلِهم وقولهم هذا الموجب لغضب الله، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ لمن تاب، فيُمهِلُهم لعلَّهم يتوبون ويرجعون.

ثم أمره أن يجيب بجوابٍ ثانٍ عن نسبة الافتراء إليه، فقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: لستُ أولَ مرسل، وليس أمري غريباً عنهم، فماذا تستنكرون؟ ﴿وَ﴾ إننا تحت سلطان القدرة العالية ﴿مَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ قال الحسن البصري: أي: في الدنيا[1]، لأننا في قبضته وتحت قهره وسلطانه، فكيف أفتري عليه؟ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ منه تعالى، ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ أنذر المعارضين بعذاب أليم، ووبال شديد.

ثم أمره أن يـجيبَهم بجواب ثالث مُبكِّت، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهو عبد الله بن سلام، فقد شهد ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: على مثل هذا القرآن، وهو ما في التوراة من المعاني المصدِّقة لما جاء فيه. يريد بذلك مماثلةَ هذا القرآن للتوراة الصحيحة في احتوائه على التوحيد والوعد والوعيـد، ﴿فَـَٔامَنَ﴾ به هذا الشـاهد ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنـتم عن الإيمـان به، وكان مشركو العرب يَـثِقُون بالكتابيِّين كلَّ الوثوق، لذلك يـحتجُّ القرآن عليهم بأقوال أهل الكتاب وشهاداتهم، ثم علّل إعراضهم عن الهدى بعد كلِّ هذه البراهين

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ١٠٠).

الواضحة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: مَضَتْ سنَّته تعالى في أخلاق الإنسان أنَّ من تشبَّع منهم بالضلال لا يميل إلى الهدى، ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم حكى سبحانه صورة أُخرى من ضلالهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ واللام للنسبة لا للتعدية، أي: قالوا فيهم: ﴿لَوْ كَانَ﴾ هذا الأمر ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ أي: لم نَدَعْهم يسبقوننا إليه. فأنّبهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ لأنَّ كلَّ مَنْ لم يهتدِ إلى شيء يلتمس له الوَصَمات، وذلك لأنَّ المرءَ عدوٌّ لما جهل، ومُقاوِمٌ لما يكره، والسِّينُ للاستقبال والاستمرار.

وقد ردَّ الله عليهم بما خلاصتُه: كيف تنكرون على هذا القرآن مع أنه مصدِّق لكتاب موسى، وأنتم لا تشكُّون فيه ولا تنكرونه، فقال: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أُنزِلَ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ له حالَ كونه ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ بلغتكم، واضحَ البيان لديكم؛ ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ثم شرح صفة المُحسِنين وذلك الإحسان، وبيَّن البشرى المترتِّبة عليه، ضمن التزام نهج القرآن في بيان أمر المؤمنين عَقِبَ بيان أمر المشركين، لأن الضدَّ يُظهِرُ حُسنَه الضدُّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: جمعوا بين التوحيد والاستقامة

في أمور الدين ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ثم أردف السياق ببيان حالة الإنسان العامة، فذكر أنه ينقسم إلى صنفين أساسيَّين:

صنفٍ حافظ على سلامة غريزته بصحة تربيته وحسن قدوته، فيُوحِّد الله، ويؤمن بما جاء من عند الله من وحي وشريعة، ويؤمن بالبعث والحساب والجنة والنار، ويَبَرُّ والدَيْه إرضاءً لله.

وصنفٍ أفسد غريزته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فينكر على ما جاء من الله ويكرهه، ويُنكِر البعث أشدَّ الإنكار، ويَعُقّ والدَيْه إذا حملاه عليه.

ذكر ذلك بصورة تُلمع إلى أنَّ في طبيعة الإنسان معرفةَ الحق والميل إليه، وأنّ

---

(١) أي: إنَّ الذين قالوا بصِدْق: ربُّنا الله وحده، ثمَّ بعد إعلانهم الإيمان والإسلام بصِدقٍ استقاموا على توحيد الله وشريعة محمد ﷺ، فلا يتسلَّط عليهم خوفٌ من مُرْهبات قادماتٍ مُستَقبَلات؛ لأنَّ الله جعل لهم الأمن منذ لحظة موتهم، ولا هم يحزنون على شيءٍ فاتهم من دنياهم؛ لأنهم يَرَوْنَ أنَّ ما أعدَّ الله لهم في آخرتهم أعظمُ وأجلُّ من كلِّ ما في الدنيا من متاع، أولئك الفُضَلاءُ ذوو المنزلة الرفيعة، أصحابُ الجنة الملازمون لها بفضل ربِّهم، حالةَ كونهم خالدين فيها، جزاءً بسبب ما كانوا يعملون من الصَّالحات.

العدول عنه إلى الباطل يَعرِضُ من فساد المُعاشَرين والتقليد الأعمى، لا في أصل الخِلقة والطبيعة.

وقد جعل سبحانه الوصيَّةَ بالإحسان إلى الوالدَيْن الذي هو فرعٌ من مطلق الإحسان السابق في قوله: ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]؛ جعله حلقةَ وَصْل للبحث، ومدخلاً له وتمهيداً، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾، ثم علَّل ذلك بما يحرِّك الشعور إليه من حالة الأم في الحَمْل والرضاع، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ يُلمع إلى ما في الحمْل والوضع من أدوار المشقَّة والآلام الجسميّة والنفسيَّة، فذلك يُؤذِنُ بعِظَم حقِّ الأم.

ثم بيَّن مدة الحمل والفِصال، تقريراً لطول تلك الآلام، فقال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا[٢]﴾[١] فهذه الجملة بحسب السياق لتحريك الشعور في حقوق الأم على الولد، وبحسب النظم بيانٌ لحكم مدة الحمل والرضاع، على نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم ذكر حالة من يحافظ على سلامة طبيعته، بحُسْن تربيته وصالح قدوته، حتى يبلغ سنَّ الرشد، ويتكامل حتى يبلغ الكمال، مُلمِعاً بسياق الكلام أن الهدى مغروسٌ في طبيعتـه، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ جمع: شِـدَّة، كأنعُم جمع نِعمة، وهي القوة في الجسم والعقل أي: حتى إذا استحكم عقله وكملت قوته ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ من عمره ـ وهي سن الكمال، والسن التي يعرف فيها قيمة والديه بوجود ذُرِّيته ـ ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ضمَّنها معنى: اهدِني، أو: أدِّبني، أو: قدِّرني، فجمع فيها معنى الهداية

---

(١) أصلُ الفِصال: الانفِصالُ الناتجُ عن الفطام، وأُريدَ به هنا: المدّةُ الكاملة للرَّضاع التي يعقبُها الفطام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، والمراد: أنّ مدّة حَمْلِه ورضاعه ثلاثون شهراً.

(٢) ستة أشهر أقل مدة الحمل، والباقي أكثر مدة الرضاع.

والشكر والمنع من الإعراض عنه، على نهج القرآن في التضمين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية)، أي: ألهِمْني وأولِعْني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ أي: اجْعَل الصلاح راسخاً فيهم، وهذا الدعاء يُمثِّل سلامة غريزته من الإفساد، حتى سارت بالتربية الصحيحة نحو الكمال، فعلم قيمة الصلاح وثمرته العظيمة، لذلك لم يقنع بصلاح نفسه، بل طلبه أيضاً لذرِّيَّته، وتاب إلى الله تعالى عمَّا سلف له من الزلات والهفوات، بعد أن صَفَتْ نفسه هذا الصفاء، وكَمُلَت هذا الكمال، فقال: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: من المُنقادِين لك ولأوامرك ونواهيك.

وقد ذكر سبحانه حُكْمه في هذا الصنف، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي: عن هفواتهم وزلَّاتهم التي لا يسلم منها مِثلُهم أيضاً، ونجعلُهم ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ به على ألسنة الرسل ومُنزَلات الكتب. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ومن مباحث اللفظ: أن كلمة﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾: مفعول مطلق لمضمونِ ما قبله؛ لأن التقبُّل والتجاوز هو إنجاز ذلك الوعد.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ذكر حالة الصنف الثاني، وهو الذي يفسد غريزته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فينكر على ما جاء من عند الله ويكرهه، وينكر البعث أشدَّ الإنكار، ويَعُقّ والدَيْه في هدايتهما له إلى الخير، مُلمِعاً إلى أن ذلك لم يأتِهِ بأصل الخلقة، ولكن بإفساده لطبيعته، فقال: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري وأُبعَثَ ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ ولم يخرج منهم من قبره أحد.

ولم يَفطَن هذا المغرور إلى أنَّ البعث لا يكون إلا في زمنه المُعَدِّ له، والذي فيه خاصَّة الإحياء للأموات، كما لا يكون إنبات النبات وتفريع الأشجار في فصل الشتاء، وإنما يكون في زمن الربيع الذي فيه خاصَّة الإنبات والتفريع[1]، والمُعَدّ لذلك، ولكن هذا المغرور يتغابى ويقول ذلك لوالديه عناداً، ﴿وَهُمَا﴾ أي: والداه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ ليرجع ابنُهما عن غَيِّه ويَرُدَّانه عن كفره، ويقولان له: ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ وأباطيلُهم في الكتب القديمة، وكيف نحيا بعد أن نكون تراباً؟!

وفي هذا البيان إرشادٌ إلى أنَّ هذا الإفساد للغريزة إنما هو بصنع الإنسان وتأثُّره بالمؤثِّرات الخارجية، ولا ينتقل بالوراثة، إذ إن أبوَيْه مؤمنان لم يُفسِدا غريزتهما، وهو كافر أفسَدَ غريزته بمفاسد التربية وسوء العشير، فذكر سبحانه حُكمَه في هذا الفريق، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: قولُه تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، وأشار سبحانه إلى كثرة هذا الصنف بقوله: ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ثم أنَّبهم ونعى عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) ينبغي أن يقول: الملائم للإنبات والتفريع، لأن سنة الله جرت بأن يكون زمن الربيع ظرفاً لهما، لا أن له خاصة مؤثرة؛ إذ التأثير لله تعالى وحده. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١: ٤٣٩).

ثم بيَّن تعالى أن كلَّ فريق من الفريقين تختلف درجات أصنافه وأفراده باختلاف تربيته وأعماله، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين المؤمنين والكافرين ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ في النعيم والعذاب بدرجات أعمالهم في الصلاح والفساد ﴿مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾، وقوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عائد للمؤمنين، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ عائد للكافرين، ومثل هذا من نهج القرآن وإيجازه بناءً على الظهور(١).

ثم فصَّل أحوال أهل العقاب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يُقالُ لهم تأنيباً وتنديماً: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ(٢) بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ على الأنبياء والرسل، وما يأتون به عن الله، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: تخرجون عن طاعة الله عزَّ وجل فيما يأمركم به وينهاكم عنه. والهُون: الهوان.

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا

---

(١) والظاهرُ عودةُ الضمير للفريقَين من المؤمنين والكافرين من الإنس والجنّ، أي: وليُعطى كُلًّا منهم جزاءَ أعمالهم، وافياً تامّاً، وهم جميعاً لا يُظلَمون بزيادة في سيِّئاتِهم، ولا بنَقْصٍ من حسناتهم. وفي الآية دليل على أنَّ الجنَّ يُثابون ويُعاقَبون كالإنس.

(٢) أي: الهوان والذلّ. والهون: أصلُه مصدر، ومعناه: الهوان والذلّ. وأريد هنا اسمُ الفاعل مبالغةً، أي: المُهينُ جدّاً حتى كأنه هو الذلُّ نفسُه، كما تقول: رجل عَدْل، أي: عادل جدّاً.

وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ذكَّر الله نبيَّه ﷺ بهود عليه السلام؛ تسليةً له ووعداً بنصره على المعارضين له من قومه، وتوعُّداً لهم بأنَّ حالهم سيكون كحال قوم عاد؛ لأن عملَهم كعملِهم، وتعنُّتهم كتعنُّتِهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أي: أحدَ أفرادهم الذي يحرص على مصلحتهم، وهو هود عليه السلام، ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ قال ابن عباس: هو وادٍ باليمن بين عُمان ومهرة. وقال ابن إسحاق: هي رمال بين عُمان إلى حضرموت. وقال قتادة: هي رمال مُشْرفة على البحر بالشحر من اليمن[1].

وقبل أن يفسِّر الإنذارَ بيَّن أنه قد تتابعت به الرسل، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾[2]، ثم فسَّر ذلك الإنذار بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتُم غيرَه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[3] لا يَنْجُو منه مَنْ وقع فيه.

ثم ذكر ما أجابه به قومه، فقال: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ أي: لِتَصرِفَنا بالإفك والتمويه ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾؟! كلا، لا نترك عبادتها إلى عبادة ما تدعونا إليه، ولا نُصدِّق

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ١٢٣).

(٢) أي: والحال أنَّ هوداً قد مَضَت الرُّسل الذين بُعثوا من قبل هود، والذين سيُبعَثون بعده.

(٣) أي: قال هودٌ لقومه مثلَما قال الرُّسُلُ الذين جاؤوا من قبله ومن بعده: بأن لا تشركوا مع الله شيئاً في عبادتكم له، فإنْ لم تستجيبوا لي، وقد أقمتُ فيكم زمناً طويلاً أُبلِّغكم رسالات ربِّي، فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، يكون فيه هلاكُكم هلاكاً جماعيّاً ساحقاً ماحقاً.

بما تخوّفنا به، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من عذاب الاستئصال ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾، يتجبَّرون ويستهزئون عليه.

فأجابهم هود عليه السلام عن تجبُّرهم هذا واستهتارهم، و﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: هو الذي يعلم متى يأتيكم العذاب، أما أنا فلا أعلم من ذلك شيئاً، ولا أقدِرُ عليكم بشيء، ﴿وَ﴾ إنَّما ﴿أُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم، ومن جملته نزول العذاب بكم إن لم تَنتَهوا عن الشرك، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ حيث تقترحون عليَّ ما ليس من وظائف الرسل، من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته والتعجيل به.

ثم حكى نزول العذاب بهم في الوقت الذي عيّن له، وما كان من أمرهم عند نزوله، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ والعارض: السَّحاب يَعرِضُ في السماء، أي: فلمَّا رأوُا العذاب على شكل سَحَاب يستقبل المزارع والوديان، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: ظنُّوه سَحاباً يحمل لهم المطر والخير، فردَّ عليهم بقوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب، وهو ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ حيثُ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، ثم صوَّر ما جرى عليهم بهذا العذاب، وقال: ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ أثراً بعد عَيْن ﴿لَا يُرَىٰٓ﴾ منهم ﴿إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الخالية الخاوية.

ثم ذكر من التعليل ما فيه مبالغةٌ في التحسيس والتنبيه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وفيه توعُّد للكفار من قريش بمثل ذلك، إنْ أصرُّوا على الشِّرك.

وقد بيَّن أن عاداً أفضَلُ منهم بالقوة والمال، للمبالغة في توعُّدهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾، و﴿إِن﴾ هذه هي النافية، والمعنى: أنَّ عاداً كان لهم من القوة والسَّعة ما لم يكن لكم، فلم يُغْنِ عنهم ذلك من الله شيئاً لـمّا حادوا عن أمر الله وعارضوا رسولهم.

ثم بيَّن منشأ ضلالهم، فقال: ﴿وَ﴾ قد ﴿جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ كما لكم، ليستعملوها فيما خُلقت له، ويعرفوا بكلٍّ منها ما نِيطَت به معرفتُه على وجه الحق، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ لأنهم أفسدوا غريزتها وحرّفوها عن استقامتها، كما فعلتُم أنتم بمواهبكم، فأصبحت ترى الحقائق بغير صُوَرها، فتعتقد الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً، فجاءهم بأس الله ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويهزؤون بها، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم وأحاط ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ من العذاب.

وإنما أفرَدَ «السمع» دون «الأبصار» و«الأفئدة»، لأنه مصدر، والمصادر لا تجمع، فروعي فيه الأصل، أو لأنه ذكر مع الجمع فيُراد به الجمع، وذلك من خصائص اللغة، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

ثم تابع تخويف قريش بما جرى على أمثالهم، وسبكه على التبكيت، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ وهم قوم هود وكانوا باليمن، وقوم صالح وكانوا بالحِجْر، وقوم لوط على طريقهم في الشام.

ثم عَطَفَ عليه عَطْفَ العِلّةِ على المعلول قولَه: ﴿وَصَرَّفْنَا﴾ لهم ﴿ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: نوَّعنا لهم العِبَرَ والعِظاتِ ليرجعوا عن غيِّهم، فلم يرجعوا.

ثم بكَّتهم وأنّبهم بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ من نزول العذاب ودَفَعَه عنهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾ أي: فهَلَّا نصرهم أصنامُهم الذين اتخذوهم وسائطَ يتقرَّبون بهم إلى الله.

ثم أضرَبَ عن التقريع والتأنيب إلى التقرير والبيان، فقال: ﴿بَل ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ ولم ينفعوهم بشيء، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ هو الواقع المنتظر. أما اعتقادهم بأنهم سيُقرِّبونهم إلى الله

زُلفى ويشفعون لهم عند الله؛ فذلك ﴿إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: فذلك إفكٌ من المشركين وافتراءٌ عليهم، يأتفك به الرؤساء على الأتباع فيُصدِّقونهم ويتبعون.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم ذكر ـ على سبيل المبالغة والتقريع لهم ـ إيمانَ الجن واستجابتَهم للدعوة، إذ فيه زيادة تأنيبٍ لهم؛ لأنَّ الرسول من جنسهم ومن قومهم، وجاءهم بلسانهم، فكفروا وتولَّوا، والجنُّ من جنس آخر، وقد استجابوا للدعوة وآمنوا، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾[1] قال ابن عباس: وكان ذلك ببطن نَخْلة عامداً إلى عكاظ، وهو يصلي الفجر، فاستمعوا القرآن ونظروا كيف يصلي[2]. ورُوِيَ مثله عن سعيد بن جُبَير[3]، ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ وفيه دلالة على تأثيره في أنفسهم، حتى اهتمُّوا بشأنه وأصْغَوا إليه، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لهم.

---

(١) وللربط وَجْهٌ ثان، وهو أنه لما قال فيما سبق: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأحقاف: ١٨]، ألمع هنا إلى أنَّ الجن مكلّفون بشريعة الإنس نفسها، وأنهم كالإنس منهم المؤمنون ومنهم الكافرون. أما كيفية فَهْمِهم الكتب المنزلة بلسان الإنس، يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون عندهم استعداد طبيعي لفهم لغات الإنس، ويجوز أن يتعلموها منهم لمخالطتهم بهم، وسهولة ذلك عليهم طبعاً، أو لغير ذلك من الأسباب والأحوال. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١: ١٦٣).

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهو التوراة والإنجيل، ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ من العقائد الصحيحة، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مُوصِل إلى الهدف الأسمى، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

ثم حَمَلوهم على الإجابة من طريق الترهيب، بعد أن حَمَلوهم عليها من طريق الترغيب، فقالوا: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ وإنما هو تحت سلطان الله وقهره، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ يُنجونه من عذابه، و﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

وفي بيان خبر الجن هذا دلالةٌ على أنه ﷺ مُرسَلٌ إلى الجن، كما هو مُرسَلٌ إلى الإنس، وفيه دلالةٌ على أنَّ الجنَّ تؤمن بالأنبياء وتتَّبع هديهم كالإنس، فمنهم من يهتدي، ومنهم مَنْ يَضِلّ، وينال كلٌّ منهم الجزاء العادل، وبما أنها مختلطةٌ خُفْيَةً بالإنس، وتنتقل بينهم بسرعة، فلا يَبعُدُ أنها تعلم سائر لغاتها، أو كل زمرة تعلم لغة مَنْ تختلط بها من الأمم، أو أنها مستعدَّة لذلك في أصل خلقتها. والله أعلم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم أردف تقريع المشركين على شركهم بالله، بتقريعهم على إنكارهم للبعث، وأدمجَ في ذلك دليلَ قدرته على الإحياء والإعادة، بطريقة المنطق الوجدانيّ التي يتَّبعها

القرآن في مثل هذا الشأن، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أي: ولم يُصِبْه في هذا الأمر العظيم إعياء، وهذا التعبيرُ تمثيلٌ لكون إيجاده تعالى إنما هو أمرٌ بين الكاف والنون، ومَنْ هذه قدرتُه البالغة ألم يكن ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾؟

ثم ذكر الجواب بصورة نتيجة وتقرير، فقال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ لا يُعجِزُه شيء.

ثم أنذرهم بمصيرهم المُفْزِع إن بقُوا على الشِّرك والضلال، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، ويقال لهم تأنيباً وتَنْديماً: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا﴾ هو الذي كنتُم تنكرونه وتهزؤون به، أمَا هو ﴿بِالْحَقِّ﴾ الواقع؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ به وتستهزؤون.

ثم أمر سبحانه نبيَّهُ ﷺ أن يصبر لهم؛ لأن كلَّ آتٍ قريب، وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[1] على أقوامهم المعارضين لهم، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ بالعذاب.

ثم علَّل الأمر والنهي ببيان قِصَر أيام الدنيا بالنسبة إلى أيام الآخرة التي سينالون فيها الجزاء الدائم الأليم، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ به من الجزاء ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ في الدنيا[2] ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ لِـمَا يشاهدون من شدَّة العذاب في الآخرة

---

(١) أي: فاصبِرْ ـ يا رسول الله ـ على أذى قومك المُكذِّبين لك، كما صَبَرَ أصحابُ القوَّة والصبر على الشدائد والأذى في القيام بأعباء الرسالة من قبلك الذين ارتَقَت قوَّةُ إرادتهم إلى مستوى العَزْم الذي يستطيعون به تنفيذَ ما يريدون، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وأنت ـ يا رسول الله ـ منهم.

(٢) أي: كأنهم يوم يَرَوْنَ ما يُوعَدون من العذاب في الآخرة، يشعرون أنهم لم يلبثوا بين الموت والبعث =

وطول مدَّته، ولا ننسى أنَّ الحياة الدنيا هي المرحلة الأولى القصيرة من السَّفْرة الطويلة البعيدة المدى.

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ أي: هذا الذي وُعِظتُم به بلاغٌ لكم، ولا يُهلَكُ إلا الخارجون عن الخطط التي بيَّنها الله فيه.

* * *

= إلا قَدْرَ ساعة من نهار، ناموا فيه نومَ القيلولة واستيقظوا، فهم لا يحسُّون بالزمن الذي مرَّ عليهم من لحظة موتهم حتى بعثهم إلا كما يحسُّ النائمُ في نهار لا يطولُ فيه نومه، وذلك لأنَّ الإحساسَ بمرور الزمن قد مُسِحَ من أجهزة الإدراك في نفوسهم بعد موتهم. والله أعلم.



وتُسمَّى أيضاً: سورة القتال

وهي مدنية، وقيل: مكية، وآيها تسع وثلاثون

وملخَّص موضوع السورة:

تحريض المؤمنين على قتال الكافرين، ووَعْدُهم بالنصر عليهم.

وهذا القتال هو عذاب الدنيا الذي توعَّدهم به في السورة السابقة، ولهذا جاءت بعدها.

وقد مهَّد للتحريض على قتالهم ببيان وجه استحقاقهم لذلك، وهو كفرُهم وضلالهم وصدُّهم عن سبيل الله، فقال:

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ لأنها غير جارية على السنن الصحيحة، فهم كمن يطلب غايةً وينهمك في أسباب ليست موصلة إليها، فلا شكَّ يَضِلُّ عملُه ضلالاً بعيداً. وتشمل الآية بعمومها صفةَ محاربة أُولئك الكفار للمؤمنين، أي: أنَّ أعمالهم في تلك المقاومة ضالّة وفاشلة؛ لأنها جاريةٌ على سنن الباطل، كما سيأتي تعليله.

ثم قابل أعمال الكافرين ونتيجتها بأعمال المؤمنين ونتائجها، بما فيهم مؤمنو أهل

الكتاب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ أي: أصلح حالهم في الدنيا والأخرى؛ لأن أعمالهم جاريةٌ على السنن الصحيحة، بنَهْجِهم على مقتضى التعاليم الإلهية والتوجيهات المنطبقة على السنن الكونيَّة، وكلُّ عمل كذلك يُوصل إلى الغاية.

ثم علَّل ضلالَ أعمال الكافرين وحبوطها، ورَشادَ أعمال المؤمنين ونجاحها؛ علَّل ذلك مُجمَلاً بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[1] أي: والباطل فاشل خاسر، والحق ناجح رابح؛ يريد: أنَّ الذين آمنوا اتَّبعوا تعاليم الله وتوجيهاته، فنَجَحوا وأفلحوا، والذين كفروا أعرضوا عن ذلك واخترعوا لهم تعاليم تُوصلهم إلى الله بزعمهم، فضَلُّوا ضلالاً بعيداً. والحق أمر واقع، والباطل وَهْمٌ خادع.

وخَتَم البيان بما فيه زيادة في التحسيس، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ أي: يوضح لهم شؤونهم وأحوالهم، صلاحاً وفساداً.

ثم ذكر ما يجب على المؤمنين تجاه هؤلاءالكافرين الصَّادِّين عن سبيل الله، والمعارضين لهم، والغاصبين لحريتهم في إقامة إيمانهم هذا، وقال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فذكر المصدر النائب عن فعله؛ لتأكيد الأمر، أي: فاضربوا رقابَهم ضَرْباً

---

(١) الحق: كل ما كان مُحقَّق الثبوت، فيكون له نتائج واقعية، بحكم موافقة السنن الكونية وما ينتج عنها من نتائج صالحة ملازمة لها. والباطل: ما ليس كذلك، وقد يكون مجرَّد وَهْم وخيال، فصاحبُه لا يصل إلى غايته، إذ هو يَنشُدُ أمراً ويعمل عملاً لا يوصل إليه. وهكذا حال المؤمن والكافر، باتِّباع الحق والباطل، حيث اتبع المؤمن ما جاءه من الحق من عند الله، فنال مُبْتغاه، وما كان يتمنَّاه. واتَّبع الكافر هواه، فَضَلَّ عن سبيل الله، الموصلة إلى السعادة والرفاه، وكان أمره فرطاً. (المؤلف).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ بالضرب والقتل، وكَسَرتُم قوتهم المعنويَّة، وذلُّوا لكم، ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: فاستَعمِلوا حينئذ بدل القتل، كما قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. وهذه من القواعد العظيمة في تركيز الدعوة الجديدة، وتكوين القوة وتثبيت السطوة. ومن إحسانه تعالى: أن جعل لهذا الإثخان حداً معيَّناً ينتهي إليه، وهو حصول الإرهاب الضروري.

ثم أمره بالكفِّ، وقال: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ أي: أثقالَها وآلاتِها. والجملة كناية عن انتهائها.

وقيل: إنَّ الآية على التقديم والتأخير، وذلك من خصائص اللغة وأساليبها. والمعنى: يبقون في الأسر حتى تنتهي الحرب، وحينئذ: فإما أن تمنُّوا عليهم وتُطلِقوهم بلا عِوَض، وإما أن تَفْدوهم بعِوَض.

ثم فصَّل الكلام وخلّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ تقريراً له وتنويهاً بشأنه، أي: الأمر فيهم كما ذكر؛ لأنه موافق للحكمة والمصلحة، بحسب السنن الاجتماعية الطبيعية، وهي أن يدفع الله الناس بعضَهم ببعض، ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ غيرَ هذا النظام ﴿لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من المعارضين للأنبياء، بأن يجعلهم يهلكون من أنفسهم بذلك العمل دون قتال أو يرميهم بداهية، ولكنه تعالى لم يجعل من سُنَّته ذلك؛ لأنه غير موافق لنظام الاجتماع في أخلاق البشر، وإنما الموافق أن يدفع الناس بعضهم ببعض، كما قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ ويُذيقَ بعضكم بأسَ بعض، ففي ذلك حِكَمٌ لا تعلمونها، تُصلِحُ النظم الاجتماعية والأخلاقية، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ثم بيَّن مصير الشهداء ترغيباً بالجهاد، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤﴾ وهذه عبارةٌ عن فَخامة الجزاء وكنايةٌ عنه.

ثم عمَّم الموضوع، على نـهج القرآن في اتِّباع الأمر الخاصّ بالأمر العام الذي يشمله وغيرَه، فأجرى الكلام على مطلق المجاهدين الذين من جملتهم هؤلاء الشهداء، فقال: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ أي: إنَّ الجهاد الحق يؤدِّي إلى صلاح أمر الأمة وهدايتها إلى أرشد الطرق في الدنيا ﴿وَ﴾ في الآخرة ﴿يُدْخِلُهُمُ﴾ الله ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ بما ذكره عنها في هذا القرآن من الأوصاف والأحوال المشوِّقة لها والمُرغِّبة بها.

ثم وعدهم بالنصر على أعدائهم المشركين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ أي: إن تنصروا دينَه ورسولَه ﴿يَنْصُرْكُمْ﴾ على أعدائكم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ في مواقف الحرب. وهذا الوعد الكريم بالنصر مشروط بشروط طالما ذكرها القرآن، بألوان من البيان، وهي اتِّخاذ العُدَد التي تُقابل عُدَدَ العدو وتفوقُها، والتفوُّق في الفنون الحربية، والصبر والثبات، وتقوى الله حقّ تقاته.

ثم تابع المعنى بالوعد، وأردَفَه بخِذلان المشركين على أيدي المؤمنين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ أي: فسيجعلهم الله في تَعَاسة وشقاء، إذ قد خَذَلهم، ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨﴾ لأنهم لم يقبلوا التعليمات الإلهيَّة والتوجيهات الربانية، ولكن أعرضوا عنها وقاوموها، وبذلك أفسدوا طبائعهم، فضلَّت أعمالهم، حيثُ لم يكن لها أثرٌ صالح في نفوسهم المفسودة التي قد أوغَلَ فيها الفساد، وذلك لأنَّ العقيدة الصحيحة بالنسبة إلى الأعمال، كالقلب بالنسبة إلى البدن؛ إذا صَلَح صَلَح البَدَنُ كلُّه، وإذا فَسَد فَسَد البدنُ كلُّه. وكذلك أضلَّ أعمالهم التي يكيدون بها المؤمنين، بمعنى: جعلها فاشلةً خاسرة.

وقد عطف: ﴿أَضَلَّ﴾ على المصدر النائب عن فعله ـ وهو (تَعْسًا) ـ والذي رَجَحَ على فعله ـ وهو كلمة: «تَعِسَ» ـ للدلالة على الدعاء، فإنه أبلغ من صيغة الإخبار.

ثم علّل خِذلانَهم هذا ومصيرَهم الحابط بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فلم يقبلوه ويتمسَّكوا به ويعملوا بموجبه ليُصلح نفوسهم، فلم يكن فيهم القوة المعنوية والثبات؛ لذلك خَذَلهم الله، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾[1] وأفشلها، وسيُغلَبون.

والآية تشير إلى أنَّ ما جاء في ثنايا هذا القرآن من العقائد الصحيحة، والتعاليم

---

(١) إن الله سبحانه جعل لصلاح الروح المؤدِّي إلى سعادة الآخرة طرقاً وأسباباً، ولصلاح الدنيا كذلك طرقاً وأسباباً. فمن سلك طريق الدنيا يبتغي به الآخرة ضلَّ وحبط عملُه، ولكنه قد يصل إلى دنيا عريضة، إذا أكمل الأسباب وأتقنها. ومن سلك طريق الآخرة وسعى لها سعيها نالها، ولكنه لا ينال الدنيا إذا لم يَسْعَ إليها. ومن أهمل الطريقين حُرِمَ من الأمرين. ومن سلكهما معاً وَصَل إلى السعادتين.

هكذا نظم سبحانه هذين الهدفين كما نظم سائر الأسباب والمسبَّبات، فلما كره الكافر ما أنزل الله في هذا القرآن المؤدِّي إلى السعادتين، ولم يؤمن به، ولم يعمل بمقتضاه؛ ضلَّ عمله وحبط، وإن كان من أعمال البر، يرضيك ظاهره، ويُعجبك مظهره، إذ إنه طلاء فقط؛ لأنه مجرَّد عن بقية الأسباب التي منها التوحيد والتنزيه، وهو العنصر المهم فيها، إذ هو الذي يجعل في النفس آداباً عاليةً لا تكون فيها إلا به، ويؤثر على كل قوة من قواها، فيوجِّهها توجيهاً صحيحاً لا يوجهها إليه غيره، ومنها الأعمال التي فرضها الله سبحانه لتغذية هذا الإيمان، كالصوم والصلاة والحج والزكاة، فإنها تربط ما بين العبد وبين خشية الله، وتربِّي فيه معنى الإنسانية الرابطة بين العباد، على أساس التعاطف والإحسان، حسب درجة تلك الفعال من التقويم والإخلاص.

فلما تجرَّد الكافر عن هذه العناصر، حبط عمله في الدارين وخاب، وإن أرضاك مظهرُه وأَغْراك؛ لأنه لا يزيد عن الطلاء، إلا إنْ كان من وجوه الإحسان، وهو يريده لله أو لمجرّد الإنسانية، لا للرياء والسمعة؛ خفَّف الله به عنه بعض شقاء الآخرة، إذ اقترن بحُسن النية وإخلاص الطويَّة، كما قال ﷺ في حقِّ أبي طالب المناصر له: «إنه في ضحضاح من نار»، يكني بذلك عن تخفيف العذاب عنه، جزاءً لمناصرته وحمايته لرسول الله ﷺ. (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه (٣: ١٨٥، ٤: ٧١).

الموافقة لسنن الكون وطبائع البشر، إنما هي توجيهٌ للإنسان في مصالحه الدنيوية، كما هي توجيهٌ له في مصالحه الأخروية، وتؤدِّي إلى كماله في الثقافة والتهذيب، وتعقّله الصحيح في عزائمه وتصرُّفاته، وقوته في اندفاعه، فيفلح في الحياتين.

ثم لفت نظرهم إلى ما جَرَى على أمثالهم في الأمم الغابرة، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾ عارضوا الرسل ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كيف كانت نهاية أمرهم، فإنَّ آثار ديارهم تُنْبِئ عن أخبارهم، حيثُ ﴿دَمَّرَ﴾ها ﴿ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ثم توعَّد قريشاً بمثلها، فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾.

ثم عاد فعلَّل ما فُهِمَ في هذا الوعيد من نَصْر المؤمنين وخِذلانِ الكافر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ينصرهم على أعدائهم، ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن قارن بين حالَيْهم في الدنيا، قارن بينهما في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا، ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ غافلينَ عن العواقب، وما قيمةُ متاعهم هذا في الدنيا ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾؟ أي: محلُّ ثوائهم وإقامتهم في الأخرى. وكلُّ نعيم دون الجنة حقير، وكلُّ بلاء دون النار عافية.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ تأنيباً لهم، بمعنى: أنَّ سيرتهم كسيرة الأنعام، في أنَّ كلَّ ما عندهم هي شهواتهم المادية، فهم يعيشون ليأكلوا، لا يأكلون ليعيشوا.

ثم ضرب سبحانه لنبيِّه ﷺ مثلاً يتضمَّن وَعْدَه بالنصر عليهم، وتوعّدهم بالبطش بهم، إذ أخرجوه من بلده، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كم من أهل بلدة ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بعذاب الاستئصال، ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ ولم تُغْنِ عنهم قوتُهم شيئاً.

وفي وصف أهل القرية بشدَّة القوة مبالغةٌ في توعُّد هؤلاء؛ لأنه أهلك مَنْ هو أقوى منهم. وفي قوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ تيئيسٌ من النجاة.

ثم أردَفَ الكلام المتضمِّن لوعد المؤمنين ووعيد الكافرين في الدنيا والأخرى ببيان الفرق بين الفريقين على وجه التعليل، فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ في صحَّة أمره وحقيقة عمله ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بزخارف الخيال وكواذب الأوهام ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٤﴾﴾، وقد أفرد الضميرَيْن الأوَّلين باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وجمع الأخيرين باعتبار معناها، على نهج القرآن في مثله، وهو من خصائص اللغة.

ولـمّا بيَّن الفرقَ بين الفريقين في الاهتداء والضلال، بيَّن الفرق في مصيرهما، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتُها ما ذكره بقوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير مُستَعِدٍّ لتغيّر اللون والرائحة، كمياه الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: غير مُستَعِدٍّ للفساد، كألبان الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ليس فيها حَرافةُ طعم ولا غائلة سُكْر، ولا تضرُّ الأبدان، ولا تؤثِّر على العقول، كما في خمور الدنيا، ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لا كعسل الدنيا.

ففي هذه الجنة أنهار تجري بأطايب الحياة التي كان يتشهَّاها الإنسان في الدنيا ولم يجد منها إلا القدر اليسير، فَضْلاً عن أنها أجوَدُ منها نوعاً وأعلى شأناً بكثير، بل ليس بينهما مُشابَهة بوجه من الوجوه، وصفة من الصفات إلا بالاسم، والله أعلم، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ كذلك، وقد قال ابن عباس: ليس في الجنَّة شيء يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم[1].

ثم أضاف إلى هذه الكرامةِ الماديَّةِ الكرامةَ المعنويَّة، فقال: ﴿وَ﴾ لهم ﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لـها أثرها العظيم، وكرمها الجليل. أفمَنْ هو خالد في هذه الجنة ونائـلٌ هذه الكرامة ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكان تلك الأشربة الكريمة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾؟! وهذا الاستفهام إنكاريٌّ تقريعيٌّ، وفيه نعيٌ عليهم وتحسيس. وأفرد الضمير الأول باعتبار لفظ (مَنْ)، وجمع الباقي باعتبار المعنى. وقد حذف المعادل للفظ ﴿كَمَنْ﴾ اعتماداً على وصف الجنة، جرياً على نهج القرآن في مثل هذا الإيجاز.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

ولما ذكر حال الكافرين، ذكر حال المنافقين، للإشعار بأنهم منهم، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وهم المنافقون، وأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، كما أنّ جَمْعَه فيما سيأتي باعتبار معناها. وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه، ولا

---

(١) سبقَ تخريجه (٢: ٤٩، ٥٧٦).

يَعُونه ولا يُراعونَه حقَّ رعايته، كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: ما الذي قاله الآن؟

وقد اختلف المفسِّرون في وَجْه هذا القول، فقيل: إنه استهزاء وإظهار بأنهم لم يهتمُّوا له ولم يشتغلوا بوَعْيه وفَهْمه، استخفافاً به. وقيل: بل يريدون أنه لم يقل شيئاً فيه فائدة. وقيل: هو رياء ونفاق، أي: لم يذهب عنَّا من كلِّ ما قاله إلا هذا، فماذا قال؟ أعيدوه علينا. وهذا هو الموافق للسؤال من ذوي العلم. والله أعلم.

وقيل: بل لأنهم لم يفهموا معنى ما يقول، إذ قد طُبِعَ على قلوبهم، حيث تشبَّعوا بالكفر، ففَقدت قلوبُهم نور البصيرة، كما بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بما رَسَخَ فيها من الضلال، وذلك بمقتضى سُنَّة الله العامة في أخلاق البشر، إذا انطبع الإنسان على شيء ورَسَخ فيه، لا يميل إلى ضدِّه. وهكذا كان أمر هؤلاء، فإنهم رَسَخوا على الضلال وسوء التقليد ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾. وإسناد الطبع على قلوبهم إلى الله سبحانه، إنما هو باعتبار هذه السُّنَّة الطبيعيَّة في خَلْق الإنسان، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدِّمة الثانية).

ثم قارن حالَهم بحال المؤمنين الذين حافظوا على سلامة فِطَرِهم، فقبلوا الهُدى حين دُعوا إليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ إلى طريق الحق ﴿زَادَهُمْ﴾ الله ﴿هُدًى﴾ بتَتابُع ما ينزل إليهم من التعاليم، ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ أي: أعطاهم من التعاليم ما يتَّقون به الشقاءين، وأعطاهم جزاء ما يتَّقون، وحفظهم مما يحذرون.

ثم توعَّد الكفار، وقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتُها، ومنها: بعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وقد قال: «بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين»،

وأشار بالوسطى والمُسبِّحة[1]. وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى كان يَعِدُ في كل شريعة أنزلها أنْ سيبعثُ نبياً في آخر عمر الدنيا، وهو محمد ﷺ، ومعه شريعة عامة للبشر، لا ينـزل بعدها شريعة أبداً؛ إذ هي صالحةٌ لأحوال البشر حتى نهاية الدنيا، ولكن هؤلاء المشركين أعرضوا عنها عِناداً وبغياً، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾، وحينئذٍ لا تنفعهم المعذرة، ولا تفيدهم الذِّكرى، كما قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾ أي: إن لم يتذكَّروا الآن ويتَّعظوا بهذا القرآن، فمن أين تنفعهم الذكرى ويفيدهم الاتعاظ، إذا جاءتهم الساعة؟ وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالى سعادةَ المؤمنين الموحِّدين وشقاوةَ الكافرين المشركين، أردَفَه بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يُذكِّره بهذه العقيدة؛ لأن عقيدة التوحيد هي العنصر المهمُّ في العقائد والأعمال المؤدِّية إلى السعادة والفلاح. أي: إذا علمتَ ذلك فاثبُتْ على ما أنت عليه من العلم بالتوحيد، لتنال السعادة، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والمراد من ذنبه ﷺ: ما يصدر عنه من الهفوات في موقفه الحَرِج من المشركين، أو تَرْكُ الأَوْلى، فإنَّ حسنات الأبرار سيِّئات المقربين.

ولما أمره بالاستغفار للذنوب، بيَّن تعالى أنه لا يخفى عليه من أمرهم خافية، تحذيراً لهم مما يصدر عنهم وما يفعلون، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ أي: مُنصَرَفكم لأشغالكم في النهار، ومأواكم إلى مضاجعكم في الليل، فهو عالمٌ بجميع أحوالكم، لا يغيبُ عنه شيءٌ منكم فاحذروهُ.

اللهمَّ إنّي أُشهِدُك وأُشهد حَمَلةَ عرشكَ وملائكتَكَ وجميعَ خلقكَ بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، وأعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك فيما لا أعلم.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

قال الرازي: ولما بيَّن الله سبحانه حالَ المنافق والكافر، وحالَ المهتدي المؤمن عند استماع الآيات العِلْميَّة، من التوحيد والحشر وغيرهما، بيَّن حالهم في الآيات العمليَّة[1]، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: فيها ذِكرُ الجهاد، يُفهَمُ هذا مما بعد، على نهج القرآن في الحذفِ من الأول ما يُفهَمُ من الآخر، والحذفِ من الآخر ما يُفهَمُ من الأول، جَرْياً على الإيجاز.

والمراد: أنهم يَتمنَّون أن تنزل سورة، أي: آية تأمرهم بالجهاد في سبيل الله؛ ليقوموا بذلك حقَّ القيام. أما المنافقون فعلى خلاف ذلك، يدلُّ على هذا قوله تعالى:

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٨: ٥٣).

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا تقبل التأويل، ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وهم المنافقون، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ جُبْناً وهَلَعاً.

فأنَّبهم بما هو ملفوف بالإرشاد، على نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، ووعظهم بقوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ من ذلك ﴿طَاعَةٌ﴾ لله وللرسول، ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ يقولونه في هذا السبيل، كأن يقولوا: نستعينُ بالله، ونتوكَّل على الله.

ثمَّ نَعَى عليهم جَهْلَهم بمكان المنفعة، فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جَدَّ الجدُّ في الجهاد، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في جهادهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾، لأنَّ نَصْرَ المؤمنين يعود عليهم بالنفع الماديّ الروحيّ، والخير والإصلاح.

ثـمَّ وبَّـخهم بقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إن أعرضتُم عن هداية القرآن، فهل بعد ذلك إلا الفساد في الأخلاق والمعاملات، والحطَّة في النفوس، ورديء السلوك، وهل بعدَ الحقِّ إلا الضلال؟

وقيل: بل المعنى: فهل عَسَيتُم ـ يا معشر المنافقين ـ إن أعرضتُم عن كتاب الله والعمل بما فيه، أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية، من النَّهْب والغَصْب والإفساد وتقطيع الأرحام فيما بينكم؟ ويكون ذلك توبيخاً لهم مسبوكاً على تأييسهم من معاطاة الفساد بعد اليوم، وإن بقوا على دينهم، إذ بمجيء حكم الرسول ﷺ قد تَبَدَّل الحال في الإدارة والسلطان. أي: لا يتهيَّأ لكم هذا وإن لم تؤمنوا وتدخلوا في زمرة المسلمين، فلا تقدرون بعد اليوم أن تعودوا إلى ما كنتم عليه من النَّهْب والغَصْب والإفساد.

وكان خوفهم على مراكزهم ورياستهم هو الذي يمنعهم من الدخول في الدين، إذ يريدون أن يحتفظوا بما هم عليه من التجبُّر والطغيان، فيَأّسهم من ذلك، ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعَدَهم من رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ

﴿أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ لانطباعهم على الضلال، حتى أصبح مَلَكةً لهم وخُلُقاً، وذلك حسب سُنَّة الله في أخلاق البشر: أنَّ من رَسَخ فيه أمرٌ لا يميل إلى ضدِّه، ولا يسمع ما يخالفه، ولا يراه جديراً بالنظر والاعتبار.

ثم بيَّن أنَّ سبب هذا الصَّمَم والعَمَى أحدُ أمرين، وأفرغ الكلام في قالب التوبيخ، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[1]؟!

ثم أثبت الأمر الثاني، وذكر أنَّ الشيطان قَفَلَ عليها تلك الأقفال، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ بهذا القرآن، وهم هؤلاء المنافقون ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيَّن لهم خُطَطَهم هذه، وقد أعانوه على ذلك بإفسادهم لطبيعتهم بمفاسد التربية، حتى أصبحوا لا يَرَوْن ما يخالفها جديراً بالتدبُّر.

وقال أبو مسلم: أعطاهم سُؤْلَهم وأمنيَّتَهم، إذ دعاهم إلى ما يوافق مُرادَهم وهَواهم، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي: مدَّ لهم في الآمال والأمانيِّ فاتَّبعوه.

ثم ذكر شيئاً من هذا التسويل والارتداد، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾، وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد من أهل الكتاب، حَسَداً وبغياً: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: نفعل بعضَ ما تريدونه من المُعاوَنة على عداوة محمد، وتثبيط الناس عن الجهاد معه، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إخفاءهم لِـمَا يقولون.

---

(١) أي: أفلا يتفكَّرون في القرآن وفي مواعظه وزواجره؛ ليتعرَّفوا من خلال التدبُّر على ما يدفعون به كلَّ شبهاتهم وأوهامهم في تسويغ قتال الكافرين؟ إذ يتردَّد في صدورهم أنَّ الدعوة إلى القتال ينجم عنه إفسادٌ في الأرض، وخرابٌ للعمران، وتقطيعٌ للأرحام، الذي يتجلّى في واقعِهم إذا كانوا أولياء الأمر، وكانت الدولة القائمة لهم، بل على قلوبهم ما يحجُبها عن تدبُّر القرآن، والتفكُّر في الآيات، بسبب كفرهم ونفاقهم، فهي مُغْلَقة لا يدخلُها الإيمان، ولا يخرج منها الكفر.

وقد توعَّدهم بقوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ حالُهم ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾، يُصوِّر كيفيَّة توفِّيهم الرهيب. وفي صورة الكلام شيء من الإهانة لهم والتشنيع.

ثم علَّل هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر والمعاصي، ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ أي: ما يرضاه من الإيمان والعمل الصالح، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ لتوغُّل الفساد فيها وسُوء الاعتقاد. وكلُّ فاسد حابطٌ فاشل. ويجوز أن يكون هذا البيانُ عن صورة تَوَفِّيهم إيماءً لهم إلى ما حكى عنهم في سورة التوبة من تملُّصهم من الجهاد بالأعذار الكاذبة، ليقابلوا بين الأمرين، ويُوازنوا بين الخوفين: الخوفِ من الجهاد، والخوفِ من الملائكة.

ثم عطف على مضمون قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] قولَه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: أحقادَهم ونفاقَهم، بلى وقد نزَّل في شأنهم سورة التوبة الفاضحة لهم.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناك بهم ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بمُشخَّصاتهم وأعيانهم، ﴿وَ﴾ إنك ﴿لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: بأساليب أقوالهم ونَمَطِها ولهجتها، لأن فَحْوى الكلام ولهجتَه وصيغتَه ونبرتَه تدلُّ على ما يكنُّه الضميرُ، فتكون أشهَرَ من التصريح.

ثم توعَّدهم بهذا البيان العام، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ وما انطوت عليه سرائركم، فيُجازيكم عليها بالحُسْنى حسناً، وبالسوأى سوءاً.

وجعل هذا حَلْقةَ وَصْلٍ لنَقْل الكلام وإجرائه على المؤمنين، يحضُّهم به على جهاد المشركين والمنافقين، بعد أن ناقش الصنفين في أعمالهم الفظيعة، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾

بالأمر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقّة، ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الجهاد والتكاليف، ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ في ذلك. والتعبير بالإخبار عن الأعمال من مجازات اللغة وخصائصها. وقد تقدَّم الكلام على معنى هذا العِلم في سورة البقرة[1]، عند قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فارجع إليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

وبعد أن حثَّ على الجهاد، ذكر ضَعْفَ هؤلاء الكافرين، ووَهْنَ كيدهم، تتميماً للحَثّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: خاصموه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ على يدَيْه ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ستَبطُلُ مكائدُهم وتفشل. والتعبير عن نفي ضررهم للمؤمنين بنفي ضررهم لله، للإيذان بأن مضارَّتهم بمنزلة مضارَّته، تفظيعاً لشأنها.

ثم أردف ذلك بتثبيت المؤمنين، ضمن بيان قاعدة عامة، على نهج القرآن في

---

(١) الآية المذكورة من سورة آل عمران، والتي في سورة البقرة هي قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

مثله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إذا أمركم بالجهاد وغيره، ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ بعدم الطاعة، أو بما يقتضي عدم الطاعة، من مُمالأة هؤلاء الكافرين، خوفاً منهم.

ولما بنى هذا التثبيت على إرشاد المؤمنين بالثبات على الطاعة لله ولرسوله، وتسديد الأعمال، قَرنَه بذِكرِ مصير الكافرين؛ تهويناً لأمرهم، وإيماءً لخذلانهم، ضمن نفي الغفرانِ لهم، على نهج القرآن في ازدحام المعاني في صِيَغ التراكيب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم فرَّع على مضمون ما تقدّم من تهوين أمر الكافرين وتثبيت المؤمنين، فرَّع التصريح بذلك مسبوكاً على تعليله، وقال: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: لا تَضعُفوا أو تَجبُنوا، ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ خَوَراً وجُبناً، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ بما لديكم من الحق، ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معيَّة نَصْر وتأييد في الدنيا، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾ في الأخرى، أي: يثيبكم فيها ثواباً كاملاً لا نقص فيه. وحيث كانت ثمرة جهادكم عائدة عليكم في الدنيا والأخرى، فكيف تَهِنون وتَضعُفون؟

ثم زاد في تثبيتهم بتزهيد أمر الدنيا، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثَبَات لها ولا اعتداد بها، كلعب الصبيان، يُجهِدون أنفسهم بما لا طائل تحته، وينصرفون دون الحصول لشيء.

ثم بيَّن أنهم يُوفَّون أُجورَهم إن آمنوا، فقال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ موفورة، ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ تجاه ذلك، فيَضُرّ بدنياكم.

وهذه المشاكلة والمقارنة في غاية الحُسْن، تُؤذِنُهم بأنَّ الإيمان والتقوى لا يُنقِصُ الأموال، ولا يُعرِّضها للاستغلال. وفي تعاليم القرآن عَوْنٌ على ثواب الدارين. فالمعنى:

يُؤتِكُم الله أُجورَ أعمالكم موفورةً في الدنيا ويوم القيامة، ولا يسألكم أموالكم على لسان رسوله مقابلةَ أداء الرسالة. وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

ثم تابع المعنى وعلَّله، مُبيِّناً طبيعةَ الإنسان في الحرص على المال، بقوله: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكْكُمْ﴾ أي: فيُجهِدكم بالطلب، بأن يَطلُبَ منكم حصَّةً كبيرة من أموالكم؛ ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ بها، ﴿وَيُخْرِجْ﴾ بذلك ﴿أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ أي: أحقادكم.

ثم أيَّد البيان بالواقع، وأدمَجَ فيه تفهيمَهم ضَرَرَ البخل عليهم، وتحريك النخوة والأريحية فيهم، فقال: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ النَّزْرَ اليسير من أموالكم، ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ في ذلك وهم ضعفاء الإيمان، ﴿وَ﴾ الحالُ أنّ ﴿مَن يَبْخَلْ﴾ في هذا الأمر ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لأنَّ هذا النَّزْر اليسير يُصرَفُ فيما يعود على الأمة بالنفع الكثير العميم، وله حصَّته من ذلك النفع العام، لأنَّ مَنْعَ الزكاة مثلاً يضرُّ بالمجتمع حكومةً وأفراداً ضرراً فادحاً، ويحمل كثيراً من المُعْدَمين على ارتكاب الجنايات واقتراف الجرائم، والسقوط في هُوَّة سحيقة من الانحطاط وفساد الأخلاق، وفَقْدِ القوى الفكرية والجسمانية التي هي ثروة إنسانية للأمة والمجتمع، فلا يعود نَفْعُ هذا الإنفاق إلى الله، ﴿وَٱللَّهُ﴾ هو ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عن المال، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إليه، وقد شاءت حكمتُه أن يكون النظام الاجتماعي هكذا، وأمَرَ الغنيَّ أن يعطف على الفقير تكميلاً لهذا النظام. ولو شاء لَسَوَّى بينكم في الغِنى، ولكن ذلك مخلٌّ بالنظام الاجتماعي، وتسخير بعضكم لبعض.

ثم عطف على قولـه: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [محمد: ٣٦] قولَه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ وتُعرِضوا عن الإيمـان والتـقوى ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ الله بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟

أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ في الإعراض عن ذلك. وهذا مُوجَّه إلى الكفار ضمن خطاب العموم، وخلاصتُه: أنه تعالى بعد أن بيَّن الأمور وأقام عليها البراهين وأوضَحَها بالأمثلة، قال للعموم: إن أطعتُم فلكم أجورُكم وزيادة، وإن تتولَّوا: لم يبقَ لكم إلا هلاك؛ إذ ما من نبيّ أنذر قومه وأصرُّوا على تكذيبه، إلا وقد حقَّ عليهم القول باستئصالهم بالعذاب.

* * *



مدنية، وهي تسع وعشرون آية

جاء في هذه السورة:

التنويه بشأن صلح الحديبية؛ لأنَّ قريشاً سَعَت إليه بعد بيعة الرضوان، فظهر ضعفُها وخضوعُها بعد إبائها، وبدأ تخاذلُها بعد بيعة المسلمين على الموت. وكان هذا فتحاً مبيناً للمسلمين، وتمهيداً لفتح مكة، بعد أن ألمع بالوعد به في السورة السابقة ضمنَ الحضِّ على الجهاد.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾** ﴾[1] والمراد به: صُلْح الحديبية، وهي قرية بجوار الشميسي الآن، قريباً من مكة.

قال الزهري: لم يكن فتحٌ أعظم من صُلح الحديبية، وذلك أنَّ المشركين اختلطوا بعد هذه الهدنة بالمسلمين، فسمعوا كلامَهم، فتمكَّن الإسلام في قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين بعد هذا الصُّلح خلقٌ كثير[2].

---

(١) لم تكن الفتوح الإسلامية فتوحَ استعمار وجباية، وإنما هي فتوح تحرير وهداية. كانت فتوحاً في الأرض للحرية والعمران، وفتوحاً في العقيدة للتوحيد والإيمان، وفتوحاً في الشريعة للحق والعقل، وفتوحاً في السياسة للإحسان والعدل، وفتوحاً في العلم للإحياء والتجديد، وفتوحاً في الأخلاق للكمال والتجريد. فأيُّ فتوح أعظم من هذه الفتوح، التي تتجلى فيها الإنسانية بأجلى وضوح. (المؤلف).

(٢) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ١٣٣)، والبغوي في «تفسيره» (٤: ٢٢٢).

أقول: فقويت شوكةُ الإسلام، وفُتِحَت مكةُ بعد ذلك من دون قتال ولا مقاومة؛ لكثرة المسلمين وقوتهم، لأنهم كانوا في الحديبية ألفاً وبضع مئة مقاتل، وفي مدّة الصلح أصبحوا زهاء عشرة آلاف، نتيجة الاختلاط بمقتضى وثيقة الصلح، فلما وصل جيش المسلمين إلى مكة، استسلم أهلها من دون مقاومة، ولذلك يقول الـمُؤرِّخون من الأوربيين: إن صلح الحديبية كان فتحاً لمكة. فلا شك أنَّ هذا الصلح كان فتحاً مبياً.

وقد علَّل ما تضمَّنه هذا الفتح من الصبر والثبات تجاه المشركين بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1] مما يُعاتَبُ عليه بالنسبة لعُلوِّ مقامه؛ لأنَّ حسناتِ الأبرار سيِّئاتُ المقرَّبين.

والذنب قسمان: ما يستوجب العتاب، وما يستوجب الإثم. والأول: هو المراد هنا، مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ...﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ...﴾ [عبس: ١ – ٢]، وأمثال ذلك، والله أعلم، لأن الذنب في اللغة: هو كلُّ عمل يَسْتَتْبع ضرراً أو فَوْتَ منفعة أو مصلحة، وليس خاصّاً بالمعصية.

ويجوز أن يكون الكلامُ كنايةً عن كمال الرِّضا، أي: ليرضى عنك كلَّ الرضا، ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ في الدنيا بإظهارك على عدوِّك وإعلاء أمرك، وفي الآخرة برفع مقامك.

---

(١) يجوز أن يمسَّ هذا ما كان من تلعثم المؤمنين في معاهدة الحديبية أول الأمر، وثورتهم الفكرية عليها، لِـمَا كان فيها من شروط ثقيلة، وصدّ لهم عن المسجد الحرام، حتى أنزل الله سكينته عليهم، وأدركوا أن في هذا الصلح نفعاً كبيراً، وفتحاً معنوياً عظيماً. فيجوز أن يشمل الغفران هؤلاء المؤمنين بحكم أن يُنسَبَ للرئيس ما يقع للمرؤوسين، والله أعلم. (المؤلف).

ويجوز أن يُراد بإتمام النعمة به إتمامُ الوحي، وإكمالُ الدين، أي: ليُتِمَّ لك الوحي ويُكمِلَ الدين ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾[1] بما أنزل عليك ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ فيه لك عزٌّ ومَنَعة وسلطان.

ثم بيَّن وَجْهَ هذا النصر في صُلح الحديبية وطريقة تدبيره الخفيّ، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جعل في قلوبهم الطمأنينة والثبات بهذا الصُّلح، أو تجاه شروطه الثقيلة في الظاهر، فثبَّتهم الله لقَبولها؛ ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إذ تبيَّن لهم فيما بعد حُسْنُ نتائج ذلك الصُّلح، على ما فيه من شروط ثَقُل ظاهرُها عليهم، وكان باطنُها عَيْنَ الحكمة والصواب، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو ينصركم بأنواع من النصر لا تعلمونها، منها إلقاء السكينة والثبات، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤﴾ يفعل بمقتضى عِلمِه وحكمتِه، لا بمقتضى ما تخدعكم ظواهرُه، وكان من الحكمة أن يكون الصُّلح على هذه الشروط، وإن ثَقُلَت.

ثم بيَّن نتيجةَ ازدياد الإيمان بقوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾، وفيه ردٌّ على المنافقين المشاغبين والقائلين: إننا لم نَظفَر بدخول مكة كما وعدنا محمد، بمقتضى الرؤيا التي رآها في أننا سندخل مكة آمنين مُحلِّقين؛ يشاغبون في ذلك ويروِّجون مِثلَ

---

(١) يجوز أن يكون المعنى: سيكون طريق الدعوة سهلاً مُعبَّداً بعد الفتح، يدخل الناس بسهولة فيه، ويَسْتتبُّ الأمر، وتستقيم الأحوال. وقد كان صلح الحديبية نقطة تحوّل عظيم في سَيْر الدعوة، بواسطة هذه الهدنة واختلاط المشركين بالمسلمين، ومعرفتهم لحقيقة وحقيَّة هذا الدين، فكان يقول الناس بعضهم لبعض: أَعَلى هذا النور المبين كنا نقاتل هذا الرجل؟! وأصبح المسلمون بعد ثلاث سنوات من هذا الصلح زهاء اثني عشر ألفاً، بعد أن كانوا لا يتجاوزون ألفاً وبضع مئين. (المؤلف).

هذه المُشاغَبات على ضعفاء المؤمنين. لذلك قال تعالى في إتمام البيان: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو أنَّ الله سيَخْذُلُ رسولَه والمؤمنين، وينصرهم عليهم. فردَّهم بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾، فهذا ردٌّ لهم ودعاءٌ عليهم ووعيد. وفي المثل: على الباغي تدور الدوائر. بمعنى: أن النتيجة تكون سيِّئة عليهم، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾.

ثم قرَّر الوعد بالنصر وإنجاز ما تضمَّنه قولُه: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ من الوعيد، وألمع إلى ما كان في صلح الحديبية من تدبير خفيّ في صالح المسلمين، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينصر بها مَنْ يشاء بتدبيره الخفي، ومن ذلك: ما أوقَعَه في قلوب المشركين والمنافقين من الضعف والهوان تجاه المؤمنين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾[1] فأفعاله كلُّها مَبْنيَّة على الحِكَم البالغة، وليس إمهالهم عن عَجْز في القدرة الإلهية، فهو العزيز القدير، ولكنْ لحِكَم خفيَّة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.

---

(١) ذُكِرَت هذه الجملةُ أولاً في مقام تقرير أنه سبحانه هو المُدبِّر لشؤون خلقه، فناسب أن يُذكَر بعدها: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ولـمّا كان المقامُ هنا لتهديد المشركين بأنّ في قبضته سبحانه جنودَ السماوات والأرض، كالملائكة والصواعق والطير الأبابيل، وجنود الأرض كالزلازل والغَرَق، ناسَبَ أن يُذكَرَ بعدها: ﴿عَزِيزًا﴾ أي: غالباً لا يغلبه أحد ﴿حَكِيمًا﴾ لا يُسوِّي بين المؤمن والكافر.

ثم ذكر ما أُنيط به ﷺ من الأمور، وما هو الغَرَضُ من الرسالة، وأومأ إلى استحقاق نصر المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَنْ أُرسِلتَ إليهم، ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاع منهم، ﴿وَنَذِيرًا ۝٨﴾ لمن أعرض وعصى.

ثم علَّل الإرسال إليهم على هذا الوجه بقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُفخِّموه سبحانه وتُقدِّسوه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعظِّموه وتُبجِّلوه، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تُنزِّهوه عمَّا لا يليق به، تفعلون ذلك ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾، وفي هذا الكلام خطابُ الواحد، ثم إشراكُ غيره معه، لِـمَا بينه وبينهم من ارتباط، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

والبكرة: أول النهار، والأصيل: آخره، فذكر طرفي النهار لتعميم الوقت، أي: في جميع الأوقات.

ثم نوَّه بشأن المؤمنين الذين وَفَّوْا بذلك وأعزُّوا دينَ الله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ في الحديبية على الموت بيعةَ الرضوان ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ بمعنى: إنَّ المبايعة معك مبايعةٌ مع الله، ولذلك قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1]، وهذا ترشيح لقوله

---

(١) مذهب السلف في مثل هذه الصفات والأسماء لله سبحانه التي وصف بها نفسه أو نسبها لذاته في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله: الإيمان بها من غير زيادة عليها، ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا بسمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها، ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت، وردّوا عِلمَها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلم بها، وهو الله سبحانه. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء واليد والوجه والاستواء على العرش، إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، وإثبات الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. =

تعالى: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾، مُستَعارٌ من حال المُخاطَبين في المُبايَعات والمُعاهَدات؛ لأنَّ المُتبايِعَيْنِ والمُتعاهِدَيْن يتعاقدان بالأيدي. والمراد منه: رضاء الله عنهم، والتنفيذ لمبايعتهم، وإظهار العناية بهم والتشريف لهم، وحَمْلهم على التمسُّك بهذه البيعة التي عقدت على بيع أنفسهم بالجنة، فهي بيعةٌ مع الله، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

ثم بيَّن سبحانه حُكمَه في البيعة، وقال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ أي: نقض هذه البيعة ولم يَفِ بها، ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: فإنما يعود ضَرَرُ ذلك عليه، ومنه: فَقْدُ الأجر العظيم الذي بيَّنه بقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ[1] ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

ثم أتبَعَ السياق بالكلام عن المنافقين وضعاف الإيمان المتخلِّفين عن سفرة الحديبية، فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ تخلُّفَنا هذا.

= أما مذهب الخلف: فالتأويل بالمعاني المجازية، والكنايات العرفية المنتزعة من أحوال المخاطَبين وعُرف مخاطباتهم، لأَن الله سبحانه يخاطب الناس في الكلام عن ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم ورؤسائهم وعظمائهم من الصفات والأحوال. (المؤلف).

(١) ﴿عَلَيْهُ﴾ على لغة أهل الحجاز في ضمِّ هاء الغائب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وهي قراءة حفص.

والمُخَلَّف: هو المتروك في المكان، والأعراب: عرب البادية، والمراد بهم: الذين تخلَّفوا عن صُحبة النبيِّ ﷺ في وجهته وعمرته هذه التي انتَهَت بصلح الحديبية.

وذلك أنه لما أراد المسير إلى مكة عام الحديبية مُعتمراً، وكان في ذي القعدة سنةَ ستٍّ من الهجرة، استَنفَرَ مَنْ حولَ المدينة إلى الخروج معه، وهم غِفارٌ وأسلَمُ ومُزَيْنة وجُهينة وأشجَعُ والدِّئل، حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو بصَدّ، وأحرم بالعمرة وساق معه الهديَ ليعلم الناس أنه لا يريد حرباً، فتثاقل عنه كثيرٌ من الأعراب، وإنما خلَّفهم الخِذلانُ وضعفُ العقيدةِ والإيمانِ والخوفُ من مقاتلة قريش.

فلما عاد النبي ﷺ موفَّقاً بعد هدنة الحديبية واعترافِ أهل مكة رسمياً بقوة المسلمين السياسية والحربية ندّاً لقوتهم ودولتهم، جاء هؤلاء المتخلِّفون واعتذروا من النبيِّ ﷺ، وتعلَّلوا بالشغل، فكذَّبهم سبحانه بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إنهم يعتذرون هذا الاعتذار بلسانهم، وأما قلوبهم فقد كانت معقودةً على أنك ستُغْلَب وتُقْهَر، أنت ومَنْ معك، ويتخلَّصون منكم، كما سيُصرِّح بذلك سبحانه ويَفضَحُهم بمطويات ضمائرهم ومكنونات أسرارهم.

وقد صدَّر الكلام بالتهديد والتيئيس المطويِّ على الإرشاد، فقال: ﴿قُلْ﴾ رداً لهم عند اعتذارهم إليك بأباطيلهم وطلبهم الاستغفار: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ومؤدَّى هذا الكلام: مَنِ الذي يملك التدخُّل في شؤون الله ويَصرِفُه عن إرادته تعالى؟! يُسفِّههم في طلب الاستغفار من الرسول، والله مطَّلع على سرائرهم. أي: هل يدفع التَّخلُّف مَنِيَّتَكم إن جاءت، أو الضَّرَرَ إن ألمَّ. أو المعنى: ماذا ينفعكم الاعتذار إن كان الله سبحانه يعلم ما في قلوبكم، وسيُجازيكم عليه؟!

وبعد أن أجابهم بهذا الجواب المبنيِّ على ظاهر اعتذارهم، أضربَ إلى بيان حقيقة حالهم، وما انطوت عليه ضمائرهم في هذا التَّخلُّف، وصدَّره بهذا البيان العام، فقال: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ فهو يعلم أن تعاقدكم على التَّخلُّف لم يكن لشُغلكم بأموالكم وحفظكم لها، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لأن العدوَّ سيستأصلهم ولم يبقَ مَنْ يعاتبكم على هذا التَّخلُّف، ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو أنَّ هذا التخلُّف توفيقٌ لكم من الله؛ لأنه يريد أن يحفظكم ويُهلِكَ هذه الشرذمة، ﴿وَكُنتُمْ﴾ بهذا الظنِّ والتخلُّف ﴿قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي: هالكين مُستوجبين لسخط الله وعذابه.

ثم علَّل ذلك ببيان مَنشَئه فيهم، وهو عدم إيمانهم الصحيح، وسَبَكه على الوعيد، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

ثم أيَّد إنجاز هذا الوعيد ببيان قدرته وسُنَّته تعالى في عباده، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] يتصرَّف فيهما بأمره، ومن ذلك أنه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحق غفران الزلَّات واللَّمَم؛ لغَلَبة حَسَناته كالمؤمنين، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن أحاطت به خطيئاتُه، كهؤلاء المنافقين المشركين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ ومن ذلك: تأجيلُه لعقاب المشركين والمنافقين رجاءَ أن يَثُوبوا إلى رُشْدِهم ويتوبوا.

---

(١) يجوز أن تكون الآية ناطرةً كذلك إلى طلبهم الاستغفار لهم، وقاطعةً لأطماعهم.

وعلى كلٍّ، فمثل هذه الآية في القرآن تشير إلى ما قد وضعه سبحانه من القوانين التشريعية في الكتب السماوية لمن يستحقُّ المغفرة ومن يستحقُّ التعذيب، وتومئ إلى ما في تلك القوانين التي شاءها بمقتضى الحكمة من الرأفة والرحمة المندمجة مع المصالح العامة والسنن الطبيعية للروح والبدن، لأن المالك يُراعي صلاحَ مُلكِه على أكمل الوجوه، والله أعلم. (المؤلف).

ومِثلُ هذه الآية تأتي في القرآن تصويراً لسلطان الله العظيم في خلقه. بمعنى: أنَّ بيده تعالى الغفران والتعذيب، وليس المعنى أنه سبحانه يُجري ذلك اعتباطاً وجُزافاً، فإنَّ مشيئتَه سبحانه لا تجري إلا بالعَدْل والحق، ضمن سُنن مُطَّردة بيّنها سبحانه وتعالى للبشر في كتبه على لسان أنبيائه؛ حيث بيَّنت تلك الكتب أنَّ مشيئته سبقت بتعذيب مَنْ أفسد فطرته ودسَّاها وهو الكافر والعاصي، وبغفران الزلَّات والهفوات لمن حافظ على سلامة نفسه وزكّاها وهو المؤمن الطائع، وبأن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجزَون إلا بما كانوا يعملون، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧﴾.

ثم إنه تعالى أمر النبيَّ والمؤمنين أن يسيروا إلى خيبر بعد عودتهم من الحديبية، وأن لا يسير معهم أحدٌ من هؤلاء المتخلِّفين عنها، وذكر سبحانه ما سيدورُ بينهم وبين هؤلاء المتخلِّفين من الكلام حول ذلك، فقال: ﴿سَيَقُولُ﴾ هؤلاء ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وهو أن لا يسير أحد منهم إلى خيبر، ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ إلى خيبر، ﴿كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُ﴾ أي: عندما أمرنا بالسَّير إلى خيبر بعد الانصراف من الحديبية، أمرنا سبحانه أن لا يسير معنا أحدٌ من المتخلِّفين عنها إلى خيبر، ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلۡ﴾ هو حسدٌ منكم أن لا نشارككم في الغنائم، فأنتم ﴿تَحۡسُدُونَنَا﴾ عليها وتُبعِدوننا عنها.

فأضرب سبحانه عن حكاية قولهم هذا إلى بيان منشئه فيهم، وهو جهلهم بأنَّ المؤمنين لا يقولون على الله شَطَطاً، ولا يتقوَّلون عليه، فقال: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ وهذا شأنُ الأعراب، لأنهم لم يُدرَّبوا على دقَّة الفهم وامتثال الحكم.

وبعد هذا التأديب وعَدَهم بغزوة الروم في تبوك التي ذكر الله سبحانه قصَّتها في سورة التوبة الفاضحة للمنافقين، وكانت غزوةً فيها شدَّة، فوعَدَهم بها لتكون هي المُمَحِّصة لمن أصلح نفسَه منهم، ولمن لم يُصلح نفسَه، ثم أتبع النقد بالإرشاد والدعوة إلى الرشاد، على نهج القرآن، فقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾ عنها وتتخلَّفوا ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في الحديبية وتخلَّفتُم ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾[1] لأنكم تكونون قد أضفتُم إلى ذلك التَّخلُّف هذا التَّخلُّف، فيكون إلزاماً بنفاقكم.

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين»: ص ٥١٣: «قل ـ يا رسول الله ـ للذين تخلَّفوا من الأعراب عن القتال: ستُدعَون مُستَقبَلاً إلى قتال قوم أصحاب بأس شديد في القتال، تُقاتِلونهم أو يُسلِمون من غير قتال، فإنْ تُطيعوا أمرَ الدعوة إلى قتال القوم أُولي البأس الشديد، فتخرجوا للقتال مع المؤمنين الصالحين، يُؤتِكم الله أجراً حسناً مُعجَّلاً في الدنيا؛ ومُؤجَّلاً إلى يوم الدين، مشروطاً بصحة إيمانكم وابتغائكم رضوان الله والجنة، وإن تُدبِروا وتبتعدوا عن الاستجابة لدعوة الجهاد ـ كما تولَّيتم حين دُعيتُم للخروج مع الرسول في عُمرته عام الحديبية ـ يُعذِّبكم عذاباً أليماً في النار.

وهذه الآية تدلُّ على أن باب الجهاد مفتوح للمتخلِّفين عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، وأنه يُمكِنُهم أن يَتَلافوا ما سلف منهم من تقاعس وتثاقل. وأما القوم أُولو القوّة الشديدة الذين يُدعَون إلى قتالهم، فهم جميعُ أعداء الإسلام من ثقيف وهوزان، وأهل الرِّدّة، والروم وفارس، والتتر والمغول.

وفي الآية دليلٌ على صحَّة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتالِ فارس والروم.

ومُحصَّل الكلام: أن القتال طمعاً في الغنائم ليس طريقاً لقَبول التوبة، وإنما طريق ذلك أنكم ستُدعَون إلى قتال قوم أُولي بأس شديد، فإن تُطيعوا تُقْبَلْ توبتكم، ويُؤْتِكم الله أجراً حسناً، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ولما كان السياق في تأنيب المتخلِّفين عن الجهاد وتوانيهم، استثنى من ذلك أصحابَ العاهات والأمراض، ورخَّص لهم التخلّف، فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ في التَّخلُّف عن الغزو لِمَا بهم من العذر، ولا يجوز لغيرهم.

ثم ذكر سبحانه حكمَه العامَّ الشامل للغزو، على نهج القرآن في ذكر الأحكام الخاصَّة ضمن أحكام عامة تشملها وغيرَها، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما يأمره به وينهاه، ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويُعرِضْ عن الطاعة ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ لا يخطر على بال، ولا يُصوَّر بحال.

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ الكلام الذي استطرد به عن المُتخلِّفين، عاد وتابع التفصيل عن بيعة الحديبية والتنويه بشأنها، فقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ ألّا يفرُّوا حتى الموت، وكلُّهم ثابتُ الإيمان قويُّ العزيمة ممتلئٌ حماسةً لنُصرة الله ورسوله، واضعٌ يدَه على قبضة سيفه، إيذاناً بذلك. وبهذا الرضا من الله عنهم سُمِّيت: بيعةَ الرضوان.

فلما مال رسول الله ﷺ إلى الصُّلح، كَرِهُوا ما كان من ثِقَلِ شروط المشركين في صُلح الحديبية، حفيظةً منهم على الدِّين، ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من تلك الحفيظة. وذلك أنهم كانوا حَوْل النبيِّ ﷺ يسمعون المفاوضات في عَقْد الصُّلح، ويضيقُ بعضهم بأمره صبراً؛ لتشدُّد سهيل بن عمرو مفوَّضِ قريش في مسائل يتساهل النبي ﷺ بقبولها. ولولا ثقة المسلمين المطلقة بنبيِّهم وقوة إيمانهم لَـمَا ارتضوا ما تمَّ الاتفاق عليه، ولقاتلوا ليدخلوا مكة أو لتكون الأخرى.

ومن جملة ما أثار حفيظتَهم ونَخْوتَهم مما شرطه سهيلٌ وقَبِلَه النبي ﷺ: أنَّ من أتى محمَّداً من قريش بغير إذن وليِّـه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردُّوه عليه، وقد نُفِّذ ذلك حالاً، إذْ ما كاد هذا العهد يوقَّع حتى أقبَلَ أبو جَنْدَل بنُ سهيل هذا على المسلمين يريد أن ينضمَّ إليهم ويسيرَ معهم، إذ كان قد أسلم، وكان أبوه يُعذِّبه ليفتنه، وهو يتحمَّل ويريد الهجرة فيمنعه، فلما رأى سهيلٌ ابنَه، ضرب وجهَه وأخذ بتَلْبيبه[1]، وجعل يجرُّه ليردَّه إلى قريش، وأبو جندل يصيح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أُأَرَدُّ إلى المشركين يَفتِنونني في ديني! فزادَ ذلك في قلق المسلمين، فقال النبيُّ ﷺ: «يا أبا جندل، اصبِر واحتَسِب، فإنَّ الله جاعلٌ لك ولـمن معك من المستضعفين مَخرَجاً، إنا قد عَقَدنا بيننا وبين القوم صُلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عَهْدَ الله، وإنا لا نَغدِرُ بهم».

---

(١) التَّلْبيب من الإنسان: ما في موضع اللَّبَب من الثياب، ولبب الرجل: جعل ثيابه في عنقه وصدره في الخصومة. «لسان العرب» (لبب).

ثم قال للمسلمين مُطَمْئناً لهم عن اضطرابهم: «أنا عبد الله ورسوله، لن أُخالف أمرَه ولن يُضيِّعَني»[١].

وعاد أبو جندل إلى قريش نفاذاً لعهد النبيِّ ﷺ، وأقام النبي ﷺ مُضْطرباً مما رأى من شأن مَنْ حوله من المسلمين واضطرابهم، ثم صلى، ثم قام إلى هَدْيه فنَحَرَه، ثم جلس فحلق رأسَه إيذاناً بالعمرة، وقد امتلأت نفسُه بالسكينة والرضا.

فلما رأى الناس صنيعَه، ورأوا سكينتَه، تواثبوا ينحرون ويحلقون، وإنَّ منهم من حلق، ومنهم من قصَّر، فقال ﷺ: «يرحم الله المحلِّقين». فتنادَى الناس: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلِّقين». فتنادى الناس في قلق: والمقصِّرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصِّرين». قال بعضهم: فلِمَ ظاهَرْتَ ـ يا رسول الله ـ الترحُّمَ للمحلِّقين دون المقصِّرين؟ فكان جوابه: «لأنهم لم يَشُكُّوا»[٢].

ثم تحمَّلوا وقَفَلوا راجعين، وإنهم لفي طريقهم بين مكة والمدينة؛ إذ نزل الوحي على النبي ﷺ بسورة الفتح هذه.

وروى الزهريُّ وغيرُه عن عروة بن الزبير قال: «أقبل النبيُّ ﷺ راجعاً، فقال رجل من أصحابه: ما هذا بفتح، لقد صُدِدْنا عن البيت، وصُدَّ هَدْيُنا، وردَّ رسولُ الله ﷺ رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه، فبلغ رسولَ الله ﷺ قولُ ذلك الرجل فقال: بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح، قد رضي المشركون أن يدفعوا بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية، ويرغبوا إليكم في الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم، وردَّكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أنسيتُم يوم أُحُد، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) رواه أحمد (٣٣١١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره.

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾، [آل عمران: ١٥٣] وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتُم يوم الأحزاب. ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، هو أعظم الفتوح، والله يا نبيَّ الله، ما فكّرنا فيما فكَّرتَ فيه، ولأنت أعلم بالله وأمرِه منا»[١].

أقول: ومعنى قوله ﷺ: «قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألوكم القضية»: أنَّهم رضوا أن يدفعوكم عن بلادهم باللِّين والسّلم والتفاوض دفعاً خفيفاً، ويَعُدُّوكم نّداً لهم يَعقِدون معكم مُعاهَدةَ سِلم، ناظرين إليكم قوةً مستقلة في هذه البلاد، نظيرَ قوتهم بعد أن كانوا يعدُّونكم شرذمة ثائرة، وينتظرون أن يَقْضُوا عليكم، أو أن تتفرَّقوا عن محمد ﷺ بعد قليل، أو بعد موته على الأكثر، فهذا فوزٌ سياسيٌّ عظيم. حتى قال المُؤرِّخون من الأجانب والمستشرقون: إنَّ محمداً قد فاز في صُلح الحديبيَّة على قُريش فوزاً سياسياً باهراً. وإذا لُوحِظَ أنَّ الأعراب المتخلِّفين كانوا يزعمون أنَّ النبيَّ والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه السفرة، وأنَّ المنافقين كانوا يظنُّون ذلك أيضاً، بَدَت لنا خطورةُ هذا الصلح وعظمتُه وبُعْدُ مَداه.

وقد أثبتت نتائجه أنه أعظم الفوائد الماديَّة والمعنويَّة والسياسيَّة والحربيَّة والدينية، فقد قويَ به المسلمون في عيون القبائل، وضَعُف به قوة المشركين والمنافقين، وصار العرب يَفِدون على النبي ﷺ من أنحاء قاصية، وتمكَّن المسلمون من خَضْد[٢] شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قُراهم المنتشرة على طريق الشام، واستطاع النبيُّ ﷺ أن

---

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤: ١٦٠ - ١٦١).

(٢) خَضَد الشجر: قطع شوكه. «الصحاح» (خضد).

يبعث سراياه إلى أنحاء قاصية، كنجد واليمن والبلقاء، فيليق بهذا الصُّلح أن يُسمَّى ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾، كيف وقد أدَّى إلى فتح مكة بعدئذٍ من دون مقاومة ولا نَصَب، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وصار أتباع محمد ﷺ في مدَّة هذا الصُّلح زهاء اثني عشر ألفاً، بعد أن كانوا في الحديبية ألفاً وبضع مئات.

وما قَصَصْناه عن نفسيَّة أكثر الصحابة رضي الله عنهم ورأيهم بادئ الأمر في صلح الحديبية، وكُرْهِهم له قبل أن يتبيَّن لهم عِظَمُ نفعِه: هو معنى قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ واحتملوا تلك الشروط الثقيلة على مَضَض، ولم تَهُنْ عليهم لولا أن رضيَه الرسول ﷺ، ولم تخالجهم ريبةٌ في اقتحام مكة لو أُمروا باقتحامها بعد تلك البيعة الصادقة، ولكنهم تبيَّنوا قيمة هذا الصُّلح بعد أن رأوا ثمرتَه ونتائجَه الحَسَنة آخرَ الأمر، ﴿وَ﴾ أدركوا أنَّ الله سبحانه قد ﴿أَثَـٰبَهُمْ﴾ به ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾، وفهموا أنَّ من الفتوح ما يكون بغير السيف، وما يشبه الهزيمة في بادئ النظر وظاهر الأمر، إذ ما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بالشرط الذي حَسِبتَه غُنْماً لها وخِذلاناً لمحمد ﷺ، وهو: أنَّ من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم؛ فإنَّ المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد ﷺ في حَوْزته رعايةً لعهده، وعلى رأسهم الرجلان اللذان ردَّهما النبي ﷺ إلى قريش نَفَاذاً للعهد، وهما أبو جندل وأبو بَصير الذي جرى له مِثلُ ما جرى لأبي جندل، قد شكَّلوا عصابة في طريق القوافل إلى الشام، وهي أمان في عهد الهدنة على الطرفين، فكانوا يأخذون تجارة قريش، ولم يستطع المشركون أن يشكوهم إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنهم خارجون عن ولايته بحكم العهد، ولا استطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا، لقوة إيمانهم الذي يَعرِفُ منهم النبيُّ ﷺ.

وهنا تبيَّن صدقُ نظره ﷺ في قَبول شروط قريش التي ظهرت في بادئ النظر

ثقيلةً وخسارةً على المسلمين، وتبيَّنت قريش أنها هي الخاسرة، وأنَّ الرجل الصادق الإيمان، محاولةُ حَبْسِه شرٌّ من إطلاق سراحه، فهو لا بدَّ منتهزٌ فرصةَ الفرار، مقيمٌ على الذين حاولوا حَبْسَه حرباً عَواناً هم فيها الأخسرون.

فبعثت قريش إلى النبي ﷺ تسأله بأرحامها إلا آوى هؤلاء المسلمين، حتى يتركوا الطريق آمِناً، ونزلت عما أصرَّ عليه مُفوَّضُها سهيلُ بنُ عمرو مِنْ ردِّ المسلمين من قريش إلى مكة إذا هم ذهبوا إلى محمد بغير رأي أوليائهم أو مواليهم، وسقط بذلك الشرط الذي أحفَظَ المسلمين عامةً، حتى عمرَ بن الخطاب، فثار على أبي بكر يجادله في شدَّة هذا الشرط، وآوى محمدٌ ﷺ أصحابَه، وعادَ طريقُ الشام آمِناً على قريش، واستراح محمد ﷺ من قريش بهذا الصُّلح وهذه الهدنة، ففَرَغَ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية، يُرسِلُ الرسل إلى عظمائها، بالدعوة إلى دينه، ولم يبق للدعوة الإسلامية بين العرب معارضة، فانتشرت بينهم بالسرعة، فوفدوا إلى النبي ﷺ أفواجاً أفواجاً؛ أضِفْ إلى ذلك أن عمرة القضاء وما كان فيها من أسباب الإقناع بصحَّة الدعوة المحمدية، دَعَتْ بعضَ عظماء قريش ـ مثل خالد بن الوليد وعَمْرو بن العاص ـ أن يدخلوا فيها مقتنعين بصحتها.

وهكذا تجلَّت سياسةُ النبيِّ ﷺ في قَبوله ذلك العهد الذي كَبُرَ وثَقُلَ على أقرب المقرَّبين لديه، فقد نظر ﷺ بعين البصيرة إلى عُقْباه، ووَصَل به إلى القصد الذي توخَّاه، وأنزل الله في أمره السكينة على المؤمنين، وألزمهم كلمةَ التقوى.

ولكثرة فوائد هذا الصُّلح وحُسْن نتائجه وتمهيده لفتح مكة، سمَّاه سبحانه ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ كما تقدَّم.

وقيل: بل المراد بالفتح القريب: فَتْحُ خيبر، فإنه وقع على إثر صلح الحديبية، وبقوله: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾: نفس مغانم خيبر. وعلى ما تقدَّم من أنَّ الفتح

القريب هو صلح الحديبية، يكون المراد من المغانم: فتح خيبر نفسه، كما سبق في قوله: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ [الفتح: ١٥]، والله أعلم.

ثم أشار إلى ما في عهد الحديبية قبل الفتح من حكمة وألطاف خفية، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ أي: فلم يكن ذلك التأخيرُ في الفتح عن عَجْز في القدرة، ولكنه عن حكمة بالغة.

ثم زاد في البيان عن تحقيق الوعد لهم بأن المغانِمَ والظفر بالأعداء ستتوالى، فقال: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: غنائمَ خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ وهم بنو أسد وغطفان، حيث جاؤوا لنصرة أهل خيبر، فقذف الله في قلوبهم الرُّعْب، فنكصوا راجعين.

وقيل: بل المراد: كفَّ أيدي أهل مكة عنكم بالصُّلح؛ لتتفرَّغوا إلى دعوة الناس لهذا الدين، ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الحالةُ ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعرفون بها صدقَ الرسول ﷺ في وَعْدِه إيَّاهم عند رجوعه من الحديبية، بما ذكر من الغنائم، ووَعْدِه لهم بفَتْح مكة ودخول المسجد الحرام، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بهذه الآية ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ وهو الثقة بفَضْل الله تعالى، والتوكُّل عليه في كلِّ ما تأتون وما تَذَرون.

﴿وَ﴾ قد وعدكم كذلك مغانمَ قرية ﴿أُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ الآن لحكمةٍ أرادها الله، قال قتادة: هي مكة[1]، و﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ فلا تَفْلت منكم، بل ستفتحونها بعد هذه الهدنة المُمهَّدة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ فتأجيلُه لفَتْحِها لا عن عَجْز في القدرة، ولكن لحكمةٍ اقتَضَت ذلك.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يوم الحديبية، ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ منهزمين، ﴿ثُمَّ لَا

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٢٣٤).

﴿يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ وهي غَلَبَةُ الأنبياء وظهورهم على مناوئيهم، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، فهذه سُنَّة من سنن الله، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

ثم عاد وذكر سبحانه توفيقَه لهم بذلك الصُّلح، وكيف هيَّأ أسبابه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ بالرُّعْبِ فلم يرغبوا بقتالكم، ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ بالنُّهى والتُّقى، ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني: الحديبية، ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ببيعة الحديبية وغيرها.

ومن ذلك الظفر: ما رُوي أنَّ بعض فرسان قريش حاولوا أخْذَ المسلمين على غِرَّة قبل التراضي على الهدنة، فدرى بذلك النبي ﷺ، وأرسَلَ مَنْ كَمَنَ في طريقهم وأسَرَ بعضَهم، ثم منّ عليهم وأطلقهم.

فقد روى أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه: أن ثمانين رجلاً من أهلِ مكة هبطوا على النبي ﷺ من جبال التنعيم عند صلاة الفجر ليُوقِعوا بهم، ويصيبوا منهم، فأخذهم رسول الله ﷺ، ثم أعتَقَهم، وكان ذلك سَبَبَ الصُّلح[1].

---

(١) رواه أحمد (١٢٢٢٧)، ومسلم (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٢٦٤).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: فأنتم في عناية الله وتدبيره الخفي.

ثم فصَّل سبحانه سَبَبَ مَنعِه له ﷺ من دخول مكة ذلك العام حرباً مع جُرْمِهم الفظيع، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَ﴾ صدُّوا ﴿ٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أي: وكان مكتوفاً، وذلك علامةُ الإهداء إلى الكعبة، ولكنهم لم يكترثوا، بل صدُّوه ومنعوه من ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الذي يُنحَرُ فيه، وهو مكة.

ثم ذكر سَبَبَ كفِّ أيدي المؤمنين عنهم رُغْمَ عملهم هذا، فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ يعني: المستضعفين الذين كانوا بمكة بين الكفار ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ بأعيانهم لاختلاطِهم بغيرهم أو خفاءِ أمرهم عنكم؛ لأنهم يكتمون إيمانَهم خشيةَ الأذى والفتنة، وعَجْزاً عن الهجرة، فيُخشى ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بالقتل والإيقاع بهم ضمن الكفار، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: تأسُّف أو تعيير، إذ يُعيِّركم المشركون بقَتْل مَنْ هو على دينكم، وأنتم إنما وَطِئتُموهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ منكم. وجواب «لولا» محذوف، على نهج إيجاز القرآن؛ لدلالة الكلام عليه، والتقدير: لولا ذلك لَـمَا كفَّ أيديَكُم عنهم، أو: لأَذِنَ لكم بالفتح يوم الحديبية.

ثم ذكر سبباً آخر للمنع والكفّ، فقال: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني بهم: مَنْ أسلم من الكفار بعد هذا الصُّلح، وهم كثيرون. أي: فعل ذلك ليُسلِمَ ناسٌ كثير، إذ بهذه الهدنة اختلط كفار العرب بالمسلمين، واطَّلعوا على مزايا هذا الدين، فآمنَ منهم كثير، وازداد عدد المسلمين زيادةً عظيمة.

فبعد أن كان عدد جيش الحديبية ألفاً وأربعمئة، بلغ عَدَدُه عند فتح مكة بعد عامين أوثلاثة عشرةَ آلاف، وأصبح أهلُ مكة وغيرُهم مُسْتَعدِّين لقَبول الدِّين، حتى إنَّ جيش الفتح لم يلقَ مقاومةً أبداً.

ثم عاد بالكلام إلى تأكيد السبب الأول للكفِّ، فقال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو تميَّز هؤلاء المؤمنون عن كفَّار أهل مكة ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل مكة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: بأمرنا إيَّاكم لمقاتلتهم، ونَصْرِنا إيَّاكم عليهم، وما كنا لنكفَّكم عنهم هذا الكفّ.

ثم عاد إلى تفصيل الكفِّ وإتمامه رغماً عما اعتَوره من أسباب الهياج، فقال: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[1] وهي أن لا يُغلَبوا لأحد، ولا يُذعِنوا لأحد، ولا ينقادوا لأحد، انطباعاً منهم على ذلك. ومن هذا شرطوا في الصُّلح شروطاً ثقيلة مُنْبعثة عن تلك الحميَّة حتى أزعجت عُظماءَ المسلمين وأثارت أنَفَتهم، لولا ما أُشبعوا به من الإيمان وصِدقِ وعدِ الله لهم، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ بذلك ﴿سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾[2] فقبلوا من المشركين تحكُّمَهم في شروط هذا الصُّلح؛ ليتمَّ ما أراد الله من فوائدَ جمَّة في عَقْد هذه الهدنة، رغماً عمَّا فيها من ثِقَلِ شروط المشركين.

وقد مدحهم الله على هذه التقوى، فقال: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾، ثم أشار إلى أنَّ في هذا التدبير دقائقَ الحكم، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ فكلُّ ما يأمر به وكلُّ ما ينهى عنه وكلُّ ما يفعله سبحانه: مَبْنيٌّ على علمٍ وحِكَمٍ خفيَّة.

---

(١) حميّة الجاهلية: هي الناتجة عن طَيْش وغُرور بالعظمة الكاذبة، فتحمل صاحبَها على أنْ يتحكَّمَ في غيره، ويمنعَه مما يُريدُه لـمُجرَّد إغاظته، كما فعلوا في منع المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية.

(٢) ألزمهم كلمة التقوى، أي: أمَرَهم بها ووَفَّقَهم لها، و«كلمة التقوى» هي: «لا إله إلا الله، محمدٌ رسولُ الله»، فهي التي تقي صاحبها من الشِّرك والخلود في جهنّم، وهي رأسُ كلِّ تقوى.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم ردَّ على المنافقين استهزاءَهم بهذا الصُّلح وبالانصراف عن دخول مكة، بعد أن أخبرهم الرسول ﷺ بأنه رأى في الرؤيا أنهم سيدخلون مكة آمنينَ مُحلِّقينَ رؤوسَهم ومُقصِّرين، فقال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما أراه لرسوله في الرؤيا من أنه سيدخل المسجد الحرام هو حقٌّ وصدق، وذلك أنَّ الله تعالى كان أرى نبيَّه ﷺ في المنام، وهو في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية: أنَّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام، فأخبر أصحابَه، ففرحوا، وحَسِبوا أنهم داخلون مكةَ عامَهم هذا، فلمَّا انصرفوا ولم يدخلوا مكة، قال المنافقون مستهزئين: ما حلقنا، ولا قصَّرنا، ولا دخلنا المسجد الحرام. فردَّهم سبحانه بقوله للمؤمنين: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ يعني: في العام القابل ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من كَيْد الأعداء ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ عَدُوّاً، أي: تؤدُّون سائر أركان العمرة وواجباتها بأمان.

ثم بيَّن سبب التأخير، فقال: ﴿فَعَلِمَ﴾ الله سبحانه من الصلاح في صُلح الحديبية ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾، وقيل: عَلِمَ في تأخير الفتح ودخول المسجد الحرام من الخير والصلاح ما لم تعلموا، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ وهو صُلحُ الحديبية الذي كان سبباً لفتح مكة بعد عامين أو ثلاثة من دون قتال.

وقد قال أبو بكر رضي الله عنه: ما كان فتحٌ في الإسلام أعظمَ من صُلح الحديبية[1]،

---

(١) «مغازي الواقدي» (٢: ٦١٠).

رغماً عن ثِقَلِ شروط المشركين، ولكن الناس قَصُرَ رأيُهم عما كان بين محمد وربِّه. والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعَجَلة العباد، حتى تبلغَ الأمورُ ما أراد.

وقيل: بل المراد بهذا الفتح القريب: فَتْحُ خيبر الذي كان على إثر صُلح الحديبية، فقد قَوِيت شوكةُ المسلمين وماليَّتهم، وطار بهم صيتُهم في جزيرة العرب.

قال أبو العباس ثعلب[1] في قوله ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾: استثنى الله فيما يعلم، ليستثني الناسُ فيما لا يعلمون. يريد: أنَّ الله سبحانه أراد بقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يُعلِّمهم هذا الأدبَ في أقوالهم ومواعيدهم.

ثم أكَّد سبحانه البيان في صدق الرؤيا، ببيان أنَّ الله سبحانه ناصرٌ رسولَه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ على أنَّ ما وَعَدَه كائنٌ لا مَحالة، أو على أنه رسول الله.

ويجوز في الضمير مِنْ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ أن يعودَ إلى الرسول ﷺ، والمعنى: أنه يُظهِرُ هذا الرسول ويُطلِعُه على كلِّ ما يحتاج إليه من أمور الدين؛ عقائدِه وآدابِه وسياستِه وأحكامِه. أو يعودَ إلى دين الحق الذي أرسله الله به، والمعنى: أنه تعالى يُعلي هذا الدينَ ويرفع شأنَه على جميع الأديان، بالنصر والبيان، والحُجَّة والبرهان، والبصيرة والعرفان. وهذا هو الأَوْلى بالسياق.

وعلى الأول، يكون الكلام علَّةً للنصر العزيز الذي جاء في أوَّل السورة؛ لأنَّ الرسول الذي يُرسِلُه بهذا الهدى لا بدَّ أن يُنصَر.

---

(١) أحمد بن يحيى بن سيّار الشيباني بالولاء (٢٠٠-٢٩١هـ) إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان راوية للشعر، محدثاً ثقة حجة، له: «مجالس ثعلب»، و«معاني القرآن»، و«الفصيح». «الأعلام» للزركلي (١: ٢٦٧).

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

ثم ختم السورة بتسجيل الرسالة لرسول الله ﷺ والشهادة له بها، وبمدح المؤمنين الذين تأذَّوْا من شروط هذا الصُّلح ومفاوضاته، لأنَّ النبيَّ ﷺ عندما أملى على عليٍّ رضي الله عنه كتاب الصُّلح قال: «أكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله سهيلَ بنَ عمرو»[1]، فقال سهيل: أمسِكْ، لو شهدتُ أنك رسول الله لم أُقاتِلك، ولكن اكتُب اسمَك واسمَ أبيك. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب: ما صالح عليه محمد ابن عبد الله» فثقل ذلك على المسلمين أيضاً. فشهد سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الرسول المُرسَل بالهُدى ودين الحق هو محمد رسول الله، أي: شهدتُ ـ يا سُهيل ـ وإن لم تشهد.

وقيل: ﴿مُّحَمَّدٌ﴾: مبتدأ، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملةُ مبيِّنة للمشهود به.

ثم ذكر صفاتِ المؤمنين بما يُلائم السياق، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2] أي: إنهم يُظهِرون لمن خالف دينَهم الشِّدَّةَ

---

(١) رواه أحمد (٦٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن.

(٢) أي: أقوياءُ شجعان، أهلُ بأس وجهاد، مُستَعلون بقوَّتهم وبأسهم على الكفار الذين اختاروا لأنفسهم ـ بعد معرفة الحق ـ سبيلَ الكفر جُحوداً وعناداً، بعد اتِّخاذ مختلف الوسائل لتعريفهم بالحقِّ، وهدايتهم وإرشادهم، ثم إنهم بعد رفضهم للحقِّ صَدُّوا الناس عن الدين، وقاوموا الدعاة الهُداة إليه، وبسبب ذلك يقفُ المؤمنون أمامَ الكُفّار في معاركهم الحربيَّة أقوياءَ شجعان، يُقاتِلونهم بكلِّ بأس وتضحية وبَسالة، وهم رحماءُ مُتعاطِفون متوادُّون فيما بينهم، ومن ظواهر=

والصَّلابةَ، ولمن وافقهم في الدِّين الرحمةَ والرأفةَ، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ثم تابع الوصف بقوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون من الله سبحانه ثوابَه ورضاه، ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[1] وهو نورُ الإيمان وبهجةُ مناجاة الله، يلوحُ في وَجْهِ المصلِّي الذي يقيمُ الصلاة ويؤدِّيها على الوجه المطلوب فيها، تَبْرُق به أسرَّة وجهه، مُنبِئةً عن الرِّضا والارتياح، ويظهر فيه الوقار والفتاحة، رغم رقَّة الحال ورَثَاثة الهيئة، ولا تجد مِثلَ ذلك في غيره مع جماله وكمال حاله وفخامة هيئته؛ يظهر هذا بصورة جلية لمن تدبَّر وأنار الله بصيرتَه.

ثم قرَّر ما تقدَّم من البيان عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ[2] وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ أي: إن ما ذُكِرَ عنهم في البيان السابق هو مَثَلُهم في الكتابَيْن معاً، فقد جاء فيهما عنهم مِثلُ هذا البيان.

ثم استأنف لهم بياناً آخر من حيث التكاتف والاتحاد والتآزر، وضرب لهم هذا

= تَراحُمِهم: إرادةُ الخير لكلِّ المسلمين، والتعاون على البرِّ والتقوى، والبذْل والعطاء، والمحبة والإخاء.

(١) إن الصلاة المقامة القيمة، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فيظهر أثرها في باطن الإنسان وظاهرِه، ولا سيّما في ملامح وجهه. وهذا الأثر الظاهر هو السيماء. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) أي: ذلك الذي ذُكِرَ من نعوتهم الجليلة: هو وَصْفُهم العجيبُ الشأن الجاري مجرى الأمثال في كتاب الله التوراةِ المُنزَّل على موسى عليه السلام. فالراجحُ أنَّ الوَصْفَ المُتقدِّم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ هو المذكور في التوراة، ويتمُّ الوقف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. وأما صفةُ أصحابِ محمَّدٍ ﷺ في الإنجيل، فتبدأ من قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾.

المَثَل، فقال: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[1] والشَّطْءُ: فَرْخ النَّبْت والشجر. والسُّوق: جمع ساق، وهي قصبة النَّبت، أي: إن هؤلاء المؤمنين في تلاحقهم وتزايدهم يوماً فيوماً، مثل زرع أخرَجَ فِراخَه، فتلاحقت واستوَتْ على سُوقها، حتى ساوَت الأصل وآزرَتْه، فتكامل بها وجاد، فأصبح ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوَّته وغِلَظِ سيقانه، وحُسْن منظره وبداعته وجَوْدته.

فهذا مَثَلٌ ضربه الله عزَّ وجلَّ لأصحاب رسول الله ﷺ، حيث كانوا قِلَّة في بدء الإسلام، ثم كَثُروا واستحكموا، وترقّى أمرهم يوماً فيوماً، بحيثُ أعجَبَ الناس، وكان غُرّةً في جبين التاريخ.

ثم علَّل ما تضمَّنه المَثَلُ بقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: إنما أكثرهم الله وقوَّاهم ليكون غيظاً للكفار، بتوافرهم وتظاهرهم واتفاقهم عليهم، ونشأ عن ذلك نَشْرُ دين الله وإظهاره الذي تعهَّد به سبحانه وتعالى.

ثم وَعَدَهم على ذلك بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾، و(مِن) في قوله: ﴿مِنْهُم﴾ للبيان[2]، لا للتبعيض.

---

(١) أشرقت روح القرآن على أصحاب رسول الله ﷺ، وهم من القلَّة بحيث لا يتجاوزون العشرات، وحولهم من الأعداء الألداء ألوف الألوف. ولكن هذه الروح العالية لم تزل تفعل بهم فِعْلَها، حتى جذبت تلك الشرذمة القليلة إليها العواطف والقلوب بسرعة مدهشة، ثم صارت بها صاحبة السلطان على أكثر المعمور، وذلك بعد أن أخذ الناسُ يدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً، وبلداناً بلداناً. (المؤلف).

(٢) أي: لبيان الجنس، أي: الذين آمنوا من جنس هؤلاء، فهي مِثْلُ «مِن» في قوله: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].



مدنية، وهي ثماني عشرة آية

وكلُّها آدابٌ عالية.

نزلت هذه السورة قُبيلَ أو بُعَيدَ صلح الحديبية الذي عَقَده ﷺ مع قريش، فتذمَّر بعض الصحابة وامتعض مما جاء فيه من الشروط، وأنكروا عليها، حتى اضطرب رسول الله ﷺ من ذلك. فكانت ـ أو فجاءت ـ هذه السورة تُعلِّمهم الأدبَ مع رسول الله ﷺ، ضمن بيان الآداب العامة التي احتوت عليها السورة، مُتَّصلةً بالسبب المباشر الذي نزلت فيه، وهو نداء الوفدِ له من وراء الحجرات[١].

وأخرج البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: «قدم ركبٌ من تميم إلى النبيِّ ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردتَ إلا خلافي، قال عمر: ما أردتُ خلافك، فتماريا حتى ارتفَعَت أصواتهما»[٢]، فنزل في ذلك:

---

(١) لكن المعروف أن الوفد هم وفد بني تميم، كما سيأتي قريباً، والمعروف أن قدومهم كان في السنة التاسعة للهجرة، وعلى هذا فتأريخ المؤلف رحمه الله لنزول السورة بقبيل أو بعيد صلح الحديبية فيه نظر.

(٢) رواه البخاري (٤٣٦٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ (١) وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

قال أبو عبيدة: العرب تقول: لا تُقدِّم بين يدي الرئيس وبين يدي الأب، أي: لا تَعجَل

---

(١) قال الراغب: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾: لا تسبقوه بالحكم والقول، أي: بل افعلوا ما يرسمه لكم سبحانه ويبلغكم به رسوله، كما هو شأن عباده المكرمين، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وحكى ابن جرير أن العرب تقول: فلان يُقدِّم بين يدي رئيسه، بمعنى: يعجل بالأمر والنهي دونه.

ومآل المعنى على الوجوه كلِّها: النهي عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله وسنة رسوله. ويؤيد هذا ما نقل عن ابن عباس أن معنى الآية: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وعلى هذا، فالآية تقرر أصلاً عظيماً من أصول الإسلام، وهو أن الحكم لله وحده، وهو الذي يبلغهم الرسول إياه بالكتاب والسنة. (المؤلف).

بالأمر دونه والنهي. فالمعنى: لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله، ولا تَعجَلوا به، وكونوا تبعاً له، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، ولا تنكروا عليه رأْيه لأنه مقرونٌ بالوحي.

وعلى هذا، تكون الآية أدباً قائماً بذاته، ناظراً إلى ما جَرَى في الحديبية من امتعاض.

وقال ابنُ جنِّي[1]: المعنى: لا تفعلوا ما تُؤْثرونه، وتتركوا ما أمركم به الله ورسوله.

أقول: فهي قريبةٌ من بيان حال الملائكة مع الله سبحانه، حيث يقول: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وعلى هذا، فالآية الكريمة مقدِّمة لهذه الأحكام التي تضمَّنتها السورة، تُبيِّن وجوب الاهتمام بها والعمل بموجبها، وأن لا تُقدَّمَ عليها المواضعات والعادات التي تعارضها. وإنما ذكر الرسولَ ﷺ، مع أنَّ هذه الأحكام من الله تعالى؛ لأنه مُظهِرُ الوحي بهذه الأحكام والمُبلِّغ لها.

ثم شرع بعد هذه المقدمة بوجوب توقيره ﷺ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، ثم علَّل النهي بقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾، وقد تضمَّنت هذه الآية حكماً اجتماعياً عظيمَ النفع، وهو وجوب احترام رسول الله ﷺ وإجلاله وتعظيمه، ذلك لأنه الرئيس لهذه الأمة ومؤسِّس كيانها. ومنشأ الاحترام: الشعور بأنه يمتاز بالأمر امتيازاً لا يماثله فيه أحد من المرؤوسين، والجهرُ معه في الكلام يخالف ذلك؛ لأنه إنما يكون بين الأَكْفَاءِ الذين ليس لبعضهم على بعض مزيَّة واعتلاء.

---

(١) هو أبو الفتح، عثمان بن جني الموصلي (...-٣٩٢هـ)، من أئمة الأدب والنحو، له: «المبهج»، و«المحتسب» في شواذ القراءات، و«سر الصناعة». «الإعلام» للزركلي (٤: ٢٠٤).

وخصَّ المكالمة بالذكر من بين سائر وجوه التوقير، لأنها أوضح مَظْهَر لذلك الاحترام المطلوب، وتنمِّي لهم هذا الشعور في سائر أحوالهم معه ﷺ.

فنهى سبحانه أصحاب رسول الله ﷺ أن يرفعوا أصواتهم عليه إذا كلَّموه، كما يكلِّم بعضُهم بعضاً، وأوجَبَ عليهم أن يكون كلامُهم معه بصورة يتجلَّى فيها الشعور بالاحترام؛ لأنَّ ذلك يُربِّي مهابةَ الرئيس في قلب المرؤوسين. وهي من القواعد الإدارية التربوية الصحيحة. وعدم تربية هذه المهابة يؤدي إلى الفوضى في النظام، والفشل في الأعمال، كما علَّل ذلك سبحانه بقوله: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تشعرون بذلك لدقَّة هذه النظرية الإدراية. والله أعلم. فمتى انفكَّ هذا الارتباط بين الأمة ورئيسها، تفسَّخ أمرُها، وجَنَحت إلى الانحلال وإلى الذُّلِّ والهوان تجاه الأمم الأخرى.

ولا يعارض هذا الأمر ما كان عليه ﷺ من التواضع ولين الجانب، إذ لا معارضة بين تواضع الرئيس واحترام المرؤوسين له.

وكان من أثر هذا الأدب الإلهي، ما ذكره ابنُ الزبير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من أنه كان إذا حدَّث النبي ﷺ بحديث، حدَّثه كأخي السِّرار، لم يُسمِعْه حتى يَسْتَفهمَه[1].

وما ذكره عروة بن مسعود الذي أوفَدَه قريش إلى رسول الله ﷺ في الحديبية ليستطلع لهم أمْرَه، ويتكلَّمَ معه في أمر الصُّلح، فقد قال لهم بعد أن عاد إليهم: «يا قوم، إني وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكاً قط يعظِّمه أصحابه ما يُعظِّم أصحابُ محمد محمداً»، وأخذ يُعدِّد صوراً من ذلك

(١) رواه البخاري (٧٣٠٢).

التعظيم والاحترام، حتى قال: «وإذا تكلموا عنده خَفَضوا أصواتهم، وما يحدُّون النظر إليه تعظيماً له»[١].

فقد أراد سبحانه لمحمد ﷺ أن يكون الرسولَ والرئيسَ السياسي والإداري والقائدَ المجاهد الفاتح، وأن يكون مَثَلَ الكمال في كل ذلك، كما هو مَثَلُ الكمال الأعلى في الأخلاق.

ثم أردَفَ سبحانه النهيَ عن رفع الصوت عند رسول الله ﷺ، بالترغيب في ضدِّه؛ تأكيداً له، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ[٢] عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[٣] إذ مرَّنوها عليها فتمرَّنت وظهر نجاحهم فيها. فقد عبَّر بالامتحان عن غايته، وهو التمرين. ومفاد الآية: التقدير لهم على تمسُّكهم بما أمرهم الله به من غضِّ أصواتهم عند رسول الله ﷺ لِـمَا عندهم من تقوى الله والتمسُّك بأوامره. ولذلك سجَّل بقوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣﴾، فهذه الكرامة في مقابلة تلك الطاعة والتقوى.

ثم ذكر ما كان السببَ المباشر لنـزول هذه الآية، وهي حادثة الوفد الذي كلَّم رسولَ الله ﷺ من وراء الحجرات. وآيات الأحكام والآداب يُراعى في نزولها المناسبات والحوادث المنطبقة عليها، لتكون أكثر تأثيراً في النفوس، باقتران الحكم التشريعي

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣١)، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) أي: يخفضونها أدباً معه ﷺ.

(٣) الامتحان في الأصل: إذابة الذهب ليَخلُصَ إبريزُه [وهو الحلي الصافي من الذهب] من الخبث وينقى منه. ويطلق الامتحان على الاختبار والتجربة، يقال: امتحن فلان فلاناً لأمر كذا فوجده قوياً عليه. وهذا يستلزم التمرُّن من جانب المُمتَحَن، والمعرفة من جانب المُمْتَحِن. وقد تضمَّنت الآية السابقة التحذير من رفع الصوت، وتضمَّنت هذه الآية الترغيب في لين القول. (المؤلف).

بالواقع، فتُقرِّر الآية حكماً عاماً مستمرَّ المَدَى، بمناسبة حادثة خاصَّة، هي من ضمن ذلك الحكم ومُنزّلة عليه.

وهكذا كانت حادثةُ الوفد في أمر نزول هذه الآية، وذلك أنه وَفَدَ إلى النبيِّ ﷺ وفد من الأعراب أهل البوادي الخَشِني الطباع والآداب، فكانت صورة طلبهم لمقابلة النبيِّ ﷺ لا تتفق مع الآداب الاجتماعية الصحيحة الراقية، سيَّما مع النبي ﷺ، فإنهم جاؤوا إلى الحُجرات ـ وهي دار النبي ﷺ؛ إذ كان لكلِّ زوجة من زوجاته رضوان الله عليهنّ حجرةٌ خاصَّة بها ـ ونادَوْهُ من وراء الحجرات أن يخرج إليهم، كما هي عادة أهل البوادي فيما بينهم. فشنَّعت الآية عليهم أفظع تشنيع، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾، ومن خصائص الإنسان ومـميِّزاته: العقل والدراية، فسَلْبُ هذه الصفةِ عن أكثرهم تشنيعٌ فظيع، وتهجينٌ شنيع.

ثم بيَّن ما كان يجب أن يتبعوه إرشاداً لهم وتعليماً، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لِـمَا في ذلك من رعاية حُسْن الأدب وتعظيم الرسول. وقد سبق بيانُ فائدة مثل ذلك اجتماعياً وإدارياً.

ومفاد الآية: أن يجلسوا في المحلِّ المُعَدِّ للانتظار، وهو المسجد إذ ذاك، حتى يحين وقت خروجه، وحينئذ يتقدَّمون إليه باسم مَنْ أوفَدَهم من القبائل.

ولـمّا نقدهم بهذا النقد المرِّ، وشنَّع عليهم بهذا التشنيع، استكانت نفوسُهم، وشعروا بخطئهم الفاحش، ففتح لهم باباً واسعاً للتوبة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ وفي هذا الأسلوب التربوي من الآداب الصحيحة والقواعد السامية ما يقف الفِكرُ خاشعاً عن تدبُّره؛ لأن الحَمْل على التوبة وإصلاح النفس بعد توليد هذا الشعور فيهم، له أثر فعَّال في تربية النفوس.

والآيات تُلهِمُ أنَّ المسلمين حينئذ كانوا أصنافاً مع النبيِّ ﷺ، فكان بعضُهم لا يحتشم في مجلِسِه ومخاطبته، وبعضهم يَتَسرَّع في إبداء الرأي والبَدْءِ بالعمل قبل أن يُؤْمَر، وبعضُهم يعرف قَدْرَه العظيم وشأنه الرفيع ﷺ، لِمَا كان من قَدَمِ إيمانه به ورسوخِه، فيلزمُ الأدبَ والحشمة معه ﷺ، ويقف عند الحدود الواجبة عليه في حضرته ﷺ.

وواضح أنَّ هذا الحال جارٍ في البيئة البدوية، إذ لم تتعوَّد أن تتقيَّد بمثل هذه الآداب. وكان الكبير والرئيس يُخاطَبُ منها مخاطبة الندِّ للندّ، وبدون استعمال ألفاظ توقيرية، فنزلت هذه الآيات تؤدِّب المسلمين عموماً بأحسن الآداب وأكمل الأخلاق، التي تعود عليهم بالنفع العميم والفائدة العُظمى، وتُعلِّمهم النظم الاجتماعية الكبيرة الأثر في المجتمع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

وبعد أن ذكر هذه الآداب تجاه النبي ﷺ، ذكر أدباً آخر من آداب هذه السورة، يُصلح به هذا المجتمع، وهو ما يجب على الأفراد والجماعات تجاه المشاغبين والمفسدين لذات البَيْن، ومُروِّجي الإشاعات الكاذبة المسبِّبة للفوضى والذعر والخلاف، وعرَّض بالمنافقين الذين استغلُّوا ما استثقله المؤمنون من شروط المشركين في صلح الحديبية، وزادوا الأمر اضطراباً بالنقد والتهييج، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾، وقد ضمَّن ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ معنى: تحذروا، وعدَّاه تعديتَه.

فالآية لا تجيز لنا التسرُّع في هذا الموقف، ولا الغفلة فيه، بل سلكت مسلك الحكمة، فأمرتنا أن نَتَرَيَّث ونَتَبيَّن الأمر بالتحقيق عنه، كي لا نصيبَ من جرَّائه قوماً بجهالة فنندم، ولا نُؤْخَذَ على غِرَّة فلا نسلم، فما أعظم ارتياح النفس لهذا التعليل.

ولزيادة الحَمْل على التمسُّك بهذا الأدب الاجتماعي العظيم، عَنْوَنَت المُخاطَبين بالإيمان؛ حَفْزاً لهم وإشعاراً بأنَّ من يدَّعي الإيمان يجب أن يتمسَّك بهذا الأدب. وعَنْوَنت هذا المُخبِر بالفاسق، تنديداً بما انطوى عليه من الأخلاق السيِّئة والقَصْد الخسيس، وتنفيراً منه ومن العمل بكلامه وأخذه بالاعتبار؛ لأنَّ الفسق هو الخروج عن الخطَّة التي رَسَمَها الله لعباده[1].

وإنما اختيرت كلمة ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ على كلمة (تريَّثوا)؛ لِـمَا فيها من الدلالة على وجوب اكتشاف حقيقة الأمر والبحث عنه، فهي متضمِّنة للمعنَـيَيْن معاً، أي: تثبَّتوا وتعرَّفوا حقيقة الأمر قبل أن تبنوا عليه عملاً، خشيةَ ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ

---

(١) الفسق: الخروج عن حجر الشرع. مأخوذ من قولهم: فسق الرطب؛ إذا خرج عن قشره. وخطر الإخبار لا ينحصر في ناحية الفسق وتعمّد الكذب، بل يجيء من نواح أخرى، فقد يكون الرجل عَدْلاً لكنه لا يعرف كيف يسمع الأخبار ولا كيف ينقلها، فلا يحسن السمع ولا يحسن الأداء، وقد يكون الرجل عدلاً ذا غفلة فتدسُّ إليه الأخبار من الكاذبين وينقلها على ظن الصدق. وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار حيث لا يشعرون، فيضرون أو يتضررون.
ولبعض مَهَرة الكاذبين حِيَلٌ تخفى على أشد الناس تثبيتاً من الأخبار، وكثيراً ما يقع عَدَمُ التثبيت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر، يجيئهم من ناحية استبعاد أن تكذب بطانتهم عليهم، وهو مدخل عظيم للخطر، فالذين هم في أشد الحاجة إلى العمل بهذه الآية هم الذين بيدهم مقاليد الأمور.
وتؤذن الآية بأنه يجب على المؤمنين أن يتعلموا طرق الكشف عن الأخبار، ويُروِّضوا أنفسهم عليها. (المؤلف).

﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، فكم دم أراقته وشايةُ السوء، وكم حريم استُبيح بنميمة نمّام، وكم صَفِيَّيْنِ تَقَاطعا، وكم أليفَيْن تهاجَرا، وكم زوجَيْنِ تفارقا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وفي الكلام إلماعٌ إلى ما حدث في صُلح الحديبية من رواج بعض المشاغبات من المنافقين، ألمع به ضِمنَ تأديب المؤمنين في سماع الأخبار في هذه القاعدة العامة.

ثم عاد إلى تأكيد ما تضمَّنته مقدمةُ السورة من الحَمْل على التمسُّك بما سيذكر فيها من الأحكام، بعد أن بيَّن حكمَيْن منها؛ لأن ذلك العَوْدَ والالتفاتَ والتذكير أوقَعُ في النفس، وأعلى في البلاغة، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: رسولاً من عند الله يأتيكم منه بأحكام وتعاليم في إصلاح أحوالكم، وسعادة مآلكم، ولو كانت تخالف بعض رغباتكم، إذ ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الذي ترغبون به ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لهلكتُم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ومحصَّل الكلام: إنَّ الذي جاءكم بهذه الأحكام والآداب لتُبدِّلوا بها أخلاقكم الواطئة الموروثة، وعاداتكم الخاطئة المألوفة، هو رسولُ الله، جاءكم بها من عند الله العليم الحكيم، الذي يعلم ما يَصلُحُ لكم ويُعينكم على إكمال المطلوب منكم، وإنَّ كثيراً مما تميلون إليه وورثتموه عن أسلافكم فيه ضررٌ كبير عليكم، وحطَّةٌ لنفوسكم، وأنتم لا تشعرون. فلو تُرِكْتُم على أهوائكم وميولكم هلكتُم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[1] بالفطرة وبما يُرغِّبكم به على لسان رسوله، وبيَّنه لكم في هذا الكتاب

---

(١) أي: حبَّب وكرَّه بما طبعناكم عليه من معرفة الحق من الباطل، وألهمناكم به من التفريق بين الفجور والتقوى. والله أعلم. (المؤلف).

المبين، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بمعونة محافظتكم على سَلامة فِطَرِكم، ونور بصيرتكم، واستعدادكم الطبيعي للنظر الصحيح، والفكر المستقيم، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ[1] ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[2] بذلك الاستعداد، وبما أبانَ لكم في ثنايا هذا الكتاب، من نتائجها السيِّئة وعواقبها الوخيمة في الدنيا والأُخرى.

ثم مجَّد هؤلاء المحافظين على سلامة فِطَرِهم، وعلى التمسُّك بما جاءهم عن الله بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾، وهذه جملة معترضة عجَّل بها بين المعلَّل والتعليل الذي ضمَّنه امتِنانَه عليهم بما أودَعَ فيهم من هذه الغريزة الدينيَّة المحبِّبة للإيمان، والمكرِّهة للعصيان، وبما أرسل لهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب للإرشاد والبيان، فقال: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: إن ذلك التحبيبَ والتكريهَ من فَضْل الله على عباده بهذين الأمرين، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ يضع الأمور والسنن الطبيعية حَسَبَ علمه الواسع، وحكمته البالغة، ويضع الأحكام كذلك، فالكلام تقريرٌ لِمَا قبله، وتمهيدٌ لِمَا بعده، على نهج القرآن في ذلك.

فمفاد هذه الآية: إلزامهم بتوطين العقول على قبول هذه الآداب والأحكام

---

(١) أي: بغَّض وقبَّح إليكم الكفرَ بالله عزّ وجلّ بالتكذيب للحقّ وتغطية نِعَم الله بالجحود، والخروج عن طاعته وأحكام الشرع ممّا يدخل في كبائر الإثم، والمعاصي التي لا تتجاوز حدود الصغائر. كما في تفسيري «المعين».

أو الفسوق هنا: الكذب كما قال ابن عباس، والعصيان: كلُّ ذنب، فهو من عطف العام على الخاصّ. والأول الذي اخترتُه في «المُعين» أَوْلى.

(٢) يجوز أن يكون (حبَّب) و(كرَّه) عِوَضاً عن (أوجَبَ) و(حرَّم)، على نهج القرآن في مثله. وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ اعتراض مُعَجِّل بين التعليل والمُعلَّل، على نهج القرآن كذلك. (المؤلف).

الإلهية في هذه السورة، وإن كانت مخالفةً لأهواء بعض النفوس التي أفسدت طبيعتها بمفاسد التربية الواطئة الخاطئة؛ لأنَّ هذه الأهواء تعود بالضرر العظيم على المجتمع، فلو انحدر البشر أفراداً وجماعاتٍ مع ميولهم المختلَّة، وضُرب عنهم الذِّكرُ صَفْحاً؛ فسد نظام العالم، وانحلَّت عُرى الأخلاق، وساءت المعاملات، وأدى الأمر إلى اختلالٍ في الطباع وتَدَهوُر في الأرواح، كما ذكرت لنا الكتب السماوية عن انقراض كثير من الأمم، نتيجةَ اعتمادهم على مواضعاتهم الخاطئة، ومعتقداتهم السيِّئة، وانحدارهم مع ميولهم وأهوائهم، وإعراضهم عن أحكام الله التي جاءتهم بها الرسل من الله؛ لتُعينَهم على نَيْل الغاية التي خُلقوا لها، وهي الكمالُ في الأخلاق، والرُّقيُّ في الأرواح، للتقرُّب من الجنة والتباعد عن النار، تلك الغاية التي هي الهدف الأسمى والمقصد الأعلى من خلق الإنسان، والطريق الوحيد إلى السعادة في الدارين والاطمئنان.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ثم أمر سبحانه وتعالى بحكم اجتماعيّ آخر عظيم، وهو وجوب التدخُّل في حلِّ النزاع القائم بين الجماعات والقبائل والأمم والدُّوَل، أردَفَ به ما سبق من وجوب تبيُّن نبأ الفاسق، إذ ربما ينشأ عن هذا النبأ نزاع وخصام، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ[1] مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ بطرق سِلمية لم يُعيِّن صُوَرَها القرآن، وكلُّ شيء لم يُعيِّن صورتَه يُحيله إلى العُرْف في كلِّ عصر. فيجوز أن يكون اليوم بصورة الإرشاد والنصائح في النشرات والجرائد، أو إرسال وفود للتسوية وحلِّ النزاع، أو مقاطعة

(١) الطائفة: الجماعة من الناس.

المعتدين في المعاملات، إلى أمثال ذلك من الصور التي يُحدِثُها الزمن في عالم الاجتماع والسياسة. والصُّلحُ لا يتحقق إلا في السعي بإزالة أسباب النزاع والخلاف سعياً صحيحاً منطقياً جارياً بمقتضى علم ودراية عالية بأصول الاجتماع في العصر.

فإن فشلت الطرق السلمية وَجَبَ أن يُعتَمَدَ على الطرق الحربية، فقال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى ترجعَ إلى حكم الله والحق العادل، ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي: ومتى استَسلَمَت الجائرة، وارتَدَعَت عن الغيّ، ونزلت عند ما يُمليه عليها العَدْل؛ جاء دَوْرُ تسوية المشاكل، فأمرهم سبحانه أن يُسوُّوها بطريقة عادلة جداً، فيُراعَى حقُّ الضعيف، كما يُراعَى حقُّ القوي، ويُسوَّى الأمرُ الصغير كما يُسوَّى الأمرُ الكبير، حيث قال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، ثم قال: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ والإقساط: أدقُّ صُوَر العَدْل، وقد أكَّده وبالغ فيه ونَدَب إليه. ولَعْمري إن كان لكلمة «عصبة الأمم» أو «مجلس الأمن» أو «هيئة الأمم المتحدة» أو «الجامعة العربية» وأمثال ذلك معنًى صحيحٌ، فيجب أن تستمد قوانينها من هذه الآية العظيمة الشأن.

ولكن أين تلك النفوس السليمة التي تشعر بشعور صحيح حتى تفعل ذلك؟ هذا ما لا يُرجى في هذه العصور المُظلِمة التي قد فَسَدَت فيها النفوس، والتي يسودُ فيها مبدأ «الحق للقوة، وليس للضعيف حق في الحياة»، ذلك المبدأ الذي ينشأ عن الطبيعة البهيمية والهمجية ومنطق الغوغاء، ويخالف الطبيعة الإنسانية مخالفةً شنعاء، وهو من مواضعات الهَمَج وقواعدهم.

وهكذا يكون حال البشر إذا رُدَّ إلى أسفل سافلين، واعتمد على عقله المُحرَّف المسلوب، وترك شرائع رب العالمين، وما يُنزله على البشر بواسطة أنبيائه من التعاليم،

تلك الشرائع التي تُحتِّمُ على النوع الإنساني أن يحنوَ ويعطف القويُّ منه على الضعيف، ويُشفِقَ عليه منتهى العطف والشفقة. وقد قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في أول خطبة بعد الخلافة: «والضعيف عندي قويٌّ حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيفٌ حتى آخذ الحق منه»(١).

ومن مباحث دقة البلاغة في الآية: إسنادُ الاقتتال والمقاتلة لواو الجماعة؛ لأن ذلك يقوم بالأفراد، وكذلك الإصلاح؛ لأنَّ المكلَّف به إنما هو جميع الأفراد، ولا يسقط عن الجميع حتى يقوم أهلُ الحلِّ والعقد بإنجازه، فإذا لم يقوموا به وَجَبَ على جميع الأفراد أن يحملوهم عليه ليبرؤوا من عُهدة هذا الواجب.

واستعمل ضمير التثنية في قوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا﴾؛ لأن مُتعلَّق الصلح والبغي مجموعُ القبيلة، وإنما يكون ذلك على أيدي المفوَّضين منها أو الرؤساء.

ثم أردَفَ وجوبَ إصلاح ذات البَيْن في الجماعات، بوجوب إصلاح ذات البَيْن في الأفراد أيضاً، على أسلوب القرآن في تعقيب الحكم السابق بما يؤكِّده، ويقرِّر حكماً جديداً، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾، فهذه الآية بحسب السياق تعليلٌ وتأكيدٌ لسابقتها، وبحسب الصيغة بيانُ حكم جديد، على نهج القرآن في مثل ذلك. فأكّدت هذه الآية وعلَّلت وجوبَ إصلاح ذات البيْن في الجماعات، وحثَّت عليه باسم الأخوة، استفزازاً للشعور الذي يحمل الأخ أن يتألَّم لأخيه، وتضمَّنت حكماً جديداً، أفرَدَه بالتقرير لكثرة حدوثه، وهو وجوب إصلاح ذات البين في الأفراد. ولم تبيِّن هذه الآيةُ خطةً معيَّنةً للإصلاح كما فعلت الآية السابقة

---

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٣: ٢١٠).

ـ لأن الإصلاح بين الأفراد لا ينجرُّ إلى القتال، كما في الإصلاح بين الجماعات ـ، وإنما أحالته هنا إلى العُرْف؛ ليكون بحسب مُقْتضيات الأحوال باختلاف العصور.

وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تهديدٌ دقيقٌ يحمل على وجوب التدخُّل في هذا الإصلاح، وأن تكون التسوية بصورة عادلة جداً، فلا يُلتَزَمُ جانب القوي ويُهْمَلُ جانب الضعيف، بل يُلتَزَمُ العدل، ويُجْتَنَبُ الجور.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

ثم أدَّبهم سبحانه بأدب آخر اجتماعيّ جليل، يؤدّي إلى حُسْن المعاشرة، وقطع دابر المنافرة، وإلى التآلف والتوادِّ بين الأفراد والجماعات، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ والسخرية: الاستخفاف والاستهانة، وإذا حرِّمت بين الأقوام حرِّمت بين الأفراد.

وقد أشار التعليل إلى أن التمايز الحقيقي لا يكون بالمظاهر الخلَّابة، ولا بالمراكز المغصوبة، ولا بما أفاض الله على العبد من سَعَة الرزق. وإنما التمايز بتفاضُل الأرواح والأخلاق والأعمال، ولا سيَّما ما يعود منها بالنفع العام على الناس.

ثم أردف العامَّ وهو القوم مطلقاً، بخاصٍّ منه وهو النساء، اهتماماً به؛ لأنَّ هذه الحالة في النساء أكثر منها في الرجال، فقال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾؛

لأنَّ مناط الخيريَّـة ليس ما يظهر للناس في الصُّور والأشكال والزيِّ والهندام، التي يدور عليها أمر السخرية غالباً، ولا سيَّما بين النساء، وإنما المقياس الصحيح للتفاضل ما ذكرناه مما أشارت إليه الآية. وقال الزمخشري: إنما أتى بصيغة الجمع دون الفرد استفظاعاً للشأن الذي كانوا عليه.

وبعد أن نهاهم عن السخرية، نهاهم عن اللَّمْز كذلك، لأنه من فصيلتها، وصاغ العبارة بصورة إجراء الوحدة في النوع مجرى الوحدة في الشخص، إيذاناً بوجوب أن يكون المؤمنون كنفس واحدة، فقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] واللَّمْز: الاستخفاف والاستهجان، ولا يقتصر على اللسان، بل يكون بالعين والإشارة أيضاً. والتعبير بالنفس يُؤذِنُ بأن المراد من الأقوام والنساء أفرادُهما، على نهج القرآن في توضيح أول الكلام بآخره، والعكس.

ثم نهاهم عن النَّبْز بالألقاب كذلك، فقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ وهو القَذْفُ باللقب المُشْعِر بالذم، يرتاب منه صاحبه ويستنكر ويستكين.

وقد ذكر سبحانه حُكمَه في المتعاطين لهذه الأمور بصيغة التأنيب والتهجين، فقال: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ والاسم في اللغة: الذكر والوصف، يعني: أنّ مَن فعل ذلك يكون فاسقاً بعد أن كان مؤمناً. وبئس الحال في الإنسان أن يُوصَف بالفسق بعد أن كان موصوفاً بالإيمان. والفسوق: الخروج عن حدود الشريعة وأحكامها.

---

(١) أي: لا يَعِبْ الإنسانُ أخاه في وجهه بكلامٍ ولو خفيّ؛ لأنكم كالجسد الواحد، فمَنْ آذى نفسَ أخيه المسلم فكأنما آذى نفسَه، ومن يَلْمز غيرَه يُعرِّض نفسَه للانتقام منه باللَّمْز، فهو إذْ يلمزُ الناس يتسبَّب في أن يلمزوه، ورُبَّ لَـمْزٍ خفيٍّ أشدُّ من طعن صريح، لأن فيه معنى استغباء الملموز واستغفاله، فكأنه لا يتنبَّه إلى الطعن المُوجَّه ضدّه في رمز الكلام وحركات الوجه.

ثم حثَّ على التوبة بصيغة تتضمَّن التهديد للمُصرِّين والمتمادين في ذلك، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: لأنفسهم بتعريضها للعذاب والجزاء الشديد.

ثم أمر سبحانه وتعالى المؤمنين باجتناب أُمور أُخرى من قبائح الأخلاق والأحوال، هي أمراض اجتماعية فتَّاكة بالمجتمعات فتكاً ذريعاً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وقد تضمَّنت الآية تنويعَ الظن إلى أنواع ثلاثة: الأول: فيما هو خفيٌّ بهيم، وهو الكثير الذي يجبُ اجتنابُه حذراً من أن يصيب بجهالة أو بهتان. والثاني: ما هو مقطوع بإثمه، وهو البعض الذي يؤدِّي حتماً إلى الفساد وإلى الأضرار الفادحة والأحقاد. والثالث: ما هو مباح، وهو القليل الذي لا ينتج عنه ضرر، ويكون فيه حَزْمٌ وحذر.

ثم قَرَنَ الأمرَ باجتناب الظن، بالنهي عن التجسُّس المُنْبعث عنه غالباً، فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ والتجسُّس أنواع؛ منه السياسي، والاجتماعي، والتجاري، والشخصي، وغير ذلك. وكلُّ أنواعه منهيٌّ عنها، إلا إذا كان تجسُّساً على الأعداء في الحروب؛ لأن ذلك من مُتمِّمات الأمور الحربية المأمورين باتباعها، أو تجسُّس المراقبين الذين تفوِّضهم السلطة الإدارية لمراقبة ما يعود بالنفع على المجتمع، أو دفع الضرر عنه، فيُرجى أن يكون مِثلُ ذلك مُغتَفراً. والله أعلم.

ثم قرن النهيَ عن التجسُّس بالنهي عن الغيبة، وهي أن تذكر أخاك بما يكره، فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ سواء كان ذلك صراحة أو إشارة أو كناية. أي: لا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره أن يُذكَرَ به وإن كان فيه، فإن لم يكن فيه فذلك هو البهتان، وهو أقبَحُ من الغيبة وأشدُّ إثماً.

ثم شبَّه الغيبة تشبيهاً ضمنياً بأكل لحم الميت؛ مبالغةً في التنفير منها والتقبيح لأمرها، وصاغَ العبارة بصيغة الاستفهام التوبيخي التبشيعي، للتنبيه على مكان الغفلة عن قُبح هذه الخصلة وبشاعتها، فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾، ثم أردَفَ الإنكار بما لا نزاع فيه، وهو تقرير القبح، وقال: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

ومن أساليب القرآن أن يذكر هو الجوابَ بعد الاستفهام، إذا كان معلوماً ومسلَّماً به، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، وكذلك قوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فأفاد أن كراهة مِثلِ ذلك أمرٌ مُقرَّر لدى النفوس، فيجب أن تكون فظاعة الغيبة الشبيهة به أمراً مقطوعاً به أيضاً، على طريقة قياس النظير. فقد نبَّه النفوس إلى ما لا تُنكِرُ قُبحَه وبشاعَته، ثم قاس عليه ما لم تكن تَنتَبِهُ له، لأنها قد استَساغَتْه وألِفَتْه بتأثير العادة والتكرار.

والكناية بأكل اللحم عن الغيبة من خصائص اللغة ودارج الكلام.

ثم فتح باب التوبة للمتلبِّسين بهذه الخصال، دعوةً لهم إلى التوبة والإقلاع عنها، بعد أن أشفع النهي بالتحذير، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره، واجتناب مناهيه، وتوبوا إليه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يعفو عمَّن تاب وأناب إليه، رحمةً منه وفضلاً.

ولما كانت الخصالُ المنهيُّ عنها من السخرية وما يتبعها مُنْبعثةً في النفس عن توهُّم الترفُّع على الغير، أردفها ببيان مبدأ المساواة بين البشر، وأنه لا أحدَ خيرٌ من أحد إلا بالتقوى. فجعل الآية بحسب السياق: مضمونها تعليلاً لمضمون ما سبقها، وبحسب الصيغة تقريراً لحكم جديد، على نهج القرآن في مثل ذلك، فذكر هذا الحكم العظيم من الأحكام الجليلة التي جاءت في هذه السورة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ والمراد: إما آدم وحوّاء، وإما صِنفا الذكر والأنثى. ويجوز أن

تكون في الآية إشارتان؛ الأولى: إلى المساواة في أصل الخلقة، والثانية: إلى أن الإنسان مخلوق من ماءٍ مَهينٍ بين ذكر وأُنثى، فلا يليق به أن يَتَفاضل ويتكبَّر، وإنما الكبرياء والعظمة لله.

ثم بيَّن تعالى أنَّ الحكمة والغَرَض[١] من تقسيم الناس إلى قبائل وطوائف إنما هو التعارف لا التفاضل، فقال: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ[٢] لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ لا لِتَناكَروا وتتفاخروا، وإنما ليَسهُلَ التعارفُ فيما بينكم؛ لأن كلَّ كثرة يجب لدى الذهن أن تقسم إلى أقسام، وتُصنَّف إلى أصناف، حتى يمكنَ تمييزُها والإلمامُ بها أو ببعض أصنافها أو أفرادها عند الحاجة. فالغَرَضُ من التشعيب هذا التعارُفُ والتعاون وصلة الأرحام، لا التفاخر وما يُفْضي إليه من تمايز وتنافر.

ثم بيَّن وَجْهَ التفاضل الحقيقي بين أفراد الإنسان، فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣]؛ لأنَّ التقوى هي التي تَسْمو بالنفس الإنسانية نحو الكمال، وبتفاوتها

---

(١) أما الحكمة فنعم، وأما الغرض فلا، إذ لا غَرَضَ لله تعالى في أفعاله، كما تقدَّم بيانه مراراً.

(٢) ﴿شُعُوبًا﴾: جمع شَعْب ـ بفتح فسكون ـ، وهو الجمع العظيم من الناس المنتسبون إلى أصل واحد عُرِفوا به، ويَتَشعَّب منه قبائل، ومن القبائل عمائر، ومن العمائر بطون ...، ومثَّلوا للشعب بخزيمة وربيعة ومضر، ومن خزيمة: قبيلة كنانة، ومن ربيعة: قبيلة بكر، ومن مضر: قبيلة تميم، إلى غير ذلك.

(٣) خُلق الإنسان للكمال الروحي والخلقي، ولهذا جعله آخر المخلوقات. وقد فطره الله سبحانه مستعداً لذلك الكمال، ولكن هذا الاستعداد إنما يخرج من القوة إلى الفعل بالتربية الصحيحة والمران الطويل على سبيل هذا الكمال ومناهجه، والإدمان المستديم على ذلك. وبقدر ما يحصل عليه الإنسان منها، تكون قيمته الشخصية الحقيقية.

وأقصى ما وصل إليه الإنسان من هذا الكمال: مرتبة أولي العزم من الرسل، التي وصل إليها أولئك الرسل الكرام، ويليها مرتبة الصدِّيقين، ثم... وثم... =

تتفاوت الدرجات في صلاح النفوس والأرواح، ذلك الصَّلاح الذي هو مصدرُ كلِّ خير وسعادة في الحياة الدنيا والحياة الأخرى.

وقد جاء عن النبي ﷺ في تقرير مبدأ المساواة، قولُه في خطبة الوداع: «أيها الناس، إنَّ ربَّكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فَضْلَ لعربيّ على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمَرَ على أسود، ولا لأسوَدَ على أحمر، إلا بالتقوى. إنَّ أكرَمَكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلَّغت؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «فَلْيُبلِّغ الشاهدُ الغائب»[١].

فالناس ـ في نظر الدين الإسلامي ـ سواسية كأسنان المشط[٢]، على حدِّ تعبيره ﷺ. فلم يُبِحِ الإسلام أيَّ تفرقة سوى تفرقة الكفاءة الناشئة عن العمل الذي يقدِّمه الإنسان لربه ونفسه ووطنه والناس أجمعين.

ومن التقوى: الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله[٣].

= وهذه التربية الصحيحة المطلوبة إنما تكون على الأسس التي وضعها سبحانه وتعالى في شريعته، وأنزلها في كتبه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام، فإنه أنزلها لتنمية هذا الاستعداد في البشر، وإخراجه من القوة إلى الفعل، ليحصل على ما خلق له، وهو الكمال الإنساني، والخلق الروحاني. وهذا هو مؤدى التقوى؛ لأن هدفها القِيَمُ السامية والـمُثُل العليا، إذ الإنسان لن يكون إنساناً بدون ذلك، ولو أحرز القوة والسلطان، ولا عبرة بالأنساب والألوان. (المؤلف).

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٨٩) من حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، ـ وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، ـ وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣: ١٠٠)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٩٥)، وابن عدي في «الكامل» (٣: ٢٨٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) التقوى يريد بها القرآن: مراعاة صلاح ما بين الله والناس، وما بين الناس بعضهم مع بعض. ولذلك تدور هذه الكلمة في آيات الأخلاق والاعتقاد والاجتماع، والمراد بها: أن يتقي الإنسان كلَّ ما فيه ضرر لنفسه أو لغيره من الناس. هذا هو مبدأ المساواة الذي ولد قبل أربعة عشر قرناً =

ثم ختم الآية بما يحثُّ على التزام التقوى، والتَّجرُّد من حسِّ التَّرفُّع على الغير واحتقاره، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ولما أنكر سبحانه على التفاخر بالأنساب والقبائل، وأبطل التفاضل إلا من طريق التقوى والإيمان، ندَّد بالأعراب أهل البوادي، الذين يَعظُمُ عندهم شعور المُفاضَلة بين شعوبهم وقبائلهم، ولم يتأثّروا بأصول هذا الدين في الاتحاد والمساواة؛ ندَّد بهم وبإيمانهم، وعَرَّض بالمتخلِّفين منهم عن الحديبية، مُلمِعاً إلى أنَّ الإيمان ليس بالقول وحده، بل بما

= على مهد الإسلام في بلاد العرب التي كانت تعدّ أشدّ الأمم تباهياً بالأنساب وتسامياً بالآباء. وقد تخاصم أبو ذر الغفاري وعبد زنجيّ في حضرة النبي ﷺ، فاحتدّ أبو ذر على العبد، وقال له: يا ابن السوداء، فغضب النبي ﷺ وقال له: «طفّ الصاع، طفّ الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح». فوضع أبو ذر خدَّه على الأرض، وقال للأسود: قم فطأ على خدي. تكفيراً لقوله هذا. ومعنى «طف الصاع»: خَفِّف الكيل، يريد: لا تترفع عليه بنسبك ومركزك. (المؤلف).

والحديث رواه أحمد (١٧٤٤٦) عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقال مخرِّجوه: حديث حسن.

انعقد عليه القلبُ وصدَّقه العمل، فقال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ وقيل: نزلت في نفر من بني أَسَد قدموا إلى المدينة في سنة جَـدْب، فأظهروا الشهادتين، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان. يريدون الصَّدقة، ويمنُّون عليه بأن أسلموا، فـردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إذ ليس الإيمانُ كلمةً تجري على اللسان، وإنما هو روحٌ يملك على الإنسان قلبَه ونفسَه وإحساسَه، ويدفع به إلى التضحية واحتمال البلاء في سبيله.

فالإيمان هو التصديق المقارن لطمأنينة القلب، والتمسُّك بمقتضياته، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لَـمَا مَنَنـتُم بما فعلتُم، كما ينبئ عنه آخر السورة، ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ فالإيمانُ محلُّه القلب، والإسلامُ محلُّه اللسان، أي: دخلنا في زُمْرة المسلمين، فإنَّ الإسلام انقيادٌ ودخولٌ في السلم، وقد دخلتُم في الملَّة بالشهادة التي تحقن الدم، وتصونُ الأموال، وأسلمتم فقط، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ بَعْدُ، وذلك لأنَّ الذي يؤمن بعقيدة ونظام ـ فرداً كان أو جماعة ـ مُضْطرٌّ بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى في تأييدها ونشرها، وببذل جهده في ذلك. وإذا رأيتَه لا يسعى هذا السعي فهو كاذب في دعواه، ولـمَّا يدخل الإيمان في قلبه على الوجه الصحيح.

والنفي بـ(لـمَّا) الدالة على التوقُّع يُشعِرُ بأنَّ الإيمان يتدرَّج في القوة، وبأنهم سيؤمنون إيماناً كاملاً بالتدريج الطبيعي فيما بعد؛ لأن الإيمان نتيجة، والعرفان يبتدئ صغيراً وينمو حتى يتكامل.

ولقد دعاهم إلى الإيمان الحقيقي بقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص والعمل الصالح ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أي: لا ينقصكم[1] ﴿مِّنْ﴾ جزاء ﴿أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾، بل

---

(١) تقول العرب: لاتَهُ يليتُه، بوزن: باعه يبيعُه؛ إذا منعه شيئا ممّا يستحق. ولهذا الفعل صيغة أخرى =

يجازيكم على أعمالكم الصَّالحة أكمَلَ الجزاء، ويغفر لكم ما سَبَق من أعمالكم السيِّئة؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِـمَا فَرَط من التائبين، ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ بالتفضُّل عليهم.

ويجوز أن يكون معنى الآية: أنه سبحانه لا يغمطهم من إسلامهم هذا شيئاً على بساطته وعدم نضوجه، والله أعلم.

ثم بيَّن لهم حقيقة الإيمان الصحيح الكامل في معرض الرد على ادِّعائهم الإيمان، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: لم يَشُكُّوا، وذلك لا يكون إلا بالإيمان الصحيح الذي تخالط بشاشتُه القلوبَ، فتصبح نزَّاعةً إلى الخير نفَّارةً عن الشَّر؛ لأنَّ الإيمان الصحيح يكون له سُلطان على النفوس، وعلى تَصرُّف إرادتها، فإذا آمنوا ذلك الإيمان ظَهَر أثرُه في نفوسهم، فتمسَّكوا بمبادئه وعملوا الصَّالحات ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في سبيل نشر الدعوة إلى ما أنزل الله على عباده من التعاليم، ليتَّقوا شقاء الحياتين، وينالوا سعادتهما، فهم يجاهدون في سبيل ذلك بأموالهم وأنفسهم، بنفس راضية مطمئنَّة، طلباً لمرضاة الله وإصلاحاً للأمم، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ في ادِّعائهم الإيمان. وفي هذه الفقرة تعريضٌ بالمتخلِّفين من الأعراب عن السفر إلى الحديبية.

ومُحصَّل المعنى: أنه سبحانه وتعالى يقول: ليس الإيمان هو ما زعمتُم من قول لا يوافقه عَقْدُ القلب، ولا تُؤازِرُه الأعمال، وإنّما الإيمان الذي يقبله سبحانه ويُباعِدُ بين أهليه وبين النار: هو تصديقٌ خالص لا أثر للريب فيه حتى تظهر ثمراته على الجوارح بالطاعة، وأداء ما فَرَضه الله سبحانه من التكاليف البدنية والمالية، والتضحية بالنفس

= تنطق بها بعض قبائل العرب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، يقال: آلت فلان الشيء يألِتُه، بوزن: ضربه يضربُه، أي: نقصَه، والمعنى: ما نقصناهم.

والمال في سبيل الله. وهو إعلاء كلمة الله، وتمكين الحق، ودفع البغي، وعمارة الأرض، وتطهيرها من الفساد والظلم. فالذين هذه خصالُهم وهذه أعمالُهم هم الصَّادقون في دعوى الإيمان، أما الذين لم يتدرَّجوا بإيمانهم إلى هذا الميزان، والذين تخالف أعمالُهم مبادئَ الإيمان ليسوا بمؤمنين حقاً؛ لأن الإيمان الصحيح يسيطر على الأعمال، ويَقْسرُها على مبادئ القرآن. والعُرْفُ يُنـزِّل من لا يتمسَّك بمقتضيات أمر من الأمور منزلةَ المرتاب فيه وإن ادَّعاه. والقرآن إذا ذكر المؤمنين وصفهم بسلامة العقيدة وكمال الخُلق وصلاح العمل، لأن ذلك هو ملاك الإيمان.

وقد أرشَدَتْنا الآية إلى أن ما يسمَّى في العُرْف إيماناً، وهو الإيمان الذي لا سلطان له على النفوس، ولا تأثير له في إصلاح العمل، لا يُعدُّ إيماناً، ولا يُعْبأ به، وهذا الضرب من الخِذلانِ يَعرِضُ لكثير من أرباب الأديان عند فساد الحال. وقال الأستاذ الإمام[1]: لا يمسُّ الإيمانُ قلبَ أحد إلا كان أولَ أعماله تقديمُ ماله وروحه في سبيل الإيمان[2].

ثم أكد الإنكار على هؤلاء الأعراب في ادِّعائهم الإيمان جَهالةً منهم بحقيقة الإيمان، أو إخفاءً لنوايا ومآربَ يرمون إليها من وراء تلك الدعوى، فقال: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: بكيفيَّة دينكم. والتعبير بهذه العبارة عن ادِّعائهم الإيمان، إنما هو للمبالغة في ردِّ دعواهم، والتشنيع عليهم، إذ كيف يدّعون ذلك، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾؛ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. أي: فماذا تفيدكم تجاه علم الله الواسع هذه

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) «تفسير المنار» (١٠: ٤٠).

الدعوى الجوفاء، والله يعلم من الإنسان خَطَراتِ نفسِه وهواجسَ حسِّه، لا تخفى عليه منهم خافية؟

ثم تابع المعنى مُندِّداً بامتنانهم على النبيِّ ﷺ بإسلامهم، فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ فقد قال وفدُ بني عبد الأسد للنبي ﷺ: «أتيناك قبل أن تُرسِلَ إلينا»[1]: يعدُّون إسلامهم منّةً عليه، جهلاً منهم بحقيقة الإسلام وأنَّ لهم ما كسبوا وعليهم ما اكتسبوا، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ولو كانوا يفقهون ذلك لتبيَّنوا أنَّ إسلامهم ليس منّةً عليه، وإنما هو منّةٌ منه عليهم، وفَضْلٌ منه كبير، إن كانوا مؤمنين حقاً. وقد أرشدهم إلى ذلك بقوله: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بما أودع فيكم من العقول، وأرسل لكم الرسول، وذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ في ادِّعاء الإيمان.

ثم ختم السورة والسياق ببيان أنَّ أعمال البشر ونواياهم هي تحت مراقبة الله تعالى، لا يغيب منها شيء عنه، ويُجازيهم عليها؛ إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشرّ، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ فلا تخفى عليه أعمالكم ولا نواياكم، ويعلم المؤمن وغيرَ المؤمن، والمسلم وغيرَ المسلم، فلا تُفيدُ الدعاوى الفارغة والتمويهات الباطلة شيئاً.

* * *

(١) «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» لابن حبان (١: ٣٦٥)، وهي ضمن كتابه «الثقات» (٢: ٩٠).

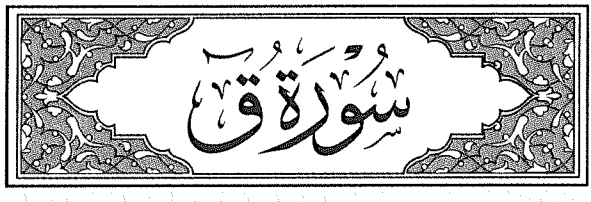

مكية، وهي خمس وأربعون آية

جاء فيها إنكار المشركين للحشر وإثباته عليهم بالدليل، ثم إنذارهم بعذاب الدنيا والآخرة.

وقد تردَّد السياق في ذلك، حتى ختم السورة بأمره للنبي ﷺ بالصبر على تكذيبهم له، وأن يستعين بالصلاة؛ لأنها أحسنُ مُعينٍ على الصبر والثبات.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿قٓ﴾ مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدئ بها بعض السور، في أوَّل البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لتنبيه الفِكرِ وإثارة الشعور إلى ما يأتي بعدها اهتماماً به. وقد عزَّز ذلك بالقَسَم مبالغةً في التقرير، فقال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ أي: الكريم[1] والسالم من النقد والتقصير.

وجوابُ القَسَم محذوف، على نهج إيجاز القرآن لدلالة ما بعده عليه، تقديره: إنك لرسول الله، وما جئتَ به حقّ، وإنَّ البعث حقٌّ واقع لا مَحالة. لكن القرآن ـ بحسب أسلوبه ـ أضرَبَ عن هذا الجواب إلى الإنكار على إنكارهم ذلك، وإلى إثباته بالدليل، فقال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ[2] مِّنْهُمْ﴾ أي: من قومهم ومن أنفسهم، مع أنَّ ذلك أقرب إلى التلقِّي بالقبول، فالصيغة تُؤذِنُ بشدَّة الإنكار عليهم، والتهجين لهم والتجهيل.

---

(١) صاحب المجد والشرف، الرفيع المقام، العليّ المنزلة.

(٢) رسولٌ مُحذِّر يُخوِّفُهم من عذاب الله وعقابه المُعجَّل والمُؤجَّل بعد أن بلّغهم وأقام الحججَ عليهم ورغَّبهم، ولكنهم أصرُّوا على جُحودهم وعِنادهم

ثم حكى عَجَبَهم ممَّا أنذرهم به من البعث والحساب بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ (١) ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نرجع إلى سيرتنا الأُولى؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾(٢) ينكرون ذلك ويستبعدونه.

فردَّ سبحانه على استبعادهم هذا بما يناسبه ويُقرِّر ما يستبعدون، وهو أنَّ الله سبحانه حافظٌ لعَجْم الذَّنَب الذي يُعادون منه، أو لجميع أجزائهم بعد الموت، ومُحصٍ لسائر أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ومُجازيهم عليها، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحومهم ودمائهم، وتُبليه من عظامهم، وما تُفْنيه من ذلك جزءاً بعد جزء، وذرَّة بعد ذرَّة، فسنردُّها كلَّها عليهم، أو سنردُّهم من عجب الذنب عندما نُحييهم في الحياة الثانية، ونُرجعهم إلى سيرتهم الأولى.

ويجوز أن يكون المعنى ـ والله أعلم ـ: قد عَلِمْنا ما تنقص الأرض منهم بالإفناء، وما تتركه بالإبقاء، وهو عَجْم الذنب الذي منه يعاد الإنسان في الحياة الأخرى، وهذه الخلية لا تفنى وإن حُرق الجسم بالنار، أو أكلَتْه السِّباع، أو ابتلعَتْه البحار، وهو أدقُّ من أن يُدرَك بالمنظار.

ثم بيَّن تعالى عِلمَه الواسع فيهم، فقال: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾ يحفظ لهم وعليهم كلَّ شيء عملوه في الدنيا(٣)، ولكنهم لا يصدِّقون.

---

(١) ﴿هَٰذَا﴾ الإنذار، ﴿شَىْءٌ﴾ أمرٌ وشأن، والعجيب: ما يُدهش ولا يُصدَّق. وهو على وزن: فَعيل، بمعنى اسم الفاعل مُعجِب، للمبالغة من مصدر: أعجب.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ البعث المهدّدون به، ﴿رَجْعٌۢ﴾، يقال: رجع فلان الشيء، بوزن: ضرب، أي: أعاده وردّه. فالرجع: الإعادة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨] أي: إرجاعه، ﴿بَعِيدٌ﴾: في نهاية البُعدِ عن الإمكان والعادة، فهو مستحيل لا يصدَّق. وكثيراً ما يعبَّر عن الاستحالة بالبُعد.

(٣) هو اللوح المحفوظ، فيه جميع الأشياء المقدَّرة.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ﴾ منه ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ أي: في حَيْرة واضطراب[1] لعدم تصديقهم بقدرة الله على ذلك.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

ثم بصَّر ونبَّه إلى دليل قدرته البالغة التي لا يكون البعث في جانبها إلا أمراً يسيراً، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا[2] وَ﴾ جعَلْناها مُحكَمةَ الصنع والإتقان، ﴿مَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ أي: ليس فيها وَهْيٌ ولا خَلَل، فعبَّر عن الخلل بالفُروج، لَـمَّا عبَّر عن خلق السماء بالبناء. والفُروج: هي الشقوق والصدوع في البناء. ويجوز أن يكون قد استعار لذلك صفة الثوب المتخرِّق.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: أوسَعْنا فيها، وجعلناها صالحةً للسُّكنى والمعاش، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ثوابت؛ كي لا تَضْطرب في سَيْرها، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي: من كلِّ صنف من النبات ﴿بَهِيجٍ ۝٧﴾ والبهجة: الحُسْن الذي له رَوْعة عند الرؤية.

ثم علَّل الأفعال المذكورة بما له تعلُّق بالموضوع، فقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ أي: إنما فَعَلنا ذلك ليتبصَّر ويتذكَّر قدرةَ الله البالغة كلُّ عبد راجع في

---

(١) والمراد: أنهم شديدو الاضطراب، حتى كأن حالهم هو الذي اضطرب، فهو مثل: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] أي: راضٍ بها صاحبُها رضاً كثيراً، حتى كأنها هي الراضية.

(٢) أي: جمّلناها وحسّنّاها بالكواكب.

أعماله وأقواله إلى ربِّه، متفكِّراً في بدائع صُنعه، يُدرِكُ أن الحشر في جانبها يسير، وأما الكافر فله قلب لا يفقه، وعَيْنٌ لا تُبصِر، إذ قد أفسد فطرتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة والتقليد.

ثم تابع الكلام في دلائل القدرة، وضمَّنه تفصيلَ كيفيَّة الإنبات من كل زوج بهيج، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾ أي: كثير المنافع ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ﴾ ذوات أثمار ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ أي: وحَبَّ الزرع الذي من شأنه أن يُحصَدَ ويُدَّخَرَ للقوت. وتخصيص حَبِّه بالذِّكر لأنه المقصود بالذات. ويجوز أن تكون الإضافة على حدِّ قولهم: حقّ اليقين، ومسجد الجامع، أي: من إضافة الموصوف إلى الصفة، بمعنى: الحبِّ المحصود.

ثم عطف على «الجنَّات» قولَه: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ أي: مُتراكِبٌ منضَّد بعضُه فوق بعض؛ يُريد حُسْن التنضيد وكثرة ما فيها من الثمر. والباسقات: العاليات أو الحوامل.

قال أبو السُّعود: وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في «الجنَّات»، إنما هو لبيان فَضْلها على سائر الأشجار، وتوسيط «الحبِّ» بينهما؛ لتأكيد استقلالها وامتيازها على البقية[1].

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾؛ لينبِّه سبحانه إلى موضع نِعَمِه التي لا تُحصى.

ثم أكمل المعنى بقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ ليقيس عليه قياس النظير بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾ أي: وكما أحيينا الأرض بالمطر حتى أنبتت من كل زوج بهيج، بعد أن كانت يابسة قاحلة، كذلك نُحيي الموتى ونبعثهم من قبورِهم، بعد أن يكونوا تراباً.

---

(١) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٨: ١٢٧).

وهذا هو محطُّ دليل الردِّ عليهم، وإثبات إمكان البعث والنشور، فالقرآن العظيمُ ينبِّه إلى المشابهة بين فَصْل الربيع وزمن البعث والنشور، فكما يختصُّ زمن الربيع بإنعاش الإنبات وإحياء النبات كذلك زمن النشور، زمنٌ خاصٌّ بإحياء الأجسام، وكما لا يستبعد على زمن الربيع ما يستبعد على زمن الشتاء من عجائب الإنبات، كذلك زمن البعث والنشور يغاير أزمان هذه الحياة الدنيا بما يلائم هذه الظاهرة ويساعدها. والله أعلم[1].

قال أبو السُّعود: وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن حياة الموتى بالخروج، تفخيمٌ لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، وتحقيقٌ للمُماثَلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس[2].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

وتوعَّدهم بما جرى على أمثالهم من المكذِّبين، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ (٣) وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (٤) ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ (٥) وَقَوْمُ

---

(١) الزمان لا تأثير له، وإنما هو ظرف لوقوع التأثير بقدرة الله تعالى. وانظر جواب الأستاذ الشيخ عبد الكريم تتان المتقدم أول الكتاب (١: ٤٣٩).

(٢) «تفسير أبي السعود» (٨: ١٢٧).

(٣) أي: أصحابُ البئر التي كانوا مقيمين حولها. وقيل: هم أصحاب الأخدود المذكورون في سورة البروج. وقد جعل المؤلف أصحاب الرسّ من قوم شعيب كما سيأتي، وهو بعيد.

(٤) هم قوم من العرب خالطوا الأعاجم. ولوط: هو ابن أخي إبراهيم، حاميٌّ، ولم يكن من القوم الذين دعاهم، فعُبِّر عنهم بالإخوان، لأنه تزوَّج منهم وعاش معهم. انظر الآية ٢٦ من سورة العنكبوت.

(٥) أصل الأيْكة: الشجرة كثيرة الأغصان. والمراد هنا: بقعة كثيرة الأشجار بين ساحل البحر =

تُبَّعٍ (١) كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ (٢) فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: عذابي الذي أوعدتُهم به، وهو عذاب الاستئصال، أي: فأنجزتُه فيهم.

ومن مباحث اللفظ: خَطْفُ ياء المتكلِّم في «وعيدي»، والاستغناء بالكسرة عن كتابتها بالرسم، وذلك من أساليب القرآن وإملائه ورَسْمِه الخاص.

وأصحابُ الرَّسِّ وأصحابُ الأيكة: من قوم شعيب، والرَّسُ: اسمُ بئر لهم، والأيكة: هي الأشجار المشتبكة المتكاتفة.

ثم فرَّع على تكذيبهم الشامل لتكذيب الحشر، بما تضمَّن الإنكار على تكذيبهم، وإثبات قدرته على الحشر، وذلك بطريقة الاستفهام الإنكاري أو النافي، فقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعَجَزْنا عن الإبداء حتى نَعجِزَ عن الإعادة. ومفاد الكلام: أنَّ الإعادة كالإبداء، فمن يقدر عليه يقدر عليها.

= الأحمر ومَدْيَن، وكان نبيُّ الله شعيب أُرسِلَ لِمَدين ولأصحاب الأيكة، فكفروا فأهلكهم الله سبحانه، ولذا قال سبحانه في سورة الحِجْر: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [٧٩]. أي: مَن أُرسِل إليهما شعيب.

أما أهل مَدْيَن فعُذِّبوا بالرجفة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، وفي قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧].

وأما أصحاب الأيكة فعذِّبوا بعذاب يوم الظُّلّة المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، والظُّلّة: غمامة كبيرة لجأوا إليها من شدّة الحر، فأمطرت عليهم ناراً، فاحترقوا جميعاً.

(١) انظر الآية ٣٧ من سورة الدخان ص١٧.

(٢) نسب إلى كلِّ قوم تكذيب الرسل، لأن تكذيبهم واحداً يعني تكذيب الجميع، إذ دعوتُهم واحدة، لا خلاف بينهم فيها.

ثم أضرَبَ عن الإنكار عليهم إلى تقرير حالهم، فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: هم في شكّ وشبهة في الإعادة، غير مُدْرِكين أنَّ الإعادة كالبدء، والذي يقدر عليه يقدر عليها، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم أكَّد البعث والحساب وقرَّره بما يكون من مراقبة الله سبحانه لأعمال الإنسان في هذه الحياة، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي: ما يخطر بباله ويلوح في هواجسه، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ أي: نحن أعلَمُ بحاله ممَّن كان أقرَبَ إليه من عِرقِ عنقه. فتجوَّز بقرب الذات عن العلم به؛ لأنه من موجباته، وذلك من خصائص اللغة. ويصحُّ أن يراد بالقُرْب معناه الحقيقي، أعني: قرب الوجود، لأن الذي لا يتحيَّز ولا يتحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة، فهو تعالى قريبٌ بذاته[1] من كلِّ شيء إيجاداً ومَدَداً. والله أعلم. وقد يأتي البحث عن هذا في سورة الواقعة[2].

ووَجْهُ تأكيد دلالة هذه الآية على الحشر والحساب: أنه سبحانه لم يُحصِ هذا إلا

---

(١) تقدَّم التعليق على استعمال هذه اللفظة (٢: ٢٧٠).

(٢) تكلم المفسِّر عن ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، ونقل كلام محمد عبده في تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ...﴾ وقد تقدم أيضاً (١: ١٠٣).

ليحاسبنا عليه، وخصَّ الهواجس بالذكر؛ ليكون ما عَدَاها من الأعمال والأقوال داخلاً بالأَوْلى.

ثم ذكر سبحانه أنه مع عِلمِه الواسع به وبشؤونه، وكَّل به مَلَكَين يحفظان عليه عَمَلَه، إلزاماً للحُجَّة، فقال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ وهما مَلَكان يتلقَّيان عمله فيكتبانه كما يكتب المُمْلَى عليه.

ثم صوَّر وضعيَّتَهما منه تقريراً للمعنى، فقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: أحدهما قعيدٌ عن اليمين، والآخر قعيدٌ عن الشمال.

ثم بالغ في تقرير ذلك وتأكيده، فقال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: رقيبٌ مُعَدٌّ للحِفظِ عليه، فإن كان القول خيراً كتبه صاحب اليمين، وإن كان شراً كتبه صاحب الشمال. وإنما خصَّ «القول» بالذِّكر ليدخل «الفعل» في الحكم بطريق الأَوْلى، فتكون دلالة الكلام عليه أقوى.

وبعد أن ذكر إحصاء الأعمال عليه في هذه الحياة، ذكر الموت ليتوصَّل به إلى ما بعده من الحشر والحساب والجزاء، فقال: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ أي: ما كنتَ تميل وتنفر منه. وسكرة الموت: شدَّته الذاهبة بالعقل. والمراد من الحق هنا: الحكمة والغاية الجليلة، وهي البعث والحساب اللتان ذكرهما بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: وأُذِنَ[1] بالقيامة والبعث، وذلك ما كنتم توعدون به.

---

(١) لم يصرح المؤلف بالمراد بالصُّور، وقد ورد ذكر الصُّور في عدَّة آيات، هي: (الأنعام ٧٣، والنحل ٨٧، الكهف ٩٩، وطه ١٠٢، والمؤمنون ١٠١، ويس ٥١، والزمر ٦٨)، وقد تأوَّل بعضهم الصُّور بأنه جمع صورة يُنفَخُ فيها روحُها فتجيء. ونقله الحافظ في «الفتح» (١١: ٣٦٧) عن أبي عبيدة في «المجاز» (١: ٤١٦). ثم قال: «وقال الأزهري: إنه خلاف ما عليه أهل السنة =

ثم ذكر دور الحساب، فقال: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ يحثُّها على السَّيْر لموقف الحساب، ﴿وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ يشهد عليها بما شاهده من حالها، وهما المتلقِّيان اللذان سبق ذكرُهما ـ والله أعلم ـ ويقال له: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ المآلِ عندما كنتَ في الدنيا، أو في إنكار له، ﴿فَكَشَفْنَا﴾ اليوم ﴿عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ بوقوفك عليه ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: قويٌّ حادّ، يكنّى بذلك عن اطِّلاعه على الأمر بجلاء، يقابل به غفلته عنه في الدنيا، ويندِّمه عليها.

وقوله: ﴿فَكَشَفْنَا﴾ معطوف على الجمل السابقة كلِّها؛ من مبدأ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾. وكلمة ﴿هَٰذَا﴾[1] يشمل الجملَ كلَّها بما فيها الموت، وهو مبدأ هذا الطور من بعد الحياة الدنيا. والله أعلم.

وقد استعار الغطاء للحاجب له عن أحوال المعاد، وهو الغفلة عنها والانهماك في الماديات الدنيويّة، وقَصْر النظر عليها. وتُؤْذِنُ الآية أنَّ تعلّق الروح بهذا البدن كالحجاب لها، يمنعها من رؤية الأمور الغيبيّة، وبانفصالها عن البدن بالموت يزول ذلك

= والجماعة». وردَّه الطبري (١١: ٤٦٣) قائلاً: «الصواب من القول عندنا: ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ»، يعني: في أنه بوق على الحقيقة، وذكر الأحاديث في ذلك.

وقال ابن كثير (٣: ٢٧٦): «والصحيح أن المراد بالصُّور: القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام».

وقال القرطبي (٧: ٢٠): «والصُّور: قرن يُنفَخُ فيه، وليس جمع صورة كما زعم بعضهم، أي: ينفخ في صُوَر الموتى... والأمم مُجمِعة على أن الذي ينفخ في الصور إسرافيل عليه السلام.

قال أبو الهيثم ـ عقبة بن خيثمة النيسابوري شيخ الحنفية المتوفى سنة ٤٠٦ ـ: من أنكر أن يكون الصور قرناً فهو كمن ينكر العرش والميزان والصراط، وطلب لها تأويلات». انتهى.

(١) في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

الحجاب، وينكشف لها الغطاء، فتُبصِرُ ما كان عنها خفيّاً من تلك الأحوال في عالم الغيب، كما جاء عنه ﷺ: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[١].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم ذكر ما يكون من أمر الشاهد وحِفظِه لأعماله، فقال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: هذا كتابُ أعماله حاضرٌ لديّ، يدلُّ على ما كان يعمل في الدنيا.

وبعد أن انتهت المُحاجَّة، جاء الحكمُ من الله تعالى، فقال: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ﴾ متجاوزٍ للحقِّ ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ شاكٍّ في الله وفي دينه[٢]، ذلك الكافر ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[٣].

---

(١) قال العراقي في «تخريج الإحياء» ص١٣٥٨: «لم أجده مرفوعا، وإنما يُعزى إلى علي بن أبي طالب». قلت: رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧: ٥٢) من قول سفيان الثوري.

(٢) الراجح في معنى ﴿مُّرِيبٍ﴾: أنه مُشكِّكٌ لغيره في الله وفي دينه بوساوسه، كي لا يتكرَّر معنى: ﴿كَفَّارٍ﴾ المتقدِّم، والتأسيسُ أَوْلى من التأكيد.

(٣) قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ...﴾ أي: اطرحا في جهنَّم كُلَّ مَن اتَّصَفَ بصفة من هذه الصفات السِّتّ: الصفة الأولى: شديد الكفر منهمك في التكذيب وجحود النعم، الصفة الثانية: أنه مُعانِد لله فيما أمر به، يعرف الحق ويردّه بجرأة ووقاحة. الصفة الثالثة: أنه دائم الصَّدِّ والمنع للخير أن يصل إلى نفسه أو غيره، فهو لا يُحسِنُ إلى عباد الله بماله أو حاله أو قاله أو جاهه، الصفة الرابعة: أنه ظالم متجاوز للحدِّ، الصفة الخامسة: أنه مُشكِّك لغيره في الله وفي دينه، بوساوسه، الصفة السادسة: الذي جَعَل مع الله إلهاً آخر يعبده من دون الله.

وبعد أن بيَّن أهم الأسباب التي بُنيَ عليها الحكم، كرَّره بقوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ يخاطب الواحد وهو مالك، أو الجمع ـ وهم الخَزَنة ـ بلفظ الاثنَيْن. وذلك من أساليب العرب وخصائص القرآن، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الخامسة).

وقيل: بل الخطاب للمَلَكَين المُوكَّلَين به في قوله: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، وإسناد الإلقاء إليها من ذِكرِ السبب وإرادة المسبَّب.

ثم ذكر سبحانه ما يكون من اعتذاره عند صُدور هذا الحكم عليه، بأنَّ الشيطان قد أغواه، ولكنه طَوَى الاعتذار مكتفياً بالجواب عنه، على نهج القرآن في الاكتفاء، فقال: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ والمرويُّ عن ابن عباس ومجاهد وقتادة: أن المراد به قرينٌ آخرُ غير الذي مرَّ[1]، فهما متفقان في الوصف مختلفان بالنوع، فالأول: هو الذي حفظ عليه أعماله، والثاني: هو الذي أغواه وأطغاه، كالرئيس والحَبْر والكاهن والداعي والمُبشِّر والمعاشر، فيقول معتذراً: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ باستكراه، ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ عن طريق الحق والصِّراط المستقيم، لفساد غريزته بمفاسد التربية وسوء التقليد، فكان مُستَعِدّاً بذلك للغَواية والطغيان.

فردَّ عليهم سبحانه وتعالى و﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟﴾ اليوم ﴿لَدَىَّ﴾ بمعاذيركم، فلا عُذْرَ لكم، كيف ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾؟ وهو ما قدَّمه سبحانه وتعالى إلى الإنس والجنِّ من أنواع البيان عن هذا اليوم، على لسان رسله وفي كتبه المُنزَّلة. وقد أجمَلَ الكلام عن الخصام؛ اعتماداً على ما مرَّ بيانه مراراً في القرآن، على نهجه في مثل ذلك، وإنما أتى بصيغة الجمع في إرادة الصنفين؛ لأنَّ كلًّا منهما جمعٌ كبير.

---

(١) انظر «زاد المسير» لابن الجوزي (٤: ١٦٢).

ثم يأّسهم سبحانه وأسكَتهم بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: لا تبديل لحكمي وقضائي ولا لسُنَني ونظامي، وقد أكمل ذلك ببيان أنه جارٍ على مقتضى الحق والعدل، وليس فيه ظلم ولا جَوْر، فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾، يريد سبحانه أنه لم يخلقهم بهذه المثابة، وإنما خلقَهم مستعدّين للهدى والكمال، والوصول إلى السعادة بأسنى العقيدة وأشرف الخصال، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسَهم بإفسادهم لطبيعتها وتعريضها لهذا الشقاء.

ثم ذكر سبحانه ما يكون من هَوْل ذلك اليوم، فقال: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ[1] وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾[2]، وهذا الكلامُ تمثيلٌ للكثرة الهائلة التي تُلقى في جهنَّم. والمراد منه: الإنذار والترهيب.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدَّه للعُصاة والكافرين، عقَّبه بذِكرِ ما أعدَّه للمؤمنين المتقين، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ وهذه الصفة للتشويق، أي: قُرِّبت وأُدنيَت بحيثُ يشاهدونها.

ثم ذكر دخولهم بها مقروناً بالكرامة، وأدمج في الكلام ملاك الأسباب التي أدَّت إلى ذلك النعيم، وجعل حَلْقةَ الوَصْل جملةً تتضمَّن التحسيس به والتنويه بشأنه،

---

(١) ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾: استفهام تقريري، أي: قرِّي بأنك امتلأتِ وحقَّقتُ لك ما وعدتُ به في قولي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزمر: ٨٥].

(٢) ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾: استفهامٌ إنكاريٌّ مفيدٌ للنفي، أي: لا مزيد.

فقال: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: هذا هو النعيم الذي تُوعَدُون به، وإنما هو ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾ أي: لكلِّ رجَّاع إلى الله، حافظٍ لأوامر الله وحقوقه.

ثم تابع الوصف عنه بقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: في الدنيا عندما كانت هذه الأمور غيباً له؛ لأنها لم تَظهَر له عياناً إلا في الآخرة، خَشِيَها غياباً واتَّبع أوامرَ مولاه، ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ إلى الله[1].

فيُقالُ لهم عند دخول الجنة تحسيساً بالكرامة وتمنُّناً بها وتهنئةً بنيلها: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

ثم أكمل هذا الوعد الكريم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾؛ إيذاناً بأنَّ هذا النعيم وهذه الكرامة لا تنقطع أبداً. اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم تابع البيان عن الجنة بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي: في هذه الجنة من فنون المطالب وأنواع المآرب، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ لهم، ممّا لا يخطر ببالهم حتى تناولَه مشيئتُهم، من الكرامات التي «لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[2]. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

---

(١) ومعنى الآيتين ٣١و٣٢ ـ كما في تفسيري «المعين» ص٥١٩ ـ: «وقُرِّبَت الجنّةُ للمُتَّقين الذين اتَّقوا ربَّهم ـ بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ـ في أرض المحشر على مرأى منهم ومَقْربة، يَرَونَ نضرتها وجمالها، ويشمُّون ريحها، يُقالُ لهم: هذا الذي وُعِدتُم به ـ أيها المتَّقون ـ في الدنيا على ألسنة الأنبياء، لكُلِّ من اتَّصَفَ بالصفات الأربعة التالية: الصفة الأولى: أنه رَجَّاع عن المعصية إلى الطاعة، الصفة الثانية: كثير الحفظ لإيمانه وعهده لربِّه، ولتوبته من النقص والتغيير، ولجميع أوامر الله ونواهيه، الصفة الثالثة: مَنْ خاف الرحمنَ خوفاً مصحوباً بتعظيم وحب فأطاعه وإنْ لم يره، والصفة الرابعة: جاء يوم القيامة بقلب راجع إلى الله تعالى، مُخلص في طاعته».

(٢) سبق تخريجه (٢: ٥٥٤).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلى كفار قريش يُحذِّرهم ويُنذرهم بما جَرَى على أمثالهم من الأمم الماضية، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ[1] هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ أي: جَالُوا في الأرض كلَّ مجال، وعَمَروها أكثرَ ممَّا عَمَرَها قريش. فوصف أولئك بالقوة والمَكَنة للمبالغة في وعيد هؤلاء وإرهابهم.

ثم استأنف كلاماً لزيادة التحسيس بتلك البطشة، فقال: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾[2] أي: لهم مَخْلَصٌ من عذاب الله؟

ويجوز أن يكون قوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ مُتمِّماً لِـمَا قبله على إرادة القول، أي: فنقَّبوا في البلاد قائلين: هل من محيص؟ وتكون الجملةُ تخييلاً وتمثيلاً لأخذِهم بالأخْذة الرابية والعذاب الشديد، وتصويراً لحالتهم ومحاولتهم اليائسة، بصورة مَنْ ينقِّب في البلاد ويفتِّش عن ملجأ ومَخلَص مما حلَّ به، فلم يجد، والله أعلم. والأوَّل أَوْلى.

ثم ختم هذا السياق بما يحثُّ على التبصُّر بما جاء فيه، والتمسُّك بطريق السعادة، والتنكُّب عن طريق الشقاء، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ البيان ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ وعِظةً قوية ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ قال ابن عباس: أي: عقل[3]، وقال قتادة: أي: قلب[4] حيٌّ يفكر،

---

(١) ﴿مِّن قَرْنٍ﴾: «مِن» حرفٌ يدلُّ على أنّ بعده بيانٌ لهذا الكثير المفهوم من «كم».
و«القَرْن» هم الجماعة المقترنون في زمن واحد، ومتوسِّط زمانهم نَحْو مئة عام، ويُطلَقُ القَرْنُ أيضاً على أهل عصر فيهم نبيٌّ واحد أو مَلَك، مهما طال زمانه، كقوم نوح وعاد.

(٢) ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾: «هل» حرفُ استفهام إنكاري يُفيدُ النفي، أي: لا محيص ومفرّ.

(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ١٧٠).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٧٣).

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي: استمع ووَعْيُه حاضر، بمعنى: أصغى بسمعه وحضر بذهنه. وفي صيغة التعبير تنبيهٌ شديدٌ وهزٌّ عنيف للتبصُّر، وأخْذُ الأُهبة لِمَا جاء من البيان الرهيب، وقد جاء في الحديث: «إن الله سبحانه لا يقبل الدعاء من قلب غافل لاهٍ»[1].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم ذكر قُدرته البالغة تحقيقاً للقدرة على إنجاز ما تضمَّنه السياق من الأعمال العظيمة في الوعد والوعيد، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إما أن يكون المراد بها ستة أدوار، تمَّ بها تطوُّر هذا العالم علويِّه وسُفليِّه، وإما أن يكون المراد بيان قدرة الله، بتقليل المدَّة لإنجاز هذا العمل العظيم. وليس المراد بها اليوم المعروف لنا؛ لأن هذا اليوم لم يتمَّ ويظهر إلا بعد تمام التكوين[2].

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ تكميلٌ لبيان عَظَمة القدرة، وإيغالٌ فيه. واللُّغوب: التعب الذي يلحق الإنسان من كَثْرة العمل والجهد. والغَرَضُ من هذا الوصف: الاستدلالُ على قدرته البالغة التي ليس البعث إلا أمراً يسيراً عندها. ويجوز

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث غريب.

(٢) انظر ما تقدم تعليقاً (١: ١٥٠).

أن يكون فيها أيضاً تكذيبٌ لقول اليهود: إنَّ الله خلق الخلق في ستة أيام واستراح في اليوم السابع.

ثم أمر النبيِّ ﷺ أن يصبر على أذاهم وإنكارهم للبعث، وقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أي: واستعِنْ على الصبر بالصلاة ﴿قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ (١) ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾[٣] أي: أعقاب الصَّلوات. قال ابن زيد[٤] والجُبّائي: المراد به: النوافل بعد المفروضات.

ثم قرن الصبر عليهم بتهديدهم بما ينكرونه مُحقِّقاً لإنجازه، فقال: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٤١﴾[٥] وهذا الوصف لجلاء ذلك النداء ووضوحه، مُراداً به تحقيقُ الإنجاز للبعث الذي ينكرونه، وتقريرُ وقوعه.

ثم بيَّن ذلك اليوم ببيان آخر من تحقيق الوقوع والتهديد، فقال: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الواقع لا مَحالة، أو للغَرَض الصحيح والأمر الحق. وهذه النفخةُ الثانية المُؤْذِنةُ بالنشر، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢﴾ من القبور.

وقد جاء التعبير عن هذه الصَّيْحة بعبارات مختلفة، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣، طه: ١٠٢، النبأ: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، أي: ضُرب الجرسُ[٦] بحضور الوقت أو لاجتماع الناس، وذلك لضيق اللغة عن أن

---

(١) أي: نزِّه ربَّك تنزيهاً مُقْترناً بحمده ومُصاحِباً له، قبل طلوع الشمس، وهو وقت صلاة الفجر، وما قبل غروب الشمس، وهو وقت صلاة العصر.

(٢) أي: ونزِّه ربَّك تنزيهاً مقترناً بحَمْدِه في وقتٍ ما من الليل.

(٣) ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أدبار: جمع دُبُور ـ بضمَّتين ـ، وهو آخر الشيء.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٨١).

(٥) لم يتعرض المؤلف إلى المراد بالمنادي هنا، وهو إسرافيل عليه السلام، يوم ينادي بنَفْخِه في القرن.

(٦) لو قال: البوق؛ لكان أَوْلى، لأن «الصور» هو البوق، كما تقدَّم بيانه تعليقاً (٦: ٣٠٣).

تؤدِّي المعنى بكماله، أو لعدم إمكان تصوُّر معاني ذلك العالم ونواميسه وصفحاته تصوُّراً ذاتياً. فالتنويع بالتعبير عنه إنما هو للإلماع إليه من صفحاته المختلفة؛ لأنَّ تعدُّد الاعتبارات يقتضي تعدُّد العبارات، والله أعلم.

ثم قرَّر المعنى بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾[1] أي: للجزاء في الآخرة.

ثم فصَّل الخروج بعضَ التفصيل، وقرَّره بقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: تَتَشَقَّقُ الأرض عنهم فيخرجون مُسرِعين، و﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ذلك بَعْثٌ وجَمْعٌ هيِّنٌ علينا. يردُّ به على استعظامِهم للأمر، واستبعادِهم له، كما جاء في أول السورة.

ثم هدَّدهُم بقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في تكذيبك وإنكار البعث والنشور، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ تُجبِرُهم على الإيمان، فلا عليك إنْ لم يؤمنوا، وإنَّما عليك البلاغ.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾[2] فهذا ما يجبُ عليك، ولا عليك أمرُ مَن أعرضوا عن التذكير مُدبِرين.

---

(١) أي: إنا نحن بعظيم قدرتنا نخلقُ الحياة فيما ليست فيه في الدنيا، ونخلق الموت في الأحياء، ونفصل الأرواح عن الأجساد عند انقضاء الأجل، وإلى حُكمِنا وحدنا وفَصْلِ قضائنا وتنفيذ جزائنا، وإلى المكان الذي نقضي فيه مصيرَ جميع الخلائق في الآخرة بعد رحلة التخيير والتسخير في الدنيا.

(٢) أي: فذكِّر بالقرآن مَنْ تشعرُ بأنه يخاف وعيدَ الله المُعجَّل والمُؤجَّل أقلَّ خوف، فهو مطموع باستجابته لدعوة الحق يوماً ما، فينبغي تذكيرُه بما سبق أن تبلَّغه وتفهَّمه من بلاغات القرآن وبياناته، أما مَنْ تَتَيقَّن أنه لا يخاف وعيد الله، فإنَّ التذكير لا ينفع فيه.



مكية، وهي ستون آية

والغَرَضُ منها:

إنذار المشركين بعذاب الدنيا والآخرة، وأخْذِهم في ذلك مرَّةً بالدليل ومرَّةً بالترغيب والترهيب، كما أُخذوا بذلك في أمثالها من السور السابقة واللاحقة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾

يُقسِمُ سبحانه بهذه الأشياء. والقَسَمُ ضَرْبٌ من ضروب التأكيد والتوثيق، يُؤْتى به لتقوية الخبر وتقريره في النفوس، أو للاستدلال به عليه.

وقد جاء في القرآن القَسَمُ بذات الله وصفاته، وبأظهر ما يقع عليه الحسُّ أو يُدرِكُه العقل من نماذج البدائع الدالة على عَظَمة المُبدع وبالغ حكمته، كالسماء والشمس والقمر والنجم والليل والفجر والضحى والنهار والعصر والليالي العشر، إلى أمثال ذلك.

أما الأمور المُقسَم عليها فلا تكاد تخرج عن أصول الدين الأربعة: التوحيد والرسالة والبعث والحساب، وما يتَّصل بذلك. ويكون في المُقْسَم به ملاحظة دقيقة، تُثبِتُ صِدقَ المُقسَم عليه وصحَّةَ وقوعه والقدرةَ على إيقاعه، فأقسامُ القرآن أقسامٌ استدلالية.

وقد اختلفوا في المراد بهذه الجمل، وأقرب الأقوال فيها: أنَّها الرياح تَذْرُو

البخار، فينعقد سحاباً ثقيلاً تحمله وتجري به في أجواء الفضاء، وتوزِّعه على مختلف البقاع[١].

ويجوز أن يُراد بالأول الرياح، وبالبقية حالات السحاب، وبينهما تلازم، وكلُّها من مظاهر القدرة البالغة التي تُثبت وجودَ الله واختصاصَه بالألوهيَّة، ولا تَعجِزُ عن إعادة أجسام البشر بعد الموت، يُقسِمُ بها على صدق البعث والنشر والحساب والجزاء، فيقول: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ وهو البعث، ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ والمراد من «الدِّين» هنا: الحساب والجزاء، والله سبحانه مالك يوم الدين. أي: إنَّ الحساب والجزاء لواقع. فوَجْهُ المناسبة بين هذا القَسَم والمُقْسَم عليه: إثبات القدرة على ما غاب عنَّا بظهور قدرته تعالى فيما ندركه من مظاهر القدرة البالغة.

وهناك وجه آخر، وهو العودة في كلٍّ منهما إلى السيرة الأُولى، فالسحاب المتكوِّن من البحار بواسطة الرياح، يخرج بخاراً، وينقلب في الفضاء ماءً، فيتفرَّق في نواحي الأرض، ويتسرَّب داخلها إلى المنابع، فيخرج عيوناً وأنهاراً تجري إلى البحار، فيعود إليها كما كان منها. وهكذا حال الإنسان في البعث والنشور، يعود إلى ما كان عليه من الحياة الأولى، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

---

(١) وهذا ما رجَّحته في تفسيري «المعين» ص٥٢٠: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ أقسم الله تعالى بالرياح التي تُثير التراب وذرَّات الماء وبخاره، ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ فالرياح الحاملات للسُّحُب الثِّقال بالماء، ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فالرياح الجاريات في الجوِّ جرياً ليِّناً رفيقاً، ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ فالرياح التي تقسِّم اللقاحات على الأشجار والثمرات، وتقسِّم نُويات اللقاح على بخار الماء في السُّحب لتكوِّن حباتِ ماءٍ تنزل أمطاراً، وتقسِّم السُّحب وتُوزِّعها على البلاد، لإنزال الأمطار بقضاء الله وأمره، على وَفْق حكمته.

أقسم الله تعالى بهذه الظواهر الكونية العظيمة، لِمَا فيها من الدلالات على عجيب صَنْعته وقدرته وحكمته في كونه.

ثم أيَّد القَسَمَ الأول بقَسَمٍ ثانٍ، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾، واختُلِفَ في ﴿ٱلْحُبُكِ﴾، وأقرب الأقوال فيها: ما يُروى عن الحسن من أنها النجوم المحتبكة[١]؛ لِـمَا فيها من عَظائم[٢]. يُقْسِمُ بها على قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ في أمر الدين والحساب، ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾، فضمير ﴿عَنْهُ﴾ يعود إلى «الدِّين»، أي: إنكم لفي ضلال من أمر هذا الدين والجزاء، تُصْرَفون عن التصديق به بالإفك والتضليل.

ووجه المناسبة بين المُقسَم به و المُقسَم عليه: أنَّ الذي أحكَمَ وَضْعَ هذه الأجرام على كثرتها وازدحامها واحتباكها، فكانت مُنظَّمةً أتقَنَ تنظيمٍ في مقرِّها وممرِّها، لا ترى فيها خَلَلاً ولا ارتباكاً؛ هو الذي أحكَمَ أمر يوم الدين والحساب، ووضَعَ شرعَ هذا الدينِ الهادي إلى الرَّشاد، والمنظِّم للأحوال المادية والروحية، الدنيوية والأخروية، طبق السنن الكونيَّة، فهو دينٌ حقٌّ لا خلل فيه ولا بُطلان. أما ما تَـتَوهَّمونه ديناً من مواضعاتكم، فهو أمر مُختَلَق باطل يهدي إلى الغيِّ والضلال، تُؤْفكون فيه وتُضَلَّلون، ويُعبَثُ فيه بعقولكم ولا تُدركون.

ولما كان ما اتَّخذوه من الدين وإنكارُهم للحشر والحساب أمراً مبنيّاً على الظنِّ والخرص، بكَّتهم عليه بقوله: ﴿قُتِلَ[٣] ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ وهم الذين يمشون في أمر الدين والغيب حَسْبَما يُوحيه إليهم ظنُّهم وخَرْصُهم وتخمينُهم، فيظنون أنْ لا حشر ولا حساب، أو يقولون: لا حاجة إلى دين، فاللهُ أرحمُ الراحمين؛ أولئك ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ من الجهل والضلال ﴿سَاهُونَ ۝١١﴾ غافلون عمَّا يُراد بهم في الآخرة، لذلك

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٩٦).

(٢) فالمراد بـ«ذات الحبك»: السماء ذوات الطرق المُحكمة التي تسيرُ ضمن حدودها النجومُ والكواكبُ والمجرَّاتُ بإتقان عجيب مدهش.

(٣) أي: طُرِدَ وأُبعِدَ من رحمة الله إبعاداً أبديّاً.

﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ إنكاراً واستهزاءً: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾؟ أي: متى وقوع يوم الجزاء الذي تزعمون؟

فردَّ عليهم سبحانه بما فيها توعُّدٌ لهم، ملفوفٌ بتندُّر رهيب ووعيد مُفْزِع، فقال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: يُعذَّبون بأنواع العذاب. فأدرَجَ في هذا الردِّ عليهم بيانَ مصيرهم الرهيب، وزاده رَوْعةً ورهبةً وإيلاماً بقوله: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: نتيجةَ اختباركم وما أبديتُموه من سُوء صنيعكم وكفركم بما جاءكم من عند الله، ويُقالُ لهم زيادةً في الإيلام والتنديم والتأنيب: ﴿هَـٰذَا﴾ هو العذاب ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ استبعاداً واستهزاء.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

ثم قابل أحوالَ المُنكِرين ومصيرَهم بأحوال المتَّقين ومصيرِهم، على نهج القرآن في ذلك، وبيَّن بعض أعمالهم التي أدَّت بهم إلى هذا النعيم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: قابلين لِـمَا أعطاهم من النعيم راضين به، بمعنى: أنَّ كلَّ ما أعطاهم حَسَنٌ مرضيّ، يُتلقَّى بحُسْن الرضا والقبول.

ثم بيَّن على وجه التعليل بعضَ أعمالهم التي استوجبت هذه الكرامة[1]، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: كانوا في الدنيا محسِنين في أعمالهم، آتين بها حَسْبَما يُرضي الله تعالى.

---

(١) إنما استوجبوا الكرامة بأعمالهم تبعاً لوعد الله عز وجل التابع لفضله وكرمه، أما من غير هذه الحيثية فلا يجب للعبد على الله تعالى شيء.

ثم فصَّل أهمَّ ذلك الإحسان، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ والهجوع: النوم، و﴿مَا﴾ مزيدة للتقرير، على نهج القرآن في مثله، أو مصدرية، والمصدر فاعل لـ﴿قَلِيلًا﴾، أي: لا ينامون من الليل إلا قليلاً، يُحيُونَ ليلَهم بالذِّكْر والصلاة وهم خاشعون، ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

ثم ذكر ما يُخرِجونه من أموالهم للزكوات والصدقات، فقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾ أي: نصيبٌ وافر يُوجبونه على أنفسهم فوقَ ما عليهم من الزكوات، يدفعونه ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ أي: المُستَجدي ﴿وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ أي: المُعْدَم البائس، أو الذي ينقص واردُه عن مَصرِفه، أو الذي يُحرَم من الزَّكوات لِتَعفُّفه، فيَحسَبه الناس غنياً. والآية تدلُّ على أنَّ الدين الإسلامي يجعل من واجب الغنيّ مساعدةَ الفقير في حِصَّةٍ من أمواله تَسُدُّ عَوَزَه، وقد جاء هذا في كثير من الآيات.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

ثم أردف السياق المتضمِّن للبعث والحساب والوعد والوعيد، بدليلِ قدرته البالغة، كما هو نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: المحقِّقين، وهم الذين لا يمرُّون بها مرورَ الأنعام في مسارحها، بل يفكِّرون ويَتبصَّرون، فيَرَوْنَ فيها من العَجائب ما يُبهِرُ العقول، ويعلمون أنَّ مَنْ قدر على هذا لا يعجز عن إعادة الإنسان بعد الموت.

ويجوز أن يُراد بالموقنين: المؤمنون؛ لأنَّ المؤمن مُستَعِدٌّ للنظر والتفكير في آيات الله وبدائع مصنوعاته، فالإيقان من خصائصه وصفاته.

ثم ترقَّى إلى ما هو أقـرَبُ إلينا مما في الأرض، وأظهَرُ في الاستـدلال، فقال:

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[1] ففي خَلْق الإنسان من دقَّة الصُّنع وإحكامه ما يُحيِّر العقول ويدلُّ بوضوح على الصانع الحكيم القدير، فقد ألبسه الله من خِلَعِ الكرامة كلِّها؛ من العقل والعلم والبيان، وقوة الاستنباط والتفكير، والشكل الجميل والصورة الحسنة، وحكمة التركيب والإبداع فيه، إلى غير ذلك من العجائب الدالة على عَظَمة الخالق البارئ المصوِّر، ففيه من ذلك ما تنقضي الأعمار دون الوقوف على بعضه القليل.

ألَمْ تَرَ ما اشتمل عليه جسم الإنسان من الأعصاب والعظام والعروق والأوتار، وكيف ربطت يدُ القدرة بعضَها ببعض أقوى رباط وأشدَّه وأبعَدَه عن الانحلال، وكيف كَسَت العظام لحماً، وكيف قدَّرت هذه العظام بمقاديرَ مختلفةٍ وأشكالٍ متنوِّعة حَسْبَما اقتضته الحكمة الإلهية، فمنها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والمنحني والمستدير، والرقيق والعريض، والمُصْمَت والمُجوَّف، إلى ما لا يُحصى من الأوصاف والتقادير، جلَّت حكمة العليم الخبير.

وإذا تأمَّلتَ الأحشاءَ وما فيها، صغيراً كان أو كبيراً، ظاهراً أو دقيقاً، وقيامَه

---

(١) قال سقراط: إن الله سبحانه أعطى كلَّ عضو من أعضاء الإنسان منفعة خاصَّة، وفائدة بيِّنة، ومَتَّعه من الأجزاء والأجهزة بما يحسُّ ويشعر بواسطته، فمتَّعه بعينين ليرى بهما المحسوسات، وبأذنين ليسمع بهما الأصوات، وبلسان يدرك به المذوقات وينطق به بما يفهم عنه من المُضْمَرات.

ومن دلائل التدبير والحكمة: أن تُمنَحَ العين ـ وهي ضعيفة ـ بجفون تنفتح وتنطبق عند الحاجة، وأهداب تقيها فعل الرياح، وحواجب تمنع عنها تساقط عَرَقِ الرأس، وأن تُصنَعَ الأذن على صورة لا تَكِلُّ من سَمَاع الأصوات، ولا تعيى من الحس، وأن يكون الفم قريباً من العينين والمناخر، لتُدرك ما يدخل وتَتَحاشى ما يضرُّ ويؤذي، وأن المحلَّ الذي يحصل منه الإفراز القذر بعيدٌ عن مَرْمَى النظر، ومعكوس الوضع، كي لا يظهر لكلِّ ناظر إخراج القذر، فتبارك الله أحسن الخالقين. (المؤلف).

بعمله المنظَّم بدقَّة وإتقان، أو تأمَّلتَ الرأسَ وما فيه من أعضاء كذلك، ومن حواسّ وإدراك، وما في كلِّ حاسَّة من دقائق الصُّنع وتناسُب الوضع إبداعاً وإتقاناً، أو تأمَّلتَ الشرايين والأوردة، كأنها جداول تحمل الغذاء إلى سائر الأعضاء، أو تأمَّلتَ الجلد والغشاء كيف ينبسطان على سطح الأعضاء ويحويانها كاللفائف، ويصير الجلد حافظاً لها، يحفظ جواهرها وأشكالها عما يطرأ عليها، وقد رُكِّبت جميع أعضاء الإنسان وأجزائها تركيباً متناسقاً؛ حركات دائمة ومجهودات متواصلة لا تهدأ طَرْفة عين.

وهناك قلبٌ ينبض، ومعدةٌ تشتغل، وعُصارات تُفْرَز، وسوائل تَتَحلَّل وتَتَركَّب وتَتَرشَّح وتَتَصَعَّد، وغُدَدٌ تختزن السوائل لحين الحاجة، ودمٌ دائم الجريان في أجزاء الجسد، وخلايا بسيطة تَتَلاشى وتتكوَّن، وكلُّ هذا لا يهدأ لحظةً، ولا يسكن آونةً من ليل أو نهار، مع ما فيه من أمور دقيقة وأحوال خفيَّة يعجز العلم عن إدراكها وكَشْفِ ما فيها من خفاء. وعلى هذه الشاكلة جهاز التنفس وما فيه من راحة وهناء.

إذا تأمَّلتَ كلَّ ذلك أدركتَ عَجْزَ القلم والبيان عن التصوير لعظمة الخالق الحكيم في هذا الجِرم الصغير، فكيف بعظيم الكونيَّات، مما احتوته الأرض والسماوات، وتيقَّنتَ أنَّ إعادة الأجسام ليست بأعجَبَ من عظمة ما في هذه العمليات من عجائب الإبداع. تبارك الله أحسنُ الخالقين، وهو على كلِّ شيء قدير.

ثم تابع دليل قدرته بقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: أسبابُ رزقكم من الأمطار، وما تُوعَدون به من الجنة والنار، فاستدلَّ بالمعلوم على المجهول، إذ كلاهما من قدرة القادر الحكيم.

ثم صرَّح بذلك وقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾: إما أن يعود إلى ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾، وإما أن يعود إلى القرآن الذي جاءت

فيه هذه البحوث. وعَوْدُ الضمير إلى ما هو معلوم في الذهن، أو يُدرَكُ من السياق؛ هو من خصائص اللغة ونهج القرآن.

وعلى تقدير عودته إلى ﴿مَاتُوعَدُونَ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

الأول: إنَّ ما توعدون به هو أمر واقع، كما تقرؤونه في القرآن وتنطقون به.

الثاني: إنَّ هذا الأمر الغائب حقٌّ لا شكَّ فيه، كما أنَّ نُطْقَكم لا شكَّ فيه.

الثالث: إن الله سبحانه قادرٌ على إنجاز ما توعدون، كقدرته على أنْ جعلكم تنطقون.

وعلى تقدير عودةِ الضمير إلى القرآن، يكون فيه معنيان:

الأول: إنَّ هذا القرآن وما جاء به كله حقّ واقع طبقَ ما تنطقون به فيه وتقرؤونه.

والثاني: إنَّ هذا القرآن وحيٌ من الله، نَطَق به المَلَكُ كما تنطقون أنتم به وتقرؤونه. والله أعلم.

وقيل: إن قوله: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مستأنفٌ خبرُه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ﴾، وعليه فيقتصر عَوْدُ الضمير إلى ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم أضاف إلى وعيد المكذِّبين في الآخرة وعيدَهم في الدنيا بما جرى على من قبلهم من مُعارضي الأنبياء، فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ[1] إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: سلَّموا عليه فردَّ عليهم و﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ عليكم، ولكنَّكم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، يقول لهم ذلك لـمّا أحسَّ بتميُّزهم عن البشر ببعض أوضاع وأخلاق، ولعلَّه عليه السلام قال ذلك في نفسه من غير أن يُشعِرَهم به[2].

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي: مال إليهم سرّاً وخلسة، ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ فلم يأكلوا، فأنكر عليها عَلَناً و﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فإما أن يكون سكتوا عن الجواب، أو قالوا: لا.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أضمَرَ خوفَه منهم لـمّا رآهم لم يأكلوا، وهذه العادة موجودة عند البدويِّين، يخشون الضيفَ إذا امتنع عن الأكل؛ لأنَّ ذلك إشعارٌ بإضمار الشر. وقيل: بل وقع في قلبه أنهم ملائكة جاؤوا للعذاب، وخشي أن يصيبَه منه شيء، فأمَّنوه و﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ لزيادة التأمين بعدم الإصابة وبقائهم أحياء ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ[3] عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: يكون ذا عِلم واسع عند بلوغه واستوائه.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾[4] عندما سمعت بهذه البشارة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صَيْحة خفيفة معتادة للنساء عند التعجُّب والاستحياء، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: وضعت الكفَّين عليه خَجَلاً أو استغراباً كما هي عادة النساء، ﴿وَقَالَتْ﴾: أنا ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ فكيف أَلِد؟

---

(١) الضيف في الأصل: مصدر، ولذلك يطلق على الواحد والكثير. (المؤلف).

(٢) هذا بعيد؛ لِـمَا فيه من العدول عن ظاهر اللفظ من غير دليل يقتضي ذلك.

(٣) هو إسحاق عليه السلام.

(٤) هي سارة رضي الله عنها.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ يُجري ذلك على سُنَن طبيعيَّة[1]، وإنْ لم يَهتَدِ إليها البشر، وكل ما يفعله مبنيٌّ على العلم والحكمة البالغة، ولديه سُنَنٌ لا تُحصى، ولو كانت الأشجار أقلاماً، والبحار مِداداً.

ولما علم إبراهيم عليه السلام علماً مُجمَلاً أنهم ملائكة أُرسِلوا لأمر تجاوزه شأنه؛ طلب توضيحَه و﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسِلتُم ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ يعنون: قوم لوط، ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ومعنى ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: مُرسَلة ومُطلَقة، وفيها معنى الكَثْرة من قولهم: سُوِّمت الماشية، أي: أُرسلت للرعي. أو بمعنى: مُعلَّمة، من السَّومة، وهي العلامة، على أن تكون كلُّ واحدة منها لصاحبها لا تتجاوزه. ومعنى (المُسرِفين): المتجاوزون الحدود في أعمالهم الضالة الخاسرة.

وبعد أن حكى سبحانه ما جرى بين الملائكة وإبراهيم عليه السلام؛ حكى ما جرى على قوم لوط المجرمين، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾، وضمير ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى قرى قوم لوط المفهومة من السياق، على نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، أي: أمرنا بالخروج مَنْ كان في تلك القرية من المؤمنين، كما جاء في سورة هود والحِجر من قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ...﴾ [هود: ٨١، الحجر: ٦٥].

ثم ذكر المُبرِّر لهذا الإيقاع بهم، وقال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

---

(١) بل هي خارقة لسنن الطبيعة. وينظر ما تقدم ذكره في مقدمة التفسير من محاولة المؤلف غفر الله له صَرْفَ جميع الآيات الإعجازية الخارقة للنواميس الكونية عن مدلولها لتوافق السنن الطبيعية (١: ١٩٣).

وهم أهلُ بيت لوط عليه السلام[١]، أي: فأهلكنا تلك القرى ودمَّرناها، على سُنَّتنا في ذلك.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي: عِبرةً ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ ممَّن لم يُفسِدوا فِطَرَهم بمفاسد التربية وسوء القدوة.

والإسلام قد يأتي مرادفاً للإيمان كما هنا، وقد يأتي أعمَّ كما جاء في الحجرات ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم ذكر قصَّة موسى وفرعون لنفس الغَرَض السابق، فقال: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ وهذا معطوف على كلمة ﴿فِيهَآ﴾ من قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾، أي: وتركنا في قصَّة موسى آيةً أيضاً؛ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ وهو ما جاء به من المعجزات الباهرة، ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعونُ ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: أعرَض عن الحق بجانبه معتمداً على قوته وسلطانه، ﴿وَقَالَ﴾ في حق موسى: إنه ﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾، كأنه نَسَب ما ظهر على يديه عليه الصلاة والسلام من الخوارق العجيبة إلى الجنّ، وتردَّد في أنه حصل باختياره

---

(١) أي: فيه مسلمون مؤمنون، وهم لوط وابنتاه، الذين نَجَّيْناهُم، ومنهم مُسلِمون ظاهراً غير مؤمنين قلباً، بل منافقون، كامرأة لوط، فهي مسلمة غير مؤمنة، فلم تشملها النجاة، إنما النجاةُ والسَّلامةُ للمؤمنين الصادقين.

وسَعْيه أو بغيرهما، والأول هو الساحر، والثاني المجنون، أي: الذي تُلقي عليه الجنُّ بالمعلومات والغرائب، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: آتٍ بما يُلامُ عليه.

ثم ذكر عاداً، فقال: ﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي: وتركنا في عاد آيةً أيضاً؛ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾، وإنما وُصِفَت بالعُقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرَهم، فلم تترك وراءهم أحداً، كالعقيم الذي لم يترك وراءه ولداً، أو لأنها لم تتضمَّن خيراً من إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وكانت ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: ما تترك من شيء جَرَت عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: كالشيء البالي السحيق.

ثم ذكر ثمود، فقال: ﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أي: وتركنا في ثمود آيةً أيضاً؛ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ يتوعَّدهم بمجيء العذاب بعد ثلاثة أيام، كما جاء في سورة هود[1]، ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فاستكبروا عن امتثاله وطغوا، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بمعنى: أنهم يُبصِرونها تَفتِكُ بهم، ولم يقدروا على دفعها. أو المعنى: لم يكن ذلك على حين غفلة؛ لأنهم أُنذِروا بها.

ثم بيَّن عَجْزَهم عن الهرب، وقال: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ وهو بمعنى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾: يهزأ بهم ويؤنبهم.

ثم ذكر قوم نوح، فقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: أهلكناهم من قبل من ذكرنا من المُهْلَكين، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: متجاوزين الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي والطغيان، مبالغين في ذلك.

---

(١) في الآية ٦٥ منها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما فعل بهؤلاء الطغاة مُبتدِئاً بالأقرب مُنتهياً بالأبعد، توعّداً للمشركين بمثل ما فعل بهؤلاء الطاغين، وتسليةً لرسول ربِّ العالمين، عقَّب ذلك بدليل قدرته؛ تحقيقاً لمقدرته على إنجاز وعيده، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1] والأيد: القوة، ومنها: التأييد. ومعنى (مُوسِعُونَ): قادرون على خَلْق ما هو أعظم، كما جاء عن ابن عباس[2]. أو المراد: المبالغة في سَعَتها. وقد جاء في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] بيانٌ مُسْهَبٌ عن سَعَة السماوات، فارجع إليه لتعلم هذه السَّعَة العظيمة ومعناها.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ ولم نجعلها كلَّها جبالاً وَعِرة، بل مهَّدناها حتى صَلَحَت للسُّكنى والسَّيْر والعمل، ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[3] ذكراً وأُنثى حتى من النبات، وأولُ كلِّ زوجَيْن من التراب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قدرةَ الله وحكمتَه، فتخشونه وتتيقّنون أنه قادرٌ على إعادتكم، وعلى إنجاز ما وعد به وأوعَدَ من أحوال الآخرة.

---

(١) جعل سبحانه ابتعاد الأجرام السماوية والمسافات بين بعضها أوسَعَ مما يتصوَّره العقل، وهذا هو السبب في رؤية النجوم ثابتةً على الرغم من أنها متحركة بسرعة هائلة. (المؤلف).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٧: ٥٢).

(٣) أي: ومن كلِّ شيءٍ في الكون خَلَقْنا صِنفَيْن ونوعَيْن مُختَلِفَين في الناس، والنباتات، والكهرباء، والمغناطيس، والذرّات.

وبعد أن تهيَّأت النفوس بهذا الوعظ والإرشاد، دعاهم على لسان رسوله إلى سبيل الرشاد، وقال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من عقابه، وذلك بالإيمان والتوحيد والأعمال الصالحات، ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ والجملة على إرادة القول، على نهج القرآن في مثله، أي: قل: إذ كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذي هذه شؤونه. وفي صيغة التعبير إيذانٌ برحمة الله للتائبين المُنيبين وقبولهم وعفوه عنهم.

ثم بيَّن صورةَ هذا الفرار إليه ووسيلتَـه بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ أن لا تشركوا بالله. ولـما كان المعنيان متلازمَيْـن وحَّد الفاصلتَيْن بالإنذار؛ مبالغةً في التحذير والتبصير، فالفرار إلى الله يكون بالإيمان والعمل الصالح.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ثم عاد إلى السَّنَنِ السابق في تَسْليته ﷺ وتثبيته تجاه عِناد هؤلاء المشركين وإنكارهم وتقوُّلاتهم، فبيَّن أنَّ ذلك من طبائع مُختَلِّي الطباع بمفاسد التربية وسوء القدوة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما تقوَّلت قريش عنك بأنك ساحر أو مجنون، كذلك ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ﴾ في حقِّه: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾، فينسبون ما يظهر على يديه من الخوارق إلى عَمَل الجنّ، ويتردَّدون في أنه حصل باختياره وسَعْيه فيكون ساحراً، أو بغير اختياره فيكون مجنوناً.

ثم بيَّن منشأ ذلك الاتفاق فيهم، وقرنه بما يُشعِرُ بالتهكُّم والإنكار، فقال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾[١] أي: أأوْصَى به بعضُهم بعضاً حتى اتفقوا عليه.

ثم أضرَبَ عن التواصي إلى بيان منشئه الحقيقي فيهم، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ فاتِّفاقُهم على الطغيان ـ بخروجهم عن سلامة فِطَرِهم، وطَمْسِهم لنور بصائرهم بما اكتسبوه من مفاسد التربية وسوء التقليد ـ هو مصدرُ اتفاقهم في هذا القول لأنبيائهم، وإنكارهم عليهم.

ثم فرَّع على هذا البيان الإيذانَ له بتركهم، بعد أن قام بواجبه نَحْوَهم حتى النهاية فلم يقبلوا منه، وقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤﴾ أي: قد قمتَ بواجبك نَحْوَهم من التبليغ والإنذار، فلا لَوْمَ عليك بعد ذلك، فأعرِض عنهم، ﴿وَذَكِّرْ﴾ أي: استمِرَّ على التذكير العام، ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ أي: المستعدّين للإيمان، وهم الذين لم يُفسِدوا طبائعَهم بما أفسدها به هؤلاء، أو المتلبِّسين بالإيمان، لأن المؤمن مُسْتَعدٌّ للنظر والتفكير في آيات الله.

ثم أردَفَ الأمر بما يتضمَّن تعليلَه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٢] لأنَّ العبادة وتعاليم الشريعة هي المنهج لسعادة حياتهم في الدارين، ففائدة هذه العبادة تعودُ إليهم؛ لأنها وسيلةٌ لتجميل ظواهرهم، وتهذيب طبائعهم، وإصلاح سرائرهم، وتكوين محاسن عاداتهم ومكارم أخلاقهم، ومساعدتهم على الكمال،

---

(١) الهمزة للاستفهام التعجُّبي، والمراد: تعجَّبوا ـ أيها الناس ـ من هؤلاء الذين كأنهم أوصى بعضهم بعضاً بتكذيب الأنبياء.

(٢) أي: وما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ في الحياة الدنيا مُمتَحنين مُختَبرين، إلا لآمُرَهم أن يُوحِّدوني، وأدعوهم إلى عبادتي وحدي دون سواي.

وتكييف أرواحهم بما يُؤهِّلها للسعادة في الحياة الأخرى وعظيم النَّوال، وناهيك بمجتمعات تكون في الدنيا من مثل هؤلاء الرجال. وذلك ما أراد الله أن يكون البشر عليه، وهداهم إليه بالطبيعة والشريعة، فما خلقهم الله إلا ليسيروا على هذا الطريق، وليسلكوا هذا السلوك، ومَنْ لم يفعل فقد خان الأمانة التي عَرَضها الله عليه، وجعلَه مُهيّأً لها؛ إذ قد خلقهم مُستعدِّين لأن يكونوا مخلوقاً ممتازاً، وأشفع هذا الاستعداد الطبيعي بما ينمِّيه ويربِّيه، وهو قواعدُ هذا الدين وتعاليمُه.

وقد أشار سبحانه إلى أنَّ فائدة هذه العبادة تعود إليهم لا إليه، فقال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧﴾ فاستعار المعنى من حالة المُخاطَبين، على نهج القرآن في مثله، فبيَّن أنَّ شأنه تعالى مع عباده مُتَعالٍ عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم، ولكنه سبحانه هو الذي يَتَفضَّل على عبيده برزقهم، وبما يُصلِحهم ويعيشهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ فَلْيشتغلوا مع السَّعي لتحصيل الأرزاق بما خُلِقوا له من توحيد الله وعبادته، وليتمسَّكوا بتعاليمه التي تعود عليهم بكمال نفوسهم وإصلاح شؤونهم في الدنيا والأخرى[1].

ثم توعَّد الضَّالِّين المُعرضين عن ذلك، بما ختم به السورة، وقال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ

---

(١) ومن مباحث اللفظ: أن الحصر في قوله ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾: ليس هو حَصْراً مطلقاً، فلا يدل على أنه لم يخلق إلا للعبادة لا لشيء آخر، وإنما هو حَصْر إضافيّ بالنسبة إلى عدم انتفاع الله سبحانه كما ينتفع الأسياد من العبيد في الحصول على الرزق والمال، وإنما خلقه لينفع نفسه بعبادة الله المؤدية إلى النعيم الأبدي في جنَّات النعيم، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ...﴾، ولم يرد أن يقتصر على العبادة، وإنما يريد أن يتَّصف بها مع ما أريد منه من عمارة الدنيا وخلافته فيها. (المؤلف).

﴿ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نصيباً من العذاب مِثلَ نصيب نظرائهم من الأمم التي ذكر حالهم فيما سبق، من استئصالهم بالعذاب.

والذَّنوب: الدَّلْوُ الممتلئُ ماءً، استعاره للنصيب الوافر من ذلك العذاب[1].

وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾ تثبيتٌ للمؤمنين، ومبالغةٌ في التوعُّد الذي يُنكِره المشركون، ويهزؤون به. وقد بالغ في تهويله بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾[2].

* * *

(١) وفيه إشارة إلى أن العذاب سيُصَبّ عليهم كما يُصَبُّ الماء.

(٢) أي: فهَلاكٌ وعذابٌ شديدٌ للذين يموتون وهم كفّار، من يوم القيامة الذي يَعِدُهم الله بنزول العذاب الشديد الذي يكونون خالدين فيه.



مكيَّة، وهي تسع وأربعون آية

والغَـرَض منها:

الإنذارُ بعذاب الدارين للمكذِّبين، وأخذُهم في ذلك تارةً بالدليل، وتارةً بالترغيب والترهيب، مثل أمثالها من السور.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾﴾ وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى، ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾﴾ وهو التوراة المسطورة في الألواح التي أُنزلت عليه في هذا الجبل، ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾[1] وهو الكعبة المكرّمة المعمورة بالطائفين والعاكفين والرُّكّع السجود، وفي جوارها الجبلُ الذي أُنزل فيه أولُ القرآن على محمد ﷺ، ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ وهو السماء وما فيها من أجرام عظيمة الشأن كمّاً وكيفاً، ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ أي: المُترَع الممتلئ ماءً وعجائبَ وعظائم. أو المراد: تبخُّر البحار لقرب الأرض من الشمس نتيجة ارتباك الكواكب، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾، يُقسِمُ سبحانه وتعالى بمتعلَّقات الوحي ومظاهر القدرة كليهما على وقوع البعث والحساب والقدرة عليه.

---

(١) أو المراد: البيت المعمور في السماء السابعة بالملائكة الكرام الذين يطوفون به.

ووَجْهُ القَسَم بهما: أنهما دليلان على ذلك؛ إذ الوحي دليل نقليّ على وقوع البعث، ومظاهرُ القدرة دليلٌ عقلي على القدرة على ذلك؛ لأنَّ من قدر على هذه المظاهر العظيمة يقدر على البعث والنشور، إذ ليس ذلك في جانبها إلا أمراً يسيراً. ويجوز أن يكون «البيت المعمور» دليلاً فعلياً؛ لأنَّ الباعث لهم على عَمْره اعتقادُهم بالحشر والحساب.

ثم ذكر شيئاً من مبادئ ذلك اليوم وأهواله الرهيبة، مُعرِضاً بها عن جواب القَسَم، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ والمَوْر: تحرُّكٌ في تموُّج واضطراب، إذ تَضْطرب الأجرام السماويَّة ومعها الأرض، وتتصادم ببعضها لاختِلالِ التماسك وانهيارِ ذلك البناء العظيم بمرورِ الدهور عليه والاضمحلالِ الطبيعيِّ[1] المؤذن بانتهاء أمد الدنيا، وابتداء أمد الأخرى، وهو يومٌ مَهُول له ما بعده من عظائم الأمور والبعث والنشور والحساب والجزاء على الأعمال.

---

(١) اضطراب الأجرام السماوية واصطدامُ بعضها ببعض عند قيام الساعة لا يكونُ بسبب تقادُم الزمان وتوالي الدهور على هذا العالم، ولا هو نتيجةُ اضمحلال طبيعي لذلك؛ فإنه أمر غيبي، أخبر الله عن وقوعه، ولم يذكر سببه أنه مرور الدهور وتقادم الزمان، فمن أين يُعرَفُ هذا؟! على أنّ العالَمَ هو صُنعُ الله المُحكَم، وليس هو كصنع البشر الذي يضعف شيئاً فشيئاً مع توالي الأعوام حتى يصير خراباً في آخر الأمر، فالصواب إذن: أن هذا الاصطدام والاضطراب إنما يكون استجابةً لأمر الله تعالى بقيام الساعة، ويدلُّ على ذلك أيضاً حديثُ أبي ذر في «صحيح البخاري» (٣١٩٩): أنّ النبيَّ ﷺ قال له حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب حتى تسجدَ تحت العرش، فتستأذن فيُؤذَن لها، ويُوشِك أن تسجد، فلا يُقبَل منها، وتستأذن فلا يُؤذَن لها، يُقالُ لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها».

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي: يخوضون في الباطل، وهو إنكار البعث وتكذيب ما جاء به الرسل؛ يُهوِّل ما سيُصيبهم في ذلك اليوم جزاءَ تكذيبهم وإعراضهم.

وقد ذكر شيئاً منه بقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أي: يُدفَعون بعنف وشدة ﴿ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ ويقال لهم تأنيباً وتنديماً: ﴿ هَٰذِهِ ﴾ هي ﴿ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ولتأنيبهم على إنكارِهم الوحي الذي كان يُنذِرهم بهذا اليوم، وتسميتِهِ سحراً، يقال لهم: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ الذي تشاهدونه بأعينكم ﴿ أَمْ ﴾ هو الحقُّ الواقع، ولكنكم كنتُم ﴿ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ الحقَّ في الدنيا؛ لفساد غرائزكم بمفاسد التربية، وعمى بصائركم بسوء القدوة والتقليد؟

ثم يُنفَّذ الجزاءُ فيهم مقروناً بما يزيدهم إيلاماً من التأنيب والتهكُّم، فيقال لهم: ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ على عذابها ﴿ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ ﴾ فهما ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ لا ينفعكم أحدُهما شيئاً. أي: ادخلوها وقاسوا شدائدها، فافعلوا ما شئتم من الصبر أو عدمه، إذ سواءٌ عليكم صَبَرتُم أو جَزِعتُم مالكم من محيص. وفي هذا تهكُّم بهم وتنديمٌ، وتصويرٌ لاضطرارهم على الدخول، وقَسْرهم عليه جَبْراً وقهراً.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾؛ يُبيِّن أنَّ أخْذَهم بهذا العذاب أثرٌ لازم من آثار كَسْبهم وعملهم، بحسب سُنن الله في كونه.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن

شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ثم أردف وعيد الكفار بوعد المؤمنين، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: ناعمين مُتلذِّذين بما أعطاهم ربُّهم من أنواع النعيم، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾، وللمبالغة في التكريم والتنعيم يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾؛ يقابل بهذا ما يقال لأهل النار.

ثم تابع البيان عن ذلك النعيم بقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ[1] وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ والحوراء: هي جميلة سواد العين وبياضها، والعَيْناء: هي واسعة العينَيْن.

ثم استأنف الكلام لبيان كرامةٍ أُخرى لأهل الجنة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ قاصرٍ عن رتبة إيمان الآباء، ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في درجتهم، كما جاء في الحديث: «إنَّ الله تعالى يرفع ذريَّة المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه لتقرَّ به عينُه»، ثم تلا هذه الآية[2].

وقد دفع سبحانه ما عَسَاه أن يَرِدَ إلى الوَهْم من أنَّ ثواب عمل الأب يوزَّع على الذريَّة ليكونوا معه في درجة واحدة متوسطة، دفع ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم[3] مِّنْ

---

(١) أي: جالسين بتمكُّن على مَضْجع ذي قوائم أربعة مرفوعة عن الأرض، موضوعة على صفٍّ وخطٍّ مسْتَو، يُشاهد المتَّكئون بعضهم بعضاً، ويتحادثون، وهم سُعداء بما يُنعَّمون به

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٤٤)، من قول ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) آلَت فلانٌ الشيء يألِته، بوزن: ضربه يضربه، أي: نقصه، والمعنى: ما نقصناهم. وانظر ما تقدم في الآية ١٤ من سورة الحجرات.

﴿عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما نَقَصْنا درجة الآباء بهذا الإلحاق، وإنما دفعنا الأبناء إلى درجتهم الكاملة فضلاً منا ورحمة.

ثم ذيَّل السياق المتضمِّن لمصير الكافرين ومصير المؤمنين بقوله: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾[1] ولا يظلم ربُّك أحداً، وهذا حكمٌ عامٌ يقرِّر أن الناس مجزيُّون بأعمالهم، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

ثم تابع البيان عن نعيم المتَّقين، فقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ والإمداد: التواصل، أي: زدناهم ـ على ما كان لهم من أسباب التنعُّم ـ ما يشتهونه وقتاً فوقتاً، من فنون النَّعْماء، وألوان الآلاء، وهم ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يَتعاطون فيما بينهم كؤوسَ الخمر المجرَّدة عما يشينها من حالات خمر الدنيا التي حُرِّمت من أجلها.

وعبَّر بالتنازع عن التعاطي؛ للإشارة إلى ما في تلك الخمر من لذَّة يتهافت إليها الشارب بشَغَف، أو إلى ما هنالك من لعب ومزاح، مصحوب بهذا الشراب والمراح، ولا تنسَ ما يقوله ابنُ عباس رضي الله عنهما: «ليس شيء مما في الآخرة يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم»[2]، وذلك لضيق اللغة عن إفادة تلك المقاصد والمسمَّيات.

---

(١) أو المراد بالآية ـ وهو المناسب للسياق قبلها وبعدها ـ: كلُّ امرىءٍ اجتاز رحلةَ امتحانِهِ في الحياة الدنيا، وكان مؤمناً قد عمل فيها أعمالاً يُجازى عليها بالعقاب، فإنَّه يوم القيامة يُحبَسُ حتى يقضيَ اللهُ عزّ وجلّ بشأنه، عقاباً أو غفراناً، فإذا عُوقِبَ أو غَفَر اللهُ له بحكمته، أُفرِجَ عنه، وأُدخِلَ الجنة بفَضْل الله عزّ وجلّ، فلا تتَّكلوا ـ أيها الأبناء ـ على صلاح الآباء، واعلموا أنكم مرهونون بأعمالكم، لا يحمل ذنبكم أحد.

(٢) سبق تخريجه (٢: ٤٩، ٥٧٦).

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخِدمة ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ في أصدافه؛ لصفاء ألوانهم، ونقاوة بياضها. فهذا القيدُ لكمال الوصف.

ثم ذكر ما يدور بينهم من الكلام فرحاً بما نالوا، فقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ[1] ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا، عندما كنّا ﴿فِيٓ أَهْلِنَا﴾[2] كنّا ﴿مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: خائفين من عذاب الآخرة، مُعتَنين بطاعة الله، اتِّقاء ذلك، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾[3].

وقد عَلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أن يقيَنا ذلك، فاستجاب لنا دعاءَنا وأعطانا سُؤْلنا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ أي: المُحسِنُ العظيم، وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ لمن تمسَّك بأسباب رحمته وخشي عذابه. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم أمر نبيَّه ﷺ أن يستمرَّ على التبليغ، غيرَ مُلتَفِت إلى تَقَوُّلات المشركين وهذيانهم، ناقضاً عليهم ذلك، بقوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ بما أُرسِلتَ به غيرَ مكترثٍ بما يتقوَّلون، ﴿فَمَآ

---

(١) أي: يسأل بعضهم بعضاً عما كانوا عليه في الدنيا وما صاروا إليه في الآخرة تساؤلَ تلذُّذٍ واعترافٍ بفَضْل الله.

(٢) المراد: في حال وجودنا بين أهلنا في الدنيا واعتزازنا بهم كنّا نخاف الله، ولم نغترَّ بكثرة الأهل.

(٣) أي: أنعم الله علينا بالنعمة الكبيرة بالمغفرة، وحَمَانا وصَرَفَ عنا عذابَ النار النافذة في المسام نفوذَ الريح الحارة.

﴿أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بحَمْدِه وإنعامه، أو بما أنعَمَ عليك من النبوَّة ورَجَاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾، يردُّ عليهم تقوُّلهم هذا، ويَصفَعُهم به ويلطمُهم على وجوههم ويَسخَرُ بهم.

والفرق عندهم بين الكاهن والمجنون: أنَّ الأول: له تابعٌ من الجنّ عن اختيار منه، والثاني: له تابعٌ من الجنّ عن غير اختيار. ويجوز أن يكون مرادهم أنَّ الذي يراه ويسمعه إنما هو من أخيلته وهواجسه.

ثم ذكر لهم تَـقَوُّلاً آخرَ على هذا الوجه، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: حَوادِثَ الدهر وصُروفَه[1]. ومرادُهم: أنه ذو خيال واسع وإحساس عميق، وأنَّ دعوته محصورة في وجوده، فإن مات تفرَّق عنه أتباعُه وعادوا إلى دينهم الأول.

وقال الرازي: إنَّ العرب كانت تحترز عن إيذاء الشُّعَراء وتـتَّقي أَلْسِنَتَهم، لذلك قال بعضهم: لا نعارضُه في الحال مَخافةَ أن يغلبنا بقوة شعره، وإنَّما سبيلُنا الصبر وانتظار موته[2].

وقيل: بل كان مشركو مكة يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ستظل في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقي حَتْفَه عاجلاً أو آجلاً، تلاشت دعوتُه وتفرَّق أصحابُه وعادوا إلى دينـهم، فأمر الله نبيَّـه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي:

---

(١) أو المراد: الموت المشكوك في وقته لا في حصوله، لأنه مقطوع به، وإنما المجهول للإنسان هو وقته. وأصل الريب: الشك. والمراد به هنا: المشكوك فيه فإضافته لِـمَا بعده من إضافة الصفة للموصوف، نظير قوله: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]. والمنون: هو الموت، لأنه يقطع الحياة، تقول العرب: مننت الجبل؛ إذا قطعته. ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨].

(٢) «تفسير الرازي» (٢٨: ٢١٢).

انتَظِروا هلاكي وعاقبةَ أمري وأنتم خائبون، فإني منتظرٌ هلاككم وعاقبة أمركم وأنا من الموقنين، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ثم تابع التقليبَ لوجوه التأنيب والتسخيف، فقال: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ التباينُ من القول، والتناقض في الوصف، إذ بين الكاهن والمجنون والشاعر تباينٌ عظيم لا يقول به عاقل؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: مجاوزون حدَّ العقل في التقوُّلات والتفوُّهات والبهتان، والتُّرَّهات والمكابرة والعناد؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: اختَلَقه من تلقاء نفسه، وليس هو من عند الله؟ فليأتوا بسورة من مثله إن كانوا صادقين.

وبعد أن نَقَض عليهم كلَّ ذلك بطريقة التأنيب والتسخيف، قرَّر حقيقة الأمر فيهم، فقال: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: بل لعدم إيمانهم ولكفرهم وعنادهم يرمونه بهذه الأباطيل التي لا يخفى بطلانُها على أحد، وأنها من الأضاحيك.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ رداً وإبطالاً لقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾، أي: إنهم يقولون ذلك بألسنتهم ولم تؤمن به قلوبهم، إذ يعلمون عِلمَ اليقين أنْ ليس أحدٌ يقدر على الإتيان بمثل هذا القرآن.

وبعد أن بيَّن حقيقة أمرهم إثر ادِّعائهم بالاختلاق والتقوُّل، نقض عليهم ذلك بطريقة التعجيز، وقال: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ فإنَّ فيهم الشعراءَ والبلغاءَ والكَهَنة والأذكياء، وإذ عَجَزوا فليعلموا أنهم في عَمَهِهم تائهون، وقد ضلوا عن سواء السبيل.

﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم بكَّتهم عدَّة تبكيتات يقلّب فيها وجوه التسخيف والتجهيل، ينتقل فيها من واحد إلى آخرَ أشدَّ تشنيعاً وتفضيحاً في البطلان، فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: من غير خالق حتى يجحدوا الإله، ويقطعوا بعدم الحساب؟ والمراد: أفلا يتفكَّرون فيمن خَلَقَهم؟ ألا يستدلّون بخلقتهم على الخالق الحكيم؟

ثم ترقَّى مُتهكِّماً بهم، فقال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لأنفسهم؟ لذلك لا يَرَوْنَ حقاً أن يعبدوا الله سبحانه.

ثم ازدَرَى بهم بصورةٍ أنكى، فقال: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ خالقها هو الذي يستحقُّ أن يُعبَد، ويَقدِر على إعادتهم وجزائهم.

ثم قرَّر حقيقة أمرهم في ذلك، فقال: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟ أي: إنهم يعلمون أنَّ لهم وللسماوات والأرض خالقاً قادراً حكيماً، ورغم ذلك لا يوقنون بوحدانية الله واختصاصه بالألوهيَّة، وأنه سيُحاسب الناسَ على اعتقادهم وأعمالهم.

ثم تابع التبكيت بطريقة التهكُّم والازدراء، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ فيُعطُون النبوة لمن شاؤوا ويُمسِكونها عمَّن شاؤوا؟ يتهكَّم بهم عن مثل قول المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقول أهل الكتاب: إنَّ النبوة مختصَّة بهم.

ثم أردَفَ الكلام بما يُلائمه، فقال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ على أُمور الكون، يُدبِّرونها حسب أهوائهم وميولهم وآرائهم؟

ثم أردف التبكيتات التهكُّمية المبنيَّة على إفحامهم من طريق العقل، بتبكيت تهكُّمي مبنيّ على إفحامهم من طريق النقل، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ فأخذوا دينهم هذا من الملأ الأعلى، وتيقَّنوا أنَّهم على حقّ، وأنَّ محمداً على باطل؟ وفي كلمة ﴿سُلَّمٌ﴾ زيادةٌ في التهكُّم والتبكيت.

ثم قَرَنَ هذا التبكيت بطلب الحجَّة المُثبِتة لذلك، وسَبَكَها على التشنيع والازدراء، فقال: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي: فليأتِ مُدَّعي الاستماع بحُجَّة على صدق دَعْواه. وهذا مَبْنيٌّ على المتعارف الدارج، وهو أنَّ العالم العلوي هو الذي تُفرَق فيه الأمور، والحقيقة أن مَفْرَق الأمور من عالم الغيب[1]. والله أعلم.

ثم سفَّه رأيهم وتندَّر عليهم وسخَّف عقولهم في قولهم: الملائكة بنات الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾؟ وفي صورة التعبير تهكُّمٌ وإيذانٌ إلى أنَّ مَنْ هذا رأيُه لا يعدُّ من جنس العقلاء، فَضْلاً عن المفكرين.

ثم سدَّ عليهم المسالك بقوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: ضريبةً على دَعْواك إيَّاهم لهذا الدين المُبين وإرشادك لهم؟ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ إذ ربما تكون الغرامة عذراً لثقلها، أو يتَّهمونك بأنَّ لك من وراء هذه الدعوى والدعوة مأرباً دنيوياً.

ثم تابع التبكيت التهكُّمي، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: أم لا حاجة لهم إلى هذا الدين، إذ عندهم عِلمُ الغيب فيكتبون منه ديناً مِثلَ دينك الذي هو من عند الله، أو مخالفاً لدينك في أنه لا حشر ولا حساب؟ إذ لا يعتمد على مثل ذلك إلا أن يأتي من عالم الغيب، وعلم الغيب هو الذي يخصُّ الله به رُسُله.

ثم ختم هذه التبكيتات المتتابعة الساخرة اللاذعة المتردِّدة في مجال البطلان، ختمها ببيان حقيقة أمرهم، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بك ﴿كَيْدًا﴾ ومعارضةً

---

(١) وكون ذلك في العالم العلوي لا يُعارض كونه من عالم الغيب، وقد ثبت بالأدلة الكثيرة أن الملائكة في السماوات، وأنها مُوكَّلةٌ بأمور العباد، بحسب ما يأتيهم من أمر الله تعالى، وكذا اللوح المحفوظ مقرُّه في العالم العلوي، وفيه أمور العباد أيضاً، وفي حديث المعراج الذي رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سمع صريف الأقلام، إلى غير ذلك من أدلة يثبت بمجموعها أن فَرقَ الأمور يكون في العالم العلوي.

لِـمَا جئتَ به، خابوا وخسروا، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: هم الذين يحيق بهم كَيْدُهم وما يعملون.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

وبعد هذه التبكيتات المُفْحِمة والإلزامات الهازئة الناقضة لِـمَا هم عليه من الشِّرك والضلال، قرَّر حقيقة التوحيد بعبارةٍ تتناسب مع السياق، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾، أيشركون به مَنْ لا يخلقون شيئاً وهم مخلوقون؟

وبعد إلزامهم بهذه الحُجَج الواضحة للعيان، المُورَدة بأجلى بيان، بعبارات ملْؤُها التهكُّم والتوبيخ والسخرية والتأفين، أنَّبهم وصَوَّر درجةَ عِنادِهم وإنكارهم للأمور المحسوسة الملموسة، ليرتسمَ حالهم في الأذهان، فقال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: إن يَـرَوْا قطعةً ساقطةً عليهم من السماء، يقولوا لِفَـرْط عِنادِهم: إنما هذا سحابٌ متراكم؛ إذ قد انطبعوا على العناد وإنكار البديهيات. وفيه تعريضٌ بقولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢]، أي: هم في هذا الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حَسْبَما قالوا لأنكروه وقالوا: هذا سحابٌ متراكمٌ بعضُه على بعض، ولم يُصدّقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب الذي طلبوه حتى يقع بهم، فأيُّ خير يُرجى منهم! وكيف يُؤمَّل إيمانُهم وهم جامدون على الضلال والعناد؟!

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: تُصيبُهم فيه الصعقة والهلاك. وقد اختلفوا فيها؛ فقال بعضهم: المراد بها قَتْلُهم يوم بدر، وقال آخرون: بل هي يوم القيامة وما بعده.

ثم أكمل وَصْفَ ذلك اليوم، وزاد في البيان عنه بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ وفي هذا تأييسٌ لهم من النجاة.

ثم عقَّب وعيدَهم بذلك اليوم بوعيدٍ آخرَ قبله، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ وقد اختلفوا في هذا العذاب أيضاً؛ فمَنْ قال: إنَّ المراد بالعذاب الأول: قَتْلُهم يوم بدر، قال: إنَّ المراد بهذا: ما أصابهم من القحط مدَّة سبع سنوات. ومَنْ قال: إنَّ المراد بالعذاب الأول: يوم القيامة وما يتبعه من الحساب والعذاب، قال: إن المراد بهذا: عذابُ الفَتْك بهم يوم بدر.

ثم بيَّن تعالى أنهم جاهلون بما هو مخبوء لهم، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وقد قالوا في مثل هذه الآية: إنها جَرْيٌ على أساليب العرب في تحرِّي الصدق، فيُعبِّرون عن الكلِّ بالأكثر.

ثم ختم السورة المبيِّنة لأحوال المشركين بما فيه أمرٌ له ﷺ بالصبر والأناة تجاه عنادهم وتَقَوُّلاتهم ومُعارَضاتهم، وطمأنينةٌ له بأنه في عناية الله ورعايته، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود، ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: في حِفظِنا وحمايتنا. وجَمْعُ «العين» لجمع الضمير، وللمبالغة بكثرة أسباب الحفظ.

ثم أمره أن يستعين على الثبات والصبر بكثرة الصلاة؛ لأنها علاج ناجع فيهما، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ من منامك[1]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾[2] أي: وسطَ الليل وآخرَه، وقيل: المراد: الركعتان قبل الفجر.

---

(١) أي: نزِّه ربَّك عما لا يليق به تنزيهاً مُقترناً ومُتلبِّساً بحَمْده ومُصاحباً له، حين تقومُ من مجلسك، أو من منامك، أو حين تقوم إلى الصَّلاة.

(٢) إدبار النجوم: ذهابها. والمراد: حين ذهاب ضوئها بظهور ضوء الصبح.

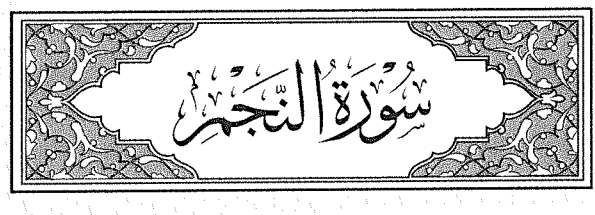

مكيَّة، وهي اثنان وستون آية

ولما جاء في السورة السابقة ما زعموه من أنه كاهن أو مجنون، أي: له تابعٌ من الجنّ، ردَّ عليهم في هذه السورة بأنَّ ما جاء به إنما هو وحيٌ يُوحى.

ثم استرسل في إثبات صفة ذلك الوحي وتوثيقه، وأنَّ محمداً ﷺ واثقٌ من ذلك، وأنَّ هذا الوحي الذي جاء به إنما هو نذير من النُّذُر الأُولى.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾[1] يُقسِمُ سبحانه وتعالى بالنجم المنير الذي لا يضلُّ السبيل إذا سار، وبه يهتدي السائِرُونَ في ظلمات البر والبحر، يُقسِمُ بذلك على أنَّ النَّبيَّ الكريم إنما هو على أهدى السُّبُل وأقصَدِها بتوجيه الله، وكيف يهدي النجمَ هذه الهداية ولا يهدي رسولَه كذلك؟

ومن المعلوم أنَّ العرب تضرب الأمثال بهداية النجم والاهتداء به، فيقولون: فلان أهدى من النجم، ولا يضلُّ حتى يضلَّ النجم، ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. فالمناسبة ظاهرة بين المُقسَم به ـ وهو النّجم عند انحداره في سَيْره بحسب النظر على محيط دائرته ـ وبين المُقسَم عليه، وهو كَوْنُ الرسول ﷺ منتهجاً أنهج الطرق وأقومها،

---

(١) أي: ما ضاع صاحبُكم محمدٌ ﷺ دون قَصْدٍ ولا تعمُّد عن طريقِ الهدى، وما تنكّب طريقَ الرُّشد عن قَصْد وتعمُّد، اتِّباعاً لهوى نفسه، وهو مَنْ تعرفون ـ لطول صحبتكم له ـ اتِّصافَه بغاية الهُدى والرَّشاد.

﴿وَ﴾ كونُه ﴿مَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ كشأن الشاعر والكاهن، أي: ما يقول شيئاً من رأيه، ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما يَنطِقُ به ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ إليه من الله. والمعنى: إنه لا ينطق فيما يُبلِّغكموه عن هَوى نفسه، وإنما يَنطِقُ عن وحيٍ يُوحى إليه من ربِّه، كما جاء في الحديث: «إني لا آمرُكم إلا بما أمرني الله به، ولا أنهاكم إلا عمَّا نهاني الله عنه» (١).

ثم شَرَحَ صفةَ الوحي، فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ أي: مَلَكٌ شديد قُواه، وهو جبريل عليه السلام، ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: حَصَافةٍ في عقله ورأيه، والمراد ـ والله أعلم ـ قابليةُ تلقِّيه عن الله سبحانه وإلقائه إلى محمد ﷺ وإتقانه في ذلك.

ثم ذكر صورةً لأول ملاقاته له ﷺ، وقال: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٢) ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ (٣) ويجوز أن تكون هذه النَّـزْلةُ هي الأولى، أو ما بعد فتور الوحي؛ لأن ما قبلها كان تمهيداً. والله أعلم.

واختلفوا في الفاء من قوله: ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾؛ فقيل: هي للسببيَّة؛ لأنَّ التَّدلِّيَ هو واسطة الدُّنُوّ، وفيه إشارةٌ إلى العلوّ الذي كان عليه، وقيل: بل هي للعطف، والدُّنُـوُّ على معنى الإرادة، أي: أراد الدنوَّ فتدلَّى من العُلوِّ إلى الرسول ﷺ، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ أي: فكان منه على بُعْد ما تقدرونه أنتم بطول قوسين أو أقل. وقد جرت عادة العرب

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٧٣٧) عن الحسن بن علي رضي الله عنه، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١١٤١) عن المطلب بن حنطب، كلاهما بلفظ: «إلا بما أمركم الله به» و«إلا عما نهاكم الله عنه».

(٢) أصل معنى الأفق: الجهة. والمراد هنا: الجهة العليا المقابلة للناظر إلى جهة السماء. أما إطلاق علماء الهيئة الأفق على جانب السمـاء القريب في نظر الرائي من الأرض فهو اصطلاح خاص بهم.

(٣) دنا: أي قرب منه ﷺ، تدلّى: بالغ في القرب.

على تقدير المسافات القريبة بالقوس والرمح والسَّوْط. وقال الزجّاج في بيان هذا التردُّد: إنَّ العباد قد خُوطبوا على لغتهم، ومقدار فهمهم، وقيل لهم في هذا ما يُقالُ للذي يُحَدَّد[1] بمسافة قصيرة. والمعنى: فكان منه على بُعْد ما تُقدِّرونه أنتم بطول قوسين أو أقل. وهو كقوله في سورة الصافات: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

أقول: يعني: أن يكون قد جرى أولاً على عُرف التخاطب، فقال: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، ثم أردفه بتحرِّي الحق الدقيق، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾.

وبعد أن بيَّن صورةَ أول ملاقاة جبريل له عليه السلام، أجرى الكلام على الله سبحانه على نهج القرآن من الانتقال من إجراء إلى إجراء؛ لأنَّ فيه نتيجة لتدلِّي جبريل، وملاقاته للرسول، وبياناً للغرض منه، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أي: الله سبحانه بواسطة هذا المَلَكِ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمدٍ ﷺ ﴿مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ إليه من مبدأ هذه الشريعة الغرَّاء.

وكلمة ﴿مَآ﴾ للتفخيم والتعظيم، وضميرُ ﴿أَوْحَىٰ﴾ لا يعود إلى مرجع الضمائر السابقة، وإنما يعود إلى الله سبحانه، وإن لم يتقدَّم له ذِكر؛ لأن عَوْدَ الضمير على ما يدركه الذهن من فحوى الكلام هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). وهذه الجملة تحقيقٌ لقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾، وتقريرٌ له.

ثم بالغ في تحقيق ذلك، بقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ أي: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، وقيل: بل المعنى: لم يُنكِر فؤادُه ما رآه بَصَرُه، وذلك لأن العلويات يدركها القلب السليم بصورة إجمالية قبل رؤيتها، لا سيّما وهو مرشَّح للنبوة، ومختارٌ للرسالة، والمراد: لم يخالف ما كان يدركه فؤاده لما رآه بصره، أي: أنه إنما رأى ببصره ما

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٧١)، وفيه: (يحزر) بدل: (يحدد).

كان يحسُّ به فؤادُه من قبل من أحوال النبوة، ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ من أمر الوحي. وتشمل الجملة بحسب عموم كلمة ﴿مَا﴾: المعراج الذي سيتعرَّض لبيانه فيما يأتي، أي: أفتُجادِلونه فيما يراه من الوحي والمعراج، وهذا أمره. يُنكِرُ عليهم ذلك بعدما بيَّن لهم من أمره ﷺ مع جبريل ما بيَّن.

ثم خصَّ بالذكر صورةً ثانية من رؤية النبيِّ ﷺ لجبريل عليه السلام، وذلك لِخَطَر شأن ما قارن تلك الرؤية، وهو سفرة المعراج، وما انتهى إليه أمرُها من مواضع رفيعة المقام، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ أي: ولقد رأى محمد ﷺ جبريلَ عليه السلام مرّةً أُخرى من مرّات نـزوله، وكانت ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ وذلك حين أُسري به ﷺ.

وإنما أضاف هذه النَّزلة إلى عنديَّة السِّدرة؛ لأنها أهمُّ ما في هذه الرحلة وأعلى، وإن كانت كلُّها عظيمة، ومثل ذلك من عُرف اللغة وأساليبها، فيُضاف ما هو من المبدأ إلى نقطة بارزة في الموضوع، وأمر بارز فيه، ويسمَّى الشيء بأمر بارز فيه، فيقال: نزلة الغار، ونزلة السدرة، مثلاً.

والسِّدرة: واحدة السِّدْر، وهو شجر معروف، ولا تنسَ ما يقوله ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الاسم» (١). أقول: وذلك لِقِصَرِ اللغة عن بيان تلك المسمَّيات بياناً حقيقياً، وقِصَرِ الفكر عن إدراك حقيقتها، لأنها في عالم أرفع من عالمنا بكثير، فيقرب المعنى إلى الفهم بمثل هذا التعبير.

وإنما خصَّ بالذكر هذا المكانَ دون مكانِ أول الملاقاة؛ لرفعته وبُعْدِ مَنالِهِ ولتجلِّيه بالشرف والامتياز، وتنبيه الأفكار إلى سُمُوِّ ما انتهى إليه من رِفْعةِ المنزلة وعُلُوِّ المقام.

---

(١) سبق تخريجه (٢: ٤٩، ٥٧٦).

ولذلك أفخَمَ أمْرَ تلك السِّدرة، فقال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ يريد بهذا الإبهام الإشارةَ إلى قُصور الكلام عن بيان كرامة وعَظَمة وكَثْرة تلك المخلوقات التي تغشى هذه السِّدرة من الملائكة المقرَّبين.

ثم حقّق الأمر وقرَّره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: لم يَمِلْ عن القَصْد ولا جاوَزَه، وإنما أصابه إصابةً وأدركه حقيقة، يشير إلى أنَّ معراجه ﷺ كان حقاً واقعاً، وما أدركه فيه كان يقيناً صادقاً، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ فيه ﴿مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾، وعن مسروق قال: «سألتُ عائشةَ رضي الله عنها: هل رأى محمد ربَّه؟ فقالت: سبحان الله، لقد قفَّ شعري لِـمَا قلت، قال: قلتُ: فأين قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٨ - ١٠]؟ قالت: إنما ذاك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجال، وأنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورتُه، فسدَّ أُفقَ السماء»[1]. هكذا رُوي عنها، وربما قد علمت ذلك عن رسول الله ﷺ، ولكنها أوقفته عليها ولم تَروِه عنه.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

وبعد أن قرَّر الوحيَ والرسالةَ والمعراجَ المؤيّدَ لها والممهِّدَ لأعبائها، التفت إلى المشركين يردُّ عليهم شِركَهم وضلالهم وإعراضهم عمَّا جاءهم به هذا الرسول الكريم، ويقارن بين شأنه وشأنهم، وعظمة إلهه ومَهانةِ آلهتهم، ويُشنِّع عليهم أمرهم، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ أي: فأين هي من عَظَمة الله؟

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧)، عن عائشة رضي الله عنها.

أو: أفرأيتم من آياتها ما رآه محمد من آيات ربِّه؟ يتهكَّم بهم ويُسخِّف عقولهم، أو المرمى: أفتنكرون أمرَ الوحي وأمرَ المعراج، ولا تنكرون أمْرَ هذه الأصنام فتعبدونها من غير الله؟

ثم ألمع إلى مهزلةٍ أخرى، وهي قولهم: «الملائكة بنات الله»، فقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي: تلك إذن قسمةٌ جائرة، حيث جعلتم لله تعالى ما تستنكفون منه. يتهكَّم بهم ويُسخِّفهم.

ويجوز أن يكون هذا إنكاراً لصُورة أخرى مُستقلّة من صُوَر شركهم، أردف به الإنكار للصورة الأولى، على نهج القرآن في مثله. أي: ثمَّ تشركون به الملائكة وتُسمُّونها بنات الله، فتجعلون لله البناتِ ولكم البنين، ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾.

وقال الـجُبّائي: بل كانوا يزعمون أنَّ اللاتَ والعُزَّى ومَناةَ بناتُ الله، فلذلك أردفَ الاستفهام التقريعي عن أمرها بالاستفهام التجهيلي عن وَصْفِها، حيث قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾.

وعلى كلا التقديرين، فالمعنى: أخبِروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، وتزعمون أنها بنات الله، أو تعبدون معها الملائكة، وتزعمون أنها بنات الله؛ أفرأيتم آيات معبوداتكم هذه كما رأى محمَّد آيات ربِّه؟! يتهكَّم بهم ويُقرِّعهم، ويَرُدُّ عليهم بقوله: ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي: تلك الأصنامُ وادِّعاؤكم أنها معبودات وأنها أناث ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وتَقَوُّلاتٌ تقوَّلتُموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: برهان تتعلَّقون به وتتمسَّكون.

وهذا القيدُ لزيادةِ البطلان، وللإيذان بأنَّ الحقَّ لا يثبتُ إلا بالحُجَّة والبرهان، وهؤلاء في أمرهم هذا ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، والالتفات من

الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأنَّ كثرة قبائحهم اقتَضَت الإعراضَ عنهم تحقيراً لهم، وحكايةَ جنايتهم لغيرهم.

ومُحصَّل الكلام: إنَّ دَعْواهم هذه لم يَقُم عليها دليل نقليٌّ ولا عقليٌّ، وإنما هو ظنونٌ وهواجسُ حَسْبَما تهوى أنفسُهم، فهم يتَّبعون ذلك الضلال ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ فلم يتَّبعوه. وفي هذا زيادةُ تقبيح لحالهم، ومبالغةٌ في الإنكار عليهم والتنديد بأمرهم.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

ثم أضرَبَ عن تأفينهم وتقريعهم بما ذكر إلى تأنيبهم بأنَّ هذه الأباطيل المُختَلَقة لا تُجْديهم نفعاً؛ لأنَّ الإنسان ليس مُطلَقَ العنان، يعبد ما يشاء، ويُشرِّع ما يريد، وينال كلَّ ما يتمناه، وإنما هو مقيَّد بشرائع الله، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي: هل ينالُ المرءُ كلَّ ما يتخيَّله ويمنِّي نفسَه به، كلا، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: إنما الآخرة والدنيا بيد الله، وقد جَعَل لهما سُنَناً تؤدِّي لسعادتهما، فمن تمسَّك بها فاز، ومن تنكَّب عنها هَلَك. ومُجرَّد التمنِّيات أو الخرافات أمرٌ باطل وضلال مبين. فالفاء في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ...﴾ للتعليل؛ لأنَّ ما بعدها في موقع علَّة لِـمَا قبلها، وهو النفيُ الضمنيُّ له والإنكار، أي: ليس للمرء ما يتمنَّاه، ولكن الأمور بيد الله.

ثم أقنَطَهم عمَّا علّقوا به أطماعَهم من أنَّ الملائكة تشفع لهم، وكذلك سائر آلهتهم التي هي رمز للملائكة، فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ الشفاعةَ له ﴿وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ عنه، ويراه أهلاً

للعفو من أهل التوحيد والإيمان، الذين ارتكبوا شيئاً من هفوات الذنوب والعصيان. وأما مَنْ عَدَاهم من أهل الكفر والطغيان، فهم عن ذلك مُبْعَدون. قال ابن عباس: يريد: لا تشفع الملائكة إلا لمن رضي الله عنه[1]، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وكما في سورة غافر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

وقد مرَّ الكلام على الشفاعة في سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، فارجع إليه.

ويجوز أن يكون الكلام محمولاً على المعنى، ويكون الاستثناء من مضمون ما قبله أو منقطعاً، أي: لا ينجو وينصرف عن الموقف إلا مَنْ رضي الله عنه وشاءَ أن يأذن له بالانصراف، وهو المؤمن الناجي، فيكون الكلام نفياً لِمَا يزعمونه من الشفاعة على الإطلاق. والله أعلم.

ثم عاد فسَفَّه رأيهم وسَخَّفَ عقلَهُم، وأنَّبَهُم على ما يَتقوَّلونَ به من وَصْف الملائكة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ أي: يصفونها بالأنوثة ويقولون: إنها بنات الله، ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾[2]، فأنَّبهم سبحانه على ذلك، وأرشَدَهم إلى الطريق الصحيح في الدين والاعتقادات، فبيَّن أنها لا يجوز أن تكون إلا بالبراهين الصحيحة وما جاء عن الله، ولا يجوز أن يعتمد فيها على الظن والوهم والخيال.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٢٠٠).

(٢) يقول بعض العرب: الملائكة بنات الله، ويطلق بعضهم اسم الأنثى على الأصنام، فيقولون: أنثى بني فلان، يعنون صَنَمَهم الذين يعبدونه.

وعليه، فيجوز أن يراد بالآية المعنى الثاني أيضاً، ويكون المراد: أنهم يعبدون الملائكة كما يعبدون الأصنام، يتقرَّبون بهم إلى الله ويستشفعون. (المؤلف).

وفي قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ إشعارٌ بأن تَقَوُّلهم هذا هو في الشَّناعة والفظاعة واسْتِتْبَاع العقوبة في الآخرة، بحيث لا يجترئ عليه إلا من لا يؤمن بها.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم أمره ﷺ أن يُعرِض عنهم، ويتحمَّل أذاهم؛ لأنهم قد انطبعوا على الضلال، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾، فإنَّ من كان كذلك لا تزيده الدعوة إلا عناداً؛ لأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي بيَّناه عنهم، أو قَصْرَ إرادتهم على الدنيا، هو ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ انطبعوا عليه بسوء التقليد والجهالة والغباوة، فلا يسمعون لِـمَا يعارضه من الحق، بل يُعاندونه مُقاوِمين. وجمع الضمير في: ﴿مَبْلَغُهُم﴾ باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنَّ إفراده فيما سبق كان باعتبار لفظها.

ثم علَّل أمْرَه له بالإعراض عنهم، وسَبَكَه على الوعيد، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ أي: أعرِضْ عنهم لأنَّ الله سبحانه يعلم مَنْ يجيبُ الدعوة ممَّن حافظ على سَلامة غريزته واستِعدادِه الفطري لقَبول الحق، ومَن أفسد غريزته بمفاسد التربية وسوء القدوة فلم يُصْغ إلى الحق ولا يحبُّ أن يسمعه كهؤلاء، فلا يُرجى منهم إيمان، وسيُجازيهم جزاءً وفاقاً.

وفي الآية إيذانٌ بأنَّ الشفاعة لا تُغْني عن التفريط بالحق شيئاً، وإنما الأمر في السعادة والشقاء منوطٌ بالضلالة والهدى، والإساءة والإحسان.

ثم أوضَحَ ذلك وتوعَّدهم ضمن هذا البيان العام الذي جعله كالغاية لعِلمِه بمَن ضلَّ ومَن اهتدى، وصدَّره بسلطان الله تعالى، تحقيقاً لإنجازه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خَلقاً وملكاً فهو عظيم السلطان، يُحصي ضلال الضَّالِّين وهداية المهتدين؛ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾[1].

ثم ذكر بعضَ صفاتِ هؤلاء المُحسِنين التي وفَّقتْهم لذلك الثواب، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ[2] إِلَّا[3] ٱللَّمَمَ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو صغار الذنوب. وقال الحسن والسُّدِّيّ: هو أن يُلمَّ بالذنب مرةً ثم يتوب ولا يعود. واختار هذا الرأي الزجَّاج أيضاً[4].

ثم علَّل ذلك الاستثناء بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

ثم قرَّر ما تقدَّم من قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ [النجم: ٣٠]، وقولِه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟﴾، بما هو تمكينٌ له وتمهيدٌ لِـمَا بعده، فقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ[5] فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فإذا كان علمُه تعالى محيطاً بسائر أحوالكم قديمِها وحديثِها ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾[6].

---

(١) أي: ليَجْزيَ المُسيئين في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا من عصاة المؤمنين والكافرين حتى أخسِّ دركاتهم بمقدار إساءاتهم، ويجزيَ المُحسِنين أهل المرتبة العليا من مراتب المؤمنين، فمن دونهم من المتقين والأبرار على تفاضل درجاتهم بالمثوبة الحُسْنى، وهي: الجنّة.

(٢) أي: يبتعدون عن حدود كبائر الذنوب، وما عَظُمَ قبحُه من الأفعال والأقوال. وينظر ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الشورى: ٣٧].

(٣) ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكنْ)، أي: لكنِ اللَّمَمُ يغفرُها الله، لأنه سبحانه واسع المغفرة.

(٤) في «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٧٤).

(٥) أجنَّة: جمع جنين، وهو الطفل ما دام في بطن أمه.

(٦) أي: لا تمدحوا أنفسكم بحُسْن الأعمال والبراءة من الآثام، ولا تصفوها بذلك، فأمرُ الحكم =

وفي قوله: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ رأيان: الأول: أن المراد به خلقة آدم، وفيه تجوُّزُ نسبةِ ما للأصل إلى الفرع، وهو من خصائص اللغة ونهج القرآن.

والثاني: أن المراد به جميع البشر، وذلك لتكوُّن المنيِّ من الأغذية المخلوقة من الأرض رأساً كالنبات، أو بالواسطة كالحيوان، واختاره البَلْخيّ.

وعلى كلٍّ، فالمراد استيعاب إحاطة عِلمِه سبحانه بهم حتى في أدوارهم الخفية.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حالَ المشركين المعاندين العابدين للَّات والعُـزَّى، والقائلين بأن الملائكة بنات الله، شَرَع في بيان حال أهل الكتاب، وأنَّبهم على كفرهم بمحمد ﷺ، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾، والتعبير بالمفرد عن الصِّنفِ من خصائص اللغة ونهج القرآن.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: إنَّ هذه الآية نَـزَلت فيمن كفر بعد الإيمان. ومعنى «أكدى»: قطع[1]، أي: مال إلى الإيمان ثم أعرض، فيكون قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا

= بطهارتكم من المعاصي وتزكيةُ أنفسِكم ليس لكم، إنما هو لله، هو أعلمُ بمَنْ برَّ وأطاع وأخلَصَ العمل، فمن زكَّاه فحكم له بذلك فهو الزكيُّ التقيُّ، لأنه سبحانه هو العليم بعباده، الحكيم في أحكامه.

(١) تقول العرب: فلان حَفَرَ في البئر فأكدى، أي: وجد كُدْيةً أوقفَتْه عن الحفر. والكُدْية ـ بضمّ فسكون ـ: حَجَرٌ كبيرٌ شديدُ الصلابة. والكلامُ كنايةٌ عن التوقُّف في العطاء.

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ بياناً لصورة هذا التَّولِّي، وعَطْفَ تفسيرٍ عليه(١).

ومحصَّل الكلام: أفرأيتَ حالَ مَن تولَّى وله كتاب، وكان قد أعطى قليلاً من الزمان حقوقَ الله بمقتضى كتابه، أو أعطى بعضَ حقوق الله فيما يأمره وينهاه، فلما جاء محمد ﷺ بما جاء به أكدى وأعرَضَ عن الإيمان بذلك، مع أنه مكتوبٌ عندهم في التوراة والإنجيل الصحيحَيْن، زاعماً أن لا نبيَّ إلا من بني إسرائيل، وأنهم هم الناجون والمقبولون عند الله.

فأنَّبه سبحانه بما فيه تهكُّم به، فقال: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ أي: هل هو ممَّن يرى الوحيَ ينزلُ عليه، وقد أُوحِيَ إليه بخِلافِ ما في كتابه المصدِّق بنبوَّة محمد وما جاء به؟

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ(٢) ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ(٣) ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ(٤) ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ

---

(١) أي: بَخِلَ وشحَّ بعطاء من فكره ونفسه؛ لأن مضامين هذه الدعوة لم توافق هواه وشهواته ونزغاته وكِبْره، فاستَحجَرَ عطاؤه الفكريُّ والنفسي، كالأرض الغليظة، والصخرة الشديدة التي لا ترشح بماء.

(٢) أي: كمَّلَ وتَمَّمَ ما أُمر به، فأدّاه أداءً وافياً على أتمِّ وجه لم يَنقُص منه شيئاً.

(٣) أي: لا تحمل نفسٌ آثمةٌ ولا غيرُ آثمة إثمَ نفسٍ أخرى، حتى تخلِّص هذه الثانية من إثمها، إنما تحمل الآثمةُ إثمَ ذنبها الذي فعلته بالمباشرة أو التَّسبُّب، فتُعاقب عليه.

(٤) قال الإمام الغزالي: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والدُه دونَه، والظمآن يروى بشرب والدِه، فالعاصي ينجو بصلاح والده أو أحد أقاربه وذويه. فلا يَعْتَقِدْ أحدٌ أنه ناجٍ مما فعل من المعاصي اعتماداً على صلاح آبائه. وقد قال ﷺ: «يا فاطمة بنت محمد، اعملي، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً». (المؤلف).

والحديث سبق تخريجه (٣: ٤٢٩).

=

﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي: أم لم يعرف من كتابه ما جاء في الشرائع السابقة في صُحف إبراهيم وموسى، من أنَّ الإنسان مَجْزيٌّ بعمله، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ. يريد: أنَّ الأديانَ كلَّها مناطُها هذا القانون، ولا دَخْلَ للجنسيَّات في الأمر ولا للشخصيَّات، وسيُجزى على إعراضه عمَّا جاء به محمد ﷺ من التعاليم أشدَّ الجزاء، في يوم لا يحمل فيه أحدٌ وِزْرَ آخر، ولا يُقبَلُ من أحد عِدْل، أي: بَدَلٌ وفداء، ولا تنفعه شفاعة، وليس في الأمر حباء.

وفي مدح إبراهيم عليه السلام بأنه وفَّى واجبَه حقَّ الوفاء، تعريضٌ بهؤلاء الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ويقولون: نحن على دين إبراهيم عليه السلام.

ثم تابع السياق بما في تلك الصُّحُف مما له تعلُّق بالموضوع، فقال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ فينالُ كلَّ عامل جزاءَ ما يستحقُّه من ثواب عظيم أو عقاب أليم.

ثم أردَفَ البيانَ بذِكرِ مظاهر قدرته البالغة سبحانه في الجمع بين الضِّدَّين، إيذاناً بقدرة الله على الحشر بعد الموت، وعلى إنجاز وعده ووعيده، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: خَلَق الإنسان مُستعداً لذلك، وهما حالتان مُتضادّتان مُنْبَعِثتان عن الإدراك الذي خُصَّ به الإنسان، نتيجةَ خَلْقِه في أحسن تقويم، واختصاصِه بالروح الكريم.

وفي التنصيص على هاتين الصفتين واللتين تليهما لطفٌ في المَسْلك مع الوعد والوعيد، على نهج القرآن في دقائق الإشارات، أي: إنه سبحانه قد خلق الإنسان مُستعدّاً لإدراك الأمور وفهم الحقائق، وسينتهي بأعماله في الدنيا إلى ما يَسُرُّ أو يُحزِن في الأُخرى.

= ومعنى الآية: وأنْ ليس للإنسان من حقٍّ أعطاه الله له بفَضْله إلا ما كسبَه من أعمال صالحة، وهذا لا يمنع من أن يصلَه شيءٌ بفضل الله دون سَعْيٍ منه، كدعاء منْ يستجيب الله دعاءه له، أو شفاعة مَنْ يأذن الله له بالشفاعة.

ثم أضاف إلى هذا المظهر من مظاهر قدرته البالغة مَظْهراً آخر يُومئُ إلى البعث والنُّشور، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾، وهذا من أعظم مظاهر قدرة الله العليَّة، وفيه عطفٌ للدعوى على الدليل، أي: الذي جمع بقدرته البالغة بين استعداد الضحك والبكاء في الإنسان؛ جَمَعَ له بين الموت والإعادة.

ثم أضاف إلى دليل الضحك والبكاء في الجمع بين الضِّدَّين، دليلاً آخر في ذلك، إحاطةً للدعوى بدليلَيْن، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي: وكذلك من مظاهر قدرته العظيمة أنْ خلقَ هذين الصِّنفَيْن المُتباينَيْن في كثير من المُشَخِّصات والمُميِّزات من المنيِّ، وهو شيءٌ واحد يتفاوت بتَفاوُت ما يَعرِضُ له من الأحوال في الرَّحِم، فيكون ذكراً أو أُنثى، فليس غريباً ولا عزيزاً في جانب هذه القدرة ما عطفه عليها بقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ للإنسان، أي: إحياءَه بعد موته كما وَعَد به. وقد نَسَق هذا في السياق بصورة نتيجةٍ للمقدِّمات السابقة في بيان قدرة الله البالغة.

ثم تابع النَّسَق في مظاهر تلك القدرة، مسبوكةً مع دليل المنَّة، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ مَن شاء ومَوَّلَه[1]، وهذا هو المرويُّ عن ابن عباس، ﴿وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي: أعطى الخدم والقِنَّ لمن شاء. والقِنّ: العبيد الموروثة. وهذا هو المرويُّ عن الحسن ومجاهد وقتادة. أو: أعطى الأشياء التي تُتَّخذ للاقتناء والزينة لنفاستها.

ثم نسق في السياق ما فيه تسفيهٌ لأولئك المعارضين المشركين وتجهيلٌ لهم، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ[2] ﴿٤٩﴾﴾ معبودِهم، وهي الشِّعْرى العبور؛ نجمٌ مضيء من القدر

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٤٩) عن مجاهد.

(٢) هذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوي ستاً وعشرين مرة من قدرة إشعاع الشمس، =

الأول، عبر المجرَّة، كانوا يعبدونه في الجاهليَّة، وهو أحد كواكب الكلب الأكبر، وموقعه جنوب برج الجبار.

ومَرْمى الآية: أن هذه الشِّعْرى التي مَلَكَت عليهم مشاعرَهم حتى عبدوها، إنما هي من أوسط مخلوقاته تعالى، أفلم يكن من الأَفَنِ والحمق أن يعبدوها، ولا يعبدون ربَّها الذي يخلقها ويخصُّونه بالعبادة.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ٥٥ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ٥٦ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ٥٩ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ٦١ فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ٦٢﴾.

ثم تابع السياق والنَّسَق ببيان ما أنزله بالمعارضين من الأمم الماضية من عذاب الاستئصال، تهديداً لهؤلاء المشركين بأنه سيَجري عليهم ما جَرَى على أولئك، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾ وهم قوم هود عليه السلام، والوَصْفُ بـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ لبيان تقدُّمهم وبُعدِهم، أو لأنَّ العرب تُطلِقُ «عاداً» على جميع العرب البائدة، فأشار بالوصف إلى قوم هود.

= وقدرته على إشعاع الحرارة مثل ذلك، فلو فُرض أن الشعرى اليمانية حلَّت محلَّ الشمس يوماً لفنيت الحياة فجأة من الأرض باشتعال كل شيء عليها من حيوان ونبات، وبغليان الأنهار والمحيطات. وضوء الشعرى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، بينما ضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق، فقَدِّر الفرق بين البُعدَين. وفي السماء نجوم تزيد على قدرة الشعرى أكثر من عشرة آلاف مرة، منها نجم يسمَّى الميرة، وهو أكبر من شمسنا بما يزيد على ثلاثين مليون مرة ـ جلَّت قدرة العظيم القدير ـ ولبُعده الشاسع يُرى نجماً ضئيلاً. فكم في السماء من آيات تدل على عظمة الله الواحد القهار. (المؤلف).

﴿وَ﴾ أهلك ﴿ثَمُودَاْ﴾ وهم قومُ صالح عليه السلام، ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١﴾ أحداً من الفريقين، ﴿وَ﴾ أهلك ﴿قَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾ أي: من قبلِ عادٍ وثمود، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢﴾ من الفريقين.

ويحتمل أن يكون المراد من هذا الوصف: شدَّة بأس أولئك الهالكين جميعاً، مبالغةً في تهديد هؤلاء المشركين الذين هم دونهم في المقاومة والقدرة، على نهج القرآن في مثله. وقد اعترض به أثناء السياق.

ثم تابع السياق بقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ وهي قرى قوم لوط ﴿أَهۡوَىٰ ٥٣﴾ بها وقَلَبَها، ولذلك سُمِّيت: مؤتفكة، بمعنى: مُنقَلِبة. وكان ذلك بأنْ أمطَرَ عليها حجارةً من سِجّيل، ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ منها ﴿مَا غَشَّىٰ ٥٤﴾، وهذا الإبهام للتهويل.

ثم أردَفَ هذا السياقَ بما فيه تقريرٌ للوعد بنَصْر الرسول وإهلاك المعارضين الذي تضمَّنه البيان، وبنى ذلك على فرض تَردُّده فيه، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ[1] رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ٥٥﴾ أي: تتشكَّك وَتَتَردَّد.

والغَرَضُ من صيغة هذا التعبير الفرضي: زيادةُ المبالغة في التقرير والتأكيد، وهو أُسلوبٌ من أساليب اللغة، ونهجٌ من مناهج القرآن.

وسمَّى الأمور السابقة: آلاء؛ لِمَا بها من نُصرة الأنبياء والمؤمنين والانتقام لهم.

ويجوز أن يكون الخطاب عاماً لسائر أفراد الإنسان وسائر النِّعَم، وليس خاصاً بالرسول، أي: بأيِّ نِعَمِ ربِّك ترتابُ أيها الإنسان؟! يُؤنِّب الجنسَ على ذلك بعَمَل بعضِه.

---

(١) الآلاء: الشؤون العجيبة والأمور الغريبة، كما في أصل معناها اللغوي واستعمال العرب لها، كما رجَّحه العلامة عبد الحميد الفراهي في كتابه «مفردات القرآن».

ثم ختم السورة بقوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ قيل: هو إشارةٌ إلى القرآن. والنُّذُرُ الأُولى: صُحُفُ إبراهيم وموسى، وهذا هو المرويُّ عن أبي مالك[1]. وقيل: هو إشارة إلى ما في هذا القرآن من إهلاك الأمم الأُولى، وهذا هو المرويُّ عن الجُبّائيّ.

ثم أردف هذا الإنذار بما يُومئ ويدلُّ على إنجازه مؤخَّراً إلى يوم القيامة، فقال: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أي: قَرُبَت القريبة؛ يعني بها: القيامة. وهذا التركيب للمبالغة في القُرب. وقد زاد في تقريره بقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ليس هناك نفسٌ تَقدِرُ على دفعها إذا وقعت، أو المعنى: ليس لها مَنْ يكشفها ويُجلِّيها إلا الله، كما قال تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ثم زاد في التهديد والإنذار، فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: ما تقدَّم من الأخبار، وقيل: يعني القرآن ﴿تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ إنكاراً، ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً، ﴿وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾ تحزُّناً على ما فرَّطتم في جَنْب الله، وعلى ما جرى على أمثالكم، وعلى ما يراد بكم، ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لاهون، أو مُستكبرون، من قولهم: سَمَد البعير؛ إذا رفع رأسه، أي: رافعو رؤوسِكم.

ثم أمرهم سبحانه أن يعبدوه ويُخلِصوا له العبادة، فلا يُنجيهم غير ذلك، فقال: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾﴾، وهذا الأمر يحتمل أن يكون عاماً متابعةً للسياق، يحثُّ به المعارضين أن يَثُوبوا لرُشدِهم، ويؤمنوا بهذا الدين الذي يأمرهم بعبادة الله دون سواه، ويحتمل أن يكون خاصّاً بالمؤمنين على طريقة الالتفات من أساليب القرآن، أو نَقْلِ الكلام من إجرائه على صِنفٍ إلى إجرائه على آخر، على نهج القرآن في ذلك.

---

(١) هو الغفاري، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٤٦).

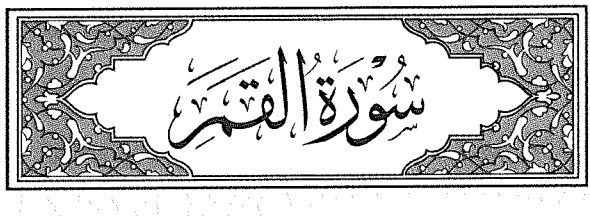

مكية، وهي خمس وخمسون آية

جاء في آخر السورة السابقة أنَّ ساعتهم قد أزِفَت، فجاءت هذه السورة بتأكيد ذلك، وتابعت الإنذار بالعذاب، وتردَّد السياق في هذا الموضوع كما في السور السابقة، وختمها بمصير المتَّقين؛ ليجمع بين الترغيب والترهيب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ يقول علماء الجيولوجيا وعلماء الفلك: إنَّ عُمُرَ الشمس يُقدَّرُ بنحو خمسة ملايين مليون سنة[١]، وقد مضى من عُمُرها أكثره نسبةً لِمَا طرأ عليها من الضعف[٢].

أقول: فاقتراب الساعة إنما هو بالنسبة إلى ما مضى من عمر العالم الطويل، ولا يعلم ما بقي منه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد أخبر باقترابه.

وإذا نظرنا إلى أنَّ الرسول ﷺ هو خاتم الأنبياء، ونبيُّ آخر الزمان، كان مجيئه ﷺ دليلاً أيضاً على الاقتراب النسبيِّ للساعة، لذلك جاء عنه ﷺ: «بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين»[٣]، وأشار بالسبَّابة والوسطى.

---

(١) هذه أقوال افتراضيَّة لا دليل عليها.

(٢) انظر ما تقدم تعليقاً (٢: ٢٣١).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)، عن أنس رضي الله عنه.

أما انشقاق القمر، فقد اختلف فيه؛ قال بعض المفسِّرين ـ ومنهم الحسن[١] والبَلْخي ـ: المراد منه: انشقاقه يوم القيامة، فهو من أعراض الساعة وملاءماتها، والتعبير بالماضي على هذا للمبالغة في قُرب وقوعه، أو لتحقُّق الوقوع، على حدِّ قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، ومثله من خصائص اللغة ومناهج القرآن.

وعلى هذا، فالآية ردّ للمشركين الذين طلبوا انشقاق القمر ليكون معجزةً على صدق محمد ﷺ، ووعيدٌ لهم بقُرب الساعة وانشقاق القمر بها، أي: سينشقُّ القمر يوم القيامة؛ يوم جزائكم، ويومئذ لا بشرى للمشركين. ثم علَّل عدم إجابة طَلَبِهم بأنه لو انشقَّ لحملوا ذلك على السِّحر، فقال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً ...﴾.

وقال غيرهم: المراد: انشقاقه في الدنيا معجزةً لرسول الله ﷺ، وهو من علامات اقتراب الساعة؛ لأنَّ مجيء الرسول ﷺ هو من علامات اقتراب الساعة، كما ذكرنا آنفاً، فكلُّ ما كان معجزةً له يصحُّ فيه هذا الوصف. وقد رُوِيَ عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم: أنَّ المشركين سألوا رسول الله ﷺ آية بإشقاق القمر، فانشقَّ نصفَيْن[٢].

ومَن طعن في ذلك بحُجَّة أنه لو وقع لرآه العالم كلُّه ولأصبح حادثةً عالميَّة؛ فليس قوله بشيء، إذ يجوز أن يكون هذا الحادث لم يبق طويلاً، وبما أنَّ الناس لم ينتظروا وقوعَ مِثلَه، ولا يتأمَّلون بما يحدث في السماء بصورة وقتيَّة، يجوز أن لم يطَّلع عليه كلُّ أهل مكة، بل بعضهم، فَضْلاً عن بقية العالم، ولا سيّما إذا كانت الفلقتان غير متباعدتين عن بعضهما كثيراً.

---

(١) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥: ٤٠٩).

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال النبي ﷺ: «اشهدوا». رواه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وهناك وجه آخر للردِّ، وهو أن القمر لا يُرى في آنٍ واحد من جميع أقسام الأرض؛ لأنه ينتقل حولها، فيظهر في منطقة ويخفى في غيرها من المناطق، فإذا خسف رُؤي في ناحية دون غيرها؛ لأنه ينجلي عند وصولها، ومدَّة هذا الانشقاق مدة الخسوف أو أقل، فحاله حاله.

وبعد أن توعَّدهم باقتراب الساعة وذكر هذه الآية، أنكر عليهم بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾[1] يأتي به محمد، ﴿وَكَذَّبُوا﴾ بها كما كذبوا برسالته ﷺ وبما جاء به، ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ﴾ التي زيَّنها لهم الشيطان. ثم ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾[2] قال قتادة: الخير يستقر بأهل الخير، والشرُّ يستقر بأهل الشر[3]. والمراد: أنَّ كلَّ أمر ـ خير أو شر ـ مُسْتقرٌّ ثابتٌ حتى

---

(١) أي: وإن يَرَ الكفارُ آيةً عظيمةً من آيات الله تدلُّ على صِدقِ رسول الله ﷺ، يُعرِضوا عن الإيمان بها، ولا يُصدِّقوا بدلالتها، ويقولوا: هذه الآياتُ سحرٌ يأتي به محمدٌ بصفة متكرِّرة دائمة.
وفي ادِّعائهم أنه سحرٌ مُستمرٌّ استمراراً زمنياً تعارضٌ وتهافت؛ وذلك لأنَّ من شأن السِّحر أن لا يكون دائماً، ومن شأن الأمور الدائمة أن لا تكون سحراً، أما أن يكون الشيء الواحد سحراً ومُستَمِرّاً معاً، فهو جمعٌ بين أمرين متضادَّين لا يجتمعان.

(٢) الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ معطوفة على محذوف تقديره: أعرَضُوا عن آية انشقاق القمر ودلالتها، وكذَّبوا النبيَّ ﷺ، في بلاغاته عن ربِّه عزّ وجلّ، فلم يؤمنوا بالقرآن، ورفضوا اتِّباع الرسول فيما جاءهم به، واتَّبعوا أهواءهم في القضايا الاعتقاديّة والفكريّة والنفسيّة والسلوكيّة، فهم في أمر مختلط غير متجانس ولا متوافق، وإنَّ تكذيبَهم واتِّباعَهم لأهوائهم لا يُغيِّرُ من أنظمة الكون وقوانينه المُستقرَّة الثابتة شيئاً، فإنهم لا يضرُّون إلا أنفسهم، ولا يستطيعون أن يمنعوا عن أنفسهم عقاب الله، ولا أن يمنعوا ظهور دين الله، ولا أن يظفروا بالانتصار أخيراً على رسول الله والذين آمنوا معه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٧٢).

يُجازى به صاحبُه. وقيل: بل المعنى: أنَّ لكلِّ أمر حقيقة، فما كان منها في الدنيا فستظهر، وما كان منها في الآخرة فستعرف؛ لأنَّ الحقَّ والحقيقة ثابتان مُسْتقران. ومن جملة ذلك: أمرُ النبي ﷺ، فسيصير إلى غاية يتبيَّن عندها حقيقته وعِظم شأنه. ومن ذلك: أمر البعث، فسينكشف ويُعرَفُ عياناً يوم البعث، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ومُحصَّل الآيات: أنَّ موعد حسابهم وعذابهم قريبٌ، وهم مستمرُّون على إعراضهم وزَعْمِهم أنَّ ما يُنْذَرون به سِحرٌ ومكرٌ لا حقيقة له، يتَّبعون في ذلك أهواءَهُم، وسيُدرِكون أنَّ الأمر حقٌّ مُستقر ثابت عند مشاهدته بالعيان. ويجوز أن يكون محصَّل المعنى: إنهم كذَّبوا بالحشر والحساب، واتَّبعوا في ذلك أهواءهم، والحقائق ثابتة مستقرَّة لا تتغيَّر بالتكذيب والإنكار.

ثم أنحى عليهم باللائمة والوعيد، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ في هذا القرآن ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ عن الحقائق الراهنة وعن القرون الماضية ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ عظيم، وعظةٌ رهيبةٌ جليلة، لو كانوا يتَّعظون، فلا يطلبون أن يُؤتَوْا بآية كما أُوتي الأوَّلون، وفيه ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ لو كانوا يفكرون، ثم أنكر عليهم بقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾[1] لمثل هؤلاء.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّ في عدم ازدجارهم حكمةً بالغة، وهي أنَّ الذي يُفسِدُ طبيعتَه بمفاسد التربية وسوء القدوة لا تُفيدُه الزواجرُ والنُّذرُ، ويجوز في ﴿مَا﴾ أن تكون استفهامية إنكارية، وأن تكون نافية.

ولـمَّا يأَّسه من إيمانهم، توعَّدهم بما فيه تسليةٌ له، وقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي:

---

(١) أي: فما تكفي وما تنفع هؤلاء الكفارَ هذه النُّذُرُ مهما كان إرهابُها وتخويفُها.

اتركهم وأبصِرْهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ[١] إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ تُنكِره النفوس لهوله وعدم العهد بمثله، وهو يوم القيامة، وحينئذ تُبصِرُهم ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور. وخشوع الأبصار: ذلُّها من شدَّة الهول والخوف. ويجوز في الفعل «تولَّ» أن يكون متضمِّناً معنى: أبصِرْهم عن بُعدٍ أو لا تُبصِرهم، يرمز به إلى شدَّة ما يُصيبهم.

وبعد أن صوَّر ذلَّهم صوَّر كثرتهم وازدحامهم[٢]، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾. ثم صوَّر انقيادهم صاغرين، فقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ يقال: أهطع البعير؛ إذا مدَّ رقبتَه للسَّيْر. أي: مُسْرعي الإجابة مُنقادينَ على خلاف ما كانوا عليه في الدنيا من النفور والإعراض عن الداعي إلى الحق. والمعنى: إنهم لا يُمكِنُهم يومئذ أن يُعرِضوا كما أعرَضوا في الدنيا.

ومن مباحث اللفظ: أن خطف الياء من ﴿ٱلدَّاعِ﴾ على سُنَّة القرآن في خطف بعض الياءات مُراعاةً للتخفيف، وكذلك حُذِفَت الواو من ﴿يَدْعُ﴾ في النطق، لالتقاء الساكنين، وحُذِفت في الإملاء تبعاً لذلك، على نهج إملاء القرآن في مثله.

ثم أكمل البيان عن هَوْل ذلك اليوم بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾[٣]، وفيه تلويحٌ إلى أنَّ المؤمنين لا يرونه كذلك، والله أعلم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ

---

(١) المراد بالداعي: إسرافيل عليه السلام، أي: واذكر يومَ ينفخُ إسرافيلُ في «القَرْن» عند النفخة الثانية إلى شيء مُنكَر فظيع لم يَرَوْا مثله، فينكرونه استعظاماً له.

(٢) وتتابعهم وتصادم بعضهم ببعض.

(٣) صعب شديد الهول.

قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

ثم أردَفَ السياقَ بقصص بعض الأنبياء مع معارضيهم، إنذاراً لهؤلاء المشركين بمثل ذلك، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحاً، وقد كرَّر فِعلَ التكذيب للإيذان بأنه صَدَر من كلِّ جيل منهم، فكلُّهم كذَّبوه ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾، أما قوله: ﴿وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ فهي جملةٌ مستأنفة تبيِّن أنهم قد زَجَروه عن التبليغ بأنواع من المعارَضة والأذى، وقالوا عنه: إنه مجنون، أو معطوفة على جملة ﴿وَقَالُوا۟﴾. وقيل: بل هي من جملة ما قالوه، أي: هو مجنون قد ازدَجَرته الجنُّ وتخبَّطته.

وقد أيِسَ من إيمانهم ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ على أمري ﴿فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ لي منهم، ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ كثيرِ الانصِباب، ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: وفجَّرنا عيون الأرض، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماءُ السماء وماءُ الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ أي: على أمرٍ قدَّره الله في هذا الطوفان لهلاكهم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي: نوحاً عليه السلام ﴿عَلَىٰ﴾ سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أي: أخشابٍ عريضة ﴿وَ﴾ ذاتِ ﴿دُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾[1] أي: مسامير تُشَدُّ بها الألواح.

وهذا الوصف للإيماء إلى أنها ضعيفة بالنسبة إلى قوة الماء، ولكنها اقترنت بحفظ الله. يشير بذلك إلى لطف الله بالأنبياء ورعايته لهم، ولذلك قال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[2] أي: بمَرْأى منا، يريد: بحفظنا وحراستنا.

---

(١) ﴿دُسُرٍ﴾ مفردها: (دِسَار) بكسر أوله، ككِتاب وكُتُب، وهو ما تُمسَك به الألواح بعضها ببعض، كالمسمار.

(٢) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه، وسمَّى بها ذاته في كتابه =

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ أي: فعلنا به وبهم ما فعلنا ـ من إنجائه وإغراقهم ـ ثواباً لمن كان كُفِرَ به وجُحِدَ أمرُه، وهو نوح عليه السلام، وعقاباً لهم.

ويحتمل أن يكون في الآية احتباك بحذف كلمتَي: «لهم» و«ثواباً»، والتقدير: جزاءً لهم وثواباً لمن كان كُفِر، على نهج القرآن في مثله.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿جَزَآءً ...﴾، علَّة لقوله: ﴿تَجْرِي ...﴾، لا لمجموع ما تقدَّمه.

ثم حثَّ على الاعتبار بهذه القصة، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾[1] أي: تركنا هذه الفِعلةَ بهم عِبرةً لا تُنسى، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾؟ أي: من مُتَذكِّر لها مُعْتَبِر بها؟ يُعرِّض بقريش.

= وتنزيله أو على لسان رسوله، من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ولا سمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت وردّوا عِلمَها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالى. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء واليد والوجه والنزول والاستواء على العرش إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفيّة عنها؛ لأنّ الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام عن الذات، وإثبات الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

أما مذهب الخَلَف في ذلك: فالحَمْل على المعاني المجازيّة والمفاهيم الكنائيّة، بحسب جاري اللغة وعُرف التخاطب، وهي هنا بمعنى الحفظ والرعاية. (المؤلف).

(١) جميعُ مِلَلِ البشر ونِحَلِه يشيرون في دياناتهم إلى حادثة الطوفان هذه، وكلُّ ملّة تُلبِسُه ثوباً من خرافاتِ دينها، حتى جاء القرآن فبيَّنها على واقعها وضوحاً وصدقاً. (المؤلف).

ثم بالغ في التحسيس بذلك العذاب، زيادةً في التحذير، وقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾؟ أي: فكيف كان هَوْلُ عذابي وصِدقُ نُذُري. وقد خُطِفَت منها الياء، على نهج القرآن.

والنُّذر: جمع إنذار، وصيغة الكلام تفيد التعظيم والتهويل، أي: كانا على كيفيَّة لا يحيط بها الوصف والبيان.

ولما كانت مندرجات هذه السورة كلها عظمةً وإرهاباً، كرَّر فيها هذه الآية.

ثم حثَّ على تدبُّر القرآن الذي من جملته ما تقدَّم من البيان، وذكر أنه مُيسَّر للفهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: للفَـهْم والتذكُّر، وذلك بحُسن بيانه وظهور برهانه في الحِكَم السَّنيَّة والمقاصد السميّة والأحكام العليَّة، ولا يحتاج إلا إلى قليل من الالتفات والتدبُّر مع سلامة الطويّة، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ به مُتَّعِظٍ بحِكَمِه وأحكامه، ومواعظه وإرشاداته، ووعيده وترغيبه وتهديده؟!

وما أشدَّ قَرْعَ هذه الجملة وما فيها من حثٍّ وإيقاظ للنفوس والعقول، وقد تكرَّرت أيضاً في هذه السورة[1] إغراءً على التمسُّك بما جاء في هذا القرآن، والاهتداء بهديه، والاتِّعاظ بمواعظه، والعمل بتعاليمه، وإدراك الغاية منها، لأنَّ مَن أعرَضَ عنه فقد خسر خساراً مبيناً، وضلَّ ضلالاً بعيداً.

---

(١) وردت هذه الجملة القَسَميَّة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أربع مرات: في آخر قصة إهلاك قوم نوح، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم لوط، حثّاً على تدبُّر القرآن وتذكُّره، وتنبيهاً على أن هؤلاء الأقوام لو تَلقَّوْا ما أُنزل إليهم من ربِّهم عن طريق رسلهم، وتدبَّروه، ووضعوه في ذاكرتهم، والتزموا أوامر الله لهم، ما عرَّضوا أنفسهم للهلاك الشامل المُعجَّل في الدنيا، وللعذاب الخالد المُؤجَّل إلى يوم الدين.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ثم ذكر مصير عاد، فقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أخاهم هوداً ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾؟! أي: فكيف كان هَوْلُ عذابي الذي أرسلتُه عليهم وصِدقُ نُذُري التي أنذرتُهم بها؟!

ثم ذكر مُجمَلَ العذاب، فقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي: شديدةَ الهبوب. وقيل: بل المعنى: شديدة البرودة، وكان ذلك ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾[1] شُؤْمُه، حتى أهلكهم.

ثم ذكر لهذه الريح صفتَيْن بارزتَيْن، على طريقة اللمحة الدالَّة، من أنواع إيجاز القرآن، فقال: ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ أي: تقتلعُهم من أماكنهم لشدَّتها، وتُهلكُهم وتجعلُهم ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ[2] مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ بمعنى: أنهم يكونون مِثلَ أصول نخل منقلعة عن أماكنها قد يبست وتقلَّصت، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ ﴾ هَوْلُ ﴿ عَذَابِي وَ ﴾ صِدْقُ ﴿ نُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾؟!

ثم أعاد الجملة الدالة على وضوح هذا البيان، للمبالغة في التبصرة والتبيان، فقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ يتذكَّر بما جاء به ويتَّعظ.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا

---

(١) المراد باليوم هنا: جنس اليوم، فيشمل الأيام المتعدِّدة، لأنها كانت ثمانية أيام، كما قال تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: ٦] أي: قاطعات لدابرهم.

(٢) أعجاز النخل: هي أصولُه التي ليس عليها جريد، شُبِّهوا بها لأنهم كانوا طوال الأجسام.

ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم ذكر مصير ثمود، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: بما أنذرهم به صالحٌ ووعظهم، ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ منكرين عليه: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾، وهذا الكلام مُشْعِر بالوحدة والاستضعاف، بمعنى: أنه واحدٌ لا تَبَعَ له. وهذا من جهلهم بمُؤهِّلات النُّبوَّة، فهم ينظرونها نَظَرَ الرياسة، ويسيرون فيها سَيْرَ قواعدهم في الرؤساء، فأنِفُوا من اتِّباعه وهو وحيدٌ فريد، وقالوا: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾، يُقرِّرون الإعراضَ وعَدَمَ الإذعان. السُّعُر: الجنون. وقيل: بل المراد: الردُّ على ما كان يُنذِرُهم به من عذاب السعير إنْ لم يؤمنوا، فهم يقولون: إن اتَّبعناك كنَّا إذن كما تقول، لا إنْ أعرَضْنا عنك. يردُّون الوصف رأساً على عَقِب.

ثم أسندوا الإنكار بقولهم: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: أأُنزِلَ عليه الوحيُ والكتابُ من بيننا؛ يُنكِرون اختصاصَه بالوحي دونهم.

ثم صرَّحوا بالتكذيب، فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ الأَشَرُ: البَطَر والتكبُّر، أي: إنما كان كذبه للتكبُّر والتَّرفُّع وطلب الرياسة، يريد أن يتفوَّق علينا ويترأَّس بدعوى النبوَّة المكذوبة.

وقد هدَّدهم سبحانه على ذلك وردَّ عليهم الوصف بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي: وقتَ نزول العذاب بهم ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ الذي حَمَله أَشَرُه وبَطَرُه على الترفُّع، أهُمْ أم صالح؟

ثم استأنف الكلام لبيان مُقدِّمات المَوعَد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ أي: مُخرِجوها لهم، على الصفة والصُّورة التي سألوا، وجاعِلوها ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ وامتحاناً،

وإقامةً للحُجَّة عليهم، لإنـزال العذاب بهم إن لم يؤمنـوا بهذه الآية التي سألوها، ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي: انـتَظِرْ ما يفعلون وما يُفعَلُ بهم، ﴿وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ على أذِيَّـتهم حتى يأتيَهم أمرُ ربك.

ثم ذكر سبحانه ما امتحنهم به في أمر الناقة، فقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ يا صالح ﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: قِسمٌ لها وقسمٌ لهم، فضمير ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيه تغليبُ العقلاء، على حسب أصول اللغة وعُرف التخاطب. والمعنى: لها يوم ولهم يوم، كما جاء مُفصَّلاً في سورة الشـعراء: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ يحضره صاحبه في نَوْبته، ولا يحضره الثاني معه، فلا يحضرون الماء يومَ شِرب الناقة، ولا تحضر هي يومَ شِـربِهم، وقد قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

ولكنهم ضاقوا بها ذَرْعاً، ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ قُدارَ بنَ سالف أُحَيمِر ثمود، وقد سمَّاه زهير[١] في معلّقته: أحيمر عاد[٢]، لأنَّ العرب تطلق كلمة «عاد» على جميع العرب البائدة توسُّعاً. والنداء يُشعر بالاستغاثة، أي: استغاثوا به منها، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾[٣] أي: فأقدَمَ على هذا الأمر العظيم، ﴿فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ الناقة، فأخذهم العذاب الشديد الذي هوَّله سبحانه بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾؟!

---

(١) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني (....-١٣ق هـ) حكيم الشعراء في الجاهلية صاحب المعلقة المشهورة. «الأعلام» للزركلي (٣: ٥٢).

(٢) يعني قولَه:

فتُنتِجْ لكم غلمانَ أشـأمَ كلُّهـم كأحمرِ عادٍ ثـم تُرضِـعْ فـتَفطُم

(٣) أعطاه غيره السيف مثلاً، فتعاطاه غير مكترث بالنتيجة. وله معانٍ أخرى، والمراد: تناول سلاحَهُ بخِفّة، وأقبل يمشي على رؤوس أصابع رِجلَيْه، مادّاً يدَيْه بسلاحه إلى الأعلى.

ثمَّ بَيَّنه بقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾ وهو الذي يَتَّخذ الحظيرة لغنمه، ويُمهِّد لها المكان بالحشيش اليابس، يفرشه لها، فيندقّ تحت أرجلها، ويكون تبناً مسحوقاً، فشبَّههم به.

ثم ختم القصة بما يحمل على الاتِّعاظ، فقال: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢﴾ يتذكَّر به ويتَّعظ؟

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠﴾.

ثم ذكر قوم لوط وما جرى عليهم، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾ التي جاء بها لوط عليه السلام، فذكر سبحانه ما جَرَى عليهم من الهلاك، فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾[1] أي: ريحاً ترميهم بالحجارة وتحصبهم ـ أو بركاناً يحصبهم بحجارته، والله أعلم ـ حتى أهلكَتْهم، ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤﴾ وهو آخر الليل، ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ وفَضْلاً عليهم.

ثم بيَّن السنَّة العامة في ذلك الإنجاء والحفظ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾ نعمتَنا بالإيمان والطاعة وصَرَفَها فيما هي له.

﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ لوطٌ ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ أي: أخْذَتَنا الشديدةَ لهم بالعذاب، ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦﴾ أي: جادلوا وكذَّبوا ولم يُصدِّقوا.

---

(١) أصل معنى الحاصب: هو الذي يرمي غيرَه بالحصباء، وهي الحجارة الصغيرة. والمراد بها هنا: الريح التي رَمَتْهم بالحجارة.

ثم ذكر ما كان من عادتهم السيِّئة ورغبتهم بها مع ملائكة العذاب الذين جاؤوا لوطاً قبل الفَتْك بهم، ذكر ذلك تشنيعاً عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾[١] أي: طلبوا منه ذلك، ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ قال ابنُ عباس: حُجِبُوا عن الإدراك، فدخلوا ولم يَرَوْا شيئاً[٢]. وقال غيره: مُسِخَتْ أعينُهم حتى بقي الوجه سَفْحةً ملساء، عذاباً لهم.

ويجوز أن يكون المراد بطَمْس الأعين: طمسُها بالعذاب الذي نَزَل بهم بعد ذلك، وخصَّها بالذكر لأنها أبرز سبب لهذا البلاء المصيب، والله أعلم. ولذلك هوَّل ونَعَى عليهم وبالغ في إيلامهم سبحانه بقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من أمرهم في عذاب الاستئصال، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم[٣] بُكْرَةً[٤] عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ أي: يدوم فيهم حتى يُسلِمَهم إلى النار، وهو العذاب الذي استأصلهم. ويجوز أن يكون المراد به: العذاب الذي عمَّ القوم واستأصلهم واستقرَّ بهم بعد هذا العذاب الخاصِّ الذي طَمَسَ أعيُنَ المُراوِدين.

ثم أنَّبهم وآلمهم بقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم أعاد الكرَّة في الحَمْل على الاتِّعاظ بما بيَّنه هذا القرآن، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ يتذكَّر به ويتَّعظ؟!

---

(١) ﴿رَٰوَدُوهُ﴾: طلبوا منه مراراً، والمراد: فاوَضُوه في البُعْدِ عن ضيوفه؛ لكي يفعلوا بهم الفاحشة. و﴿ضَيْفِهِۦ﴾: الملائكة الذين نزلوا عليه كالضيوف، مصدر يُعبَّر به عن اسم الفاعل ثم اسم الذات لتوكيد المبالغة، فيستوي فيه المفرد والجمع.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٩٧).

(٣) أي: أتاهم وقت الصباح، وهو من أول الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس بقليل.

(٤) المراد هنا: أول الصباح.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم ذكر آل فرعون وتكذيبَهم وما جرى عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾، وصُدِّرت قصَّتُهم بالتوكيد بلام القَسَم، لإظهار كمال الاهتمام بشأنها؛ لغاية عِظَم ما فيها من الآيات، وما لاقوه من العذاب الذي أجمَلَ بيانَه بقوله: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ لا يُغالَبُ ولا يُعجِزُه شيء. فهذه العبارة تُبيِّن هَوْل ما أصابهم من العذاب.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَ‌ٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ ﴿٥٥﴾﴾.

وبعد أن أتمَّ هذه القصص، التفت إلى كفار قريش يُهدِّدهم بمثل ما أصاب أولئك، وصاغ العبارة على السخرية بهم والتسخيف، فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشرَ العرب ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ﴾ قوَّةً وشدَّةً وعُدَّةً وعَدَداً ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾[1]؟! أي: أم جاءكم في الكتب السماويَّة السابقة براءةٌ من العذاب[2]؟ يُؤَنِّبهم بعبارة هازئة.

---

(١) الزُّبُر: جمع زبور، والزبور: هو الكتاب المزبور، أي: المكتوب، والمراد: الكتب المُنزلة على الأنبياء، وهي التي من شأنها أن تُكتَبَ لتُحفَظ.

(٢) أي: سيصيبكم ما أصاب الأمم الخالية، فسنَّة الله في عباده واحدة، فلا فَضْلَ لفريق منهم على فريق آخر بعنصر، أو لون، أو لغة، أو أرض.

ثم أضرَبَ إلى مَسْلك آخر من التبكيت الهازئ والوعيد، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾، وأفرد ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ نظراً للفظ ﴿جَمِيعٌ﴾، فإنَّ لفظه مفرد وإن كان معناه جمعاً. أي: نحن يدٌ واحدةٌ على مَنْ سوانا، ننتصر على مَنْ عادانا. وهذا القول مُنتَزَعٌ من عاداتهم، حيث يُدِلُّون بقوَّتهم واجتماعهم وتكاتفهم.

فردَّ عليهم وتوعَّدهم بقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: يُولُّون الأدبار. وهذا إيغالٌ في وَصْف هزيمتهم، وزيادةٌ في التشنيع عليهم.

ثم أضرَبَ عن بيان عذابهم في الدنيا إلى بيان عذابهم في الآخرة، فقال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: ليس ما ذكر من عذابهم في الدنيا هو جميع عقوبتهم، بل لهم عذابٌ أليمٌ في الآخرة، وموعدهم فيه قيام الساعة، ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ أي: هي في أقصى مراتب الفظاعة والشدَّة والمرارة. والداهية: هي الأمر الفظيع الذي لا يُهتدى إلى الخلاص منه. وإظهار لفظ «الساعة» في موضع الإضمار لتربية التهويل.

ومعنى الآية: أنَّ ما يُصيبُهم من عذاب الدنيا ـ مع فظاعته ـ ليس بشيءٍ في جانب عذاب الآخرة الذي أجمَلَه بقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: في هلاك ونيران مُسْتَعِرة. وقيل: بل المعنى: في ضلال عن الحق في الدنيا، ونيران في الآخرة، استحقُّوها بهذا الضلال، وذلك ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾[1].

ثم ذكر سببَ تأخُّر العذاب، وأمْرَ الساعة ومُلابساتِها من البعث والحساب

---

(١) المراد: تحسَّسوا بجميع جوارحكم إصابةَ جهنم لكم، وإيلامها الشديد الذي لا مثيل له. و«سَقَر»: اسمٌ عَلَمٌ لجهنَّم، من مصدر: سَقَرَته النار؛ إذا لوَّحَتْه وغيَّرت لونَه، وقد عُبِّر بها عن اسم الذات لتوكيد المبالغة.

والثواب والعقاب، فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ مُقدَّر اقتَضَتْه الحكمة البالغة، وكذلك أمر الساعة والعذاب، لم نخلقه إلا بقَدَر معلوم، وفي وقت معيَّن.

ثم بيَّن يُسْرَ ذلك عليه دفعاً للاستعباد، وزيادةً في التهديد، فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إلا كلمةٌ واحدة أو فعلةٌ واحدة، وهو الإيجاد بلا مُعالجة؛ لأنه مجرَّد إرادة كلَمْح البصر. وهو النظر بالعجلة. وقال ابن عباس: أي: وما أمرنا بمجيء الساعة في السرعة إلا كطَرْف البصر[1].

ثم توعَّدهم بما جرى على أمثالهم، فقال: ﴿إِنَّا أَهْلَكْنَا﴾ في الدنيا ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهَكم في الكفر، الذين كانوا يُشايعون مذهبكم من الأُمم، وأنتم تعلمون ذلك بآثار ديارهم، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ يتَّعظ بذلك ويعتبر؟!

ثم أضاف على وعيدهم بعذاب الدنيا وعيدَهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: محفوظٌ عليهم في كتب الحَفَظة وسِجِلّاتهم، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ[2]﴾ من أعمالهم ﴿مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾[3] عليهم، أحصاه الله ونسوه، وسيُجازيهم عليه جزاءً وفاقاً.

ثم قابل حال المشركين بحال المؤمنين، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لعذابِ الله؛ الذين جَعَلوا بينهم وبينه وقايةً وحاجزاً، بتمسُّكهم بما أمرهم الله به من التعاليم المشروعة، فهم في الآخرة ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ وهي لغة في (نَهْر) بالتسكين،

---

(١) «تفسير البغوي» (٤: ٢٢٤).

(٢) أي: ما دقَّ وعظم، كما قال تعالى عن كتاب الأعمال: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

(٣) أي: مسطور، تقول العرب: سَطَرْتُ الكتاب واستَطَرْتُه؛ بمعنى واحد.

مثل: صَخَر وصَخْر، وأراد به الجنس، فهو بمعنى: تجري من تحتهم الأنهار، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ والشيء الصِّدق: هو المتَّصف بسائر الصفات المحمودة، أي: الكامل من كل الوجوه. فالمعنى: أنهم من تلك الجنَّات في مقعدٍ مَرْضيٍّ ممتاز جليل، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[1] أي: مُقرَّبون عند مَنْ تعالى أمرُه في المُلكِ والاقتدار. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

* * *

(١) المراد: عنديَّة مكانة وشرف. والمليك: صيغة مبالغة من المُلك بضم الميم، فالمراد: عند مَلِكٍ عظيم مُلكُه.

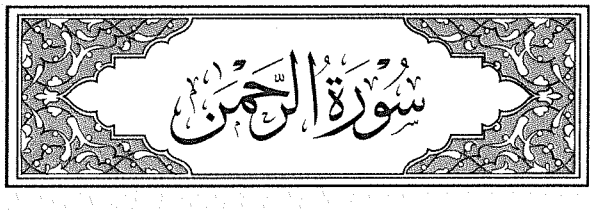

مكيَّة، وهي ثمان وسبعون آية

جاء في هذه السورة:

الدعوة إلى الله بطريق الترغيب والامتنان، بتعداد نِعَمِه على عباده.

وفيها شيء من الأخذ بالترهيب أيضاً.

وأخذ السياق يتـردَّد في ذلك إلى نهاية السورة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾ لما كان موضوع السورة تَعْداد النِّعَم الأخرويَّة والدنيويَّة، صدَّرها بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، بمعنى: أنها من رحمته، وقدَّم ما هو أصل النِّعَم وأجلُّها، وهي إنعامه بإنزال هذا القرآن العظيم، بما احتوى عليه من تعاليم تُفْضي إلى إسعاد البشر في الدارين.

ثم ذكر المتعلِّم وكيفية التعليم ومُسَوِّغه، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[1] أي: من رحمته للإنسان أنه خلقه مُستعداً للتصوُّر والتصوير، يُدرِك الأشياء ويُبيِّنها للغير، وهذه خاصَّة له من بين سائر الحيوانات، ومرجعها ما اختصَّ به

---

(١) المُجمَلُ لهذه الجمل: أنَّ الله سبحانه خلق الإنسان مستعداً للبيان؛ ليكشف الحق والخير والجمال، ويدل عليها، وليستكشف الباطل والشر والقبح، فيتنكبها ويحذر عنها، وليكتب في ذلك الكُتّاب، ويقرأ القرّاء، ويسأل السائلون، ويجيب المجيبون. وكل ذلك من رحمته سبحانه للإنسان ونِعَمِه عليه وتكريمه له، وتركيبه في صورة عالية ممتازة، ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]. (المؤلف).

٢٣٠ ـــــــ

ونظام دقيق مُتقَن مضبوط، به تمَّت على الأرض الحياةُ للحيوان والنبات.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾[١] أي: يخضعان كذلك لله تعالى في نظامهما، لا يحيدان عنه أبداً، ويدلَّان بذلك على قدرته وحكمته ووحدانيته.

وقد ذكر «النجم» من العوالم العلويَّة و«الشجر» من العوالم السفليَّة. وقيل: بل المراد بالنجم: النَّبْت الذي لا ساق له، وبالشجر: النَّبْت الذي له ساق. وعلى هذا، يكون كلاهما من العوالم السفليَّة، وما قبلهما من العوالم العلويَّة.

ثم ذكر مظهراً آخر أعظمَ من تلك المظاهر، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾ فعطف السبب على المُسبَّب، أي: رفع هذه النجوم بلا عَمَدٍ مرئية، بل بعَدْلٍ بينها وتوازن مضبوط، لا يختلُّ ولا يختلف، وبذلك تَتَجاذبُ باتِّزان، كما قال عليه الصلاة والسلام: «بالعدل قامت السماوات والأرض»[٢]، وقد خلق سبحانه كلَّ شيء وقدَّره تقديراً. فمعنى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾: جَعَل الوزنَ والعدلَ والإتقانَ في كلِّ شيء، وهو منشأ الانتظام والجمال والكمال، وهذه الثلاثة[٣] تكون في الأشياء نتيجةً للعدل والاتِّزان، فهما اللذان يُنتِجان الجمال والكمال في كلِّ شيء مُتْقَن موزون.

= واحد تقريباً. وإنّ هذا البعد الهائل للشمس عن الأرض ملائم للحياة على الأرض، ولو نقص أو زاد لتبخَّر ماؤها واحترق ما عليها، أو تجمَّد ماؤها وكل شيء عليها. وذلك تقدير العزيز العليم، ففي كل شيء له آية، تدلّ على أنه واحد، وأنه وحده المستحق للألوهية والعبادة، ولا ربَّ سواه. (المؤلف).

(١) كلُّ مخلوق في هذا الوجود لا بدَّ أن يسجد لله، ويتَّجه نحو خالقه، وينقاد لِـمَا أراده الله سبحانه منه، وليس ذلك خاصّاً بالنجم والشجر، وإنما اكتفى بذكر البعض هنا ـ النجم والشجر ـ ليَدُلَّ به على الكُلّ.

(٢) ذكره الراغب الأصفهاني في «الذريعة في مكارم الشريعة» ص١٣٢.

(٣) أي: الانتظام والجمال والكمال.

ثم علَّل ذلك بما فيه تعليمٌ لنا وإرشاد، فقال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨﴾ أي: يُرشِدكم بذلك أن تحذُوا هذا الحذو في فهم الأشياء وصنعها، بأن يكون كلٌّ منهما على وجه العدل والإتقان.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ أي: أعطوا كلَّ شيء من أعمالكم وأقوالكم وأفكاركم حقَّه وتقديرَه من التوازن والانتساق؛ لينتظمَ أمرُه ويتمَّ على أحسن الوجوه وأتقن الأوضاع.

هذا وإنَّ الأمة لا يتمُّ استقلالها وكمالها وحفظها لكيانها إلا عندما يصبح عَمَلُ أعظم عامل منها وأصغرِ عامل، وعِلمُ كلِّ عالم، منتظماً مضبوطاً، ومتقناً سديداً. وهذا النظام والتناسق والعدل في الأعمال والأقوال، هو مصدر كل عظمة وجمال وجلال.

وتشمل الآية بعمومها: إتقان الوزن والكيل في الموزونات والمكيلات، وصنع المصنوعات، وسائر التَّصرُّفات، إذْ لا عدل ولا كمال لا من الفرد، ولا من الأمة إلا بذلك. والقسطُ: أدقُّ الوزن وأضبطُ التقدير.

ثم تابع دليل القدرة والرحمة والمنَّة، فقال: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ فقابل الرفع بالوضع، وأراد ما يقتضيه من التذليل، أي: ذلَّلها للاستفادة من محصولاتها وكنوزها وخيراتها وسكناها، وفصَّل بعضَ ذلك بقوله: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ والتنكير للتكثير والتنويع، أي: ضروبٌ كثيرة منها، ﴿وَ﴾ فيها ﴿النَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١﴾ جمع (كُمّ) وهو وعاء الطَّلْع، ﴿وَ﴾ فيها ﴿الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ والعَصْف: ورق النبات اليابس، والمراد من هذا الحبّ: ما يُتَغذّى به كالحنطة والشعير وأضرابهما، ﴿وَ﴾ فيها ﴿الرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ يريد: المشمومات، وكل ذلك من نِعَم الله السَّنّية على بني الإنسان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ (١) رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟! والخطاب للثقلين: الإنس والجن، وإن لم يتقدَّم ذِكرُ الجن، اكتفاءً بما يأتي عنهم في الآية التي تذكرهم، ومثل ذلك من أساليب القرآن، ولأنَّ عَوْد الضمير على ما يدركه الذِّهنُ وإن لم يتقدَّم في الكلام هو من أساليب القرآن أيضاً وخصائص اللغة، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

وإنما خصَّ الإنسان بالذكر في أول السورة، لأنه المُخاطَبُ ابتداء، وأكثر النِّعَم تَبَعٌ له، ولأن الرسل منه للإنس والجن.

وإنما نصَّ على الأكمام والعصف للإيذان بالعناية والإتقان، ومضاعفة المنَّة على الإنسان.

وإنما جعل مواهب الأرض للإنس والجنّ، مع أنَّ الظاهر أنَّ أكثرها أو كلَّها للإنس؛ جَرْياً على أسلوب اللغة وخصائص القرآن إذا تكلَّم عن أمرين نَسَبَ لهما ما لأحدهما.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم تابع الكلام على القدرة، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ

---

(١) أي: أوصاف الله تعالى العظيمة وأفعاله العجيبة الحكيمة، كما رجحه العلّامة الفراهي أخذاً من استعمال العرب في أشعارهم لهذه الكلمة.

﴿كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾[1] أي: خلق أبا الإنسان ـ وهو آدم ـ من طين يابس نظيف، ففيه نسبةُ ما للأصل إلى الفرع، إذ موادُّ الأصل لا تنعدم في الفرع، وقد خلق سبحانه آدم عليه السلام من تراب كان طيناً، ثم حمأ مسنوناً. والطين مادة يابسة تنحلُّ بالماء، ويطلق عليها اسم التراب أيضاً، فخُلِقَ منها، ثم لا زال يتطوَّر حتى صار بشراً سويّاً قابلاً للروح.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: خلق أبا الجنّ من لهيب صافٍ، ولا زال يَتطوَّر حتى فارق أصْلَه.

وهكذا خُلِقَ كلٌّ منكما ـ أيها الثقلان ـ حسب ما اقتضته الحكمة في ذاتَيْكُما، وكيف تنكرون قدرته على إعادتكم وقد خلق كلًّا منكما من مادة تغايره كلَّ المغايرة، وتباينه كلَّ البيان؟ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ ممَّا أفاض عليكم في تضاعيف خلقكما من سَوابغ النِّعَم وكمال القدرة؟

والتكرار لهذه الآية في هذه السورة إنما هو لتقرير القدرة والنِّعَم، وتأكيد التذكير بها، لذلك يعيدُها عند بيان كلِّ نوع من أنواعها إيجاباً أو سلباً. والتكرار لتأكيد مع اختلاف ما يُقرِّر به: معروفٌ عند العرب في أساليبهم، وفي أشعارهم، كما في قصيدة رثاء المهلهل لأخيه كُليب، وقصيدة ليلى الأخيليَّة ترثي توبة، وقد عقد ابن رشيق القيرواني في «العمدة» باباً للتكرار في أشعار العرب لأغراض منوَّعة، وذكر كثيراً منها في مختلف الأغراض وأنواع التقرير.

ثم تابع سبحانه التذكير بالقدرة والرحمة والمنَّة، فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) أي: خلق الله أبا الإنسان، وهو آدم من طينٍ يابس له صَلْصَلة، إذا نقرته صوَّت من يُبْسه، وهذا الصَّلْصال يُشبهُ الفخار إذا يبس، إلا أنه ليس فخاراً، لأنَّ الفخار مطبوخ بالنار، بخلاف الصَّلصال فهو طينٌ يابس غير مطبوخ بالنار.

أي: مَشرِق الشتاء والصيف ومَغرِبَيْهما[١]، فذكرهما وأراد المشارق والمغارب اليوميَّة؛ لأنها محصورة بينهما في الانقلابين: الصيفيّ والشتويّ، وأشار بهذا إلى نظام السماوات والأرض، بما فيه من النظام الشمسي وتنقُّلاته الحكيمة في الشروق والغروب، العائدة على الإنس والجن بكلِّ خير في حياتهما ومنافعهما، لذلك أتبعهم بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾؟!

ثم تابع التذكير بالمنَّة والقدرة، فقال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ يقال: مَرَجَ الأشياء ومَرَدَها، بمعنى: خَلَط أجزاءَها، واللام في ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ للجنس، أراد بهما: جِنسَي البحر والنهر على التغليب؛ لأنه يُريد: الماء العَذْب والمالح. وإنما ذكر ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ دون «الماءين» لإفادة التنصيص على النوعيَّة، وليتهيَّأ الكلام عنهما بما يأتي من مُتعلِّقاتهما ومُلابساتهما.

ومُحصَّل الكلام: أنَّ في الماء المالح من الأملاح والموادّ ما ليس في الماء العذْب وإن كانا متشابهين في الصُّورة، ولذلك لا يمتزجان إذا صُبَّ أحدهما على الآخر وخُلِطَ به، بل يطفو العَذْبُ على المالح. وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر ولا يختلط به. والبرزخ لغةً: الحاجز، وقد استعاره للممانعة في الامتزاج بين هذين الماءين[٢].

---

(١) أو ـ وهو الأرجح ـ : هو سبحانه ربُّ مشرق الشمس والقمر وما فيهما من الظهور والبيان، ومغرب الشمس والقمر وما فيهما من العتمة والظلام.

(٢) المعنى الصحيح للبرزخ بين البحرَيْن: أرسلَ الله سبحانه ماء البحرين الملحَيْن المختلفَيْن في خصائصهما في حالَيْ ذهاب وإياب، واختلاط واضطراب، بينهما حاجز يمنع كلًّا منهما أن يطغى ويتجاوز حدَّه، وهذا الحاجزُ هو ماءٌ ثالث يختلف في خصائصه عن كلٍّ من البحرَيْن المتمايزَيْن من حيث الملوحة والحرارة والأحياء المائيّة، وهو يتحرَّك بين البحرين المتجاورَيْن، =

وفي اختلاف تراكيب الماءين مع تساوي شكلهما، من القدرة العظيمة والنِّعَم الجليلة على معاش الثقلين ومصالحهما، ما نوَّه عنه بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾[1]؟! إذ لو كان الماء كلُّه من نوع ماء البحر ما عاش إنسان ولا حيوان بَرِّيٌّ ولا نبات، ولو كان العكس فُقِدَت كنوز البحار وحيواناتها، إذ لا يصلح لها إلا ماء البحر، والله أعلم.

ثم ذكر قدرةً ومنّةً أُخرى فيهما، فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا[2] ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ قالوا: إنما يخرج اللؤلؤ من الموضع الذي يلتقي فيه ماء النهر بماء البحر، فيكون العذب كاللقاح للمالح، ولذلك قال: ﴿مِنْهُمَا﴾. ويجوز أن تكون خوافق اللآلئ تتربَّى في هذا الموضع بكثرة؛ لأن الماء الممتزج من العذب والمالح أصلح لها، وهذا معروف عند الغوَّاصين، فيقصدون هذه المواضع.

وإن لم تصح هذه النظريَّة، يكون في الكلام تجوُّز؛ حيثُ أسند إلى الاثنين ما هو لواحد منهما، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. ولِـمَا في هذا الأمر من كمال النِّعَم على الثقلين؛ لأنَّ ما هو لأحد المقترنَيْن يجوز أن يُنسَبَ إليهما عرفاً، فلذلك قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾؟!

ثم ذكر منّةً وقدرةً ثالثة، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾، الجواري:

= ويخلط بعضهما ببعض ببطء شديد، ويقلب المياه العابرة من بحر إلى بحر، لتكسب المياه المنتقلة من بحر إلى آخر صفات البحر الذي ستدخل إليه، وتفقد صفات البحر الذي جاءت منه.

(١) أي: فبأيِّ فِعالِ ربِّكما العجيبة ونعمِهِ ـ أيُّها الإنس والجنُّ ـ تُكذِّبان وأنتم ترون هذه القُدرةَ الفائقة والنعمةَ الكبرى في شأن هذَيْن البحرَيْن؛ إذ يلتقيان ولا يَبْغِيان؟!

(٢) أي: يخرج من البحرَيْن الملحَيْن المتقدِّم ذكرُهما.

السفن، والأعلام: الجبال الشاهقة، يصفُ السفن بالعظمة البالغة، ويشبِّهها بالجبال الشاهقة؛ مبالغةً في إظهار القدرة، أي: له تعالى تسيير هذه السفن العظيمة وتعويمها على وَجْـه الـماء في هذه البحار. يريد: ما أودع سبحانه في الـماء من استعداده لحمْل الأجرام العظيمة إذا كانت على وضعيَّـة خاصَّة حتى تعوم عليه، وذلك من نِعَمِ الله الجليلة على بني الإنسان، إذ لولاها لتَـعَطَّل أكثر الأرض من السُّكنى والاستفادة، لصعوبة الوصول إليها، ففيه نعمةٌ عظمى من نِعَم الله السَّنيَّة، كما في الهواء من قوَّة حَمْل الأثقال، وكما في البخار من سرعة تسييرها، لذلك نوَّه عنها بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾؟

وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ ما يصنعه الإنسان هو من الله سبحانه؛ لأنه هو الذي علَّمه ما لم يعلم، وهيَّأ له ما يستعين به عليه، إذ هو لا يستطيع أن يعمل شيئاً إلا بسلطانٍ من الله، وسُنَّةٍ من سُنَنِهِ الكونية.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم بيَّن تعالى أنَّ نِعَـمَه لا تنقطع، فإنَّ العالم المشهود يَـفْنى، والله سبحانه باقٍ يفيض النِّـعَـمَ على عالم الغيب، فقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ[٢] ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾[٣] لا تنقطع نَعْمـاؤه، ولا تغيض آلاؤه، كيف وإنَّ الحياة الثانية التي يُنشئها بعد هذا الفناء وما فيها من النعيم المقيم للصلحاء، هي من أجلِّ النَّعْماء وأعظم الآلاء، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾[٤]؟!

---

(١) ضمير: ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود على الأرض ـ وهو الأظهر ـ أم يعود إلى الكائـنات جميعها؟ والفناء يشمل الأجسام والأرواح أم يختص بالأجسام؟ الله أعلم بذلك، لأن الأرواح بعد مفارقتها الأجسام لا تستقر على الأرض، فلا تكون مِن ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾، ولا تـتناولها الآية على تقدير عَـوْد الضمير إلى الأرض، وعلى تقدير عَوْده إلى الكائنات جميعها، فلا يبعد أن يكون فناء الأرواح حالة تعرض لها ثم تزول، فينشئ الله النشأة الآخرة. فالأمر من غيب الله، لأن الكلام مجمل لا يعلم تأويله وتفصيله إلا الله. (المؤلف).

(٢) أي: يبقى وَجْهُ ربِّك الـمُتَّصف بكمال العَظَمة والكبرياء والرِّفعة والمَجْد، والـمُتَّصف بكمال الفضل والإنعام، المُكرِم لأنبيائه وأوليائه وجميع خَلْقه بلُطفِه وإحسانه إليهم مع جلاله وعظمته.

(٣) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه وسمَّى بها ذاته في كتابه وتنزيله، أو على لسان رسوله من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين ولا سمات المُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت، وردُّوا عِلمَها إلى قائلها، وفوَّضوا معناها إلى المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالى. ومن ذلك ما جاء عنه تعالى من المجيء والنـزول، واليد والوجه، والاستواء على العرش، إلى أمثال ذلك. فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها؛ لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثباتُ الذات إثباتُ وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

أما مذهب الخلف في ذلك: فالحَمْل على المعاني المجازية والمفاهيم الكنائية. (المؤلف).

(٤) نقلتُ آخرة السورة أقوالَ العلماء في تناسُب هذه الآية بما قبلها في السياق من كلِّ مرة ذُكِرَت =

ثم بيَّن تعالى عمومَ نِعَمِه في هذه الحياة، فقال: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يفتقر إليه كلُّ مَن فيهما ويلجأ إليه، ويطلب منه العون والإحسان، وهو يفيض عليهم النِّعم بعد النِّعم، ويسدّ بنظامه وسُنن أكوانه سائرَ الحاجات.

ثم صوَّر استمرار تلك الإفاضة بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ من الشؤون، حَسْبَما اقتَضَتْه مشيئتُه المبنيَّة على الحِكَم البالغة والمصالح السامية، فيتنعّم يومياً بشؤونه الثقلان، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾؟!

ويجوز أن يكون قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ ملحوظاً به تجدُّدُ شؤون المخلوقات وتنوُّعها وكفايتها اليوميَّة، والله أعلم.

ويجوز أن يكون تـمثيلاً مستعاراً من حال المُخاطَبين، مفادُه: عِظَمُ شؤونه تعالى وسَعَتُها، ولا سيّما في أنواع كائناته ومخلوقاته وتدابيره التي لا تتناهى. ومثلُه في التمثيل والاستعارة من أحوال المخاطبين قولُه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ أي: سنتجرَّد لحسابكم وجزائكم عند انتهاء شؤون الثقلَيْن المشار إليها بقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾؛ إذ الكلام بمعنى التَّـفَرُّغ أو تحويل القَصْد، وهو محالٌ على الله، فهو مجازٌ عن مبالغته في حساب الثقلين حساباً دقيقاً، وتمثيلٌ مأخوذٌ من حال المُخاطَبين، لأنَّ مَن تفرَّغ لشيء أتى به كاملاً، على وجه الدقَّة والضبط والإتقان، أو من قول الرجل لمن يتهدَّده: سأفرغ لك، والمراد: التوفُّر على الإيقاع به، والمبالغة في الوعيد.

= فيه، فارجع إليه. ولا تأبى خصائص اللغة التنويه بالنِّعَم المخلوطة بالنقم، فمن الجائز أن يذكر أمران، ثم يعقبان بما هو لأحدهما. ويجوز أن تكون مُكرَّرة على جميع أنعُمه في هذا الكون، لا خاصَّة بما جاء قبلها، ولا خاصَّة بما جاء في هذه السورة. وذلك لأنَّ التذكير ببعض النوع يُقصَد به التذكير بكلِّه؛ لأنَّ الذكرى تبعث الذكرى. (المؤلف).

واستعارة الوصف الذي يُسنَدُ لله سبحانه من حال المُخاطَبين؛ هي من أساليب القرآن ومجازاته، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). وعلَّق البخاري على هذه الآية فقال: «وهذا معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرَّغنَّ لك، وما به شغل، كأنه يقول: لآخُذَنَّك على غِرَّة»[١]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: وهذا وعيدٌ من الله لعباده، وليس بالله شغل[٢]. ولكنه معروف في كلام العرب، يقال: لأتفرَّغَنَّ لك، وما به من شغل.

وفي هذا الوعيد إيقافٌ لهما على ما يكون من أمرهما ليأخذا حِذرَهما، وذلك من أعظم الإحسان.

ويجوز أن يكون قد أقام مقام التعليل لهذا الوعيد الشديد، مضمونَ قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ بأقوالكما وأعمالكما؟ أي: إنَّ سبب هذا الوعيد تكذيبُهم بنِعَم الله.

ثم أردف هذا الوعيد الشديد بما يُقرِّر إنجازه من سلطانه القاهر عليهم، فقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾، يُعجِّزهم في ذلك ويُحسِّسهم بأنهم في قبضته وتحت سلطانه، فأنَّى لهم معارضتُه؟ وقدَّم الجنَّ لأنهم أقدَرُ من الإنس على الأفاعيل والهرب بطبيعتهم لا بصنيعهم.

ثم أردف صيغة التعجيز بصيغة التقرير المُخصَّص، فقال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾[٣] أي: لا قُدْرةَ ولا حَوْلَ لكم إلا بسلطان من الله وسنَّةٍ من سُنَنه الكونيَّة.

---

(١) «صحيح البخاري» قبل حديث (٤٨٧٨).

(٢) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٢٧).

(٣) قوله: ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: إلا بقوة من الله وسنَّة كونيّة، فقد أودع سبحانه في الإنس استعداداً =

ثم أنَّبهم على غَفْلتهم عن ضَعْفهم وسلطان الله عليهم وقَهْره له مع صبره على معارضتهم، وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾؟! ويجوز أن يكون التأنيبُ على نعمةِ نفوذِهم بالسلطان[١].

ثم فصَّل ذلك الضعف بعض التفصيل، فقال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾[٢] وهذا في حَقِّ مُظهِر العصيان عليه تعالى.

قال الرازي: فإن قلت: كيف ثنَّى الضمير في هذه الفقرة وجَمَعَه في الفقرة السابقة؟ نقول: إن فيه لطيفة، وهي أن الفقرة السابقة لبيان عجزهم وعَظَمة سلطانه تعالى،

= لاستخدام السنن الكونيّة في البعد والارتقاء، وأودع في الجنّ قوة طبيعيَّة تأتي بذلك. أما قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ فيجوز أن يُراد به في الإنس ما جَرَى على مُعارضي الرسل من عذاب الاستئصال والصواعق ومطر السوء، وفي الجن الشهب تصيب من يحاول التسمُّع إلى الملأ الأعلى. ويجوز أن يكون الكلام من خطاب الاثنين بما هو لأحدهما، وذلك من خصائص اللغة، ويكون المراد: ما يصيب الجنّ من الشهب والنيازك. والله أعلم. (المؤلف).

قلت: تفسير السلطان بالسنّة الكونيّة غير مُسلَّم، وأيُّ سنة كونيّة أو قانون طبيعي يُمكِّن الإنسان من أن يَنفُـذَ من أقطار السماوات! وبُعدُ بعض نجوم السماء الدنيا فحَسْب: ملايـين السنين الضوئية! لكنْ لـمّا كان المؤلف رحمه الله يُفسِّر السماوات السبع بالكواكب السيّارة ـ على ما تقدّم منه في تفسيره هذا ـ أورَدَ هذا المعنى هنا، وتفسيرُ السماوات بالكواكب السّيّارة خطأ ـ كما تقدّم التنبيه إليه ـ فما بُني عليه خطأ أيضاً.

(١) تقدَّم خطأُ تفسيره للنفوذ بسلطان: بأنه السُّنّة الكونيّة. ومعنى الآية: يا معشرَ الجنِّ والإنس إن استطعتُم أن تخرجوا من جوانب السَّماوات والأرض وأطرافها، فتفلتوا من حساب ربِّكم، فاخرجوا، لا تقدرون على الخروج إلا بقوةٍ وقهر وغَلَبة، وأنَّى لكم ذلك؛ لأنكم حيثما توجَّهتم كنتم في ملكي وسلطاني.

(٢) أي: يُرسَلُ عليكما لَـهَبٌ من نار لا دخان فيه، ونحاسٌ مُذابٌ يُصَبُّ على رؤوسكم، فلا تمتنعان من الله، ولا يكون لكم ناصرٌ منه.

فقال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا﴾ أي: باجتماعكم وقوَّتكم ﴿فَٱنفُذُوا﴾، بخلافه في هذه الفقرة، فإنه للطائفتين[1].

وبعد أن بيَّن لهم ضعفهم أمام سلطان الله عليهم وقَهْره لهم وصبره عليهم، أنَّبهم على إعراضهم عن طاعته والإقرار بوحدانيَّته، تأنيباً ضمنياً، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾؟!

ثم تابع التَّهديد بقوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي: حمراء ﴿كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾[2] وهو الأديم الأحمر، أو المعنى: كانت حمراء، وكانت مُذابةً كالدهان الذي يدهن به، وإنما يكون ذلك يوم القيامة.

وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، على نهج إيجاز القرآن، وتقديره: يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به المقال. أي: فكيف يكون حالكما في ذلك اليوم أيُّها الثَّقلان؟

ثم أنَّبهُم على معارضتهم لنعمة الله عليهم بهذا الإعلام والإعلان، وتوعّدهم على مقابلة النِّعَم بالكفران، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾؟!

ثم ذكر من هَوْل ذلك اليوم وشدَّته قولَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ سؤالَ استعلامٍ لثبوته وإحصائه عليهم، أو لظهوره فيهم ظهور الأثر على المؤثِّر. والله أعلم. فيُجازَوْن به جزاءً وفاقاً. ولا يُعارض هذا قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحِجْر: ٩٢]؛ لأنَّ ذلك السؤال بمعنى الجزاء.

وقد أنَّبهم على المعارضة تجاه إنعام الله عليهم بهذا الإعلام، وعلى مقابلة مطلق النِّعم بالكفران، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾؟!

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٩: ٣٦٢).

(٢) أي: فإذا تصدَّعت السماء يوم القيامة، وتغيَّر لونها من زرقتها المعهودة إلى حُمْرة ورديَّة، وتغيَّرت بنيتُها إلى مادة سائلة كالدُّهن الذائب، وذلك حين يَصلُها حَرُّ جهنَّم، رأيتَ ما يُذهل ويُفْزع.

ثم بيَّن الوجه في كونهم لا يُسألون سؤالَ استعلام ومحاكمة، بقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ وما يظهر عليهم من أثر الإجرام، ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ والنَّواصي: جمع ناصية، وهي مُقدَّم الرأس. وهذا تمثيلٌ لشدَّة الأخذ، أردَفَه بآية التأنيب عن معارضتهم لإنعام الله عليهم بهذا الإعلام، وعلى كفرانهم لمطلق الإنعام، فقال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ ؟!

وعندما يُحضَرُ بهؤلاء الذين أخذ بنواصيهم وأقدامهم إلى جهنَّم يُقالُ لهم توبيخاً وتنديماً: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى﴾ كان ﴿يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾، يشير إليها وهم فيها، وقد ذكر المُظهَرَ بدل المُضْمَرِ للإشارة إلى السبب ـ وهو الإجرام ـ وللإتيان بالعنوان العام.

ثم بيَّن صورةً من عذابهم فيها بقوله: ﴿يَطُوفُونَ﴾ ويجولون ﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ماءٍ بالغ من الحرارة أقصاها، يُصَبُّ عليهم، أو يُسقَون منه. وقيل: بل إذا استغاثوا من النار أُغيثوا بهذا الحميم. وعلى كلٍّ، فالمعنى: أنهم يتنقَّلون من الجحيم إلى الحميم، ومن الحميم إلى الجحيم. أعاذنا الله.

ثم كرَّر آية التأنيب عن المعارضة لإنعام الله عليهم بهذا الإعلام، وعلى كفرانهم لمطلق الإنعام، وقال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ بأقوالكما وأفعالكما؟

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

ثم قابل حال الكافرين بحال المؤمنين، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: لمن خاف مقامَه بين يدي ربِّه للحساب[1]، فترك المعاصي والشهوات. وقد قال الجُبّائيّ: واحدة له، وواحدة لأزواجه وخَدَمه.

وقد نوَّه بشأنهما بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾؟

ثم تابع الكلام عن هاتين الجنَّتين، فوصفهما بما فيهما من نِعَم وكرامة، فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ أي: أنواع من الأشجار والثمار، و﴿أَفْنَانٍ﴾: جمع فَنَن، بمعنى الغُصْن، أي: ذواتا أغصان مُتَشعِّبة من فروع الشجر، وتخصيصها بالذكر لأنها هي التي تُورِقُ وتُثمِرُ وتمدُّ الظلال. وقال ابن عباس: إنما المراد: ألوان من النعيم.

ثم تابع التّنويهَ ضمن التأنيب بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾؟ للتنبُّه على أنَّ كلًّا من الموصوف والصفة هو النِّعَمُ العظيمة والآلاء الفخيمة.

ثم تابع الوصفَ للجنَّتين والتنويه بهما، فقال: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ[2] ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ[3] ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾؟

ثم حكى حالتهم السعيدة في هذه الجنان، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: من ديباج غليظ. وفي ذكر «البطائن» بلاغةٌ عاليةٌ؛ لأنَّ البطائن إذا كانت كذلك فكيف بالظهائر؟ وإنهم لمتكئون على هذه الفُرُش، ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ منهم، أي: ثمرُها قريبُ التناول لهم، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾؟

---

(١) وخاف أيضاً عظمةَ الله عزّ وجلّ، وقيامَ ربِّه عليه ومراقبته له في الدنيا.

(٢) أي: في هاتين الجنَّتين عَيْنان تجريان بالماء الزُّلال؛ إحداهما: التَّسنيم، والأخرى: السَّلْسَبيل.

(٣) أي: في هاتين الجنَّتين من كلِّ فاكهةٍ صنفان ونوعان.

ثم تابع الكلام على حالتهم فيهما، فقال: ﴿فِيهِنَّ﴾ زوجاتٌ لهم ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ على أزواجهنَّ، أي: لم يَنظُرْنَ إلى غيرهم. وإنما جمع ضمير ﴿فِيهِنَّ﴾ للإيذان بكثرة مساكن الزوجات فيهما وتفرُّقها.

ثم تابع وَصْفَ هؤلاء الزوجات بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ أي: لم يَمَسَّ الإنسيَّاتِ أحدٌ من الإنس، ولا الجنيَّات أحدٌ من الجن. أو: لم يَمَسَّ مَنْ هنَّ للإنس أحدٌ من الإنس، ولا مَنْ هنَّ للجنِّ أحدٌ من الجن. يريد بهنَّ الحور العين مخلوقات الجنة، عدا زوجاتهم في الدنيا. ويجوز أن يُرادَ بهنَّ: نفس زوجات الدنيا الصالحات، ويكون المراد من قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: إنه لم يُصِبْهنَّ أحدٌ بعد نشأتهنَّ الثانية، أوالإشارة إلى أنَّ المرأة هناك ليست معروضة لتبدُّل الأزواج، كما قد يقع مثل ذلك في دار الدنيا. والله أعلم.

وعن أمِّ سَلَمة رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله، أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «نساء الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظهارة على البطانة» قلت: يا رسول الله! وبِمَ ذلك؟ قال: «بصلاتهنَّ وصيامهنّ وعبادتهنَّ الله عز وجل، ألبَسَ الله عزَّ وجلَّ وجوهَهنَّ النور، وأجسادَهنّ الحرير، بيض الألوان، خُضْر الثياب، صُفْر الحُلي، مجامرهنَّ الدُّرّ، وأمشاطهنَّ الذهب، يَقُلن: ألا نحن الخالدات فلا نموت أبداً، ألا نحن الناعمات فلا نبأس أبداً، ألا ونحن المقيمات فلا نَظْعَنُ أبداً، ألا ونحن الراضيات فلا نَسْخَطُ أبداً، طُوبى لمن كنَّا له وكان لنا» قلت: يا رسول الله، المرأة منا تتزوَّج الزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، مَنْ يكون زوجها منهم؟ قال: «يا أم سلمة، إنها تُخيَّر فتختار أحسنَهم خُلقاً،

فتقول: أي رب، إنْ كان هذا أحسنهم معي خلقاً في دار الدنيا فزَوِّجْنيه، يا أمَّ سلمة، ذهب حُسنُ الخلق بخير الدنيا والآخرة»[١].

ثم أردف سبحانه وتعالى هذا الإحسان بالتمنُّن، وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾؟

ثم تابع وَصْفَ هؤلاء الحور، فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ أي: في الجمال والكمال، أو هُنَّ على صَفاء الياقوت في بياض المُرجان، وهذا هو المرويُّ عن الحسن وقتادة. وفي رواية عن الحسن: إنَّ المرجان هو لؤلؤٌ شديدُ البياض، أو هو أشدُّ اللؤلؤ بياضاً[٢]. أي: هُنَّ في جمالهنَّ كاللؤلؤ البرَّاق، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾؟

ثم أتبع البيان عن هذه الكرامات بما هو كالتعليل لها، فقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ من هذه الآلاء العظيمة؟

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٣: ٣٦٧)، و«الأوسط» (٣١٤١). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٣٩٦): رواه الطبراني، وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعّفه أبو حاتم وابن عدي.

(٢) ويطلق المرجان أيضاً على عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف، يصنع منها قلائد وفصوص، فيكون المراد به: حمرة خدودهنّ، وبالياقوت صفاء بشرتهن، والله أعلم. (المؤلف).

(٣) أي: ما جزاء مَنْ أحسن في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح إلا أن يُحسَنَ إليه في الآخرة؟

وبعد أن أتمَّ البيان عن وَصْفِ هاتين الجنتين، وحكى حالةَ أهلهما، بيَّن أن لهم من دونهما جنتَين أخرَيين، كالحدائق للأُولَيَيْن ـ والله أعلم ـ فقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (١) ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾؟

ثم ذكر أوصافهما، وقَرَنَ كلَّ وَصْفٍ بآية التأنيب والتنويه، فقال: ﴿مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾(٢) أي: سَوْداوان من خُضْرتهما، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ أي: فوّارتان بالماء، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ(٣) ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾، و﴿خَيْرَاتٌ﴾ مخفَّفة مِنْ: خَيِّرات، بتشديد الياء، أي: نساء خَيِّرات الأخلاق حِسان الوجوه، روته أُم سلمة عن النبيِّ ﷺ(٤). وقيل: إنهنَّ نساء الدنيا. وعليه، فيكون ذِكرُ الحور بعده بياناً لصنف آخر، والجملة مستأنفة.

وعلى المعنى الأول يكون قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ بدلاً من ﴿خَيْرَاتٌ﴾. وهذا الوصف للإشارة إلى عظمتهنّ، وضَرْبُ الخيام لهنَّ وإدلاءُ السَّتر عليهنَّ بمعنى: أنهنَّ مَصُونات مُخَدَّرات، وجاء في الحديث: «أن الخيمة درَّة مجوَّفة»(٥).

---

(١) أي: من دون الجنَّتين الأوليَيْن في رتبتهما وفَضْلِهما جنَّتان أُخريان لأصحاب اليمين المذكورين في الآية ٨ من سورة الواقعة.

(٢) ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ لفظ مأخوذ من (الدُّهْمة) بوزن الغُرفة، وهي السواد. والمراد: أنهما لشدة خضرتهما يُـرَيانِ من بعيد كأنهما مسودَّتان. تقول العرب: حصان أدهم، أي: أسود، وتقول: إدْهامّ مُدْهام ـ بوزن: مختار ـ أي: اشتدّ سواده.

(٣) أي: في هاتين الجنَّتين زوجات خيِّراتُ الأخلاق، حِسَانُ الوجوه.

(٤) إشارة إلى الحديث السابق.

(٥) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٤٣)، ومسلم (٢٨٣٨)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ثم أردف ذلك بالتَّمَنُّن، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾؟.

ثم تابع الوَصْفَ لهؤلاء الحُور، فقال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ[1] ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾؟.

ثم ذكر حالةَ ووَضْعيَّةَ أهل هاتَيْن الجنَّتين فيهما، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ والرفرف: وسائد أو نمارق، جَمْعُ رفرفة، أو نوع من البُسُط، أو ما تدلَّى عن الأسِرَّة من أعالي الثياب، فذكره وأراد الفُرُشَ نفسها. قال الجُبّائيّ: أي: على فُرُش مرتفعة ﴿وَعَبْقَرِيٍّ[2] حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ وهي عتاق الزرابي وجيادها، والطنافس المخملة الموشاة. وهو اسم جنس، واحدته: عبقرية.

قال أبو عبيدة: كل شيء من البُسُط الجيِّدة: عبقري، وكل ما بُولغ في وَصْفِه بالجودة نُسِبَ إلى عبقر. و«عبقر»: بلد كان يوشَّى به البُسُط وغيرها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس شيء ممّا في الجنة يشبه ما في الدنيا إلا بالاسم فقط[3]. أقول: وذلك لضيق اللغة عن أداء البيان لتلك المُسمَّيات وهاتيك الأحوال، وقِصَرِ الفِكرِ عن تَصَوُّرها إذ لم يكن لها في الدنيا مثال.

ثم أردف سبحانه ذلك البيان بآية التأنيب، وقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾[4]

---

(١) أي: لم يَطَأْ هؤلاء الحور إنسٌ قبل أزواجهنَّ من أهل الجنّة ولا جانّ.

(٢) «عبقري» الياء فيه كالياء في «كُرْسي»، أي: أصلية وليست للنَّسَب، ومعناه: كلُّ شيء يُتعجَّب من جودته، وهو لفظ يُطلَقُ على الواحد والأكثر، مثل: (الفلك) و(الطفل)، والمراد به هنا: البسط المزخرفة بألوان مصبوغة.

(٣) سبق تخريجه (٢: ٤٩، ٥٧٦).

(٤) مِن كُلِّ ما سبق بيان للفرق بين نعيم مَن خاف مقام ربه ومَن كان في منزلة أقل منهم. وذلك =

من تلك النِّعمَ العِظام، والآلاء الفخام؟ اللهمَّ اجعلنا ممَّن سبقت لهم منك الحسنى.

وقد عدَّد كثيراً من أوصاف هاتَيْن الجنَّتين واللتين قبلهما لزيادةِ التشويق، وأردَفَ كلَّ صفة بآية التأنيب؛ للتنبيه على أنَّ تكذيبَ كلِّ واحدة منهما يوجب الإنكار والتوبيخ، ويجوز أن يكون إردافها بها لإرادة التَّمنُّن.

ثمَّ خَتَم هذه السورة المحتوية على هذه الأنواع العظيمة من الكرامات، بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ أي: تعاظم شأنُ ربِّك وخيرُه، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾[1]، فإنّ إحسانَه لا يحيط به الوصف، ولا يستوعبه التصوُّر.

وقد تكرَّرت آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، بعضها للتأنيب على إنكار نِعَم ذُكرت قبلها صريحاً أو ضمناً، وبعضها للتهديد بنِقَم ذُكِرَت قبلها صريحاً أو ضمناً؛ لأنَّ صاحبها قابَلَ نِعَمَ الله عليه بالكفران، فيكون المراد من نِعَمِ الله فيها: نِعَمَه العامَّة على بني الإنسان، وبعضها للحثِّ على العمل لنَيْل كرامة ذكرت قبلها صريحاً أو ضمناً، فيكون المراد من نِعَمِ الله فيها: نِعَمَه العامَّة أيضاً، وبعضها للتمنُّن على نِعَمٍ ذُكرت قبلها[2].

= أن الله سبحانه جعل الغالب في بساتين الأوَّلين الأشجار ذات الفواكه، والغالب للآخرين: النبات الأخضر والرياحين، وقال في الأوّلين: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الرحمن: ٥٢]، وفي الآخرين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. وكذا فرّق في الماء، لأن العين الجارية أغزرُ ماء من الفوّارة، وكذا ما وصف به الحور العين في الفريق الأول دون الثاني، ومع ذلك فالكُلّ منعَّمون، يشعر الأعلى بتفوُّقه ولا يشعر به الأقل؛ لأن الله سبحانه رفع من صدورهم الحسد والغل.

(١) أي: تعاظم وتنامى وتزايد فوق كلِّ تصوُّرٍ تتصوَّره المخلوقات كلُّها، اسمُ ربِّك، المتَّصف بكمال الشرف والعظمة والرِّفعة والمَجْد، والمُتَّصف بكمال الإكرام في عطاياه وهباته، ومنحِهِ وجوده وإحسانه.

(٢) اضطرَّ المؤلف ـ كغيره من المفسِّرين ـ إلى حَمْل هذه الآية على هذه الوجوه، لأنه يُفسِّر (الآلاء) =

وقال بعض المفسِّرين: كلُّها للتأنيب على إنكار نِعَم ذُكرت قبلها، أو على تفريط بشكرها، كما يُنْبِئ عن ذلك صريحُ معناها، وأوَّلوا ما لا يلائم ظاهرُه ذلك.

وقال شيخ الإسلام عزُّ الدين بن عبد السلام[1] في كتابه «الإشارة إلى الإيجاز» في أنواع المجاز، وهو من مجازات القرآن، قال: وأما قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيجوز أن تكون مكرَّرة على جميع أنعُمِه في هذا الكون، لا خاصَّة بما قبلها، بل لا تعلُّق لها به في بعض الفقرات. ويجوز أن يُراد بالأُولى ما تقدَّمها من النِّعَم، وبالثانية ما تقدَّمهما، وبالثالثة ما تقدَّم على الأولى والثانية، وبالرابعة ما تقدَّم على الأولى والثانية والثالثة، وهكذا إلى آخر السورة.

ثم قال: فإن قيل: كيف يكون قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ نعمة؟ وقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ نعمة؟ وكذلك قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؟ وقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾؟ وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾؟

قلنا: هذه كلُّها نِعَمٌ جسام؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى هدَّد العباد بها استصلاحاً لهم؛ ليخرجوا من حيِّز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان، إلى حيِّز الطاعة والإيمان، والانقياد والإذعان. فإنّ مَن حذَّرَ من طرق الرَّدى، وبيَّن ما فيها من الأذى، وحثَّ

= بالنِّعَم، ولما كان بعضها في سياق التأنيب والإنكار احتاج إلى مثل هذه التأويلات، لكن الراجح في معنى (آلاء): الفعال العجيبة والشؤون الغريبة. فعلى هذا تتَّسقُ هذه الآية مع سياقها في كل موضع تكررت فيه في هذه السورة.

(١) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي (٥٧٧-٦٦٠هـ) فقيه شافعي بلغ رتبة الاجتهاد له: «التفسير الكبير»، و«الفوائد»، و«الفتاوي». «الأعلام» للزركلي (٤: ٢١).

على طرق السلامة الموصلة إلى التوبة ومنها إلى الكرامة، كان مُنْعِماً غاية الإنعام، مُحسِناً غاية الإحسان.

وأما قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فتذكير بالموت والفناء، للترغيب في الإقبال على العمل لدار البقاء، وفي الإعراض عن دار الفناء. وذلك من أكبر نِعَم الله، تبارك شأن ذي الجلال والإكرام.

أقول: قد جاء في هذه السورة مِنَنٌ وعظائمُ تَتَجلَّى في كلٍّ منها آلاءُ الله وقدرته ووحدانيَّته، ذُكرت على طريقة التنبيه والاستدلال، فمن البلاغة العالية أن يُسأل السامعُ بعد كلٍّ منها هذا السؤال.

ويجوز أن تكون الآية عِوَضاً عن مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨]، على نهج القرآن في مثل ذلك، حيث يُعوِّض عن جملةٍ بأخرى مكانها؛ لأنها تتضمَّن الأولى وزيادة. والله أعلم.

* * *

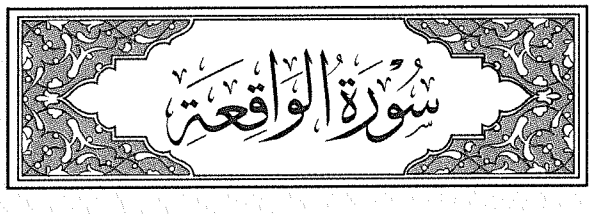

مكيَّة، وهي ست وتسعون آية

جاء فيها تفصيلُ جزاء المؤمنين والكافرين في يوم القيامة، فهي من باب الدعوة بالترغيب والترهيب، وأَخَذَ السياق يتردَّد في ذلك، وفي دلائل قدرته على ذلك.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ۝٦﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١﴾ يعني: حادثةَ القيامة، وجوابُ الشرط محذوف، على نهج إيجاز القرآن، والتقدير: يكون من الهول ما لا يفي به القول.

ثم قرَّر الوقوع بقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ والكاذبة: مصدر[1]، مثل: العاقبة والعافية. أي: لا شكَّ ولا ريبَ في وقوعها. ويجوز أن تكون الجملة من جواب ﴿إِذَا﴾ بمعنى: إذا حَدَث ذلك الأمر فلا مجالَ حينئذ للتكذيب به وإنكاره.

ثم أجمَلَ حوادثَها بقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ أي: تخفض وترفع، وهو بيان لِـمَا ينتج عنها من اصطدام الأجرام السماويَّة ومعها الأرض، إذ ترتبك وتضطرب مع بعضها خفضاً ورفعاً، والله أعلم[2]، وهو هَوْل عظيم.

ثم شرع في تصوير بعض حالات تلك الحادثة في الأرض التي نحن عليها، فقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أي: هُزَّت هزّاً عنيفاً، بحيث يتفتَّت ما عليها،

---

(١) أي: الكذب، مثل: خائنة، بمعنى: خيانة. والمراد: انقطعت ألسن الكذب التي كانت تتبجّح بإنكارها في الدنيا.

(٢) أو المراد: تخفض أقواماً إلى الدركات المُنحطّات في النار، وترفع أقواماً إلى الدرجات الصاعدات في الجنّة.

وينخفض المرتفع، ويرتفع المنخفض، ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾ أي: فُتَّت حتى صارت مِثلَ السَّويق المبسوس بالماء غير المتماسك. وقد بيَّنه بقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ أي: غباراً منتشراً لشدَّة تفتُّت ذرّاتها وتفرُّقها، وتتبخَّر البحار لقرب الشمس منها، وتكون الأرض كتلة ترابيّة، وذلك هَوْلٌ لا يتصوَّره العقل، أعاذنا الله منه، وأغدَقَ علينا عفوَه وغفرانه.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾.

وبعد أن بيَّن حادثة القيامة، بيَّن ما يحدث بعدها من أمر الحساب والجزاء، فقال: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾، والخطاب للأمة الحاضرة والأمم السابقة بطريقة التغليب، أي: وكنتم ـ أيها الناس ـ أصنافاً ثلاثة: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١) مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٢) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٣) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (٤) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى

---

(١) المراد بالمَيْمَنة: جهة اليمين. وأصحابها: هم الذين يُعطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، كما في الآية ١٩ من سورة الحاقّة.

(٢) ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾: (ما) اسم استفهام يُقصَدُ به في مثل هذا المقام تهويلُ أمر الشيء المُتحدَّث عنه، إما في حُسْن الحال كما هنا، أو قُبْحه كما سياتي بعد.

(٣) المَشْأمَة: هي جهة الشمال، لأن من شانها أن يُتَشاءَمَ بها، وأصحابها: هم الذين يأخذون كتباهم بشمالهم، كما في الآية ٢٥ من سورة الحاقّة.

(٤) المراد: السابقون هم السابقون، وهذا تركيب تقوله العرب عند إرادة لَفْت النظر إلى التهويل =

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾[1]، فأشار إلى أحوال كلِّ صنف قبل تفصيلها بما يدلُّ على التعجيب من أمرها والتعظيم له والتهويل منه.

وإنما أخَّر الصنف الثالث في الذكر مع كونه أسبق الأقسام في الفضل؛ ليكون أسبق بالتفصيل الذي جَعَل مدخلَه بيانَ مقدار هؤلاء السابقين من الأوَّلين والآخرين، فقال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ والثُّـلّة: القِطعة والكِسرة من كلِّ شيء.

وقد اختلفوا في هذا البيان؛ فقيل: يعني بالأوَّلين: الأمم الماضية، من لَدُن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وبالآخِرين: أمةَ محمد ﷺ. وإنما كان ثلَّةٌ من الأمم الماضية وقليلٌ من أمَّة محمد ﷺ؛ لكثرة الأمم الماضية بالنسبة إلى أمة محمد ﷺ. وقيل: بل المراد: الأوَّلون من أُمة محمد، والآخِرون منهم.

ثم ذكر محاسن أحوالهم وكمال نعيمهم، فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: منسوجة بقضبان الذهب، مشبكة بالدُّرِّ والجواهر، كما تُوضَنُ حِلَقُ الدرع، فيدخل بعضها في بعض، وتراهم ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ لإكمال الأنس فيما بينهم، و﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لخدمتهم ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾، فوصفهم بالخلود للإشارة إلى دوام ذلك الطواف عليهم. والولدان: الغلمان، يطوفون عليهم ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾[2] يريد: أواني الخمرة البريئة، ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ يريد: الخمرة نفسها، بطريقة المجاز المُرسَل،

= في شأن شيء تعظيماً أو تحقيراً. فالمراد: السابقون هم هؤلاء المشهورةُ أحوالُهم المعروفةُ فضائلُهم.

(١) أي: والسابقون إلى الخيرات في الدنيا هم السابقون إلى الدرجات في الآخرة، أولئك رفيعو المنازل هم المقرَّبون من الله في جواره، وفي ظلِّ عرشه ودار كرامته في جنَّات النعيم.

(٢) أكواب: جمع كوب، وهو إناء لا عروة له ولا خرطوم. وما له عروة وخرطوم، يُسمَّى إبريقاً.

حيث ذكر الكأس وأراد الخمرة، مِن ذِكرِ المحلِّ وإرادةِ الحالّ. وقوله: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ يريد بها: أنها خمرٌ لا تُصنَع صنعاً، وإنَّما تنبع نبعاً[١].

ثم ذكر صفتها الممتازة عن خمر الدنيا، فقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا [٢] وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ يقال: أنزَفَ الرجل؛ إذا سَكِرَ وذهبَ عقلُه[٣]. أي: ليس لها تأثيرُ الخمر على العقول، ولا أضرارها التي اقتَضَت تحريمَها.

ثم تابع البيان عن كمال النعيم بقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ و﴾ يطوف عليهم كذلك ﴿حُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ اللُّؤْلُوِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾، والحور: جمع حَوْراء، وهي جميلة سواد العين وبياضها، والعِين: جمع عَيْناء، وهي واسعة العينين، واللؤلؤ المكنون: هو الذي في أصدافه. وهذا القيد لكمال الوصف، لأن اللؤلؤ في الأصداف يكون صافياً نقيَّ اللون.

ثمَّ علَّل ذلك النعيم بقوله: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثمَّ تابع البيان ببيان حالة أخرى منه، فقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾[٤] أي: لا يعارض بعضهم بعضاً ولا ينافسه، ولا يُشاريه ولا يُماريه، بل كلُّهم إخوان على سُرُر متقابلين، يَتَوادُّون ويَتَحابُّون، ولا تسمع بينهم ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾[٥]

---

(١) تقدَّم في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات: ٤٥] أي: نهر ظاهر للعيون.

(٢) ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾: أي: لا يصيبُهم صداعٌ ناشئ عن شربها كخمر الدنيا.

(٣) أصل النزف: نزحُ الشيء وإذهابُه بالتدريج. يقال: نزف فلان الماء من البئر؛ إذا نزحه كلَّه منه شيئاً فشيئاً، فالمراد: لا يُخرِجون ما في بطونهم بالقيء بسبب شُرْبها، كما تفعل خمر الدنيا.

(٤) أي: لا يسمعون في الجنة من القول ما هو لغو، وهو ما لا فائدة فيه، ولا يسمعون القول المُوقع في الإثم.

(٥) ﴿قِيلًا﴾: هو القول، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، =

أي: إلا عباراتِ السِّلم والسَّلام. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم فصَّل محاسن القسم الثاني وكمال نعيمهم، فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾؟ يفخِّم أمرهم، ثم يُفصِّله بقوله: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾[1] أي: في حدائقَ من نَبْقٍ مخضود الشوك. وهذا الوصف للمبالغة في جَوْدة النوع وامتيازه، وأنه لا يشبه ما تعرفون من السِّدر في الدنيا، و﴿فِى﴾ الظرفية مجازٌ مُرسَلٌ من ذكر الحالِّ وإرادة المحلّ، أي: في جنَّة فيها سِدْر.

وكذلك قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾[2] قال ابنُ عباس وغيره: هو شجر الموز، ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: دائم لا يزول. ويجوز أن يكون من كثرة الأشجار، والله أعلم، ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: أنهار متفجِّرة في كلِّ مكان، ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ أي: دائمة لا تنقطع ولا يُمنَعُ منها أحدٌ من أهل الجنة.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي: وثيرة عالية. وقال الجُبّائيّ: هو كنايةٌ عن النساء

= و﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾: بيان لـ﴿قِيلًا﴾، أي: يسمعون تحيةً مكرَّرةً بتكرُّر قائليها، بيّنها بقوله: ﴿سَلَٰمًا﴾ أي: سلاماً من الله تارة كما في الآية ٥٨ من سورة يس، ومن الملائكة تارة كما في الآيتين ٢٣و٢٤ من سورة الرعد، والآية ٧٣ من سورة الزمر.

(١) ﴿مَّخْضُودٍ﴾ تقول العرب: خَضَد فلانٌ الشجرَ، بوزن: ضرب؛ إذا قطع شوكه ولم يبق فيه إلا الثمر.

(٢) ﴿مَّنضُودٍ﴾: متراكب بعضه فوق بعض، ليس في ساقه مكان خالٍ من الثمر.

المرتفعات القَدْر، في عقولهنَّ وحُسْنهنّ وكمالهنّ الكائنات في تلك الفرش، فقد ذكر المحلَّ وأراد الحالّ، لذلك عقّبه بقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾[1]. وعلى التفسير الأول يكون في الكلام إضمارٌ عن الزوجات، بدلالة الفُرُش، أي: ذوات فرش. وعَوْد الضمير على ما تـقدَّم معنى، أو ما يُفهَمُ من السياق؛ هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ويحتمل أن يُراد بهنَّ: الزوجات في الدنيا، أو النساء مطلقاً، أو الحور العين، أو الجميع. أما الحور العين فمعنى إنشائهنّ: ابتداء خَلْـقِهنَّ من دون توالُد. وأما نساء الدنيا فالمراد بإنشائهنّ: ما جاء في الحديث: «ينشأن في الآخرة على أبدع الصور وأجملها، كلُّهن أبكار متساويات في السنّ»[2]، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾[3]، والعُرُب: جمع عَروب، وهي اللَّعوبة مع الزوج، المُتحبِّبة له. والأتراب: جمع تِرْب، والمراد: المتشابهات في السنِّ والهيئة، يقال: هذا تِربي، أي: من سنّي.

ثم بيَّن مقدار أصحاب اليمين من الأوَّلين والآخرين، فقال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين. وقد تقدَّم الكلام على هذا.

وقال الحسن: سابقو الأمم الماضية أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعو الأمم الماضية مثل تابعي هذه الأمة[4]. يعني: أنَّ أصحاب اليمين منهم مِثلُ أصحاب اليمين

---

(١) أي: أوجدناهنَّ من جديد.

(٢) إشارة إلى حديث أم سلمة السابق، ص٢٤٧.

(٣) ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ متعلق بالفعل: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ في الآية ٣٥، أي: أنشأنا الزوجات لأصحاب اليمين.

(٤) ذكره النسفي في «تفسيره» (٣: ٤٢٣).

منـا. وهذا على تـقدير أنَّ المراد من الأوَّلين: سابقو الأمم الماضية، لا سابقو الأمة المحمدية. وهو أحد الرأيين، كما تقدَّم بيانه.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

ثم فصَّل شأنَ القِسم الثالث وسوءَ أحوالهم ـ أعاذنا الله ـ فقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾؟ يُهوِّل أمرَهُم ويُفَظِّعه إجمالاً، ثمُ يفصِّله بقوله: ﴿فِى سَمُومٍ﴾ وهي الريح الشديدة الحرارة، ﴿وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾ وهو الماء في أقصى درجات الغليان، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ وقد قال ابن عباس وغيره: إنه دخانٌ أسودُ شديد السواد[1]، ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾[2] والعرب إذا أرادت نفيَ صفةِ الحمد عن شيء أو بيانَ سُوئه، نَفَت عنه الكرم.

ثم علَّـل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: منهمكين في الشهوات، مُعرِضين عن الله، ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ وهو الشِّـرك، وهذا هو المرويُّ عن الحسن والضحّاك وابن زيد؛ لأنَّ الشرك حِنْثٌ بالعهد الذي أخذه سبحانه على بني آدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٧٩)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، بلفظ: «﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ قال: من دخان أسود».

(٢) المراد من الكريم هنا: حَسَن المنظر.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فهذا العهد هو توحيدُ الله سبحانه، ذلك التوحيد الذي فطرهم عليه، وأرسل به الرسل إليهم، فوق ما تُؤكِّده وتُجلِّيه لهم جميعُ الآثار والمظاهر التي تحيط بهم من مخلوقات الله سبحانه، لو كانوا يعلمون.

وفي لفظة: ﴿كَانُوا۟﴾ إثارةٌ للشعور بالمستقبل الأخروي، كأنه أمرٌ حاضر، وكأنَّ الدنيا أمرٌ ماضٍ بعيد، يذكره الذاكرون. وفي هذا تأثيرٌ عميق في النفوس.

ثم تمَّم التعليل بقوله: ﴿وَكَانُوا۟﴾ ينكرون البعث و﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾؟ وفي تكرير الهمزة تأكيدُ النكير، والواو للعطف على ضمير ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وحَسُنَ ذلك من دون تأكيد بالضمير للفَصْل بالهمزة الاستفهامية.

وبعد أن حكى إنكارهم هذا، أمَرَ النَّبيَّ ﷺ أن يردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ[1] يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ وَقَّتَ به انتهاءَ عُمُر الدنيا، وابتداءَ عُمُر الآخرة الذي لا نهاية له.

وقد تـمَّم الردّ ببيان ما سيكون من فظاعة حالهم بعد البعث، تَوَعُّداً لهم، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالبعث لمبعوثون و﴿لَءَاكِلُونَ﴾ بعد البعث ودخول جهنّم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ[2] ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ من شدَّة الجوع، ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ

---

(١) الميقات: هو الوقت المحدَّد لعمل، وإضافتُه لـ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ من إضافة العام لِمَا يُخصِّصُه ويوضِّحه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

(٢) الزقُّوم: اسمٌ لشجرة صغيرة مُنتِنة الرائحة مرَّة الطعم، تنبت بأرض تهامة من بلاد العرب. =

﴿ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾ وهو الماء في أقصى درجات الحرارة، ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ منه ﴿شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ قال ابنُ عباس وعكرمة[1] وقتادة[2]: هي الإبل التي أصابها الهُيام، وهو شدَّة العطش، فلا تزال تشرب حتى تموت.

ثم بالغ في وعيدهم مُبيِّناً أن هذا قليل من كثير، وقد بيَّنه بأسلوب تهكُّمي، فقال: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ والنُّـزُل: ما يُـعَدُّ للضيف النازل ويُعجَّل به تكرمةً له قبل تهيُّؤ الطعام ونُضْجه. والمعنى: أن هذا ليس كلَّ عذابهم، بل هو أول ما يلقونه، فإذا كان هذا نُزلهم فما ظنُّك بما لهم بعدُ من غَمْرة العذاب؟ أعاذنا الله. اللهم اشهد بأننا مسلمون مؤمنون مُوحِّدون منزِّهون يا أرحم الراحمين.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

وبعد أنْ توعَّدهم على إنكارهم للبعث بما يَنْجُم عنه لهم من العذاب الأليم، ردّ

= وتقدّم وَصْفُها في سورة الصافات: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ [٦٢-٦٥].

(١) هذان الأثران رواهما الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٣٤٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣١٣٩).

عليهم ببيان قدرته تعالى التي لا يكون البعث في جانبها شيئاً، وذكر عدَّة أمور تشبه البعث في التكوُّن، وبدأها بالحلقة الأولى، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ وهو أمرٌ لا تنكرونه، ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وتُدرِكون أنَّ من قدر على الإنشاء قدر على الإعادة.

وتوضيح الاستدلال: أنَّ الحشر للأجسام ليس بأعجَبَ من النشأة الأولى، إلا أنها ـ لـمّا كانت مألوفة محسوسة ـ لم نشعر بعجبها وعظمتها؛ لأنَّ التعجُّب والإنكار إنما يكون لشيء لم يُشاهَد مثلُه، ولم تُعرَف أسبابه ومؤثِّراته، وكيف تكون النشأة الأولى أقلَّ شأناً من الثانية، وهي تتكوَّن من نطفة ماء لا تزال تتطوَّر في الرَّحِم حتى تكون ولداً، ولا يزال هذا الولد يتطوَّر حتى يكون إنساناً كاملاً، وربما كان عظيماً بعلمه وتفكيره واستنباطه واكتشافه، أو مَلَكاً جبَّاراً في قهره وسلطانه، وهو من تلك النطفة المهينة.

وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم[1] مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: ما تَقذِفونه في الأرحام من النُّطَف، فيتطوَّر حتى يكون خَلْقاً سويّاً؟ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ بشراً ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟ أنت يا أرحم الراحمين. خلق سبحانه من خلية الحيمن التي لا تُـرى بالمجهر لدقَّتها، خَلَق منها الرأسَ وما وَعَى، والبطنَ وما حوى، والجسمَ بما فيه ممَّا ظهر وما اختفى، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أفلا تُدْركون أنَّ من قَدَر على هذا قَدَر على البعث والإعادة، لأنها تطوُّر يشبه هذا التطوُّر والتكوُّن؟

وبعد أن أشار إلى أطوار الإنسان قبل الولادة، أشار إلى أطواره بعد الولادة، وأن تلك الأطوار تنتهي بالموت، لينشأ بعده طَوْر آخر، وهو حياة البرزخ، ثم طَوْر

---

(١) أي: أتفكَّرتُم تفكيراً سديداً بأناةٍ وعُمْق، حتى أدركتُم إدراكاً علمياً يُشبِهُ الرؤية البَصَريّة، والمراد: أخبروني.

آخر وهو البعث، ويكون المجموع سلسلة واحدة، فقال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾[١] أي: جعلناكم تموتون في أجل مُقدَّر لكُلٍّ منكم، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: لسنا بمغلوبين على هذا الأمر، بمعنى: ليس أحد يقدر أن يَفلِتَ منا ويتخلَّص من الموت، وقد أمتناكم ﴿عَلَىٰ أَن﴾ نُحييكم تارةً أخرى، و﴿نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ أي: نُعيدكم مثلَ ما كنتم أو شبيهاً بذلك، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: على صورة وطريقة لا تعلمون كيفيتَها ولا كُنهَها؛ لأنَّ مِن أحوالها ـ والله أعلم ـ أنها تكون صالحةً للخلود. وإنَّ لله سبحانه طُرقاً للإيجاد لا تُحصى، ولا يقدر الإنسان أن يحيط بها علماً. والله أعلم.

ثم ذَكَرَ نشأةَ الإنسان الأولى، ونبَّه إلى ما فيها من شَبَهٍ بالأخرى، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ في آدم وكيف أنشأه من تراب دون ولادة، ﴿فَلَوْلَا[٢] تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أنَّ البعث ليس بأعجَبَ من ذلك، بل هو شبيهٌ به، فالنشأة الثانية قسيمةٌ للأولى، وكلاهما من جنس واحد. والله أعلم.

ثم ذكر الزرع مُنبِّهاً إلى ما فيه من شَبَه للبعث أيضاً، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾؟ والحرث: قَلْبُ الأرض وإلقاءُ البذر فيها، والزرع: إنباتُه.

فقد أشار سبحانه وتعالى إلى ما في الزرع من تطوُّر عجيب ليس تطوُّر البعث بأعجَبَ منه ولا أكثر غرابة، وبينهما مشابهة من عدَّة وجوه، منها: أنَّ الحبَّ بأنواعه

---

(١) أي: نحن جَعَلْنا موتَ كلِّ واحدٍ منكم مُقدَّراً بالزمان، والمكان، والأسباب.

(٢) هذا اللفظ هنا وفي الآيات ٧٠ و٨٣ و٨٦ الآتية بمعنى: (هلّا) التي تُفيدُ طَلَبَ حصول ما بعده.

٢٦٦ ـــــــ

حتى يتكامل، كما تنمُو الكمأة داخل الأرض، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، فإذا تكاملت نشأة الأجسام زُوِّجت بها الأرواح، وبُعثت بالنفخة الثانية، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. وهذا ما ظهر لي، والله أعلم بهذا الشأن العظيم.

ثم تابع الكلام عن طَوْر من أطوار الزرع، وسَبَكه على التوعُّد لهم بالجزاء الدنيوي، فقال: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ بمعنى: أيبسناه قبل إدراكه، وجعلناه هشيماً لاينتفع به[1]، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥﴾ وتقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧﴾ وأصل التَّفكُّه: تناوُلُ صنوف الفاكهة، ولكنَّه يُستعار للتمطُّق بالكلام[2]، ثم أضرب

---

(١) أي: في التنقل بالحديث من موضوع إلى آخر. وهو هنا للتهكُّم بهم، لأن المراد: تنقلهم من تعجُّب إلى تندُّم، إلى تحسُّر، ... واستعماله هنا من قبيل: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

(٢) وأما الحكمة في إثباتِ لام التوكيد هنا في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ وحذفِها من قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، فقد أجاب شيخُ الإسلام بالمغرب ـ كما لقّبَه الحافظ ابن حجر ـ الإمام ابن عرفة الورغمي، حين سأله أحدُ الطلبة هذا السؤال في الديار المصرية عندَ مرورِه بها لأداءِ مناسك الحج، فأجاب قائلاً: إن إنباتَ الزرع فيه للخلق تسبُّبٌ وكسب، وإنزالُ الماء من السماء لا تسبُّبَ لهم فيه بوجه، بل هو من فعلِ الله تعالى فقط. والعادة متقرِّرة بأنَّ إفسادَ الإنسان شيئاً عمِلَه هو ونقلَه من حالة إلى حالة أخرى أهونُ عليه وأيسرُ من إفسادِه شيئاً عمِلَه غيرُه مستقلاً أو شاركه غيرُه في عمله، فلذلك أكّدَ جَعْلَ الزرعِ حُطاماً باللام، ولم يُؤكِّد بها جَعْلَ الماءِ أجاجاً؛ تأكيداً لكمالِ قدرة الله تعالى، وأنه لا يُعجِزُه شيء. اهـ.

نقل هذا الجواب الأخ الشيخ نزار حمّادي التونسي، وأضافَ أنَّ فائدةَ لام التوكيد رفعُ ما يُمكِنُ أنْ يتوهّمه الإنسان من أنَّ سائرَ أفعاله الكسبيّة؛ من حرثِ الأرضِ، وتهيئتِها للإنبات، واستخدامِه لذلكَ جميعَ الوسائلِ المتاحة، سواء القديمة أو العصرية المتطورة، ووسائل الري كذلك، =

إلى الحرمان، أي: لم يبق عندنا شيء، وقد استعير هنا للكلام حول تَلَف هذا الزرع والتألم والتأسُّف على فَقْدِ منفعته وحرمانهم منها.

ومعنى: (مُغْرَمُونَ) مُلزَمون بالخسران والهلاك، من قوله: غَرِمَ التاجر؛ إذا خسر وأفلس.

ثم ذكر المطر مُلمِعاً إلى ما فيه من تطوُّر عجيب ليس البعث بأعجَبَ منه، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾؟ والـمُزْن: السحاب، واحدتُه: مُزْنة، وهي السحابة. يشير سبحانه وتعالى إلى ما في تَكُوُّن السَّحاب من تَطوُّرات عجيبة، ومن ذلك أنه ينشأ من بخار البحار غالباً، ثم يَتَطوَّر فيتكوَّن ماء عَذْباً.

وقد تَوعَّدهم على كفرِهم لهذه النعمة، وشركِهم بالله سبحانه بعذاب الدنيا، مُبيِّناً قدرته على التطوير والتبديل، فقال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: مِلحاً زعاقاً لا

= قد تـمنعُ الباري تعالى من جعل جميع جهودِه هباءً منثوراً بجعلِ الحرثِ حُطاماً، وأنَّ تَـرتُّبَ الأسبابِ والـمسبَّباتِ قد يَحولُ دونَ ذلك أيضاً، فحَسُنَ التـنبيه بلام التوكيد على فساد ذلك التوهّم، وأنَّ ما يُظنُّ من الأسبابِ العادية مانعاً لنفوذِ قدرةِ الله تعالى على جَعْلِ الحرث حطاماً ما هي إلا من أفعال الله تعالى؛ إذ العادة فعله، وترتيب الأسباب على المسبَّبات أمرُه التكويني، وكما رتَّبَ سبحانه بحكمته إنباتَ الحرثِ مع توفُّرِ الشروطِ العادية من الماء وغيرِه؛ فهو قادر على ترتيبِ تحطُّمِه مع توفُّرِ نفس تلك الشروط، بَلْه على تعطيلِ تلك الأسباب بإمساكِ السماء عن الإمطار، وجعل الـماء غَوراً؛ فتـنعدمُ الشروط العادية للإنباتِ واكتمـال الحرث فيصيرُ حطاماً.

أما نـزولُ الماء العذب الفرات من الـمُزْن؛ فالإنسانُ يَعلم يقيناً أنه لا تَسبُّبَ له ولا كسب في ذلك، فنزولُه على تلك الحالة أو غيرِها هو من محضِ إرادة الله تعالى ظاهراً وباطناً، فلا حاجةَ لتأكيدِ الاقتدار على إمكانِ جعلِه أُجاجاً. والله تعالى أعلم.

يمكن شُربُه، ولا تَنبُت به النباتات، يجعله كذلك بتغيير نظام تكوينه، فتتبدَّل عذوبته ملوحة، ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك رحمةً منه وفَضْلاً، فجَعَل نظام تكوينه عَذْباً فراتاً.

ثم أَنَّبهم على كفرهم لهذه النِّعَم، وشركهم بالله، بصيغة الحضِّ على الشكر، وقال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ هذه النِّعَمَ بتوحيد الله ولا تكفرونها بشِركِه.

ثم ذكر الشجر الأخضر، وكيف يتطوَّر من هذه الطبيعة غير القابلة للاشتعال إلى اليبس وقابلية الاشتعال، إذْ فيه التطوُّر العجيب، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١﴾ أي: تُشعِلون وتوقدون، ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾؟ أنشأناها بتطوير عجيب، وأيبسناها بتطوير عجيب، حتى صارت قابلةً للاشتعال بعد أن لم تكن كذلك، أفمن الغريب والصَّعْب على هذه القدرة أن تُعيدَ الإنسان إلى سيرته الأولى بعد الممات، وهو طَوْرٌ من أطوار الحياة؟ وقيل: بل المراد: صنفٌ أو صِنفان من الشجر كانوا يُورونَ ناراً بحكِّ بعضها ببعض.

ثم عقَّب البيان بما فيه تَوَعُّد وتَمنُّن، فقال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ أي: هذه النار ﴿تَذْكِرَةً﴾ للمُتذكِّرين، يَتَذكَّرون بها نار جهنَّم، ﴿وَ﴾ جعلناها ﴿مَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣﴾ أي: المسافرين في القَواء[1]، وهو القَفْر الخالي من كلِّ الحوائج. وإنما خصَّهم بالذكر مع أنها متاعٌ للمسافر والمقيم؛ لأنَّ المُقْوين أحوَجُ إليها من غيرهم، وأكثر نفعاً لهم وانتفاعاً بها.

ثم ختم السياق في تأنيب المنكرين بطريقة التعريض بهم، مخاطباً النبي ﷺ بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ أي: نزِّه ربَّك العظيم عما يقولون، وأعرِض عن

---

(١) وهي أيضاً متاعٌ لغير المسافرين؛ لأنَّ ذِكْرَ العنايةِ بالمسافرين ذوي الحاجاتِ الطارئة، يدلُّ على العناية بذوي الحاجات المتكرِّرة دَواماً من باب أولى، وهذا من روائع الإيجاز في البيان القرآني.

المشركين. وفيه تسليةٌ له ﷺ وتثبيتٌ على القيام بواجبه، على نهج القرآن في مثل هذا المقام، فهو يأمره بالصلاة عندما يشتدُّ به أمر المعارَضة من جانب المشركين؛ لأنَّ الصلاة والتسبيح علاجٌ نفسيٌّ لذلك، ولهذا كان ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ فَزَعَ إلى الصلاة، ويقول لبلال: «أرِحْنا يا بلال»(١)، أي: أقم الصلاة لنستريح فيها.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم أردف هذا السياقَ بالقَسَم على حقيقة هذه القرآن، وأنه من عند الله، تقريراً لِمَا سبق فيه من أمر البعث وتوضيحه بالبيان، فأقسم بمظهر عظيمٍ من مظاهر القدرة في الكون، وهو النظام النجمي، وما في أبعاد النجوم من هَوْل وإعجاب، على نهج القرآن في القَسَم ببدائع الكون وعجائبه، مُلْمِعاً إلى قدرته البالغة، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٢) ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ (٣) ﴿٧٦﴾﴾ وأيُّ إبداعٍ أعظم من نظام عالم النُّجوم التي لا تُحصى. يسيرُ كلُّ نجم في فلكه لا يخرج عنه قِيدَ شبر، ولا يَصْطدم بآخر ملايين الأزمان، فكيف يكون شأن القرآن الذي أنزله هذا الخالق العظيم الحكيم ليَسعَدَ به البشر في دنياه وأخراه؟!

---

(١) سبق تخريجه (٤: ٤٥٠، ٥٦٥).

(٢) أي: أُقسمُ بمواضع النجوم وبُعدِها السحيقِ في السماء، ومواقعِ سقوطها ضمنَ حركتِها المنتظمة في مداراتها؛ التي لم تصل مداركَ المخاطَبين العلميّةَ إلى معرفةِ عظمَتِها، وسيأتي في القرون اللاحقةِ مَنْ يكتشفُ عظمةَ مواقعِها، وإنَّ القَسَمَ بمواقعِ سقوطِ النجوم، ومواضع بُعدها السحيق في السماء، لقَسَمٌ عظيمٌ جداً، لو تعلمون عظمتَه لانتفعتم به.

(٣) مواقع النجوم ثابتة بسنة كونيَّة، وهي التعادل بين الجذب والاندفاع الحاصل من حركتها، فثبت بذلك التعادل الاستقرار في أفلاكها، ولم تخرج عنها بتقدير العزيز العليم. (المؤلف).

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[1] قال أبو مسلم: معنى ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: لا أحتاج أن أُقسِم. وهذا التعبير آكدُ من القَسَم. انتهى.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراضٌ قُصِدَ به المبالغة في تعظيم مضمون الجملة القَسَمية.

وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضٌ في الاعتراض قُصِدَ به الزيادة في هذا التعظيم، أي: إنه ليس من الممكن أن تطَّلعا عليه اطِّلاعاً تاماً تفصيلياً لِعِظَم محتوياته.

وهذه الآية لم يُدْرَك سرُّها إلا بعد اختراع المناظير الضخمة التي أظهرت من عجائب الكون ما كان خافياً لم تتصوَّره العقول، وقد جاء البحث عن هذا في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ [البقرة: ١٦٤]، فارجع إليه.

ووَجْه المناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه: هي أنَّ هذا القرآن عظيم النبأ جليل البيان، كما أنَّ هذه النجوم عظيمة الصنع جليلة الشان، فكلاهما لا يقدر عليه إلا الله، ومظهرٌ عظيمٌ من مظاهر صنع الله، والقرآن أعظم من الكون بكثير، لأنه كلام الله، والكون صنع الله. والله أعلم.

وقد عبَّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ وهو بمعنى قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ – ٢٢]، وهو شيءٌ أخبر الله سبحانه بأنه أودَعَه كتابه، ولم يُعرِّفنا حقيقته، فنؤمن به إيماناً بالغيب. ويجوز أن يكون المراد بالكتاب:

---

(١) يجوز ـ والله أعلم ـ أن يراد بالقرآن: المقروء منه والمكتوب، وبالكتاب: ما سُطِّر فيه من الصحائف، كما جاء مثل هذا في سورة المطففين، والغرض من هذا الكلام التنويه بشأن القرآن. وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يكون بحسب السياق تكميلاً للتنويه، وبحسب الصيغة حكم بتحريم المسِّ على غير الطاهر، على نهج القرآن في مثل ذلك. (المؤلف).

علمُ الله سبحانه. والمعنى: أنَّ ما جاء في هذا القرآن من علم وبيان هو من غيب الله سبحانه أظهره لنا. والله أعلم.

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ المراد به: لا يمسُّه إلا الملائكة. وهذا هو المرويُّ عن أنس[١] وابن عباس[٢] رضي الله عنهما، وهو قول سعيد بن جبير وأبي العالية وقتادة وابن زيد[٣].

وقال بعض المفسِّرين: ليس هذا الكلام على الحقيقة، وإنما هو تمثيلٌ لِعَظَمة هذا القرآن، وعُلوِّ منزلته، وتنويهٌ بشأنه. والغرض منه: بيان أنه من الله تعالى، ومن علمه القديم المكنون، وأنه هو الحقُّ والصِّدق الذي يجب أن يُتَّبع ويُعتَمَدَ عليه فيما يُحذَر منه وما يُحثُّ عليه، لأنه هو الحقُّ المبين والصِّراط المستقيم، وهو النظام العظيم الذي يسير بالإنسانية إلى كمالها الدنيوي والأخروي، وسعادتها فيه.

ومما يحتمله المعنى ـ والله أعلم ـ: أنَّ المراد من الكتاب: نفس تراكيب القرآن وجُمَلِه، ويشير بالوصف إلى ما فيها من ازدحام المعاني، كالبحر الزاخر واكتنانه للجواهر، فاسم المفعول بمعنى اسم الفاعل، على المجاز العقلي.

والمراد بـ«المُطهَّرين»: المؤمنون العاملون منهم الذين لا يُدنِّسون نفوسَهم بما تتدنّس به النفوس، فهم الذين يُدرِكون مُجمَلَ ذلك المكنون، أو يشعرون به شعوراً عميقاً، ويعملون به بكلِّ جِدّ وإخلاص، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. هذا رأيي، والله أعلم.

---

(١) رواه سعيد بن منصور كما في «الدر المنثور» (٨: ٢٦)، ومن طريقه رواه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩: ٢١٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ١٥٠).

(٣) المصدر السابق (٢٣: ١٥٠-١٥١).

ويجوز أن يُراد بكلمة ﴿مَّكْنُونٍ﴾: معناها المجازي، فتكون قرينةً لاستعارة مَكْنية، حيث شبَّه القرآن بما يُحرَزُ في الأكنَّة من الجواهر، والله أعلم. ثم بالغ في تعظيمه فحرَّم مسَّه على غير المطهَّرين.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

وبعد هذا البيان عن القرآن قرَّعهم على تكذيبهم به وتوَّعدهم عليه، وقال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾[1] الذي ذكرت نعوته الجليلة ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: مُتهاوِنون كمَن يُدهن في الأمر، أي: يلين جانبه ولا يَتصلَّب فيه تهاوناً به، أو تدهنون الضلالَ لأنفسكم والإضلالَ لأتباعكم حتى تنخدعوا وتخدعوا، ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ منه أي: حظَّكم من القرآن ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ به. وهذا المعنى هو المرويُّ عن الحسن[2].

---

(١) المراد من الحديث: القرآن، والإدهان: التسهيل في إدخال الشيء الصعب بواسطة الدهن. وقد استعاره لتحيُّلهم على عقولهم وخداعهم لها في قبول تكذيب هذا القرآن، ثم بيَّن السبب في ذلك بقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون التكذيب علاجاً لبقائكم ـ بزعمكم ـ على مراكزكم وما يلابسها من سَعَة رزقكم، ورفاه معيشتكم. هذا ما ظهر لي. والله أعلم.
ولما كان من تكذيب القرآن التكذيبُ بالبعث، أنكر عليهم ذلك، وسبك الكلام على التهديد، ثم أفحمهم بالدليل الإلزامي، فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ... ﴾ الآيات. (المؤلف).

(٢) كما في «تفسير الطبري» (٢٣: ١٥٦).

ويجوز أن يكون المعنى: وتجعلون سَبَبَ رزقكم وبقائكم على مراكزكم تكذيبكم لهذا القرآن.

والرزق: كلُّ ما ينتفع به. وتوضيح ذلك: أنهم يعلمون أنَّ محمداً ﷺ على حقّ، ولكنهم يزعمون [أنهم] إن اتَّبعوه فقدوا مراكزَهم التي هي سببُ عزِّهم وثرائهم، فباعوا نعيم الآخرة بحطام الدنيا.

وقال بعض المفسِّرين: بل المراد بـ«هذا الحديث»: إنكارهم للبعث بقولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧ - ٤٨]، وذلك لأنَّ الكلام متسلسل، فقد ردَّ عليهم وتوعَّدهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ...﴾ [الواقعة: ٤٩]، ثم ذكر دليل القدرة عليه بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ...﴾ [الواقعة: ٥٧]، وبقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ...﴾ [الواقعة: ٥٨]، وبقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ...﴾ [الواقعة: ٦٣]، ثم أقسَمَ على أنَّ ذلك كلَّه إخبارٌ من الله، وبعد ذلك قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي تتحدَّثون به من التكذيب بالبعث ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ فيه لأصحابكم، تعلمون خِلافَه وتقولونه لهم خداعاً، أم أنتم به جازمون، وعلى الإصرار به عازمون، وتجعلون شكرَ رزقكم أنكم تُكذِّبون، أي: تَضَعونَ التكذيب مَوْضعَ الشكر، أو تجعلونه سبباً للبقاء على المراكز.

ثمَّ بالغ سبحانه في تأنيبهم وتوبيخهم على التكذيب بالبعث، الذي تَضَمَّنه أيضاً تكذيبُهم بالقرآن، وقال[1]: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾[2] أي: فلولا تُكذِّبون

---

(١) هذا كلام عن الإنسان عند الموت وما بعده من أحوال البرزخ، وكان الكلام في أول السورة عن الإنسان في الآخرة. (المؤلف).

(٢) (لولا) هذه أصل معناها طلبُ حصولِ ما بعدَها، ولكنه أريد بها هنا التعجيزُ والتبكيت، =

بالبعث عند الوفاة، حينما تبلغ الروح الحلقوم، ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ الحقَّ وتشاهدونه، وتعلمون ما لم تكونوا تعلمونه قبل.

ثم قرَّر مُشاهَدةَ المُحْتَضَر للحقِّ واطِّلاعَه على ما كان ينكره قبل ذلك، فقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[1] علماً به وبما يشاهد، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ما هو فيه؛ لأنكم لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدون من آثاره الظاهرة.

= والفعل المطلوب هنا المُبكَّت به هو ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ الآتي. و﴿إِذَا﴾ ظرفُ زمان بمعنى «حين» منصوب بـ«ترجعونها» الآتي، لكنه فصلَ بينها وبينَه بهذه الجُمَلِ لتصويرِ بَشاعة حال الموت لِـمَن يشاهده من أقارب المحتَضَر.

و﴿بَلَغَتِ﴾ أي: الروح المفهومة من سياق الكلام. و﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: مجرى الطعام والشراب أول تناوله.

(١) المراد: ورسلنا المكلّفونَ بقبضِ روحِه أقرب إليه منكم.كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، و﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧] وهذا أسلوبٌ معهودٌ عند العرب، يقولون: بنى الأميرُ المدينةَ ويريدون بناها عُمّاله. ونسبة الفعل إلى الله تعالى تارةً وإلى رُسُلِه من الملائكةِ تارة أخرى كثير في القرآن، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] و[الأنعام: ٦١] و[الأعراف: ٣٧] و[السجدة: ١١].

ومنه أيضاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] مع ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

قال الأستاذ الإمام[١] في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]: يصحُّ أن يكون من قرب الوجود، فإنَّ الذي لا يتحيَّز ولا يتحدَّد تكون نِسَبُ الأمكنة وما فيها إليه واحدة، فهو تعالى قريب بذاته[٢] من كلِّ شيء، إذ منه كلُّ شيء إيجاداً ومَدَداً، وإليه المصير[٣].

قال في «المنار»: وهذا الذي قاله الأستاذ هو من الحقائق العالية، وعليه السادة الصوفية، فقد قال أحد العلماء في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾: إنه القرب بالعِلم، وكان أحد كبار الصوفية حاضراً، فقال: لو كان هذا هو المراد: لقال تعالى في تتمة الآية: ولكن لا تعلمون، ولكنه لم ينفِ العِلمَ عنهم، وإنما قال: ﴿وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، وليس من شأن العِلم أن يُبصَرَ فينفي هنا إبصاره، وإنما ذلك شأن الذات[٤]. انتهى بالمعنى، وهو مذكور بنصِّه في كتاب «اليواقيت والجواهر» للشعراني[٥].

ثم انتقل إلى وجهٍ آخرَ لنقض تكذيبهم بالبعث، أكثرَ من الأول إلزاماً، فقال: ﴿فَلَوْلَآ[٦] إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: غير محكومين ومقهورين لله سبحانه وتحت أمره وسلطانه، بل كنتم مالكين لأمركم، ولا رَجْعةَ لكم إلى الله، لكنتم ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾[٧]

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تقدم التعليق على هذه اللفظة في تفسير الآية المذكورة من سورة البقرة (٢: ٢٧٠).

(٣) تفسير «المنار» (٢: ١٣٥).

(٤) المصدر السابق (٢: ١٣٥).

(٥) هو أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني الشافعي (٨٩٨-٩٧٣هـ) من علماء الصوفية، له: «أدب القضاة»، و«تنبيه المغترين». «الأعلام» للزركلي (٤: ١٨٠-١٨١).

(٦) (لولا) تأكيدٌ لـ(لولا) المتقدِّمة في الآية ٨٣: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

(٧) يُقال: رجعَ فلانٌ الشيءَ وأرجعَه بمعنى واحد.

أي: الرُّوح إلى البدن، ولا تدعونها تُفارِقُه بالموت ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ في أنكم غير مَدينين لله ولا رَجْعة لكم عليه.

ومُحصَّل الكلام: إن كان الأمر لكم فلِمَ تَرْضَون بقَبْض أرواحكم؟ وهذا إلزامٌ ملموسٌ ودليلٌ مُفحِمٌ بأنَّ الله سبحانه قاهرٌ لكم، مالكٌ لناصيتكم، إليه مرجعكم، فيُحاسِبكم على ما تقولون.

ويقول بعض المفسِّرين: إنَّ كلمة ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ هي العامل في ﴿إِذَا﴾ من قوله: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾، وهي المُحضَّضُ عليه بـ«لولا» الأولى، و«لولا» الثانية مكرَّرة للتأكيد، وهي وما في حيِّزها دليلُ جواب الشرط، والمعنى: إن كنتم غيرَ مربوبين ـ كما يُنبئ عنه عدم تصديقكم بإعادتنا لكم ـ فهلَّا ترجعون النفس إلى مَقرِّها عند بلوغها الحلقوم، وتمنعون الموت إن كنتم صادقين في اعتقادكم هذا!

ولـمَّا ألزمهم بهذا الإلزام الـمُتَضمِّن لبيان حال المُحْتَضَر عند الوفاة، بيَّن حاله بعد الممات، عائداً في ذلك إلى تصنيف حال الأقسام الثلاثة الذين ذكرهم في أول السورة، وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ[1] ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: فرحمةٌ وراحةٌ وفَرَح، وحدائقُ ورياضٌ ذاتُ رياحين وجنَّة نعيم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ وهذا الجواب: إما أن يكون إخباراً بتسليم بعضهم على بعض، بتقدير القول، على نهج القرآن في مثله، أي: فيقال له: سلامٌ لك من إخوانك أصحاب اليمين. أو تبشيرٌ بأنه سالمٌ لا شيء عليه؛ لأنه من أصحاب اليمين.

ويجوز أن يكون الخطاب والإخبار للنَّبيِّ ﷺ لا للمُحْتَضَر، أي: إنَّ أصحاب

---

(١) هم السابقون من الأصنافِ الثلاثةِ المذكورين في الآية ١٠ من هذه السورة.

اليمين ـ لِـمَا يرونه من الكرامة والنعيم بنتيجة ما جئتَهم به ـ يُرسِلونَ لك السلام رضاءً وتقديراً.

ثم ذكر الصنف الثالث، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ وهم أصحاب الشمال، ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾[1] يشربه على الزقّوم، كما مرَّ بيانه، ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي: إدخالُ النار وبئس المصير، وذلك بما قدَّمت يداه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وهذا الصنف هو من أصحاب الشمال، ومقابلٌ لِـمَا قبله من أصحاب اليمين، وإنما عَدَل عن التعبير بذلك إلى هذا العنوان؛ للإيذان بالعلة الموجبة، وللرمز إلى حالة الفريق الأول، وهي الإيمان والتصديق، فذكر في أحد الجانبين المسبَّب وفي الآخر السبب، ودَلَّ بالمذكور في كلٍّ منهما على المتروك في الآخر، على نهج القرآن في مثل ذلك الاكتفاء، (كما جاء في الفقرة (مكرَّر أ) من المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

ثمَّ ختم السورة بما يحثُّ على الانتباه لِـمَا جاء فيها والاهتمام به، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي ذُكِرَ في هذه السورة الكريمة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾[2].

---

(١) النُّزُل: ما يُعَدُّ للضيف النازل، ويُعجَّل به تكرمةً له قبل تهيُّؤ الطعام ونُضْجه كما تقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦].

(٢) ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ ما يُدرِكُه الإنسان ويتذوقُّه بحواسِّه أو وجدانه. أما «علم اليقين» فما يَعلَمُه الإنسان بالسماعِ من الخبر الصادق، أو بالبحثِ الدقيق، أو بالقياس الصحيح. و«عين اليقين»: ما يُشاهدُه الإنسانُ عياناً. وأعلى مراتب العلم هو «حق اليقين».

والمكلفون فيما أخبروا به من أمور الآخرة على هذه الدرجات: أولها: علمُهم بذلك تَلقِّياً عن رُسُلِ الله سبحانه وكتبِه، وهذه الدرجة حُرم منها الغافلون حتى فاجأهم الموت. وثانيها: إذا رأوا ما وُعدوا به من الثواب والعقاب من بعيد. وثالثها: إذا باشروا ذلك فعلاً فدخلَ =

ولما كان قد ذكر فيها ما يُوجِبُ تنزيهَه تعالى عنه، كالشِّرك والتكذيب، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ تَنْزيهاً له عمَّا لا يليق بشأنه الجليل من عقائد هؤلاء الضَّالِّين، وتَوَصُّلاً إلى ما أعدَّه للمُحسِنين من النعيم المُقيم والفضل العظيم.

وقد ضمَّن (سَبِّحْ) معنى: استَعِنْ، وعدَّاه بالباء، لأنَّ ما جاء في السياق من حال المشركين أمرٌ يشتدُّ على الرسول ﷺ.

ويجوز أن يكون المراد: الأمر له بالصلاة؛ لأنه يصفُها له علاجاً في مواقف الشدَّة والتمكين. والله أعلم.

قال البقاعي في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ – ٨٥]، قال: أي: إن المُحْتَضَر أقربُ إلى عالم غير هذا العالم، وهو عالمُ الأرواح والملائكة، ولكنه غير محسوس لنا.

ثم نوَّر هذه القضية بحالةِ جبريل عليه السلام، ينزل على النبي ﷺ، ويَتمثَّل له رجلاً يكلِّمه ـ تارةً بكلام الرجال، وتارةً مثل صَلْصَلةِ الجرس ـ ويُدارِسُه القرآن، والصحابة حاضرون لا يسمعون كلامه، ولا يرون شخصه على الأكثر.

ثم قال في موضع آخر: إنَّ الله سبحانه جعل الدُّور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. وجعل لكلِّ دار أحكاماً تختصُّ بها ـ أي: نواميس طبيعية تختصُّ بها ـ وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواحُ تَبَعٌ لها. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تَبَعٌ لها. فكما تَبِعت الأرواحُ الأبدانَ في أحكام دار الدنيا، فتألمت بألمها، والتذَّت براحتها، وكانت الأبدان هي التي

= أهلُ الجنة الجنةَ، والنارِ النارَ، وأحسُّوا بها فيهما. من كتاب: «تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم» للشيخ عبد الجليل عيسى رحمه الله.

تباشر أسباب النعيم والعذاب، تَبِعَت الأبدانُ الأرواحَ في القبور في نعيمها وعذابها، والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم. فالأبدان في الدنيا ظاهرة، والأرواح خفيَّة، والأرواحُ هناك ظاهرة في عالمها، والأبدان خفيَّة قد استحالت.

أما الدار الآخرة فقد جعل الله الأحكام فيها على الأرواح والأبدان معاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] أي: بالأبدان، ولذلك كانت حياةُ الدار الآخرة أكمَلَ أنواع الحياة الثلاثة.

* * *



قيل: مكيَّة، وقيل: مدنيَّة

وهي تسع وعشرون آية

جاء في هذه السورة:

الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في سبيله.

ثم الفرق بين مصير المؤمنين والمنافقين، وما يكون بينهما من المحاورة يوم الدين.

ثم هوَّن أمر الحياة الدنيا وزهَّد فيها.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أتى بلفظة ﴿مَا﴾ دون لفظة (مَنْ) تغليباً للكثرة؛ لأنَّ غير العاقل من المخلوقات أكثر من العاقل، وقد ضمَّن ﴿سَبَّحَ﴾ معنى: خَضَع وانقاد، ولذلك عدَّاه تعديته.

وقال مقاتل: يعني: كلُّ شيء من ذوي الروح وغيره فيهما يُسبِّح لله سبحانه ويُنزِّهه عن الشريك والشبيه، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وتحقيق ذلك: أنَّ مؤمني العقلاء ـ وهم الملائكة وبعض الإنس والجن ـ يسبِّحون الله سبحانه قولاً وفعلاً واعتقاداً، وسائر الحيوان والنبات والجماد وكفار الإنس والجن تسبيحُها: ما أودَعَ الله سبحانه في خِلقتِها من حكمة وإبداع وإتقان وانقياد طبيعي، إذ كلُّ ذلك يدلُّ دلالةً واضحةً على خضوع سائر المخلوقات لله طبعاً، وعلى عَظَمة الخالق واختصاصه بالألوهية، وهذا هو معنى التسبيح، لا معنى له سواه[1]. وقد أشار سبحانه إلى ذلك

(١) تقدَّم في أكثر من موضع أن السماوات والأرض والحشرات والحيوانات والجمادات تُسبِّح الله =

بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، لأن ما فيهما من الحكمة يدلّ على التنزيه، وهو التسبيح.

ثم تابع الكلام عن شؤونه العظيمة وأوصافه الجليلة المُؤْذنة باختصاصه بأفعال الألوهية وصفات الربوبية، فقال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إيجاداً وإتقاناً، وتدبيراً وسلطاناً. ومن أظهر مظاهر ذلك أنه سبحانه ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ لا يُعْجِزه ولا يُعارِضه شيء.

ثم ذكر أخصَّ صفاتِهِ تعالى، وأدقَّها لدى الفهم والإدراك، فقال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أي: الأزليُّ ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ أي: الأبديُّ، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ أي: الذي يظهر للعقل جليّاً بظهور آثاره الجليلة في سُنن الكون ومُبْدَعاته وعجيب محتوياته، فهو ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، ولكن تشخيص ذاته ليس موضع بحث، إذ لا يصل إليه عرفان، ولا تشخصه الأذهان، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي: الذي لا يُدرَك بالحس، ولا يبدو للعيان، ولا يتناوله الخيال مهما بالغ في الجولان، إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهو مُحتَجِب عن الحسِّ، ظاهرٌ للعقل ظهوراً بديهياً، بآثاره الجليلة، وأعماله العظيمة النَّبيلة، فهو الخفيُّ بذاته والجليُّ بآثاره، ذلك الجلاء الواضح المكشوف، الذي عبَّرت عنه آية النّور أفصَحَ تعبير، وصوَّرته أبدعَ تصوير.

وملخَّص ذلك: أنه ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ بلا ابتداء، ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ بلا انتهاء، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بالأدلة الكونيَّة والوجدان، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ الخفيُّ عن إدراك الحواسِّ ومشاهدة العيان، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

= تعالى بلسان الحال ولسان المقال، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. أما الكافر فإنه يسبِّح الله بلسان الحال لا بلسان المقال، لأنه يصف الله بكل نقص، وربما أنكره، لكن حاله وخلقته وتصرُّفاته هي تسبيح لله عز وجل.

ثم أردف البيان عن إحاطة علمه بالبيان عن عظم قدرته وجلال سلطانه، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ والمراد بها: الأدوار التي مرَّت على تكوُّن الأجرام العلوية وتكوُّن الأرض[١]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: أظهَرَ سلطانَه ونفوذَ سُنَنِه على هذا الكون بعد إيجاده.

ويحتمل أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لمجرَّد الاستئناف، أو لتفاضل شَرَفِ مضمون ما بعدها عمَّا قبلها، لا للتراخي في الزمن، على أنَّ التَّراخي في الزمن يمكن أن يكون له وجهٌ مناسب، والله أعلم، لأنَّ تدبير المُلك يكون بعد إيجاده. وقد مرَّ الكلام على مثل هذه الآية في سورة الأعراف ويونس والرعد[٢] وغيرها بصورة مفصَّلة، فارجع إليه.

ثمَّ أجمل سلطانَه على ذلك الكون، ببيان إحاطة علمه فيه واطلاعه على مخافيه، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾[٣] فقد استوعبت هذه الجملةُ جميعَ الموجودات على الإطلاق.

---

(١) انظر ما تقدَّم تعليقاً (١: ١٥٠).

(٢) انظر الآية ٥٤ من سورة الأعراف، والآية ٣ من سورة يونس، والآية ٢ من سورة الرعد.

(٣) أي: يعلمُ ما يدخلُ في الأرض من المياه والأحياء الكبرى والصغرى حتى «البكتريات»، وما هو أصغر منها، ويشمل الأشعةَ والحرارة حتى أصغر جزء منها، ويشمل القوى المختلفة، ومنها الجاذبية حتى أقلَّ مقدار منها، وما يخرجُ من الأرض من الشجر والنبات والعيون والمعادن والأموات إذا بُعِثوا، ويعلم سبحانه ما ينزل من السماء من المطر والثلج والبرَد والشُّهب وأشعة الشمس والأنوار وأنواع البركات والملائكة، ويعلم كل ما يعرج في السماء صاعداً من الأرض، أو من إحدى السماوات إلى ما فوقها، حتى آخر بُعدٍ من أبعاد السماوات، من الملائكة والأرواح والدعاء وأعمال العباد، وهو سبحانه معكم بعلمِه وقدرتِه أينما كنتم، والله بما تعملون بصير، فيجازيكم على حسب أعمالكم.

ثم زاد في بيان دقَّة عِلمِه سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ معيَّةً تليق بذاته العليَّـة وعلمه القديم، وهذا تـمثيلٌ لإحاطة ودقَّة علمه تعالى بهم وبشؤونهم وتصويرٌ له، قرَّره بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ لا يغادر كبيرةً ولا صغيرةً إلا أحصاها، ويُجازيكم عليه بالإحسان حُسْناً، وبالإساءة سوءاً.

ثم حقَّق إنجاز ما تضمَّنه الكلام من الوعد والوعيد بقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥﴾ فيُجازيكم عليها الجزاء العادل، وليس لكم من دونه وليٌّ ولا نصير.

ثم أيَّد ادِّعاء مُلكيَّته للسماوات والأرض إيجاداً وتدبيراً وقهراً وسلطاناً بالبرهان الواقع، فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[1]، وذلك بالنظام الذي أودَعَه في حركة الأرض السنويَّـة واليوميَّـة، ومَيْلها على مركزها، وفيه تنبيهٌ إلى آثار نِعَمِ الله وآثار قدرته وحكمه البالغة، ودلالتها على وجوده ووحدانيَّته.

ثم أعاد ما يتضمَّن التهديد بعد إثبات قدرته، مبالغةً في تحقيق دقة إنجازه، فقال: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾ أي: بمكنوناتـها. وفيه بيانٌ لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه بعد أن بيَّن إحاطتَه بأعمالهم التي يُظهرونها بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) أي: يُدخِل ظلمةَ الليل في ضوءِ النهار، بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابعُ ذهابُ الليل عندَ تتابُعِ حالات الشروق، فيظهر ضوء النهار، ويُدخِل ضوء النهار في ظلمة الليل بالتتابع شيئاً فشيئاً، فيتتابع ذهاب النهار عند تتابع حالات الغروب.

﴿بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠﴾.

وبعد هذا البيان عن إحاطة علمه تعالى بما يُضمِرون وما يُظهِرون، أرشدهم إلى الخطَّة التي يجب أن يتَّبعوها، لينالوا ثوابَه ويتَّقوا عقابه، فقال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[1] أي: يخلفُ بعضُكم بعضاً بعد موته. وهذا الوصفُ لإثارةِ الزهد في هذا المال، والحثِّ على الإنفاق منه ليدَّخره له عند الله، فيبقى هذا القسم له لا لغيره من الوارثين. وفي هذا الوصف إشارةٌ جليَّة إلى حقِّ الفقراءِ في أموال الأغنياء، وقد كان سبحانه قادراً أن يُسوِّيَ بين الناس في وَفْرة رزقه، ولكنَّ الحكمة اقتَضَت التفاوت بينهم ليُسخِّر بعضهم بعضاً في الأعمال، وأوجَبَ على الأغنياء سدَّ عَوَزِ الفقراء.

---

(١) جاء عن عديِّ بن حاتم أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «إنْ طالت بك حياة لَتَرينَّ الظعينةَ ترتحل من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخاف أحداً، ولئن طالت بك حياة لَتَرينَّ الرجل يُخرج ملءَ كفِّه من ذهب أو فضة يطلب مَنْ يسأله منه فلا يجد أحداً يقبله منه».

أقول: يُؤْذن هذا بأنَّ طبيعة الدين الإسلامي نشر الأمن في مجتمعاته إذا أُقيمت الحدود وساد العدل في الأحكام. وكذلك من طبيعته محوُ الفقر من مجتمعاته إذا أُديت الزَّكوات والصَّدقات على وجهها الصحيح، وقد كان ذلك في صدر الإسلام.

روي عن معاذ أنه بعث بثُلُث الصدقة إلى عمر رضي الله عنه، فأنكر عليه ذلك، وقال: «لم أبعثك جابياً». فقال معاذ: «ما بعثت إليك بشيء وأنا أجد أحداً يأخذه مني». ويروى مثل هذا عن عمر بن عبد العزيز مع عمَّاله زمن خلافته. فهذا هو الدين الإسلامي بطبيعته وأصوله، فأي دين أو مبدأ أحسن من هذا؟! (المؤلف).

وحديث عدي بن حاتم أخرجه البخاري (٣٥٩٥).

وفي هذه الصِّلة أيضاً تنبيهٌ على سَخَافة البخل، وذلك لأنَّ ما في أيدينا سيصير لغيرنا بعد الموت، كما صار إلينا ممَّن قبلنا. ففيه حضٌّ على الإنفاق، وتهوينٌ له على النفس، وحثٌّ على اسيتفاء الحظ من هذا المال بالإنفاق منه قبل أن يصير لغيرنا.

ومُؤدَّى الآية: أنَّ الله سبحانه قَسَمَ بينكم أرزاقكم بصورة متفاوتة، اقتَضَتْها الحكمة البالغة في سَدِّ الحاجات اللازمة في تطبيق نظام الاجتماع وتسخير بعضهم لبعض للحصول على ضروريات الحياة ومقتضياتها، ولأنَّ هذا النظام الاجتماعي يؤدِّي إلى انقسام الجموع إلى صنفين: غني وفقير، جَبَرَه سبحانه وتعالى بوجوب الصَّدقات، وأمر مَن أعطاه هذا المال واستَخلَفَه عليه أن يُنفِقَ منه على مَن لم يكن حظُّه مِثلَه.

ثم ذيَّل الأمر بالترغيب، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧﴾.

ثم أردَفَ الأمر بالإيمان بالتوبيخ على التفريط به، مع تَوَفُّر الدواعي إليه والأسباب المعينة عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ الذي أوجدكم وربَّاكم، يدعوكم إلى ذلك بالحُجَج والآيات البيِّنات التي أنزلها عليه ليُخرِجَكم بها من الظلمات إلى النور، رأفةً بكم ورحمةً وفَضْلاً، ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ على الإيمان به من قبل.

وذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقد فطركم على الاستعداد للإيمان، ومكَّنكم بفطرتكم من النظر الصحيح والاستنباط، لتُدرِكوا اختصاصَه تعالى بالألوهيَّة، وتَتحقَّقوا ذلك من آثاره الجليلة وأعماله العظيمة ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾ أي: مُستَعِدِّين للإيمان بالمحافظة على سَلامة فِطَرِكم ونور بصائركم. ويجوز أن تكون الفاصلة لمجرَّد الحثِّ على الإيمان.

ومُحصَّل الآية: أنَّ الله سبحانه قد فَطَرَكم على الإيمان به طبيعةً، ثم أرسل لكم رسولاً يدعوكم إلى هذا الإيمان بالحُجَّة والبرهان، فأيُّ عذر لكم إذا أفسدتُم طبائعكم بمفاسد التربية وسُوء القدوة، حتى فقدتُم استعدادَكم للإيمان وأعرضتُم عمَّا يدعوكم إليه الرسول بالآيات البيِّنات والحجج الظاهرات.

ثمَّ امتنَّ سبحانه وتعالى علينا بإرسال هذا الرسول، ونوَّه بشأن هذه الدعوة، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم﴾ بها ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾[1] حيثُ لم يكتفِ بما أودَعَ في غرائزكم من الاستعداد للإيمان، ولا بما أقام لكم من الدلائل الكونيَّة، حتى أرسل لكم رُسلاً يدعونكم إلى هذا الإيمان بالحُجَّة والبرهان، فقد هداكم إلى الإيمان بثلاثة أسباب من أنواع الهداية: الطبيعة، والعقل، وإرسال الشرائع.

ثم أردف الأمر بالإنفاق بالتوبيخ على الجهل في مآل المال ومنفعة الإنفاق، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ[2] وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا يبقى لأحدٍ مِلكٌ في الدنيا بعد انتهاء أمرها، يشير إلى أنهم سيموتون ويُورَثون، ويموت الوارث ويُورَث، وهكذا دوالَيْك، حتى ينتهيَ أمر هذا العالم، ولم يَبْقَ له وارث إلا الله. فهَلَّا تُقدِّمون من هذه الأموال شيئاً لأنفسكم تُنفِقونه في سبيل الله، ولا تتركونها بعدكم وبالاً عليكم.

ولما كان الأمر بالإتفاق هاهنا مُوجَّهاً في الدرجة الأولى إلى القائمين بالدعوة في صدر الإسلام لينفقوا في سبيلها، بيَّن قيمة السَّبْق في هذا الإنفاق، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى

---

(١) «رؤوف» أي: يرفعُ عنكم كل بلاء ومشقة. «رحيم» دائمُ الرحمة لكم؛ أي: يجمع بينَ رفعِ البلاءِ والإحسان إلى عباده.

(٢) المعنى: أيُّ غرض لكم في عدم الإنفاق في الخير. والمراد: أطلب منكم أن تنفقوا.

﴿مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ لأن بين الصِّنفَيْن ما بين المؤسِّس المعبِّد للطريق، وبين الذي يسير فيه بعد ذلك، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي الرفعة وعُلوُّ المكانة في الدنيا، والمثوبةُ في الآخرة، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ فلا يخفى عليه من أمركم خافية، ويجازيكم بحسبه جزاءً وفاقاً.

ويبدو من خلال الآيات: أنَّ النبيَّ ﷺ قد عَزَمَ بعد فَتْح مكة على توطيد السبيل لنشر الدين في سائر بقاع الأرض، فوسَّع دعوتَه إلى الجهاد والإنفاق في سبيل الله، ولكنَّ بعض المسلمين لم يستجيبوا لهذا الإنفاق استجابةً سَمْحة، مُحتجِّين بالزَّهيد الذي كان يُنفِقُه المسلمون قبل الفَتْح، حيثُ لم يكن عندهم مال، راغبين أن لا يزيد إنفاقُهم عما كان يُنفِقُه أولئك.

فبيَّنت الآيات الفرقَ العظيم بين ما قبل الفتح وبعده، مُنوِّهةً بفضل السابقين، حافزةً لـهِمَم اللاحقين، مُندِّدة بهؤلاء المتوانين عن الزيادة في الإنفاق بصورة هادئة من صور التوبيخ والتنديد.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

ثمَّ أردف التوبيخَ على تَرْك الإنفاق بالنَّدْب إليه بأبلغ الوجوه، فقال: ﴿مَّن ذَا

﴿ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١١﴾[1] وأيُّ لطف من عظيمٍ يُداني هذا اللطفَ من الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث يُرشِدُ الذين أنعَمَ عليهم بفَضْلٍ من المال إلى مواساة إخوانهم، وإلى صَرْف شيء منها في المصالح العامة، ولا سيّما الجهاد، فيُبرِزُ هذا الهُدى والإرشاد بأبلغ الصُّور، ويُسمِّي نفسه مُقترِضاً؛ ليُشعِرَ قلب الغني بمعنى الحاجة التي قد تُصيبُه يوماً ما، ثم يَعِدُه بمضاعفات ذلك العطاء؟!

وأيُّ هزٍّ هذا للقلوب والعقول، وكيف يَجمُدُ قلبُ هذا العبد الذي غَمَرَه بنِعَمِه وفَضْلِه على كثير من خلقه، فتنقبض يده، ولا يستحيي من ربِّه، ولا يثق بوعده، ولا يحذر بطشه، والله يقبض ويبسط، فلو شاء أن يُغني فقيراً أو يُفْقِرَ غنياً لفعل، إذْ هو واضع تلك السّنن والهادي إليها.

وليس حضُّه تعالى للأغنياء على مواساةِ الفقراء، والإنفاق في المصالح العامة من حاجة به تعالى، أو عَجْز منه سبحانه عن توسيع الرزق للجميع، بل هي هداية الإنسان

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص ٥٣٨: «مَنْ ذا الذي يُنفق مالَه في سبيل الله صادقاً مُحتسباً بالصَّدقة، طيِّبةً بها نفسه، من غير منٍّ ولا أذى، فيعطيه ربُّه أجرَه على إنفاقه مُضاعفاً، وله فوق المضاعفة أجرٌ نفيسٌ رفيعٌ في الجنة؟ فَمَنْ يتعامل مع الله عزَّ وجلّ بالبذْل في سبيله وابْتغاء مرضاته، كَمَنْ يعقد عقْداً ربوياً مُتحقِّق الفائدة البالغة أضعافاً مضاعفةً كثيرةً بالنسبة إلى رأس المال المبْذول.

وفي الترغيب بهذا التعامل مع الله سبحانه الذي يُشبِه عقدَ الربا: استخدام أسلوب التربية بالتحويل لما يحبُّه الناس من فوائد ربويَّة لا يبذلون جهداً في الحصول عليها، بل هم يدَّخرون أموالهم بعقد الربا ضامنين السَّلامة، لتربوَ بنفسِها دون كدٍّ ولا تعب في أموال الناس، وتوجيهه لجهة الله عزَّ وجلّ المالك لكلِّ شيء، الذي لا تفنى خزائنه. وفيه أيضاً استخدام أسلوب التربية بالتصعيد عن الفوائد الهابطة التي تُؤْخذ من الناس، إلى الفوائد السَّامية التي يمنحها الله بفضله في العاجلة والآجلة».

إلى سُنن الله في تصنيف الناس إلى أغنياء وفقراء بمقتضى الحكمة البالغة؛ ليتَّخذ بعضهم بعضاً سُخْرياً في سَيْر الأمور الاجتماعية، وإلى وجوب عطف الغنيِّ على الفقير، والأخذ بمساعدته، ليتمَّ نظام هذا العالم الاقتصادي، ويسير النظام الاجتماعي سَيْـرَه الطبيعي الصحيح، ذلك النظام الذي أعدَّه الله بحكمته، وأرشدهم إليه بسنَّته، وحضّهم عليه برحمته.

انظر إلى القلوب العامرة بالإيمان كيف هزَّها هذا الطلب، فاندفعت إليه اندفاعاً بكُلِّـيّتها وخالص نيّتها، فقد روى الطبري عن ابن مسعود قال: «لما نزلت هذه الآية ـ أو شبيهتـها من سـورة البقرة ـ قال أبو الدَّحْداح: يارسول الله، وإن الله يريد منّـا القَرْض؟ قال النبيُّ ﷺ: «نعم يا أبا الدحداح». قال: ناوِلني يدك، فناوله يده. قال: فإني قد أقرضتُ ربِّي حائطي؛ حائطاً فيه ستمئة نخلة، ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأُمُّ الدحداح فيه في عيالـها، فناداها: يا أُم الدحداح. قالت: لبَّيك. قال: اخرُجي من الحائط، فإني قد أقرضتُه لربِّي» [(١)]. زاد غيره فقال النبي ﷺ: «كم من عِذْقٍ ردّاح لأبي الدَّحْداح»[(٢)].

وبعد أن بيَّن سبحانه أنه يُضاعِفُ للمُنفِق في سبيل الله أضعافاً مضاعفة، ذكر اليوم الذي تكون فيه تلك المضاعفة ضمن فوز المؤمنين، فقال: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾[(٣)] قال مقاتل: يكون لهم دليلاً إلى الجنة.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤: ٤٣٠).

(٢) رواه أحمد (١٢٤٨٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال مخرِّجوه: إسناد صحيح. وفي «صحيح مسلم» (٩٦٥) من حديث جابر بن سمرة: «كم من عذق معلق ـ أو: مدلى ـ في الجنة لأبي الدحداح».

(٣) أي: اذكر ـ أيها المخاطب ـ يومَ ترى المؤمنين والمؤمنات على الصِّراط، حالةَ كونهم يسعى =

وقد اختُلِفَ في هذا النور؛ فعن ابن مسعود: أنه ضياء حقيقي[1]، وقيل: بل المراد به: نور المعارف الحقَّة التي أدَّت بهم إلى العقيدة الصحيحة والأعمال الصالحة.

ويقال لهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وقال بعض المفسِّرين: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم...﴾ جملةٌ مستأنفة مُركَّبة من خَبَر مُقدَّم ومبتدأ مُؤخَّر. والمعنى: وبأيمانهم كتبٌ تتضمَّن هذه العبارة: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ جملةً مستأنفةً أيضاً، نوَّه بها سبحانه عن شأن ذلك الفوز.

وبعد أن بيَّن مصيرَ المؤمنين في ذلك اليوم، بيَّن مصيرَ المنافقين فيه، على طريقة القرآن في المقابلة، فقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾، النفاق: الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من بابٍ آخر، فالمنافقون هم في الظاهر مع المؤمنين، ويدخلون من بابهم، ولكنَّهم في الباطن ليسوا معهم، وخارجون من باب آخر.

وهذا القولُ تَنْديمٌ لهم على ما فرَّطوا في أمرهم في الدنيا، يشيرون لهم بأنَّ هذا إنما حصلنا عليه بسبب ما فعلنا في الدنيا من الإيمان الصحيح والأعمال الصَّالحة، وقد فرَّطتم فيها. فهو تعليقُ الجواب بالمستحيل، وتَيْئيسٌ لهم من ذلك.

= نورُهم الخاصُّ بكلِّ واحد منهم أمامَهم؛ لكشفِ طرقاتهم، بحسبِ مقْدار إيمان كلٍّ منهم، وما قدَّم من عمل صالح. ووسيلة بثِّ هذا النور وتوجيهه بأَيْمانهم.

(١) انظر «تفسير ابن أبي حاتم» (١٠: ٣٣٣٦).

ويجوز أن يكون تَهكُّماً ضدّياً بهم، وتنبيهاً إلى ما وراءهم من الظلمة الكثيفة، وهو ما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين الفريقين ﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ للمؤمنين ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾[1] للمنافقين.

وفي قوله: ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ إلماعٌ إلى أنَّ ساحة العذاب ليست متَّصلة به، بل بعيدة عنه، بينهما منطقة عازلة. والله أعلم.

ولا ننسى أنَّ تلك النواميس الطبيعية هناك غير ما نعرفه من النواميس، وقد اكتشفنا اليوم في الدنيا من النواميس ما يقرِّب البعيد، فلا يُعارض هذا ما يستلزم القرب من قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا في الصَّلَوات والغَزَوات، أي: ألم نكن منكم؟ يريدونَ بذلك موافقتَهم لهم في الظاهر ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ كنتم في الظاهر معنا، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: ظهر نفاقكم بنتيجة امتحانكم واختباركم، فأهلكتُم أنفسَكُم بهذا النفاق، ومَنيَّتموها بتلاشي دعوة الإسلام، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾[2] أي: تَرقَّبتُم أن تدور الدوائر على محمد ﷺ وأصحابه، فتستريحوا منهم، ﴿وَ﴾ ذلك لأنكم ﴿ٱرْتَبْتُمْ﴾

---

(١) يحتمل ـ والله أعلم ـ أن تكون هذه الآية عبارة عن دخول أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النار النار، وتُلمع إلى ما يكون بينهم من عزلة تامَّة، إلا من ناحية خاصَّة، وهي ناحية معرفة بعضهم بأحوال بعض، ومكالمتهم المحدودة التي كنَّى عنها بالباب. وضمير ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ يعود إليه أو إلى السُّور. فقد عقد المشابهة بين هذه العزلة إلا من وجهٍ خاص، وبين السور الذي له باب، على طريقة الاستعارة التمثيلية. هذا ما أراه في الآية. والله أعلم بمراده. (المؤلف).

قلت: الصواب إثبات السور والباب حقيقة، مع العجز عن تصوُّر كيفية هذا السور وهذا الباب، لأنهما من عالم الغيب. وما ذكره من حَمْل ذلك على الكناية بعيد.

(٢) كان مشركو قريش يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ﷺ ستظلُّ في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقيَ حَتْفَه ـ عاجلاً أو آجلاً ـ تلاشت دعوته، وتفرَّق أصحابه، وعادوا إلى دينهم. (المؤلف).

في دينه وشككتُم بنبوَّته، فلم يكن إيمانكم صحيحاً، ﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾ تلك ﴿ٱلْأَمَانِيُّ﴾ التي كنتم تُمنُّون أنفسَكُم بها؛ من زوال الإسلام وانعكاس أمر المسلمين، وظللتُم على هذه الحال ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: حتى نَزَل بكم الموت وأنتم على ذلك، ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾[1] أي: غرَّكم الشيطان، فأعرضتُم عن الصِّراط المستقيم الذي يَصِلُ سالكُه إلى هذه السعادة، وسلكتُم سبيل الجحيم.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ لا سبيل إلى النَّجاة وحالُكم حالُ الكفار ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾[2] لا تبرحونها أبداً ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾[3] أي: هي أَوْلى بكم، أو هي التي تتولَّى أمركم، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ هذه النار.

فقوله: ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾: كنايةٌ عن التيئيس من النجاة، ولا يُراد بها معناها الحقيقي؛ لأنَّ الفدية لا تُؤْخَذُ من أحد أبداً، ولكنه معنى مأخوذ من حال المُخاطَبين في الدنيا. ومن الكناية أيضاً ـ أو الاستعارة ـ قولُه: ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ

---

(١) أي: خدعكم الشيطان بتزييناتِه ووساوسِه عن طريقِ الأفكارِ تشكيكاً في دين الله، أو إبطالاً، أو جحوداً به، وعن طريق العواطفِ استثارةً لها، حتى وقعتم في المعاصي والآثام، وصارت بتكرارِها مقبولةً مستحسنةً في الأفكار، فاستدرجكم إلى الشكِّ في أحكام الله والكفر بها.

(٢) ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: مكانكم الذي تأوون إليه.

(٣) ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: أصل المولى هو الناصر، والمعين، فذكرَه هنا على سبيل التهكُّم حيث لم يجعل لهم ناصراً إلا النار. كما تقول للظالم إذا وقع في ورطة واستغاث بك: إغاثتك عندي رميك في النار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا البيان بما يحثُّ المؤمنين بجملتهم ـ وفيهم ضعاف الإيمان ـ بأن يُديموا التمسُّك بما يُوصلهم إلى تلك السعادة، ممَّا جاءهم من عند الله ويحافظوا عليه، وإنْ طالَ بهم الأمدُ؛ لأنه مما تأنس به العقول، وتخشع له القلوب، ولا يَخْلَقُ على طول الزمن، وأن لا يكونوا كأهل الكتاب الذين قَسَت قلوبهم بطول الأمد عمَّا جاءهم من الحق.

وبنى الكلام على أساس أنَّ البشر قد ارتقى عن ذي قَبْل بثقافته وسَعَة مداركه، وأصبح أهلاً للتفكير الصحيح الوثيق في ذات الله وما يأتي من عند الله، والاستدامة على ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: ألم يَحِنِ الوقتُ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ألم يحن الوقت للمؤمنين ـ بتكامل استعداد النوع الإنساني بسَعَة معرفته، وبعد أن تشبَّعوا بتعاليم هذا القرآن ـ أن تخشع قلوبُهم لذِكرِ الله وما نَزَل عليهم من الحق، فيتقبَّلوه أحسنَ قَبول، ويعملوا به على أكمل الوجوه.

ثم عطف على هذا قوله: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ[1] فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: خارجون عن حدود دينهم، رافضون أو تاركون لِـمَا في كتابهم من تعاليم.

وقد نبَّهتنا الآية إلى ظاهرةٍ من ظواهر الأنفس لنتَّقيَها، وهي أنَّ طول الأمد على الحوادث يُخلِقُ جِدَّتها، ويُذْهِب رُواءَها، ويُضْعِف التدبُّر فيها والمحافظة على أسرارها والحماس لها؛ لأنَّ الشيء إذا أُلِفَ هانَ أمرُه على النفوس، فلم تَرَ عظمتَه ولا ما فيه من

---

(١) ﴿ٱلْأَمَدُ﴾ أي: الزمن بينهم وبين أنبيائهم.

فوائد ومصالح، لذلك يَقْوى الاستمساك بالدين في أول ظهوره، ويَضْعُف بعد طول الأمد، فيحتاج إلى من يقوم بالتنبيه إلى ما فيه من ذلك الروح العظيم، لتعود النفوس إلى التحسُّس به وبعظمته.

والآية تُؤذن بأنَّ حال المؤمنين بهذا القرآن العظيم يجب أن لا يكون كحال أهل الكتاب؛ لأنَّ هذا القرآن يُهيِّئ النفوس لإمعان النظر والتفكير، ويُوجِّهها على الدوام لذِكرِ الله والتَّمسُّك بما جاء عن الله، ولا تَخلَقُ جدَّته لطولِ الأمد، بل هو إلى يوم القيامة.

وقيل: بل المراد بالآية: التنديد بصنف من المؤمنين ضُعفاء الإيمان، لم يندمجوا كلَّ الاندماج في الإسلام وواجباته، ولا سيَّما الإنفاق في سبيل الله، كما مرَّ بيانه، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فأعتَبَهم على رأس ثلاث عشرة سنة من مبدأ نزول القرآن[1].

ويجوز أن تكون الآية استنهاضاً للقلوب أن تُمعِنَ النَّظرَ والتَّدبُّر في هذا القرآن، وتحافظَ على العمل بما فيه، والتَّمسُّك به بصورة صادقة. والمعنى: ألم يجِئ الوقت الذي تخشع فيه القلوب ضارِعةً إلى الله سبحانه عند سماع هذا القرآن الذي نَزَل بالحق من عند الله، وفيه الذكرُ والعِظَة، فتنقاد الجوارح لأوامره ونواهيه، وتعكف على العمل بما فيه، وتَتَدبَّر أسرارَه وتحافظ عليه، ولا تزيد ولا تبتدع كما فعلت الأمم من قبل لـمَّا طال عليهم الأمد، فحَدَثت فيهم الفِرَقُ والأحزاب، وانتهى الأمر بكثيرٍ منهم إلى الخروج عن رُوح الدين ومعالمه وهُداه.

وإنَّما جاءت الآية بهذه الصيغة؛ ليكونَ النداء مُستمراً للمؤمنين في كلِّ وقت وحين.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٨: ٥٨) لابن أبي حاتم في «تفسيره».

ثم أردَفَ هذا السياق الذي اندمج فيه التوحيد والبعث والأعمال الصَّالحة بما يُؤيِّدها ويحثّ عليها، وقد بدأ بالبعث فأيَّده بما يماثله، وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: فكذلك يُحيي الله الموتى ويُريكم آياته.

ثم حثَّ على التفكُّر فيما انتظمه السياق من التبصير والإرشاد، فقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ما فيها وتعملون بمقتضاها، فتفوزوا بسعادة الدارين.

وقال بعض المفسِّرين: بل الآية تمثيلٌ لأثر الذكر في القلوب وحياتها به، فهي مُتَّصلة بما قبلها، وذلك أنه شبَّه إحياءَ القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث، واستعار الجملةَ الدالة على المعنى المشبَّه به للمعنى المشبَّه، وعبَّر بها عنه؛ للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة.

ثم عاد وحثَّ على الأعمال الصالحة ـ التي منها الإنفاق في سبيل الله، كما جاء في السياق ـ وبيَّن الجزاء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[1].

وقوله: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ﴾: معطوفٌ على ما في ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ من معنى الفعل؛ لأنَّ التقدير: إنَّ الذين تَصَدَّقوا وأقرضوا الله. والعطف على المعنى من خصائص اللغة وأساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة العاشرة من المقدِّمة الثانية)، وكذلك عَطْفُ الفعل على المشتق.

وهذه الآيات مُتمِّمةٌ للآيات السابقة في الحثِّ على الإنفاق في سبيل توسيع نَشْر الدعوة.

---

(١) أي: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصدِّقات، الذين يبذلون أموالهم ابْتغاء مرضاة الله في وجوه البرِّ والإحسان، وقدَّموا مالهم في سبيل الله، خالياً من رياءٍ وحُبِّ شهرةٍ، يُضاعَف لهم ثوابُ ذلك، ولهم عند الله فوق المضاعفة أجرٌ نفيس رفيع في أوصافه.

ثم حثَّ على الإيمان بالله ورُسله الذي انتظمه السياق، ورغَّب به، وبيَّن فَضْلَه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يجوز أن يكون من الشهادة بمعنيَيْها: على الغير، أو في سبيل الله. ويجوز أن يكون من الشهود بمعنى: الحضور، ولكن على المعنى المجازي، وهو القُرب والكرامة، والله أعلم.

وقال أبو مسلم: الصِّدِّيق: نعتٌ لمن كَثُر منه الصِّدق وجَمَعَ صِدقاً إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسوله، فصاروا بذلك شهداء على غيرهم، فأولئك ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الذي يسعى بين أيديهم وبأيْمانهم نحو الجنة. ويجوز أن يكون لهم نور خاصٌّ بهم تكرمةً وتمييزاً لهم.

ثم قابل بحالهم حالَ الذين كفروا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾[1] لا يَنْفَكُّون عنها أبداً.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا

---

(١) أي: والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا الكونيَّة والبيانيَّة والإعجازيَّة والجزائيَّة العقابيَّة، أولئك البُعداء المنحطُّون إلى جهة الدَّرْكِ الأسفلِ من النار، الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها، هم فيها دائمو البقاء، لا يفارقونها أبداً، كما أنَّهم صمَّموا في دنياهم على أن يظلُّوا أبداً جاحدين لله، كافرين بصفاته، منكرين لرسالاته.

تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أردف السياق بما يزيد في الحَمْل على التمسُّك به من أمر التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[1]، واللعبُ واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر كلُّها أمور مُحتَقَراتٌ عند العقل السليم، والعاقل يجعل هَدَفَه الأسمى المغفرةَ والرضوان، والنجاةَ من النيران، تلك التي نَدَبَ الله إليها ورغَّب فيها بقوله الآتي: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ...﴾.

ثم ضَرَبَ مثلاً لسرعة انقضائها وقلَّة جَدْواها، ولبهجتها عند إقبالها، وعبوسها عند إدبارها؛ بالنبات يخضرُّ فيعجب، ثم يجفّ ويصفرُّ فيزهد في النظر، فقال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ﴾ أي: الحُرّاث[2] ﴿نَبَاتُهُ﴾ الحاصل به، فيُرغَبُ فيه كثيراً، ويُنتَعش له، ويُزدَهَى به، وبينما هو كذلك تنتهي أيامه ويقف ازدهاره، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجفُّ بعد خُضْرته ونَضَارته، ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعدما كان أخضَرَ نَضِراً مُونِقاً، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي: هشيماً مَسْحُوقاً. وهذا تمثيلٌ للدنيا في سُرعة تقضِّيها وتبَدُّل حالها وقلَّة جَدْواها.

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين» ص ٥٤٠: «اعلموا ـ أيُّها الناس ـ إنَّ مُغْريات الحياة الدنيا لـمَنْ صَرَفها في غير طاعة الله منحصرة في مجالات خمسة كبرى: **الأولى**: أنها لعبٌ غير جادٍّ لا حاصلَ له سوى التعب، **والثاني**: لهوٌ شاغل عما يعني ويَهُم، ينقضي عن قريب، **والثالث**: مظهر جميل تتزيَّنون به، **والرابع**: تسابقٌ بينكم على حيازة ما به تفتخرون على غيركم، لترضوا ما في نفوسكم من واقع الكِبْر وحبِّ الاستعلاء، **والخامس**: مُبَاهاةٌ بكثرة الأموال والأولاد، ويلحق بهم الأنصار والأعوان والأجناد، وما يتعلق بزينة الحياة الدنيا مادياً كان أو معنوياً.

(٢) لأنهم يسترون الحَبَّ في الأرض كما يسترُ الكافرُ بالله نورَ الإيمان.

ثم أشار إلى فَخامة شأنِ الآخرة وعِظَم ما فيها من اللّذّات والآلام ودوامها، ترغيباً في الحصول على نعيمها المقيم، باكتساب أسبابه المارَّة الذِّكر، وتحذيراً من الوقوع في عذابها الأليم، بتَجنُّب ما يُفْضي إليه، فقال: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾[1] كبير، فتَجنَّبوا الأوَّلَ، واسْعَوا للثاني، وسارِعوا إلى المغفرة من ربكم.

ثمَّ ختم الكلام عن الدنيا ببيان حقيقتها؛ مبالغةً في التزهيد فيها، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾[2] فما مضى منها على صاحبها حُلُم، وما بقي منها أمانيُّ وخيالات. والمتاع: الشيء المؤقت، مأخوذ من متاع السفر، وأضافه إلى «الغرور» لبيان تغريره وخداعه، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، مثل: حقّ اليقين.

وإنما تكون متاعَ الغرور لمن اطمأنَّ بها وسكن إليها، وجعلها هي الهدف الأسمى والغَرَض الأسنى، أما مَن جعلها ذريعةً إلى الآخرة فنِعْمَ السفينة ونِعْمَ الصِّراط.

وعن سعيد بن جبير: الدنيا متاعُ الغُرور إنْ ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إنْ دَعَتْك إلى طلب رضوان الله فنِعْمَ المتاع ونِعْمَ الوسيلة[3].

ثم أردف التزهيد في الدنيا بالترغيب في الآخرة، فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن

---

(١) أي: وللناس في الآخرة ثلاثة أنواع من الجزاء: الأول: عذابٌ شديدٌ خالدٌ للكافرين، والثاني: مغفرةٌ عظيمة من الله للمتقين، والثالث: رضوانٌ من الله لأوليائِه وأهلِ طاعتِه من الأبرار والمحسنين.

(٢) أي: وما الحياة الدنيا بما فيها من لعبٍ ولهوٍ وزينة وتفاخُرٍ وتكاثُرٍ في الأموال والأولاد، إلا متاع ينتفع به انتفاعاً مؤقّتاً إلى حين، ثم يأتي عليه الفناء والزوال، وهي في حقيقتها غير جديرة بأن يُغترَّ بها، فإذا اغترَّ بها الجاهل وآثرَها على الدارِ الآخرة، وعصى الله بسببها؛ كانت بالنسبة إليه متاع غُرور، لا متاع بلاغ يتبلَّغ به إلى يوم الخلود يوم الجزاء الأكبر.

(٣) أورده الرازي في «تفسيره» (٢٩: ٤٦٤).

﴿رَّبِّكُمْ﴾ أي: لا تكن منافستكم ومسابقتكم في أُمور الدنيا ومَتاع الغرور، ولتكن في أُمور الآخرة والنعيم المقيم، ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] وهذا تمثيلٌ لمنتهى السَّعة؛ إذ المراد من العَرْض: السَّعة. وقد اكتفى ببيان سَعَتها عن بيان عظمتها، أي: نافِسوا وسابِقوا إلى هذه الجنة الواسعة في حجمها، والواسعة في عَظَمتها وشأنها، ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فتمسَّكوا بهذا السبب المؤدِّي إليها، وتَنافَسوا وتَسابَقوا في الحصول على أكبر حظّ منه.

ثم ختم البيان بالتنويه بشأن هذا الجزاء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحقُّونه بما كسبوا تفضُّلاً منه سبحانه وإحساناً، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ فهو يتفضَّل بما لا تحديد وراءه، ولا مَدَى لمنتهاه.

ثم أردَفَ السِّياق الداعي إلى الجنة ـ وهي محفوفة بالمكاره والدفاع عن الدين ـ بما فيه تهوينٌ لمصائب الدنيا وتبخيسٌ لنعيمها وفوائدها، زيادةً في التزهيد بها، وتطميناً للنفس في نوائبها، فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ[2] فِى ٱلْأَرْضِ[3] وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾[4] أي:

---

(١) السماوات والأرض في هذا الفضاء كسفينة في بحر محيط، ولا يعلم سَعَة الفضاء وما يحويه إلا الله، جلَّت عظمة الله العلي القدير. (المؤلف).

قلت: الصواب أن السماوات محيطة بالفضاء، فلا يُقال: إنها كسفينة في بحر محيط. وإنما ذكر المؤلف هذا لأنه يُفسِّر السماوات ببعض الكواكب السيّارة والأجرام العلوية العظيمة، وقد تقدّم الرد عليه في ذلك.

(٢) هنا محذوف بعد قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يُقدَّر: أو وما أنزل من نعمة في الأرض ولا في أنفسكم. وهذا يسمَّى احتباكاً، دلَّ على هذا المحذوف قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

(٣) كالقحط، وآفات الزرع، وغلاء الأسعار..

(٤) كالأمراض، والفقر، وفَقْدِ الأهل.

من مصيبة عامَّة أو خاصَّة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾[1] أي: إلا هي مكتوبة ومُثبَتة في علم الله، بمعنى: أنها معلومة عندنا ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[2] أي: من قبل أن تُخلَق وتظهر للوجود؛ لأنَّه سبحانه يعلم كلَّ شيء بعلمه الأزليِّ الأبديّ، الذي لا يغيب ولا يتغيَّر.

ثم هوَّن أمر ذلك الإحصاء، فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: حِفظَ هذه الأمور في عِلم الله مع كثرتها ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾، وقد جاء عنه ﷺ: «واعلم أنَّ ما أصابك لم

---

(١) أي: اللوح المحفوظ.

(٢) تُلهم الآية أن المنافقين كانوا يُهيِّجون المؤمنين ويُحزِّنونهم فيما يصيبهم من المهاجرة وأثناء المقاومة والغزوات من نقص في الأموال والأنفس والثمرات. فجاءت الآية معالجةً لهم مُبيِّنةً أن هذه الحياة مليئة بالمصائب والمهمات، مطبوعة على ذلك في حربها وسلمها. والله سبحانه قد أحاط علمُه الأزلي بما سيجري من ذلك، وأنه واقعٌ لا محالة، فعلى الإنسان أن يطبع نفسه على تحمُّلها، فلا يحزن من مصائبها حزناً يُخرجه عن الاتِّزان، ولا يفرح بمؤاتاتها ومَسرَّاتها فَرَحَ بطرٍ وطغيان، إذ كلُّ حال منها يؤول إلى زوال، وينقلب إلى ضدِّه بتطرُّف أو اعتدال. فعلى المؤمن أن يكون قريرَ النفس، ثابتَ القلب في عُسره ويُسْره، فـ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

ومعنى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾: من قبل أن يجريها الله سبحانه على الإنسان، بمخالفته لسنن الله الكونية، فإن المصائب في الفرد والمجموع لا تكون إلا بمخالفة نظام الله في كونه. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. والله أعلم.

والمصيبة في أصل اللغة: ما يصيب الإنسان من خير أو شر. ثم خصَّها العُرْفُ بالشر، فالمعنى: كلُّ ما يصيب الإنسان من خير أو شر، هو ثابتٌ في علم الله الأزلي القديم، ولا ينافي ذلك كون الأسباب الموجبة هي أعمال الإنسان نفسه وتصرُّفاته، فإنَّ ذلك مما يعلمه الله عنا من الأزل.

وإنما نبَّهنا الله سبحانه بذلك لكي نَتعوَّد على أن نجعل للمصيبة صبراً، وللخير شكراً، ولا نهلك أسىً في الأولى، ولا نبطر أشراً في الثانية، ونفتخر على الناس ونختال، بل نحافظ على الاعتدال. ومن لم يفرح كثيراً لموجود، ولم يحزن شديداً لمفقود، يهون عليه أمر الدنيا وما يعرض فيها من المصائب والحَدَثان، ويكون ثابتاً وقوراً عند تقلبات الأزمان. (المؤلف).

يكن ليُخطِئَك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبَك، وإنَّ لك في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وإنَّ النصر مع الصبر، والفَرَجَ مع الكرب، وإنّ مع العُسْر يُسْراً»[١]، وكان ﷺ يقول: «اللهمَّ إني أسألك اللطف بما جَرَت به المقادير»[٢].

ثمَّ ذكر سبحانه أنَّ الغَرَضَ من هذا البيان إنما هو التزهيدُ في أمر الدنيا، والاستهانةُ بحوادثها وعوارضها من خير أو شر، حتى يكون المؤمنُ ثابتَ النفس مرتكزَ الخلق في يُسْر الدهر وعُسْره، فقال: ﴿لِّكَيْلَا[٣] تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: لكيْ لا تحزنوا على ما فاتكم من نِعَم الدنيا، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: بما أعطاكم الله تعالى منها، بمعنى: لا يحسبون الخير لا شرَّ بعده، ولا يحسبون الشرَّ ضَرْبة لازب، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

قال المبرِّد: ليس المراد نفي الأسى والفرح على الإطلاق، بل المعنى: لا تحزنوا حزناً يخرجكم عن الاعتدال؛ لفوات ما فاتكم أو سُلِبَ منكم، ولا تفرحوا فرحاً شديداً يُطْغيكم، ودليل ذلك تعقيبُه بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[٤]، فدلَّ بهذا على أنه ذمَّ الفرحَ الذي يَخْتال فيه صاحبُه ويبطر، وأما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١١: ١٢٣)، عن ابن عباس رضي الله عنه. ورواه بنحوه أحمد في «مسنده» (٢٦٦٩) وقال مخرِّجوه: إسناده قوي، والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ﴿لِّكَيْلَا﴾ تركيبٌ من ثلاثِ كلمات: لام التعليل، و(كي) التي بمعنى (أَنْ) بفتح فسكون. وهي التي تجعل الفعلَ بعدَها مصدراً، و(لا) النافية. والمعنى: لعدم أساكم. أي: حُزنكم على ما فاتكم وفرحكم..

(٤) المختال: المتكبِّر بما أُوتي، والفخور: المتطاولُ المتبجِّحُ بالباطل. ومَن لا يُحبُّه الله: يَمقتُه ويَسخَطُ عليه. وهو سبحانه كذلك لا يُحبُّ كلَّ ساخطٍ يائس، بل يُحبُّ الصبورَ الشكور.

وما ذكره المبرِّد هو معنى ما روى عكرمة عن ابن عباس في معنى الآية من أنه قال: ليس أحدٌ إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا للمصيبة صَبْراً، وللخير شكراً.

فهذه الفاصلة تقرِّر نوع الفَرَح الذي طُلِبَ منا أن نبتعد عنه، وصاحب هذا النوع من الفرح يستاء على ما فاته بنسبة فرحه هذا، وكلا الأمرَيْن قبيحٌ ذميم.

والغرض من الآية: تهوينُ أمر المصائب والـمَسرَّات، لا عدم التَّحفُّظ وإهمال الأسباب، لأننا لا نعلم شيئاً مما في ذلك الكتاب، ولأننا مأمورون بالسَّعي وراءَ المصالح، وبالتَّحفُّظ ممَّا يُؤدِّي إلى المضارِّ والمَهالك، كيف وإنَّ المصائب والمضارَّ التي تقع في العالم الإنسانيّ ـ سواء كانت تـتعلق بالشخص أو بالأمة أو بالمجتمع ـ ليس لها علة سوى المَيْل عن قانون الفطرة والانحرافِ عن سنن الله في هذا الكون عَمْداً أو سهواً، فهي من فعل أيدينا، ومن آثار ضلالنا وانحرافنا عما تتطلَّبه تلك السنن، وإن كان وقوعها معلوماً لله تعالى من الأزل، فعلمُه تعالى بذلك لا يُبرِّر لنا العمل، ولا يدفع العَتْب والمسؤولية عمَّا كان منا من خَطَل وزَلَل.

والقرآن العظيم ـ الذي أنزله الذي يعلم السرَّ في السمـاوات والأرض ـ كلُّه منطبق على هذه السنن الكونيَّـة التي لا تُحصيها البحار مِداداً والأشجار أقلاماً، فهو وحده الكفيل بأن يقيَـنا من الاصطدام بها، ويحملَنا على الاستفادة منها، أنزله سبحانه رحمةً للعالمين.

ثم خصَّ هذا المختالَ الفخورَ بأخصِّ صفاته التي لها دَخْلٌ في الموضوع، وهو الـمُنْبعث عمَّا هو فيه من رِفْعة وميِّزةٍ بين الناس، حيث يرى أنه لم يحصل على ذلك إلا بالمال، فيتمسَّك به ويدعو أمثاله إلى أن يعملوا مِثلَه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾[1]، وهذه خصائص غير المؤمن الصادق.

---

(١) إذا بذل غنيٌّ من الأغنياء الطيِّبين شيئاً من ماله في غاية سامية وغرض شريف، حاول كثير =

ثم بيَّن تعالى أنَّ الأمر بالإنفاق إنما هو لمقتضيات النظام الطبيعي في المجتمع، على حسب ما وضعه سبحانه بحكمته، لا عجزاً في القدرة، ولا طلباً للحاجة، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويَبخَلْ ويُعرِضْ عن الإنفاق، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ أي: المحمود بذاته، لا حاجة له إلى طاعة أحد، ولا إلى شكر أحد، ولكنه أمر بالإنفاق لحفظ النظام الذي وضعه بمُقْتضى الحكمة، ومراعاةً للمصالح العامّة؛ ذلك النظام الحكيم الذي يؤدِّي أن يكون في المجتمع غنيٌّ وفقير، وأمرَ الغنيَّ أن يَسُدَّ عَوَزَ الفقير؛ ليتَّخِذَ بعضهم بعضاً سخرياً، وتتمَّ مصالح الجميع.

وتُلهِمُ هذه الآيات صورةَ استشهادِ بعض المجاهدين، أو حادثٍ أليم أصاب بعض المسلمين، وكان سبباً لتقصير البعض عن سَعَة الجهاد بالمال والنفس، فعالجته هذه الآيات معالجةً نفسية، مُبيِّنةً زهادةَ أمر الدنيا وفخامةَ أمر الآخرة، ونَوَّهت بالمتصدِّقين والشهداء، ونَدَّدت بالمُحَرِّضين على البخل والبخلاء.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ

= من الأغنياء أبناء صنفه أن يوسوسوا له بطريق خبيثة، ليحيدوا به عن ذلك الهدف، وربما تآمروا لإحباط مَسْعاه وتحطيم مُبْتغاه، كي لا يطلب منهم ما تصدَّى له من المعروف والسماح. (المؤلف).

ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

وبعد أن طلب سبحانه وتعالى في الآيات السابقة الإيمانَ بالله وبرسله، بيَّن الغرضَ من إرسال الرسل وإنزال الكتب، للحَمْل على ذلك والتمسُّك به، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحُجَج والمعجزات، ندعو بهم الخلق إلى ما فيه صلاحُهم في الدنيا والأخرى، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليبيِّن لهم الحقَّ، ويُميِّز صوابَ العمل، ﴿وَ﴾ أنزلنا ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العَدْلَ والإتقانَ في أحكام هذا الكتاب، وفي كل شيء؛ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[1] وهو أدقُّ أنواع العدل والإتقان في تطبيق الأحكام بمعونة الكتاب، وفي سائر الأعمال، بما أودَعَ الله فيهم من عقل واستعداد فطريّ، وبما وَجَّههم به إلى الصَّواب في هذا الكتاب.

---

(١) هذه الآية بيانٌ للغرض من إرسال الرسل وإنزال الكتب، ومحصَّله: أنَّ الله سبحانه قد جَعَل كلَّ أمر في هذا الكون متقناً موزوناً بأعدل الوزن وأدق الضبط في أكمل نظام، إذ كل شيء عنده بمقدار، وما ينزله إلا بقدر معلوم. وقد أرسل الرسل وأنزل الكتب بالتعاليم التي فيها مقاييس ذلك العدل، وموازين ذلك الضبط والنظام، ليقوم الناس بالقسط في سائر مُلابساتهم وأحوالهم، ويأخذوا كل شيء بحسب ما هو عليه في الواقع ونفس الأمر وعلى وجهه الصحيح، سواء كان متعلقاً بالمعرفة أو الأخلاق أو الاجتماع، فتكون عقائدهم في الأمور صحيحة، وتصرُّفاتهم في الأعمال صالحة ناجحة، فينتظم حالهم ويحسن مآلهم، وفي ذلك كل الخير والسعادة لبني الإنسان. وعلى هذا تكون سُنَّة الله سبحانه في تشريعاته، كسنته في بناء سماواته، موضوعة على نِسَبٍ صحيحة، ودقةٍ في الإتقان، وإحكامٍ في المقرَّرات والأحكام، وتعاطي الأمور بحسب ما يقتضيه النظام. (المؤلف).

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ لأنَّ سائر أدوات الحرب منه، فيُدافَعُ به عن معارضة نَشْر ذلك العدل، ويُحمَلُ به الناس أفراداً أو أُمماً على اتِّباع الحق والإنصاف والسَّداد في أحوالهم وأعمالهم، إنْ حادُوا عن ذلك، فهو في يد الإمام العادل كمِشرَطِ الجرَّاح الماهر، ومن المقرَّر الثابت: أن الحق لا يقوم إلا أن يُسنِده القوة والسلطان، ﴿وَ﴾ عدا ذلك فيه ﴿مَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذْ هو مادة الحدادة، ومنه عُدَدُ النجارة والزراعة وغيرهما من الأعمال الضروريَّة.

ومعنى إنزاله: إنشاؤه وإحداثه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى في سورة الشورى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

ويجوز أن تكون كلمة «الميزان» مِن عطْفِ الوصفِ على الموصوف، فالميزان: الكتاب. ويَقرُبُ من هذه الآية قولُه تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، وقد مرَّ بيانه.

ومُحصَّل الآية: أنَّ الله سبحانه أرسل الرسل بالكتب المنزَّلة لإقامة الحقِّ والعدل في الأحكام والأعمال، وتنظيم العدالة الاجتماعية في العالم على أساس ما جاء في تلك الكتب من البيانات والتعاليم، وأنزل الحديدَ وبأسَه تأييداً لذلك؛ بقمع المعارضين، وتسهيل نشر الدعوة للدِّين، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ بهذا الحديد. والجملة معطوفة على مضمون ما قبلها؛ لأنَّ البأس عماد الحرب والمقاومة، أي: لدفع المعارضين، وليعلم الله مَنْ ينصُره ورسلَه بسبب إيمانهم بالغيب، وهو ما غاب عنهم من الحشر والحساب وما يتبع ذلك، أو بنشر الإيمان بهذا الغيب.

وقد مرَّ الكلام على معنى ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ في سورة البقرة عند قوله: ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فارجع إليه.

وفي هذه الآية حثٌّ على نَصْر الرسل باستعمالِ الحديدِ وبأسِه؛ لأنَّ الحقَّ لا يمشي إلا بالتأييد.

ثمَّ ختم الكلام بما يُؤذِنُ أنّ تكليفهم بالجهاد في سبيل نشر الدعوة ليس لحاجة له تعالى وعَجْزٍ منه سبحانه، ولكن للجَرْي على نظامٍ اقتَضَتْه الحكمة، قد وضعَه سبحانه في تسيير شأن الخلق ودفع طغيان بعضهم ببعض، وهو اختيارهم في تصرُّفاتهم وهَدْيُهم للنَّجْدَين، فلم تكن معارضتُهم للحقِّ غلبةً ولا قهراً للإرادة، ولكن سَيْراً بمقتضى الاختيار، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه كيف عارض أكثرُ أقوام هؤلاء الرسل الكتابَ المنزَّل عليهم؛ لأنهم قد حرَّفوا طبيعتهم المستعدَّة لقَبول الحق، وأفسدوها بمفاسد التربية وسوء القدوة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: سَلْسَلنا في ذُرِّيتهما النُّبوَّة والشرائع، وقد كان من أمر قومهم معهم ما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿فَمِنْهُم﴾ أي: من المُرسَل إليهم ـ المدلول عليهم بذكر الإرسال والمُرسَلين ـ ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحق، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: خارجون عن الطريق المستقيم. فذكر نبياً عظيماً من الأوَّلين، ونبياً عظيماً من الآخرين، وأشار إلى ما بعدهما من الأنبياء والمرسلين بقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾، وإنما جمع الضمير في ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾؛ ليشمل المُرسَلَ إليهم أيضاً، أو ليشمل ما بينهما من الرسل.

ومعنى (قفَّى على أثره): أتبَعَه به بعد أن مضى، فقد أتبَعَ نوحاً بمَن جاء من الأنبياء في القرون الأولى، وأتبَعَ إبراهيم عليهما السلام بمَن جاء منهم في القرون الأخرى؛ بمعنى: أرسل بعضهم إثر بعض، حتى جاء زمن عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وقد بيَّن شريعتَه وكيف تحرَّفت، فكان ذلك داعياً إلى إرسال محمد

ﷺ، تجديداً لشريعة الله، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من قبلُ ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾[1]، وهذا بيانٌ لجلِّ ما في شريعتهم المُضافة إلى شريعة موسى، أي: طلبنا منهم في الإنجيل أن يكونوا على هذه الصفات، ولكنهم ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: أدخَلوا عليها بِدَعاً ابتغاءَ المصالح الدنيويَّة والسمعة والرياء، فحرَّفوا تلك الشريعة أو الرهبانية التي ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[2] ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ ولم يُحرِّفوا؛ آتيناهم ﴿أَجْرَهُمْ﴾ الذي يَسْتَحِقُّونه[3] على تمسُّكهم بشريعتهم على وجهها خالصةً لله.

وقد بيَّن أن هؤلاء أقليَّة في الأمة، حيث قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: خارجون عن حدود شريعتهم بالتحريف. ينعى عليهم بذلك.

ويجوز أن يكون ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ بمعنى: أحدثوها ولم تُكتب عليهم، ولكنهم اختـرعوها من أنفسهم ابتغاءَ مَـرْضاةِ الله، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، وكان منهم

---

(١) أي: وَجَعَلنا في قلوبهم رِقَّةً وعطفاً، يرحمون بها حتى مَنْ يَكرهون ويُبغضون من الناس، وابْتدعوا رهبانيةً جاؤوا بها من قِبَلِ أنفسهم، وحمَّلوا أنفسَهم المشاقَّ في العبادة الزائدة، وتركِ النكاح، واستعمالِ الخشن في المطعم والمشرب والملبس مع التقلُّل من ذلك. و(الرهبانية) منسوبة إلى «الرَّهْبان» بفتحِ الراءِ وسكونِ الهاء؛ وهو العبدُ شديدُ الخوفِ من الله كـ(الخَشيان) شديد الخشية، والرهبانية: هي المبالغة في العبادةِ والانقطاعِ عن الناس، والمعيشة الخشنة، والبعد عن النساء. وتقدَّمَ الفرقُ بين الرأفة والرحمة.

(٢) أي: ما فرضناها نحن عليهم، لكنهم ابتدعوها طلبَ رضوان الله، فلم يَرْعَوا تلك الرهبانيَّة حقَّ رِعايتِها، ولم يُحافظوا عليها حقَّ المحافظة، بل ضيَّعوها في جملتِهم، وضمُّوا إليها التثليثَ والاتِّحاد، وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين ملوكهم.

(٣) والاستحقاق إنما هو بحسب وعد الله تعالى لهم بمقتضى فضله، وإلا فلا حقَّ للعبد على ربِّه تبارك وتعالى.

مؤمنون حقاً، نالوا أجرَهُم مَوْفوراً، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، خارجونَ عن شريعتهم بالتأويل والتحريف[١].

ثم ختم السورة بما بدأها من الدعوة إلى الدين، وأردف الكلام بما يتضمَّن أنه أرسل محمداً ﷺ إثرَ عَبَثِ أهل الكتاب بشريعتهم، واشتدادِ الحاجةِ إلى إرساله، وإعادةِ نور الشريعة وإشراقها، وفيه حثٌّ للأمة المحمديَّة أن لا تضيِّع كما ضيَّع أُولئك، وترغيبٌ بزيادة الأجر، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ وتمسَّكوا بشريعته على الوجه الصحيح الذي بيَّنه الله لكم، وداوِموا على ذلك، ولا تكونوا كأهل الكتاب الذين ابتَدَعوا في شريعتهم، وضيَّعوا ما فيها من حِكَم وأحكام، فإن اتَّقيتُم ذلك ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾[٢] أي: نصيبَيْن منها. والمراد: مضاعفةُ الأجر لهم مطلقاً، بالنسبة إلى مُؤمني أهل الكتاب، أي: فيُضاعِف لكم الأجر، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يسعى بين أيديكم وبأيمانكم، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ هفواتِكم، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى.

ويجوز أن يُراد بـ«النور»: اهتداؤهم بالقرآن وما يَنْبعث عنه من نَيْل السعادتَيْن في الدنيا والأخرى.

---

(١) والمراد: أقام فريقٌ من الرهبانِ على دين عيسى ابن مريم عليه السلام حتى أدركوا محمداً ﷺ، فآمنوا به، فآتينا الذين ثبتوا على الدين الصحيح، وعملوا بمقتضى إيمانهم؛ أجرَهم الكبير، ولكنهم كانوا قلّة، وكثيرٌ منهم خارجون عن طاعة الله، مُكذِّبون بمحمد ﷺ، لم يلتزموا بمقتضيات إيمانهم، فلهم جزاؤهم بالعدل.

(٢) أي: يُؤْتكم ـ أيها المؤمنون ـ نَصيبَيْن من رحمته: نصيباً على الإيمان به ﷺ، ونصيباً على الإيمان بالرُسُل السابقين، كما أعطى الله مؤمني أهل الكتاب نصيبَيْن من الأجر: أحدهما: للإيمان بالرسول محمد ﷺ، والآخرُ: للإيمان بالرسول السابق الذي نُسخت شريعته بالشريعة المحمديَّة.

ثم علَّل هذا الوعدَ الكريم بوجهٍ من حُسْن التعليل، ناظراً إلى عقيدة أهل الكتاب بأنَّ كَرَمَ الله خاصٌّ بهم، ورَدَّ عليهم ذلك، فقال: ﴿لِّئَلَّا[1] يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2]، وكلمة (لَا) مزيدةٌ للمبالغة في نفي متعلَّق العلم الآتي، على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وذلك من أساليب القرآن والبلاغة العالية.

ويؤيِّد الزيادةَ قراءات: (ليعلم)، و(لكي يعلم)، و(لأنْ يعلم أهل الكتاب)[3]، ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. أي: فعلنا بكم ذلك ليعلمَ أهل الكتاب أنهم لا

---

(١) ﴿لِّئَلَّا﴾ لفظٌ مركّبٌ من ثلاثِ كلمات: لام التعليل، و(أن) الناصبة بعدها. و(لا) النافية. والعرب تجيء بـ (لا) هذه في مثل هذا المقام لتأكيد نفي سابق، أو للتمهيد لنفي لاحقٍ مع تأكيدِه في المعنى كما هنا. والمراد: أخبرَكُم الصادق في جميع أخبارِه ـ وهو الله سبحانه ـ بما سبقَ ليَعلَمَ أهلُ الكتاب نفيَ قدرتِهم على تصريفِ فضل الله نفياً مؤكّداً، فلا يطمعوا في حجز فضلِه عن نبيِّه محمد ﷺ.

(٢) الكلام محمول على المعنى، وهو من أساليب القرآن، أي: لئلا يعلم أهل الكتاب أنَّ فضل الله لا يتجاوزهم؛ لأنهم أبناء الله وأحبّاؤه كما يزعمون، ولكنه أردف وأبدل جملة: (أن فضل الله لا يتجاوزهم) بجملة: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ لاشتمالها على ما ليس في الأولى من دقائق البلاغة ونوادر الإشارة.

والإرداف من خصائص اللغة وأساليب القرآن، وهو أن يريد المتكلم معنًى فلا يعبِّر عنه باللفظ الموضوع له، بل بما هو رديفه ومتضمِّن له وزيادة، وقد ذكر هذا النوع من البديع: قدامة وابن أبي الأصبع المصري في «بديع القرآن». (المؤلف).

(٣) (ليَعلَمَ) هي قراءة ابن مسعود وابن عباس وعكرمة والجحدري وعبد الله بن سلمة، و(لكي يَعلَمَ) هي قراءة ابن عباس في رواية أخرى عنه، و(لأنْ يَعلَمَ) هي قراءة حطان بن عبد الله. انظر: «الدر المصون» للسمين الحلبي (١٠: ٢٥٩-٢٦٠).

ينالون شيئاً ممّا ذكر من فضله تعالى على المؤمنين بالكِفلَيْن والنور والمغفرة، ولا يتمكَّنون من نَـيْله، لأنهم لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمـان برسوله على الوجه المذكور، ﴿وَ﴾ ليعلموا ﴿أَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحقُّه من أيِّ أُمة كان؛ يُؤْتيه إيَّاه على وجه الفضل منه والإحسان، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ الذي لا تنتهي خزائنه، ولا يُدرك مَداه[1].

ويجوز أن يكون في الآية وجهٌ آخر، من حُسن التعليل لمضمون ما تقدَّمه، وهو نَسْخُ شريعة موسى بشريعةِ محمدٍ عليهما الصلاة والسلام، وما يتعلَّق في ذلك من مزاعم أهل الكتاب. ومفاده: الردُّ لإنكارهم أن تكون النبوَّات في غيرهم من الأمم، وزَعْمِهم أنَّ موسى آخرُ الأنبياء لا تُنسخ شريعته. فنفى الله سبحانه هذه المزاعم، وبيَّن أنَّ الفَضْل بيده تعالى، يؤتيه من يشاء، لا يخصُّ به أُمة دون أُمة، ولا يقدرون على تخصيص فَضْل الله بهم، ولا يملكون حَصْر الرسالة فيهم، وهم في تلك المزاعم تائهون مُبْطلون.

وعلى هذا، فـتكون الآية على حدِّ ما جاء في الآية ٨١ من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ في أحد وجوه معناها، والله أعلم. وملائمة للآية ٥٣ من سورة النساء: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية، والله أعلم.

* * *

(١) والمراد: جعلنا الأَجْرَيْن لِـمَنْ آمنَ بمحمد ﷺ؛ ليعلم أهل الكتاب ـ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وحَسَدوا المؤمنين ـ أنه لا أجرَ ولا نصيبَ لهم من فَضْل الله، وأنَّ الفَضْل كلَّه بيد الله وحده، يُؤْتيه من يشاء من عباده، والله ذو الفَضْل العظيم، يزيدهم من فضله عطاءً فوق مجازاتهم على إيمانهم، ومضاعفة أجورهم على مقادير أعمالهم في جنات النعيم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ على محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذا هو الجزء التاسع[1]، وهو آخر جزءٍ من تفسير القرآن المسمَّى: «أَوْلى ما قيل في آيات التنزيل» لرشيد الخطيب الموصلي.

ويبتدئ بسورة المجادلة.

وهي مدنيّة، وآيها: اثنتان وعشرون آية.

جاء فيها بيان حكم الظِّهار، وكان من أشدِّ طلاق الجاهلية، وأوْعَدَ مَنْ يُخالف حكمَ الله فيه شرَّ وعيد.

وانْجَرَّ الكلام إلى المنافقين ومُناجاتهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأمرَ المؤمنين أن يقطعوا مَوَدَّتهم، ولو كانوا أقرباءهم، لا سيّما المشركين.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف في الطبعة الأولى من الكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: تتضرَّع إليه تعالى، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: تراجُعكما الكلام في ذلك، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: «كنت أسمع كلام خَوْلة، فيختفي عليَّ بعضُه مع قربي منها، وسمع الله سبحانه من فوق سماواته، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]»[1].

وهذه هي خَوْلة بنت ثعلبة، ظاهَرَ عنه زوجُها أوْسُ بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، ثم نَدِمَ، فقال لها: ما أظنُّك إلا حَرُمْتِ عليَّ، فشقَّ عليها ذلك، واستَفْتَتْ

(١) رواه أحمد (٢٤١٩٥) وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

رسول الله ﷺ، فقال: «حَـرُمتِ عليه»، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً، فقال: «حَرُمت عليه»[١]. وفي رواية: «ما أراك إلا قد حَرُمتِ عليه»[٢]، يقول ذلك في الـمِرار كلِّها. إذ جَعَلت تراجعُ رسولَ الله ﷺ في ذلك، وهو يجيبها بهذا الجواب، فشَكَتْ إلى الله سبحانه بقولها: اللهمَّ إنَّك تعلم حالي فارحمني، فإنَّ لي صبيةً صغاراً، إن ضَمَمْتُهُم إليه ضاعوا، وإن ضَمَمْتُهُم إليَّ جاعوا.

فأنزل الله حكمَ الظِّهار بعد أن أنكره عليهم، ووضع له حداً، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، والظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي. وكان الرجل في الجاهلية إذا ظاهر زوجتَه يحرم عليه قُرْبُها، وتصبح مُعلَّقة، لا زوجةً ولا مُطلَّقة. وقد كان الأزواج في الجاهلية يعمدون إلى هذا إذا ما أرادوا أن يُضَارُّوا زوجاتهم أو يبتزُّوا أموالهنَّ، أو في حالةِ غيْظٍ منهنَّ لأمرٍ ما. وقال الأكثر: كان هذا طلاقاً باتاً في الجاهلية، لا رَجْعةَ فيه، إذا غضب أحدُهم على زوجته استعمله لجاجاً[٣].

فأنكر عليهم سبحانه بقوله: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ يُوبِّخهم ويُؤنِّبهم ويُبالغ في تـقرير ذلك بقوله: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي[٤] وَلَدْنَهُمْ﴾ ولا يُشبِهُهُنَّ في الحُرمة إلا مَنْ ألحقها الشرع بهنَّ من المُرضِعات وأزواج النبي ﷺ، فدخلن بذلك في حكم الأمهات، وأما الزوجات فأبعد شيء عن الأمومة؛ لأنَّ حال الرجل مع زوجته يَبعُدُ كلَّ البعد عن حاله مع أمه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٤٥١).

(٢) المصدر السابق (٢٢: ٤٤٨).

(٣) لجَّ في الأمر: تمادى عليه. «لسان العرب» (لجج).

(٤) «إن» حرف نفي بمعنى (ما). و«اللائي»: جمع نسوة مؤنث بمعنى (اللاتي).

ثم زاد في مبالغة الإنكار، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: المظاهرين لزوجاتهم ﴿لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم هذا ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾[1] أي: قولاً منحرفاً عن الحق.

ثم ختم البيان بما يختم القرآن به الأحكام الواردة لقمع مفسدة من المفاسد، وهو العفو عما سلف، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾، وقد قدَّمه على بيان الحكم قَرْناً له بالتوبيخ لهم، وتعجيلاً بالتأنيس بعد ذلك الإنكار الشديد.

ثم بيَّن لهم حكم الظهار إذا صَدَر منهم، وبناه على أمرين:

الأول: أنه لا يؤدِّي إلى التحريم البات، كما كانوا يعتقدون، لأنَّ ذلك زور وبهتان كما ذكر في التمهيد.

والثاني: وَضْعُ عقاب صارم عليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾، وقد اختلف المفسِّرون في المراد من هذا العَوْد؛ فقال أهل الظاهر: المراد به العَوْدُ إلى الظهار بعد هذا المنع، وقال أكثر المفسِّرين: المراد به الندامةُ والرجوع إلى طلب مراجعة الزوجة؛ لأنَّ العَوْدَ للقول: مخالفتُه، يقال: قال فلان قولاً، ثم عاد له أو عاد فيه، أي: خالفه ونقضه، وهو قريبٌ من قولهم: عاد في هبته؛ إذا رَجَع عنها. وعلى هذا فيعودون لِـمَا قالوا بالتدارك. واللام بمعنى: «في».

ويجوز أن يكون في ﴿يَعُودُونَ﴾ تضمينٌ لمعنى: يهدمون، فعدّاها باللام التي بمعنى «على» بحسب نهج القرآن في التضمين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية).

وقال أبو حنيفة: إنَّ الظهار من عَوائد الجاهلية، والمراد: العودة إليه في الإسلام.

---

(١) «منكراً من القول» أي: قولاً يُنكِرُه العقلُ السليم والطبعُ المستقيم والشرع القويم؛ لأن علاقة الزوجية تُبيحُ أموراً تتنافى مع علاقة الأمومة، «وزوراً» أي: كذباً وباطلاً.

وقال الأخفش[١]: في الكلام تقديم وتأخير، وتقدير الآية: والذين يظاهرون من نسائهم فتحريرُ رقبة لِـمَا قالوا، ثم يعودون إلى نسائهم[٢]. والتقديم والتأخير هو من بعض أساليب القرآن وخصائص اللغة.

ثم ذكر سبحانه الحكم بقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ وقد بيَّن أن هذا الحكم رَدْعٌ لهم، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تُزْجَرون به عن ارتكاب هذا المنكر. ثم ذيَّل الكلام بما يزيد في الرَّدْع، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ فيُجازيكم عليه جزاءً وِفاقاً.

ثم تمَّم الحكم بقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة لعدم وجودها أو لعدم القدرة عليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ لا فاصل بينهما ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ هذا الصيامَ لمرضٍ أو شِبْهِه، ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ لكلِّ مسكين نصْفُ صاع من بُرٍّ أو صاعٌ من غيره. ويجب تقديمه على المسيس ـ بمقتضى السياق ـ كما في الرقبة، وبحسب أُسلوب القرآن في الاكتفاء.

ثم علَّل بيان هذا الحكم من وجه آخر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ البيان والتعليم في حكم الظهار، إنَّما قرَّره سبحانه وتعالى ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وقد أقام هذه الجملةَ مَقامَ ما تُؤدِّي إليه، على نهج القرآن في إقامة الشيء مقامَ رديفه وما يتعلَّق به، والمراد: لتعملوا به ولا تستمرُّوا على أحكام الجاهلية من جَعْلِ الظِّهار أمراً قاطعاً للنكاح بتاتاً لا رجعة

---

(١) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء البلخي ثم البصري المعروف بالأخفش الأوسط، (....- ٢١٥هـ)، نحوي عالم باللغة والأدب، له: «تفسير معاني القرآن»، و«شرح أبيات المعاني»، و«الاشتقاق». «الأعلام» (٣: ١٠١-١٠٢).

(٢) انظر «معاني القرآن» للأخفش (٢: ٥٣٧).

فيه. ووَجْهُ إقامة الإيمان بالله ورسوله مقام العمل بهذا الحكم: هو أنَّ هذا الإيمان يُؤدِّي إلى العمل بالأحكام التي يُنزلها الله على رسوله للناس، وإلى الإعراض عن مواضعات البشر فيها، وأحكامهم المغلوطة.

ثم ختم الكلام بما يحمل على التمسُّك بحكم الله هذا، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يجوز تَعَدِّيها، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين لا يعملون بها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾.

وهذا وعيدٌ عامٌّ للكافرين الذين لم يعملوا بحدود الله[1]، قرَّره بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يُعارِضونَ حدودَ الله في الظِّهار وغيره، ويتَّخذون لهم حدوداً من تلقاء أنفسهم، فيخالفون أمْرَ الله وأمْرَ رسوله المبلِّغ لهم في ذلك ويُعادونه ويُقاومونه ﴿كُبِتُوا۟﴾ أي: أُذِلُّوا وأُخزوا ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من مُشركي الأمم الماضية المعارضين لرسلهم والمعادين لهم[2]، ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: واضحاتٍ لا تَقبل المُعارَضة والجدل، ولا تضيق عن الفهم والعمل[3]، ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥﴾ في الدنيا، يذهب بعزِّهم وكِبْرهم، وعذابٌ في الآخرة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ إذ قد ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ عليهم ﴿وَنَسُوهُ﴾ لتهاونهم به، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ لا يغيبُ عنه أمرٌ من الأمور، ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

---

(١) المراد بهم ـ كما في السياق ـ: الذين استمرُّوا يقفون موقف العداء ضدَّ دين الله وضدَّ رسوله، في السِّرِّ من المنافقين.

(٢) المراد بهم: مَنْ كان قبلهم من أهل النفاق في أعقاب غزوة بني المصطلق.

(٣) أي: وقد أنزلنا بشأن الذين أُخْزوا من قبلهم آياتٍ واضحات في سورة (المنافقون) التي نزلت قبل سورة (المُجادلة)، والتي فضحتهم، وأبانت أنهم كاذبون، ولا يفقهون، ولا يعلمون، ولكنهم لم يتَّعظوا بما حصل لإخوانهم، ولا بالآيات البيِّنات الواضحات المُنزَّلات بشأنهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم استشهد على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فكلمةُ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعبير عن الأمر المتحقِّق بعبارة الظاهر المرئي إيذاناً بتأكيد تحقيقه، أي: ألم تعلم علماً يقيناً لا يقلُّ عن علم المُشاهَدة، أنَّ الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض.

ثم ذكر صورةً من عِلمِه تعالى تتعلَّق بأدق الكيفيَّات، ساوَقَ بها عِلمَه الذي جاء في مبدأ السورة عامة، وعن المنافقين المُحادِّين لله ورسوله، وجعلها تمهيداً لِـمَا بعدها، فقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ معيّةً تليق بذاته الكريم، منزّهةً عن التجسيم، مصحوبةً بعلمه العظيم، وكرسيِّه الكريم، يعلم ما يجري بينهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ ولو في أخفى مكان، فهو يحصي عليهم ذلك، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفضيحاً لهم، وإظهاراً لِـمَا

يوجب عذابهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾. وقد ذكر سبحانه هذه الصور النادرة؛ ليدخل فيها ما عداها بطريقة الأَوْلى.

وقد بيَّنوا للتصريح بذِكرِ الفرد دون الزوج في عدد المتشاورين وجهَيْن:

الأول: أنه إشارة إلى كمال الرحمة، وذلك لأنَّ الثلاثة إذا اجتمعوا، فإذا أخذ اثنان في التناجي والمشاورة بقي الواحد ضائعاً كئيباً، فلطَّفه سبحانه وقوَّاه، وكذلك الخمسة.

والثاني: لبيان أنَّ أرباب المشورة أياً كانت، لا بد أن يكون عددهم فرداً؛ ليكون الفرد كالوسيط والحاكم بين الأزواج المتناظرة، والله رقيبٌ عليهم، إذ التناجي يشمل المشورة.

والذي أراه أن إضافة الواحد إلى العدد يُناسبُه أن يكون العدد فرداً حتى يكون به زوجاً، والله أعلم، فالكلام موافقٌ للواقع والعادة وعرف التخاطب، ويجوز أن نجمع بين جميع الآراء.

والغَرَضُ من هذه الآية: تصويرُ دقَّة علم الله سبحانه واطلاعه على شؤون الخلق، تحذيراً وتخويفاً. وقد جعلها سبحانه تمهيداً للنهي عن النَّجْوى، وتعريضاً بحادثة وقعت وتكرَّرت من المنافقين واليهود، فإنهم كانوا يتناجَوْن فيما بينهم ويتغامزون إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم رسول الله ﷺ، ثم عادوا لمثل فِعلِهم، فأنَّبهم سبحانه وتوعَّدهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾، ويطلق «الإثم» على كلِّ ما فيه ضررٌ أو فواتُ منفعة، أي: يتناجَوْن بما فيه ضررٌ وكَيْدٌ وعدوانٌ للمؤمنين ومعصيةٌ للرسول، لأنه نهاهم فلم ينتهوا.

ثم ذكر لهم قبيحة أخرى، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يَلْوُونَ ألسنتَهم بها دسيسةً منهم أو معارضةً لتحيّتك، فيقولون: السام عليك، بتدليس اللام

وإخفائه، توريةً بالسموم، أو يقولون: أنعِمْ صباحاً، وهو غير ما وُضِعَ للمسلمين من تحية، ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: فيما بينهم: ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ أي: هلَّا يُعذِّبنا الله بهذا لو كان نبياً، بمعنى: لو كان محمدٌ رسولاً كما يدَّعي، فلِمَ لم يُعذِّبْنا الله بالاستخفاف به. فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿حَسۡبُهُمۡ﴾ عذاباً ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨﴾ أي: يكفيهم عذاباً إصلاؤهم في جهنَّم، فهي بئس المصير والقرار.

ثم أدّب المؤمنين بما فيهم ضُعَفاءُ الإيمان، ونهاهُم عن مثل ذلك، وأمرهم أن يفعلوا ضدَّه، على نهج القرآن في المقارنة بين النهي عن الشيء والأمر بضدِّه، تأكيداً للأمر وتعريضاً بالمنافقين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩﴾، وقد جاء البحث عن النَّجْوى بالبرِّ والتَّقوى في سورة النساء عند قوله: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ [النساء: ١١٤]، فارجع إليه.

وقد أكمَلَ هذا البحثَ ما جاءَ عنه ﷺ في أدب النَّجْوى، وهو قوله عليه السلام: «إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى يختلطوا بالناس، فإنَّ ذلك يُحزنه»[1]. وفي حكم التناجي: التحدُّث بلغة أجنبيّة، فالحكمُ هو الحكم، والإثمُ هو الإثم.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الباعثَ لهؤلاء المنافقين إلى هذه النَّجْوى وغَرَضَهم منها إنَّما هو إحزان المؤمنين، وأدمَجَ فيه تثبيتَهم تجاه ذلك والتهوين عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: إنما كانوا يتناجون هكذا بدافع من الشيطان، يدفعهم إليه، ﴿لِيَحۡزُنَ[2] ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من نَجْواهم؛ إذ يقع في قلوبهم أنهم يَتَناجَوْن بما بلغهم

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ﴿لِيَحۡزُنَ﴾ حَزَنه، يحزُنه، بوزن: قتله يقتله، أي: أدخل عليه الحزن.

عن أقربائهم الذين خرجوا إلى الغزوات من سُوءٍ، وربما كانوا يعقدون الحلقات الخفيَّة في وَضْع خُطط الكيد والفساد، فهوَّن سبحانه أمْرَهم، ووَهَّى كَيْدَهم بقوله: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، والاستثناء منقطع، وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

ثم ثبَّتهم بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: فلا يبالوا بنَجْواهم ولا يهتمُّوا به، فهم في رعاية الله وعنايته.

وبمناسبة كَوْن هذه النَّجوى تقع في مجلس رسول الله ﷺ، وربما كان المنافقون يُخِلُّون قَصْداً بآداب المجالسة، أكملَ سبحانه تأديبَ المؤمنين بآدابِ المُجالَسة، مُعَرّضاً بالمنافقين أيضاً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مجالسَكم في الجنة، ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي: انهضوا للتوسعة على المُقْبلين، ﴿فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ قال قتادة: كانوا يتنافسون في مجلس رسول الله ﷺ، فإذا رأوا مَنْ جاءَهم مُقبِلاً، ضنُّوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فمدحَهم سبحانه على حِرصِهم في العلم والتعلّم، وأمرهم أن يفسح بعضُهم لبعض، وأن يُوسِّع بعضهم لبعض، ووعدهم على ذلك برفع درجاتهم في الجنة، كلٌّ بنسبته[1].

وقيل: بل المراد من رفع درجات أهل العلم: بيانٌ لكيفيَّة قُربهم من رسول الله ﷺ، فقد أمره سبحانه أن يُقرِّب العلماء من فوق المؤمنين الذين ليسوا بعلماء؛ لأنَّ في تقريب العلماء نفعاً عظيماً للأمة بأسرها، إذ تكثُرُ استفادتهم ويُتقِنون معلوماتِه بقُربهم منه ﷺ، وينشرون ما يتعلَّمونه بين الناس على وجهه الصحيح.

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥: ٤٤).

ثم ختم هذا الأدب بما يحمل على التمسُّك به، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ١١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾.

ثم أدَّبهم بأدبٍ آخر وقتيٍّ في مجلس رسول الله ﷺ، اقتَضَتْه ظروفٌ مُوقَّتةٌ قاضيةٌ بتكثير الصَّدقات، أو بتخفيف المناجاة مع رسول الله ﷺ، وربما كان للمنافقين لجاج متقصَّد في السؤال، فأدَّبَ المؤمنينَ عموماً بهذا الأدب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ أي: فتصدَّقوا قبل أن تُناجوه. قال قَتادة: وكانت الصدقة مُفوَّضةً إليهم غير مُقدَّرة.

وفي هذا الأمر تعظيمُ الرسول ﷺ، وانتفاع الفقراء، والزَّجْر عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المؤمن والمنافق، ومُحبِّ الآخرة ومُحبِّ الدنيا، في أنَّ الأول يمتثل، والثاني لا يمتثل ويُراوغ. وهذا اختيارٌ وتدبيرٌ وقتيٌّ اقتَضَتْه الظروف. وقال بعض المفسِّرين: إن القضيَّة تُلهِمُ أن المسلمين كانوا يراجعون النبيَّ ﷺ في غير المجالس العامّة، لحلِّ مشاكلهم الخاصَّة، ومنهم مَنْ كان يطلب خَلْوةً أو مجلساً خاصاً لذلك كما يقتضيه مفهومُ ﴿نَٰجَيۡتُمُ﴾ و﴿نَجۡوَىٰكُمۡ﴾، وإن ذلك قد كَثُر، فاقتَضَت الحكمة أن يُفْرَض على الأغنياء منهم رَسْمٌ يُحصَّل لِيُصْرَفَ في أُمور المسلمين العامة.

واختلف في أنَّ هذا الأمر للندب مطلقاً، أو للوجوب ونسخ بقوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ...﴾، لأنَّ قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ يُشْعر بالندب، ويُشْعر بأنَّ المنافقين قد استغلُّوه وافتَرصوه، وقوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ يُشعر بالوجوب.

وقد قال مقاتل: بقي هذا التكليف عشرة أيام[١]، ثم رُفعَ بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟﴾ أي: لم تُناجوا خشية الصدقة، ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأنْ رَخَّص لكم أن لا تُقدِّموا بين يدي نجواكم صدقات. وفيه إشعارٌ بأن إشفاقهم من تقديم الصدقة ذنبٌ تجاوَزَ الله عنه، وأمَرَهم أن يقوموا بما يقوِّي إيمانهم، وقال: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدُّوها مُقامةً كاملة، وذلك بإشعار القلب بخشية الله فيها ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ ثم حثَّ على التمسُّك بذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

والخطاب في قوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ للمجموع باعتبار البعض، وذلك من خصائص اللغة، ويجوز أن يكون من هذا البعض: الفقراء وضعاف الإيمان والمنافقون، والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

ثم عادَ بالكلام إلى سَنَنِهِ السابق في المنافقين بجملتهم الذين أنَّبهم على نَجْواهم المُحْزِنِ للمؤمنين، فذكر لهم قبيحةً أُخرى هي أنكى من الأولى، وهي اتِّخاذهم اليهودَ أولياءَ يناصحونهم، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ويجتمعون معهم على مَساءتهم، فعَجَّب سبحانه منهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ أي: وَالَوْا ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ٨٤).

وهم اليهود. ثم نصَّ على نفاقهم فقال: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: ولا من اليهود، وإنما هم منافقون مُذَبْذَبون، لا يُـخْلِصون لكم ولايُـخْلِصون لهم، ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ[1] وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: يحلفون كذباً أنهم منكم لِيُرضوكم، وهم يعلمون نفاقهم في ذلك.

وهذا القيد لزيادة التشنيع عليهم، فإن الحَلِفَ على ما يُعلَمُ أنه كذب في غاية القبح. وفيه دلالةٌ على أنَّ الكذب يعمُّ ما يعلم المُخْبر عدمَ مطابقته للواقع وما لا يعلمه، والأول من أشنع الكذب وأخزاه، وهي اليمين الغموس تَـغْمس صاحبها في النار، أعاذنا الله.

ثم توعَّدهم بما سَجَّلَ عليهم بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وقد علَّل ذلك ونعى عليهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: إنما اكتسبوا هذا بسُوء أعمالهم وكفرهم وعنادهم.

ومن ذلك أنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: سُتْـرةً وتُرساً يدفعون بها التهمة عن أنفسهم إذا ظهرت منهم الريبة، ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم في مأمنٍ تحت هذا السَّتر من النفاق والأَيْمان الكاذبة، يقنعونكم بها أنهم منكم، ﴿فَلَهُمْ﴾ بذلك ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾، وهذا وعيدٌ ثانٍ بوصفٍ آخر لعذابهم.

ثم بالغ في توعُّدهم، فقال: ﴿لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، وفي هذا زيادةٌ لوعيدهم وتهكُّمٌ بهم على ما يعتزُّون به، وقَرَنه بالتسجيل عليهم بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) أي: يحلفون الأَيمانَ الكاذبة على موالاتكم، للإغراء بتصديقهم، فيجعلون الأَيمان أغطيةً على الكذب لسَتْر كونه كذباً، ولخداعِ المؤمنين بأنه صدق.

ثم ذكر ذلك اليوم الذي يُصيبهم فيه هذا العذاب، وهو اليوم الآخر، وحكى كيف يظنُّون أنَّ نفاقَهم يروج أيضاً فيحاولونه حينئذ، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ مع كافَّة الناس، ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في الدنيا أنهم مسلمون، وأنهم يعملون ما يعملُه المسلمون، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ﴾ بتلك المحاولة ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ كما كانوا عليه في الدنيا، يُروِّجون نفاقَهم بأيْمانهم، ويدفعون عن أموالهم وأرواحهم، أو يحسبون أنَّ ما كانوا عليه من الإيمان المزيَّف يفيدهم شيئاً، فأَنَّبَهُم وخَيَّبهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ أو الخائبون؛ من قولهم: كذب ظنُّه؛ إذا خاب أمَلُه. وإنما أكَّد الجملة بهذه المؤكِّدات المتعدِّدة المُقْتضية لحصْر الكذب فيهم، تهويلاً له، وإيذاناً بأن كلَّ كذب بالنسبة إليه ليس بشيء.

ثم بيَّن مصدر فعلهم هذا، فقال: ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ أي: استولى وتسلَّط ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ وعذابَه، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[1]، ثم أنَّبهم وسجَّل عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ في الدنيا بفشلهم وخَيْبتهم وذلِّهم وهوانهم، وفي الآخرة باستبدالهم النعيمَ المقيمَ بالعذاب الدائم الأليم.

ثم توعَّدهم بما جرى على أمثالهم من المُحادِّين في الأمم الماضية من الخذلان أمام المؤمنين ونَصْرهم عليهم، ذكر ذلك بهذا البيان العام، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: إنَّ الذين يعارضون حدود الله ويخالفون أوامرَه ويقاومون رسولَه هم من المغلوبين لا مَحَالة، حسب سنن الله تعالى في كونه؛ إذ قد

---

(١) أي: أولئك البُعداء عن رحمة الله، المنحطُّون في الدَّركات حزبُ الشيطان، لأنه هو قائدهم ومُوجِّههم، وواضع برامجهم، تلاقوا على مبادئ وعقائد وأهواء وأعمال جرَّهم الشيطان إلى سلوكها.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[1] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ لا يكون إلا ما يُقدِّر وما يريد بحسب سُنَنه، ولن تجد لسنَّة الله تبديلاً.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ثم حذَّر المؤمنين من موالاة هؤلاء المُحادِّين، ونَدَبَهم لمقاطعتهم بهذا العزم الأكيد في هذا النظام الشديد المُؤذِن بأنه يجب تحمُّل الصعوبات والمضار الشديدة في سبيل نَشْر الدعوة، وصاغ العبارة بصورة الخبر الواضح مبالغةً في تقريره، فقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: لا تجدُهم وادِّين أعدءَ الله ولو كانوا أقرب أقربائهم. والمعنى: لا تجتمع موالاتهم الكفارَ في الدين مع الإيمان، إذا كانت مولاةً تجرُّ إلى الضرر في الدين.

وقد جاءَت هذه الآية علاجاً لنفوس بعض المهاجرين الأوَّلين، وما اعترتهم من أزمات إزاء ذوي أرحامهم وبني قومهم من الكفار الذين انقلبت الصِّلات بينهم من المدَى، وتمهيداً لأخوّة جديدة تقوم على أساس مبادئ الدين الإسلامي.

---

(١) أي: قضى الله قَضاءً ثابتاً في اللوح المحفوظ، لأغْلبنَّ أنا ورُسلي، والمؤمنون الصَّادقون المتّبعون لرسلي، وهذه الغلبة تكون بظهور الحقِّ ظهوراً فكرياً بالحُجَّة والبرهان، أو بالتجربة العمليَّة، ومُمارسات الحياة التي تكشف أنَّ ما جاء من عند الله تعالى، وبلَّغه رسلُ الله عليهم السلام حقٌّ وصدقٌ، وفيه نفع وسعادةٌ للناس، وإما أنْ تكون الغَلَبةُ بظهور الحقِّ على الباطل ظهوراً فكرياً وعسكرياً معاً، فيكون لحَمَلَة رسالة الله في الأرض الظهور والفتح المبين، والسلطان والتمكين.

ثم أجرى الكلام على السَّنَنِ السابق، وقابل مصيرَ المُحادِّين وذلَّهم وخِذلانَهم، بمصير المؤمنين وعزِّهم ونُصرتهم عليهم، وفَوْزهم بسيادة الدنيا وسَعَادة الأخرى، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين لا يوادُّون مَنْ حادَّ الله ورسوله ولو كانوا أقربَ الناس إليهم وأمسَّ رَحِماً بهم: هم الذين ﴿كَتَبَ﴾ الله وأثبت ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[1] ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ وهو إنارة قلوبهم بنور القرآن، فبذلك قَوِيَ عزمُهم، ونُصِروا على أعدائهم المُحادِّين.

وقيل: بل الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ يعود إلى الإيمان، أي: بروح من الإيمان. والإيمان روحٌ للقلوب وحياةٌ لها.

وبعد أن بيَّن جَزاءَهم في الدنيا، ذكر جزاءَهم في الأخرى، فقال: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

ثم ذكر أعلى الجزاء الأُخروي الذي سينالونه، وهو رضوانُ الله الأكبر، فقال: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لما قاموا به من صالح الأعمال على الوَجْه الذي أراده سبحانه، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أعطاهم جزاءً لأعمالِهم ممّا «لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر». اللهمَّ اجعَلْنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم قابل نتيجةَ حزبيَّتهم بنتيجةِ حزبيَّةِ المنافقين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: الفائزون بسيادة الدنيا وسَعادة الآخرة.

* * *

(١) أي: دخل الإيمان في عُمق قلوبهم، حتى احتلَّ أعمق مراكز عواطفهم، فكتب الله كلمات الإيمان في قلوبهم بقضاء مُنْجز، فهي مؤمنةٌ مُوقنة مُخلصة.



مدنيّة، وهي أربع وعشرون آية

نزلت هذه السورة في غزوة بني النَّضير من يهود المدينة، وكانوا قد نقضوا عَهْدَهم مع النبي ﷺ، فأمرهم أن يخرجوا من المدينة فأبَوا، فحاصرهم المسلمون حتى رضوا أن يخرجوا من المدينة.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أما تسبيح العقلاء فباللسان والجنان، وأما تسبيح الحيوان والنبات والجماد فبدلالتها على عَظَمة الخالق، بما فيها من حكمة وإبداع يدلان على اختصاص المُبْدع سبحانه بالألوهيَّة[1]، وذلك هو معنى التسبيح[2]،

---

(١) الصحيح في اللغة أن يقال: الإلهية. لأنه مصدر صناعي.

(٢) بل الحيوان والنبات والجماد يُسبِّح لله تعالى عن معرفة به، وعن نُطق صادر عنها، وذلك حقٌّ وحقيقة، وليس من باب المجاز، أو دلالة الحال دون مقال، كما سبق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكما تقدَّم في قوله تعالى فيما أكرم به نبيَّ الله داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]. ثم إن العموم المفهوم من قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعمُّ جميع الكائنات؛ من حيوانات ونبات وجماد، فكلُّها تسبِّح لله تعالى حقيقةً على وجه مناسب لها.

وقد أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾، لأنَّ أثر القدرة والحكمة في مخلوقاته هو الذي دلَّ على توحيده وتنزيهه. وكذلك مهَّد بهذين الوصفَيْن لما يأتي من إخراج الكفار من ديارهم.

وقد ذكر المفسِّرون أن السورة نزلت في بني النَّضير، وهم طائفة من اليهود كانت محلّتُهم على مَقرُبة من قباء، وفرسخَيْن من المدينة، كان النبيُّ ﷺ صالحهم عندما دخل المدينة أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فلما غزا بدراً وظهر على المشركين، قال بنو النَّضير: والله إنه النبيُّ الأمِّيُّ الذي نجد نَعْتَه في التوراة، لا تُرَدُّ له راية. فلما غزا أُحُداً وهُزم المسلمون، ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، ونقضوا العهد، وخرج رئيسهم كعب بن الأشرف في أربعين راكباً منهم إلى مكة، فأتوا قريشاً فحالفوهم على أن تكون كلمتُهم واحدةً على محمد ﷺ، وعقدوا الميثاق بين أستار الكعبة.

ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة، فنزل جبريل عليه السلام، فأخبر النبيَّ ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، وأمره بقَتْل كعب بن الأشرف، فقتله محمدُ بنُ مَسْلَمة غيلة[1].

ثم توالت منهم الخيانات حتى طفح الكَيْل من دسائسهم ومكائدهم وإضرارهم بكيان المسلمين، وخشي النبيُّ ﷺ أن يكونوا خطراً عليه، فأرسل إليهم إنذاراً بالجلاء على أن يأخذوا أموالهم، ويقيموا وُكَلاء على بساتينهم ومزارعهم حتى تنتهي، ولكن المنافقين أرسلوا إليهم يُحرِّضونهم على الرفض، ويَعِدُونهم بالنصر والمعاونة، فتشجَّعوا

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «مَن لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله ﷺ؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا، فأتاه...»، رواه البخاري (٢٥١٠)، ومسلم (١٨٠١)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

وعَصَوْا، فلما كان من الغد صبَّحهم بالكتائب، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله ﷺ الصُّلح، فأبى عليهم إلا أن يخرجوا من المدينة على ما يأمرهم به، فقبلوا، فصالحهم على الجلاء، وعلى أنَّ لهم ما أقلَّت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فخرجوا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، إلا أهل بيتَيْن منهم: آل أبي الحقيق، وآل حُيِيِّ بنِ أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة بالحيرة[1].

وفي رواية: فصالحهم النبيُّ ﷺ على أن يخرجوا منها، ولكلِّ ثلاثةٍ منهم بعير، يحملون عليه ما شاؤوا من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره، واحتمل اليهود وعلى رأسهم حُيِيُّ بنُ أخطب، فنزل خيبر منهم مَنْ نزل، وسار آخرون إلى أذرعات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغانم كثيرة من غِلالٍ وسلاح وغيره.

ثم كان ممَّا خلَّفت اليهود من الأرض التي يملكونها خير ما غنم المسلمون، وذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النضير ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ أي: لأولِ ما وَصَلَهم حَشْرُك، ولم يقاوموا، أو لأوَّل حشر أخرج. والحشر: إخراج جَمْعٍ من مكان إلى مكان. ويجوز أن يُراد من أول الحشر: الحشر الذي وقع على اليهود زمن الرسول ﷺ، وآخر الحشر: إجلاء عمر رضي الله عنه يهود خيبر، ولم يبقَ يهوديّ في جزيرة العرب. فقد كان إجلاءُ بني قينقاع وبني النَّضير هو أولَ إجلاء أجلاه المسلمون لبعض من خافوا من شرِّهم من أعدائهم الذين بين ظهرانيهم، ثم أَجْلَوا إخوانهم من اليهود من خيبر وغيرها زمن عمر رضي الله عنه.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٤٩٨-٤٩٩). وقال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (٣: ٤٣٧- ٤٣٨): هو في «تفسير الثعلبي» هكذا من غير سند.

قال ابن إسحاق: كان إجلاءُ بني النَّضير مرجعَ النبي ﷺ من أُحُد، وفتحُ قريظة مرجعَه من الأحزاب، وبينهما سنتان، وقد كان إجلاءُ بني قينقاع مَرْجِعَ النبيِّ ﷺ من بدر، وجاء من أخبارهم في سورة آل عمران والمائدة أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ...﴾ بيانٌ لبعض آثار عزَّته وحكمته، إثرَ وَصْفه تعالى بالعزَّة القاهرة والحكمة البالغة في الآية السابقة، وضمير ﴿هُوَ﴾ راجع إليه تعالى بذلك العنوان.

ثم أكمل ذلك البيان بقوله: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشدَّة بأسهم ومَنَاعة حصونهم، ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ هم أيضاً ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من بأس الله، وذلك لكمال وثوقهم بحَصَانة حُصونهم واعتقادهم أنهم في عزَّة ومَنَعة، ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُه وقَدَرُه ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد أخْرَبَها المؤمنون من الخارج قبل الاستيلاء عليهم ومُصالحتهم على الجلاء، وذلك بحسب مُقْتضيات الحرب وفنونه، ودواعي الاستيلاء وشؤونه، وبعد أن صالحهم النبيُّ ﷺ على الجلاء، أخذوا هم أيضاً يُخْرِبون بيوتهم بأيديهم من الداخل، كي لا يبقى بعدهم فيها للمؤمنين ما يستحسن من المرافق والمشتملات.

وقال بعض المفسِّرين: ليس المعنى على الحقيقة، وإنما هو على المجاز، فقد أخربوا بيوتهم، أي: أوقعوا أنفسهم بالكارثة العظمى عندما نقضوا الموادَعة مع النبي ﷺ، وأخربوها بأيدي المؤمنين عندما تعرَّضوا لمقاتلتهم[1].

وقد حسَّس سبحانه إلى ما في ذلك من عبرة، وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ بما جرى عليهم من الأمور التي منها الجلاء.

---

(١) وهذا بعيد من حيث مخالفته لدلالة السياق، وهو مخالفٌ أيضاً لأخبار السيرة النبوية في هذه القصة، فالقول الأول هو المعتمد.

﴿وَ﴾ لكن ﴿لَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ﴾ هذا ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ عن أوطانهم بذلك الوَجْه الفظيع ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقَتْل والسَّبْي كما فعل ببني قريظة بعدهم، فأمر بقتلهم لخيانتهم العظمى، فقتلهم رسول الله ﷺ. هذا عذابهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ خالدين فيها أبداً.

ثم علَّل هذا الجزاء بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من المشاقَّة، بمعنى: المُخالفة والمُعاكَسة، إذ كانوا قد تَعاهَدوا مع النبيِّ ﷺ على أن لا يكونوا له ولا عليه، فلما انهزم المسلمون يوم أُحُد نكثوا أيْمانهم، وذهب قائدهم كعب بن الأشرف إلى مكة، وحالَفَ قريشاً على حرب رسول الله ﷺ، فقاتلهم الرسول وانتصر عليهم، وأجْلاهم إلى سورية كما تقدّم بيانه، ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾، وهذا حكمٌ ووعيدٌ معاً.

ولما أمر ﷺ بحربهم والسَّيْر إليهم، تَحَصَّنوا منه بالحصن، وحوله الأشجار الباسقة، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل وتحريقها، بمقتضى الأمور الحربيّة وشؤونها، ولكي لا يبقوا في شدَّة تعلّقهم بأموالهم يتحمَّسون للقتال، فجزعوا من ذلك فنادوا: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفحشاء، فما بالك تقطع النخل وتحرقها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ بمقتضى الفن الحربي، وهي النخلة الكريمة، ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما هي من غير أن تتعرَّضوا لها بشيء، إذ لا حاجة بقطعها، ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يُرخِّص لهم بذلك ليتمَّ استيلاؤهم عليهم بمقتضى القواعد الحربيّة، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[1] الذين خرجوا عن نور الفطرة وجلاء البصيرة وهدى الدِّين.

---

(١) ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾: معطوفة على محذوف تقديره: وليسرَّ المؤمنين ويُعزَّهم ويُخزيَ الفاسقين ويذلَّهم.

وبعد أن ذكر ما حَلَّ بهم من الجلاء وبيوتهم من الخراب، ذكر ما حلَّ بأموالهم؛ مُمْتناً بذلك الفيء على المؤمنين، فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ[١] عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ وهي الغنائم الحربيّة التي غَنِمتُموها منهم بما فيها ممتلكاتُهم وأراضيهم، ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾[٢] والوجيف: سرعة السَّيْر[٣]، والرِّكاب: ما يُركَبُ من الإبل[٤]، أي: فما أجريتُم عليه خَيْلاً ولا ركاباً، بمعنى: أنكم حَصَلتم عليه من دون مشقّة أو كُلفة، وذلك لأنَّ الله سبحانه فتح لنَبيِّه ﷺ في أول ما قاتلهم، فانخذلوا ولم يقاتلوا. حتى قال بعض المفسِّرين في تفسير قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾: أوَّل ما وَصَلَهم حَشْرُك، أي: مقاتلتك، بمعنى: إنك لم تجهد في فَتْحِهم الجهدَ الذي كان يُنتظر في فتح مثل حصونهم الحصينة، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ من أعدائهم تسليطاً خاصاً، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾.

قال ابن عباس: كان النبيُّ ﷺ حاصرهم حتى بلغ منهم كلَّ مبلغ، فأعطَوه ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم[٥].

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

---

(١) ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ...﴾ «ما» بمعنى الذي مبتدأ. وأصل معنى (أفاء): ردَّ وأرجع. والمراد هنا: أعطى وملَّك. ومنه (الفيء). وهو في الشرع: ما أخذ من أموال الكفار بدون قتال، بخلاف الغنيمة؛ فإنها ما أخذت بحرب وقتال. وتقدم حكم الغنيمة في الآية ٤١ من سورة الأنفال.

(٢) ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ...﴾ هذه الجملة خبر المبتدأ السابق، و(ما) هنا نافية.

(٣) من قولهم: «وجف الفرس، أو البعير إذا أسرع». وأوجفه صاحبه: أي جعله يسرع.

(٤) أصل الركاب اسم جمع لكلِّ ما يُركب، ولكنه غلب عند العرب على الإبل. ولا مفرد له من لفظه. وإنما يقال للفرد منه: (راحلة).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢: ٥٠٥).

فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾.

وبعد أن امتنَّ سبحانه عليهم بالفَيْء غنيمةً باردة، ذكَرَ حكم الفيء، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ والفيء هو: الغنائم الحربيّة التي يكسبونها بلا حرب من الأعداء، ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقد جَعَل الفيءَ كلَّه لهذه الأصناف، ولم يجعل منه شيئاً للمقاتلة؛ لأنهم لم يصرفوا فيه جُهداً، كما في الغنائم. وزاد في التعليل بقوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[1]، والدُّولة: المال المتداول والغنى المُفْرط، أي: لئلا يكون المال محصوراً في الأغنياء.

وهذا خطابٌ للمؤمنين دون الرسول، ولذلك أردَفَه بهذا الحكم العام المتناول للفيء أيضاً، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من الأحكام التي منها حكمُ هذا الفيء ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة الرسول؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ فيُعاقبُ مَنْ يخالف أمْرَه ونهيَه عقاباً شديداً. وهذه الآية حكمٌ عامٌّ يتناول بعمومه حكم الفيء. وقال الزهري: كانت غنائم بني النَّضير للنبيِّ ﷺ خالصةً، إذ لم يفتحوها عنوة، بل فتحوها على صلح، فقسمها النبيُّ ﷺ بين المهاجرين، ولم يُعْطِ الأنصارَ منها شيئاً إلا رجلين كانت بهما حاجة[2].

---

(١) وفيه إلماع لاستقباح الرأسمالية في الإسلام والاستقطاب المالي. (المؤلف).

(٢) وهما سهل بن حُنيف وأبو دجانة. وانظر «سيرة ابن هشام» (٢: ١٩٢)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٣: ١٤٨).

أقول: وذلك لإعادة التوازن الاقتصادي؛ لأن المهاجرين جاؤوا وقد سَلَب المشركون منهم أملاكهم وأموالهم، ولم يفعل مثل هذا في غنائم بدر، بل قسمها بالسَّويَّة؛ لأنها أُخذت حرباً، فقُسِّمت على سائر أفراد الجند المهاجرين والأنصار، وقَصْرُ هذا الفيء على المهاجرين الفقراء دون الأغنياء: هو معنى قوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾، واغتبط المهاجريون بما أصابوا من أرض اليهود، واغتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم، وتنفَّس الكلُّ الصُّعَداء.

وقد قيل في سبب نزول هذه الآية: إنَّ الصحابة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يقسم الفَيْءَ بينهم كما قسم الغنيمة، فذكر سبحانه الفرق بين الأمرين، وهو أنَّ الغنيمة قد أتعبتُم أنفسَكم في تحصيلها، وأوجَفْتُم عليها الخيل والركاب، بخلاف الفيء، فإنكم ما تحمَّلتم في تحصيله تعباً، فكان الأمر فيه مُفوَّضاً إلى الرسول، يضعه حيث يشاء من هؤلاء الأصناف الذين ذكرهم الله سبحانه، مُشيراً إلى وجه استحقاقهم ذلك بقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ حيث اضطَرَّهم كفار مكة وأخرجوهم منها، أي: أحرجوهم إلى الخروج، فخرجوا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ومَرْضاةً في الآخرة.

فوصفوا أولاً بما يستفزّ الشعور نَحْوَهم، ويدلُّ على استحقاقهم للفيء دون غيرهم، ووُصفوا ثانياً بما يُؤْذن بسلامة بصيرتهم، وأكمَلَه بما يوجب تفخيم شأنهم، فقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بهذا الخروج، أي: ناوين ذلك، فسجَّل لهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾، وهذا تمكينٌ لوصفهم الذي استحقّوا به الفيء دون سواهم.

وبعد أن ذكر المُسْتَحقِّين من المهاجرين، ذكر المُسْتَحقِّين من الأنصار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ[1] مِن قَبْلِهِمْ﴾ والتبوُّء: الحلول والإقامة في المكان، وفي

(١) مفعول لفعل محذوف مقدَّر يُناسبه، معطوف على ﴿تَبَوَّءُو﴾. نحو: والتزموا الإيمان ورَضوه.

جَعْل الإيمان مُتبوّأً مجازٌ بديع، من البلاغة العالية. أي: وللفقراء من سكان المدينة الذين آمنوا من قبل هجرة المهاجرين نَحْوَهم، ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ رغبةً بإيمانهم، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: لا يجدون في نفسهم حسداً وحزازةً وغيظاً مما أُعطِيَ المهاجرون دونهم من الفيء وغيره، ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: بل يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم فقرٌ وحاجة.

وقد مدحهم على ذلك ووعدهم بقوله: ﴿وَمَن يُوقَ[1] شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾[2] حتى يخالفها فيما يَغْلب عليها من حُبِّ المال حباً جماً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ أي: الفائزون بسيادة الدنيا وسعادة الآخرة. والإيثارُ له أكبرُ الأثر في توثيق المحبة بين أفراد المجتمع، يجعلهم متعاطفين، يَذُودُ بعضهم عن بعض، ومن أهمِّ مكتشفات علم النفس الحديث: أنَّ سعادة الإنسان إنما تكون بهذا الإيثار، وتضحية النفس في سبيل الغير.

وهذه الآية تدلُّ على عمق التربية التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه، فالإيثار من جملة الفضائل الإنسانية التي انطوى عليها القرآن، ودَعا الناسَ إليها، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «ما شبع رسولُ الله ﷺ ثلاثةَ أيام متوالية حتى فارق الدنيا، ولو شئنا لشبعنا، ولكن كنا نؤثر على أنفسنا»[3].

وبعد أن ذكر المُسْتَحقِّين من المهاجرين والأنصار، ذكر المُسْتَحقِّين من التابعين

---

(١) ﴿يُوقَ﴾: يَقيه الله بسببِ تقواه.

(٢) ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشحّ صفةٌ للنفسِ تَحمِلُها على شدَّة الحرص على المال. وأما البخل فهو الامتناع عن الإنفاق، فهو أثرٌ من آثار الشح.

(٣) ذكره العراقي في «تخريج الإحياء» ص١١٦٣، وابن حجر في «فتح الباري» (١١: ٢٨٠)، وعزاه إلى البيهقي في «شعب الإيمان»، والذي وقفتُ عليه في «الشعب» (١٣٩٦): «لو شئنا أن نشبعَ شَبِعْنا، ولكن محمداً ﷺ كان يؤثر على نفسه». وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (٢٩٧٠) بلفظ: «ما شبع آلُ محمد ﷺ من خبزِ بُرٍّ فوق ثلاث».

الأخيار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾[1] أي: وللفقراء من هؤلاء. وقد مَدَحهم بمحبتهم لمن تقدَّمهم من المؤمنين، ومراعاتهم لحقوق الأخوّة في الدين، والسَّبْق بالإيمان.

ويجوز أن يُراد بـ«الذين جاؤوا»: الذين هاجروا بعد أن قَوِيَ الإسلام، وجاؤوا من أنفسهم دون أن يُحرِجَهم المشركون على الخروج. وقد قال الرازي: هذه الآية تعمُّ المؤمنين إلى يوم القيامة، وتُنْبِئ بأن مَنْ يذكر منهم سَلَفَه الصالح بسوء، يكون خارجاً عن جملة أقسام المؤمنين التي استوعبتها هذه الآيات[2].

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢ لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾.

وبعد أن بيَّن شأن المهاجرين والأنصار، والتابعين الأخيار، أخذ يُبيِّن شأن

---

(١) تقدَّم الفرق بين الرأفة والرحمة في الآية ٩ من سورة الحديد.

(٢) ينظر «تفسير الرازي» (٢٩: ٥٠٩).

المنافقين الذي دسُّوا إلى بني النَّضير أنْ لا تخرجوا من حصونكم، وإن قاتلكم محمدٌ فنحن معكم ولا نَخْذلكم، ولئن أُخْرِجتُم لَنَخرُجَنَّ معكم، فذكر ذلك سبحانه وتعالى مُوهياً لأمرهم ومُكذِّباً لهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهم بنو النَّضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في مقاتلتكم وخذلانكم ﴿أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، فكذَّبهم سبحانه بأشدِّ صورة من التكذيب، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ في مواعيدهم هذه المؤكَّدة بالأيْمان الفاجرة.

ثم فصَّل ذلك التكذيب بقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ يُكذِّبهم في الأمرين معاً بصورة مؤكّدة، ثم يزيد على ذلك بهذا البيان المبنيِّ على الفرض، فيقول: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ لائذينَ بالفِرار، ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ بعد ذلك أبداً، بل يُهلِكُهم الله جميعاً.

ثم علَّل هذا الخذلان بما يفيده قوله: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً[1] فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يُصوِّر شدَّة خوفهم وهَلَعهم منهم، ويُعلِّله بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا يعلمون عَظَمةَ الله حتى يَخْشَوه حقَّ خشيته، وينصروه ولا ينصروا عليه.

ثم فصَّل حالهم في شدَّة خوفهم وتفرُّق كلمتهم بقوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اليهود والمنافقون، ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ دون أن يَظهَروا لكم ويُبارزوكم، لفَرْط رهبتهم منكم.

---

(١) ﴿أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ المراد من ﴿رَهْبَةً﴾ هنا: مرهوبيَّة، أي: خوفاً ناتجاً عن إرهابكم لهم. والمراد: أنَّ خوفهم منكم أشد منخوفهم من الله. وهذا منتهى الجهل والجبن.

ثم بَيَّن مصدر ذلك فيهم وسببه بقوله: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بعضُهم عدوٌّ لبعض في الباطن، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ لا إلفة بينها. وقد علَّل هذا بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ قد فقدوا استِعدادَهم لمعرفة الأمور على وجهها الصحيح بإفسادهم لطبائعهم، وطَمْس نور بصائرهم.

ثم ضرب مثلاً لِخذلانِهم ـ المبنيِّ على فَرْض نُصرتهم لهم ـ بخذلان المشركين في بدر، الذين ذاقوا وبال أمرهم بأيدي المؤمنين، قبل سنة تقريباً من هذه الحادثة، رغماً عن نصرة كثير من القبائل لهم، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾، وقيل: بل المراد بهم بنو قينقاع، نقضوا العهد مَرْجعَ رسول الله ﷺ من بدر، فأمرهم أن يخرجوا. فهذا المَثَلُ يعقد المشابهة بينهم وبين بني النَّضير في الإخراج.

ثم ضَرَبَ مثلاً آخر لوعد المنافقين لليهود بنَصْرهم وإخلافه بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[1]، وهذا كذلك يُمثِّل حالةَ اليهود أيضاً في اغترارهم بمقالة المنافقين أولاً، وخيبتهم آخراً.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ أي: فكان عاقبةُ الشيطان ومَنْ كفر من الإنسان، وقال مقاتل: أي: فكان عاقبةُ المنافقين واليهود مِثلَ عاقبة الشيطان

---

(١) الخوف من الله خوفان: محمود ومذموم. فالمحمود: هو المقرون بالطاعة، مثل: خوف الأتقياء والأبرار. والمذموم: هو المقرون بالمعصية، مثل: خوف إبليس هذا، وخوف المخالفين لأوامر الله وهم يعلمون. فالأول: خوف يكفُّ عن المآثم ويحفظ منها. والثاني: خوف ممَّا ينتظر من العقاب لوقوعهم فيها. وبين الخوفين بَوْن بعيد. (المؤلف).

والإنسان الكافر، حيث صار إلى النار[1]، ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾، وهكذا انتهى من بيان شأن المنافقين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم ختم السياق بوعظ عموم المؤمنين بعمل الصالحات واجتناب الموبقات، والاعتبار بهؤلاء؛ ليسلموا من الشقاء، وينالوا السعادة والهناء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما يأمركم به من الواجبات فأدُّوها على الوجه المطلوب، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ من الأعمال التي تُنالُ بها السعادة والفلاح، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما ينهاكم عنه، ولا تعملوا من الأعمال ما تنالون به الوبال والشقاء ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ فيُجازيكم عليه.

ثم عرَّض بمن تَقَدَّم البيانُ عنهم، وجعله وَجْهاً للربط، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ يوم القيامة، بما يَرَوْنه من الأهوال، أو المعنى: أنَّ نسيانهم لله المؤدِّي إلى الهلاك، هو نسيانٌ لحقوق أنفسهم عليهم، يؤنِّبهم على ذلك. وقد أقام مقامَ التعليل قولَه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: الخارجون عن حدود الله في أوامره ونواهيه.

ثم بيَّن مصيرَ الفريقين بأسلوب متناسق مع السياق ومُساوق له، فقال: ﴿لَا

---

(١) انظر: «الوسيط» للواحدي (٤: ٢٧٧)، و«مفاتيح الغيب» للرازي (٢٩: ٥١١).

﴿يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1] أي: بالسعادة والهناء.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أردف هذا البيان بالتصوير والتمثيل لِعَظَمة القرآن المبيِّن لهذا الشأن، حَمْلاً للنفوس على التمسُّك به، وتأنيباً وتسخيفاً لأولئك المنافقين والكافرين الذين لم يؤمنوا به على شدَّة تأثيره في النفوس، ووضوح براهينه في العقول، وقوة رهبته على الشعور. وذكر ذلك على طريقة المبالغة وبصورة التمثيل، فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ لما فيه من هذه العِبَرِ والزواجر، ومعرفة عَظَمة الله واليوم الآخر. وفيه تعجيبٌ لحال أُولئك المنافقين والكافرين المُعْرِضين عنه مع ما فيه من قوَّة التأثير ووضوح الحُجَج[2].

---

(١) معنى الآية كما في تفسيري «المعين»: لا يستوي في القيمة والمنزلة والعاقبة أصحابُ النَّار الملازمون لها، المخالطون لألوان عذابها الدائم، وأصحابُ الجنَّة الملازمون لها، المخالطون لألوان نعيمها المقيم؛ أصحابُ الجنَّة هم الظافرون بمرادهم من الخير والنعيم.

(٢) ولما في القرآن أيضاً من قوةِ تأثيرٍ جعلها الله فيه؛ لأنَّ القرآن كلام الله عزَّ وجل، وهو نورٌ من نور الله، ونورُ الله إذا توجَّه لشيءٍ ما في الوجود سواءٌ كان حيّاً أو جماداً، خشع وتفجّرت منه الخشية، ولكن ليس كلُّ تالٍ للقرآن يُصاحبُ تلاوتَه نورُ القرآن الربَّاني، ذلك لأنَّ نورَ القرآن =

ثم قرن البيان بما فيه مبالغةٌ في الحثِّ والإغراء، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ في مستقبلهم ومصيرهم، وما يُراد بهم، وعظمة ما نزل إليهم، وفداحة إعراضهم وتولِّيهم عنه، ولكنهم لكفرهم لا يعقلون.

ثم أتبع ذلك ببيان عَظَمة الله؛ لإثارة الشعور بالحذر منه تعالى، ومن مخالفة أحكامه وإهمال إرشادِهِ ومعارضة رُسُلِه، ذاكراً صفاتِه تعالى في الألوهية واختصاصها به، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب وما حضر، وما خفي وما ظهر، ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ والأُولى من صفات الذات، والثانية من صفات الأفعال.

ثم كرَّر هذه الجملة؛ لإظهار الاعتناء بأمر التوحيد، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ثم ذكر الصفاتِ الدالَّةَ على ذلك، فقال: ﴿ٱلْمَلِكُ[1] ٱلْقُدُّوسُ﴾[2] وهي صيغةُ مبالغةٍ في التقديس والتنزيه، وكذلك قوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ فإنه مصدر أُريد به الوَصْفُ مبالغةً، أي: السالم من كلِّ نقص، أو بمعنى: إنه مُفيضُ السلام على الأنام، وهو ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ أي: واهب الأمن بين هذه العوالم، مِنْ: آمَنَهُ؛ بمعنى: أَمَّنَه، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي: المسيطر على كلِّ شيء، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يَغْلبه شيء، ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾[3] وهما صفتا مبالغةٍ في العَظَمة والكبرياء.

= يتفجَّر على مقْدار إيمان التالي لآياتِهِ، ومقدار قوَّة اتِّصاله بخالقه. وحين يقرأ القرآن إنسانٌ كافر بالله واليوم الآخر، لا يتفجَّر من نور القرآن لديْه شيء، ويكون عديم الأثر.

(١) الملك: المُتَصرِّفُ بالأمر والنَّهي في جميع خلقه، المالك لهم، فهم تحت ملكه وقهره وإرادته.

(٢) القدوس: الطاهر عن كلِّ عَيْب، المُنزَّه عمَّا لا يليق بجلاله، وعظمة سلطانه، وكمال أسمائه الحُسْنى، وصفاته العليا، وكمال أفعاله وتصرفاته، والمنزَّه عن أن يدركه حسٌّ، أو يحيط به عقل.

(٣) الجبار: العظيم الشأن في القدرة والسلطان، إذا أراد شيئاً فعله بالجَبْر، ضدَّ أية قوةٍ لها إرادةٌ =

وبعد أن ذكر صفاته العُليا التي لا يُشاركه فيها شيء، نَزَّهَه عن الإشراك، مُؤَنِّباً المشركين، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ به مَنْ لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون.

ثم تابع الوصف فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، ومعنى الخالق: المُقدِّرُ للأشياء على مقتضى الحكمة البالغة، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، والبارئ: المُوجِدُ لها، والمُصوِّر: المُوجِدُ لصُوَرِها وكيفياتها. وخصَّها بالذِّكر مع أنها داخلة في الإيجاد، تنويهاً بشأنها.

ثم أجمل السياق بقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الصفات الدالة على الأعمال العظيمة والآثار الجليلة المُخصِّصة للألوهيَّة به تعالى، وهو معنى قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إذ كلُّها تدلُّ دلالةً واضحة على تنزيهه سبحانه، وانفراده في إيجاده لذلك الشيء، واستحقاقه وحده أن يكون الإله المعبود؛ لأنَّ ما في صُنعها من حكمةٍ وإبداعٍ وإتقانٍ وسَدادٍ يدلُّ على أُلوهيَّة الخالق واختصاصه بها[1]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ فإذا أمهل المشركين به واصطَبَر عليهم، فإنَّما يُمهِلُهم بعزَّته وحكمته، ولا يعلم مَدَارِكَ حكمته البالغة إلا هو. وقد ضمَّن ﴿يُسَبِّحُ﴾ معنى: ينقاد، وعدَّاه تعديته.

* * *

= معارضة من خلقه، كثير الإصلاح للأشياء مع القهر، المتكبِّر: المتعظِّم الذي له جميع صفاتِ العلوِّ والعظمة، المُثبت لنفسه أنه أكبر من كل كبير إثباتاً مُؤَكّداً.

(١) هذا تسبيح بلسان الحال، ولها تسبيح آخر، وهو تسبيح حقيقي على وجه يناسبها، والآية تعمُّ النوعين من التسبيح. وانظر ما تقدَّم من التعليق على الآية الأولى من هذه السورة.



بكسر الحاء وفَتْحها، فمن كسر أضاف الفعل إلى السورة، ومن فتح أضاف السورة إلى المرأة التي نزلت فيها، والفَتْحُ أشهر.

والسورة مدنية، وهي ثلاث عشرة آية.

وموضوعها:

بيان صلح الحديبية على حقيقته، وكونه لا يزيد على أنه هُدْنة حربيَّة، ولم يَقْضِ على ما بين الفريقين من عداء، وإنما كان اتفاقاً على وَضْع الحرب بينهم مُدَّة معيَّنة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، لـمّا علم أنَّ رسول الله ﷺ يغزو أهل مكة، كتب إليهم: إنَّ رسول الله ﷺ يريدكم، وأرسل كتابه مع سارة مولاة بني المطلب، فنزل جبريل عليه السلام، وأعلم رسول الله ﷺ، فبعث علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخ[1]، فإنَّ بها ظعينة معها كتابُ حاطب إلى أهل مكة، فخذوه منها وخلُّوها، فإن أبت فاضربوا عُنُقَها»، فأدرَكوها ثَمَّةَ، فجَحَدت، فسَلَّ عليٌّ رضي الله عنه السيف، فأخرَجَه من عقاصها، فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً، وقال: «ما حملك عليه»؟ فقال: «يا رسول الله، ما كفرتُ منذ أسلمت، ولا غَشَشْتُك منذ نصحتُك، ولكن كنت امرأً

(١) موضع بين الحرمين، ويقال له روضة خاخ بقرب حمراء الأسد من المدينة. «معجم البلدان» (٢: ٣٣٥).

مُلصقاً في قريش، وليس لي فيهم من يحمي أهلي، فأردتُ أن آخُذَ عندهم يداً، وقد علمت أنَّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً[١]. فصدَّقه رسول الله ﷺ، وقبل عذره[٢]. فنزلت هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: تُوصِلون إليهم المودة. ويجوز أن تكون الجملة على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النحل: ٨٦]. وإلقاءُ القول: تمكينُه في النفس. وعلى هذا تكون الباءُ زائدةً للتأكيد. ويجوز أن يكون المعنى: تُلقون إليهم أخبار النبيِّ ﷺ بسبب المودَّة التي بينكم وبينهم، ﴿وَ﴾ الحالُ ﴿قَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ و﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة، وعبَّر عن الإخراج بصيغة المضارع دون الماضي؛ لإحضار صورة هذا العمل الفظيع في الذهن، زيادةً في استفزاز الشعور.

ثم علَّل ذلك الإخراجَ بما في طيَّاته زيادةُ تشنيع عليهم، فقال: ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الذي خلقهم وخلقكم، أي: لم يكن السببُ إلا هذا الأمرَ الحقَّ والعملَ البارَّ.

ثم قرن النَّهيَ عن هذا الاتِّخاذ بما فيه زيادةُ إغراءٍ وحضٍّ على تجنُّب هذا الفعل، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾؛ لأنَّ الله سبحانه لا يقبل عملاً يشترك فيه مع غيره وإن قلّ. فهذا شرطٌ محذوفُ الجواب؛ لدلالة ما قبله عليه. ومُلخَّصُه: لا تتولَّوا أعدائي إن كنتُم أوليائي.

ثم استأنف الكلام على نهج العتاب والتوبيخ والتحذير، فقال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾، ثم بالغ في التحذير والتأنيب، فقال: ﴿وَمَن

---

(١) لا تخلو النفس ـ وإن كانت عالية ـ من جوانب ضعف تطغى عليها أحياناً، وتهوي بها إلى ما لا ترضاه. (المؤلف).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ أي: فقد أخطأ طريقَ الحقِّ والصِّراطَ المستقيم، لِـمَا في ذلك من خطر على كيان المسلمين.

فالآياتُ تنهى عن اتِّخاذ هؤلاء الأعداء أولياء، ومُبادلتهم المودَّة ولو كانوا ذَوي أرحام وقُربى، لِـمَا في ذلك من الخطر والضرر العظيمَيْن على كيان المسلمين.

ثم أوقَفَهم على عِظَمِ عداوتهم لهم ليستفزَّ شعورهم، فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: إن يظفروا بكم تجدوا منهم غاية العدوان، ﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ من القَتْل والشتم، ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ أي: يتمنَّون ارتدادَكم إلى الكفر والضلال.

ومُلخَّص الكلام: أنَّ أعداء الله لا يُخْلِصون المودَّة لأولياء الله؛ لِـمَا بينهم من المباينة البعيدة، فلا يفيدكم التقرُّب منهم.

ثم أضاف إلى ذلك وَجْهاً آخر في النقد والتزييف، وهو أنَّ أهليكم الذين تُوالونهم أو تأخذونَ لهم يَداً عند المشركين، وتَتقرَّبون إليهم حمايةً لهم، لا ينفعوكم شيئاً يوم القيامة، فقال: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ أي: قراباتكم، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين تُوالونهم أو تُوالونَ المشركين لأجلهم.

وقد أقامَ مقامَ التعليل لهذا النفي قولَه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يُفرِّق الله يومئذ بينكم لاختلاف مصير المؤمنين والكافرين، أو بما يعتريكم من الهَوْل المُوجِبِ لفرار كلٍّ منكم عن الآخر، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٥]، وعلى المعنى الثاني تكون الآيةُ من ذِكرِ العام الذي يشمل ما قبله وغيرَه، على نهج القرآن في مثل ذلك. وعلى كلٍّ يكون المعنى: فما لكم ترفضون حقَّ الله تعالى لمراعاة مَنْ هذا شأنُه معكم يوم القيامة، ولا تراعون هَوْلَ ذلك اليوم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ لا يخفى عليه من أمركم خافية.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

ثم بيَّن ما كان يجب أن يُتَّبعَ من التأسِّي بإبراهيم عليه السلام وأصحابه الذين تبرَّؤوا من مُوالاة أقربائهم الكفار رعايةً لحقِّ الله، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بعبادتكم، ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم، لا نتركُه ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

ثم استثنى من تلك الأسوة الحسنة التي حملهم على التأسِّي بها استغفارَ إبراهيم لأبيه الكافر؛ لبيان أنَّ ذلك لا ينبغي، فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فليس في طاقتي إلا الاستغفار، ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ يقول ذلك إظهاراً للعَجْز، وتفويضاً للأمر إلى الله، ولم يكن ذلك منه ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أنه سيؤمن ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بموته على الكفر ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وبعد هذا الاستثناء عاد إلى سَنَنِ الكلام، فأكمل حكاية قول إبراهيم وأصحابه لقومهم في التبرُّؤ منهم رعايةً لحقِّ الله، وبيَّن أنهم بعد أن جاهروهم بالعداوة والمعارضة التجؤوا إلى الله، فقال: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لفظ «الفتنة» هاهنا يجوز أن يكون بمعنى الفاتن والمفتون، ومعناه على

الأول: لا تَفتِنْهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً بظهورهم علينا، حيث يظنُّون أنهم على الحق، ولذلك ظهروا علينا. وعلى الثاني: لا تفتنّا بهم فنَضعُفَ في اتِّباع نبيِّنا أو نتولَّى عنه، فراراً من شدَّة ظلمهم لنا وقهرهم وإيذائهم، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾ ما فَرَط منا من الذنوب، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾ أي: الذي لا يذلُّ مَن التجأ إليه، ولا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة. وتكرير النداءُ للمبالغة في التضرُّع.

ثم كرَّر الحَمْل على التأسِّي بهم، وضمَّنه ما فيه مبالغةً في الحثِّ عليه، فقال: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ثم ضاعف الحثَّ فأبدَلَ مِن كلمة ﴿لَكُمۡ﴾ قولَه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[1] إيذاناً بأنه لا ينبغي للمؤمن أن يترك التأسِّي بهم في ذلك.

ثم ختم البيان بما يدلُّ على عَوْدة نفع ذلك إليهم، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦﴾ أي: لا حاجة له إلى طاعةِ أحد، ولكنها تنفع الطائع.

ثم بيَّن الحكمة من نهيه لهم عن مُوالاة أقاربهم المشركين، بأنَّ إعراضكم عنهم مَدْعاةٌ لِـمَيْلهم إليكم ودخولهم في دينكم، وجَعَل ذلك وعداً لهم يُطيِّب قلوبهم في تلك المقاطعة ويُبرِّرها، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةً﴾ بأن يوافقوكم في الدين.

وقد أنجَزَ سبحانه وتعالى هذا الوعد الكريم حين أتاح لهم الفتح، فأسلم هؤلاء المشركون، وتمَّ بينهم من التحابِّ والتصافي ما تمّ، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كلِّ شيء، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ فيغفر لمن أسلم من المشركين ماضيَ ذنوبِهم ويرحمهم، ويعفُو عمَّا فرط منكم في موالاتهم قبل النهي.

---

(١) أي: لمن يُؤمِّل مترقِّباً ثواب الله، ويطمع بالسَّعادة الخالدة يوم الدين، ويخاف من العقاب فيه، ومَنْ يتولَّ مُدبراً عن الإيمان، ويُوالِ الكفار.

وهذه الآية تُلهِمُ ما كان يختلج في نفوس المهاجرين من تمنِّيهم أن ينتهي العداءُ القائم بين المسلمين ومُشركي مكة أقربائهم، بهدايتهم إلى الإسلام.

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وبعد أن نهاهم عن موالاة الكفار رخَّص في صِلَةِ الذين لم يقاتلوهم منهم، فقال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ[1] وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ[2] إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ فهذا كالاستثناء من ذلك الحكم. والآيةُ تُؤْذِنُ بأنَّ المقاطعة والعداوة إنما هي للمقابلة والدفاع، كما تُؤْذِنُ بجواز مُوالاة غير المسلمين في الحالات الاعتياديّة، إذا لم يُضْمِروا لنا السُّوء، وقد راعى المسلمون هذه القاعدة فلم يتدنَّس تاريخُهم بمثل الذبائح التي حَدَثَت في أُوربا على المسلمين باسم الدِّين.

وتُلهِمُ هذه الآيةُ أنه كان في مكة أيضاً طبقةٌ من المشركين لم يشتدّوا في عداوة النبيِّ ﷺ والمسلمين، ولم يشتركوا مع غيرهم في التآمر والأذى، ولم يظاهروا عليهم، وتُبيح للمسلمين أن يَبرُّوا ويُقسِطوا إلى ذوي النيَّات الحسنة والمواقف السليمة من غير المسلمين.

ثم أردَفَ هذا البيانَ ببيان وَصْف الذين ينهاهم عن صِلَتِهم؛ تقريراً له، وتأكيداً

---

(١) ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ أي: عن برِّهم، والبرّ هو التوسُّع في فعل كل خير، وإدخال السرور على الغير.

(٢) تعاملوهم بالعدل، أو: تعطوهم قسطاً من أموالكم على سبيل البرِّ بهم، فيكون من عطف الخاص على العام. ومَن رجَّح هذا المعنى للقسط قال: القسط بمعنى العدل ليس مراداً هنا؛ لأنه واجبٌ للصديق والعدوّ.

للنهي السابق، على نهج القرآن في أساليبه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: عاونوا العُتاة على ذلك وناصروهم، فهو ينهاكم عن مثل هؤلاء ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي: تتَّخذوهم أولياء، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ فهذه الآية تُشَدِّد الحَظْر على الولاءِ لذوي النيَّات السيِّئة والمواقف العدوانيّة نحو الإسلام والمسلمين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حكمَ الكافر المُحارِب وحكمَ الكافر المسالِم، ذكر حكمَ مَنْ يأتي مُظْهِراً للإيمان، وخصَّ الامتحان في هذا الإظهار بالنساء؛ لأنهنَّ مظنَّة التدليس في ذلك لمآربَ يُضمِرْنَها، ولذلك اقتصر على ذِكرِهنَّ دون الرجال من صنفهنَّ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى يتحقَّق أنهنَّ لم يَخرُجْنَ إلا لله ورسوله، لا لأمرٍ من أُمور الدنيا، ومأرب من مآربها[1].

---

(١) أي: هذا الامتحان لتعلموا صدقَ إيمانهنّ، بغلبةِ الظنِّ التي تُرجّح أنهنَّ مؤمنات، والله أعلم بحقيقة إيمانهنّ؛ لأنَّ حقيقةَ الإيمان كامنةٌ في القلوبِ لا يَعلمها إلا الله، والدلائل التي تدلُّ =

ثم أتى بهذه الجملة المعترضة كتعليلٍ بمضمونها لهذا الامتحان، فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ فقد يكون إظهارُ الإيمان لمأرب دنيوي. ثم أتمَّ الحكم بقوله: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ إذ ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

ثم بيَّن ما يجبُ دفعُه لأزواجهم الكفار من المال، فقال: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ أي: آتوا أزواجَهنَّ ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾ عليهنَّ من المهور.

ثم بيَّن صحَّة نكاحِهن بشرطه، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإنَّ إسلامَهنَّ حالَ بينهنَّ وبين أزواجهنَّ الكفار، فيجوز أن تنكحوهنَّ ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورَهنَّ. فشَرَطَ إيتاءَ المهر في نكاحهنّ؛ إيذاناً بأن ما أعطي أزواجُهنَّ عوضاً عنهنَّ لا يقوم مقام المهر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: صالحَ رسولُ الله ﷺ بالحديبية مشركي مكة على أنَّ منْ أتاه من أهل مكة ردَّه عليهم، ومَنْ أتى أهلَ مكة من أصحاب رسول الله ﷺ فهو لهم ولم يردّوه عليه، وكتبوا بذلك كتاباً وختموا عليه، فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلميَّة مسلمةً بعد الفراغ من الكتاب، والنَّبيُّ ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجُها، فقال: يا محمد، رُدَّ عليَّ امرأتي، فإنك شرطتَ لنا أن تردَّ علينا من أتاك منا، فنزلت هذه الآية، فأعطى رسول الله ﷺ زوجَها مهرَها ولم يردَّها عليه، فتزوَّجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]. فكان رسول الله ﷺ يردُّ مَنْ جاءَه من الرجال، ويحبس مَنْ جاءَه من النساء إذا امتُحِنَّ، ويُعطي أزواجَهنّ مهورَهنَّ عملاً بالآية.

= على الإيمان بالنسبة إلى الناس لا تَعْدو أن تكون ظواهر مُرجِّحة، وقد يكون المكنون في القلوب على خلاف ذلك، ومع هذا فقد جعلَ الله نتائجَ هذا الإيمان التي لا تصل إلى مرتبة اليقين، وإنما تصلُ إلى مرتبة الظن الراجح، نوعاً من العلم؛ الذي يصحُّ الاعتماد عليه والاستفادة منه.

(١) «تفسير القرطبي» (١٨: ٦١).

وقال الجُبّائي في توضيح ذلك: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا ردُّ الرجال دون النساء، ولم يَجْرِ للنساء ذِكر، وإنَّ أُم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط جاءَت مسلمةً مهاجرةً من مكة، فجاء أخواها إلى المدينة، فسألا رسول الله ﷺ ردَّها عليهما، فقال: إنَّ الشرط بيننا في الرجال لا في النساء، فلم يردّها عليهما[1].

ثم قال الجبائي: وإنما لم يَجْرِ هذا الشرط في النساء؛ لأنّ المرأة إذا أسلمت لم تحلّ لزوجها الكافر، فكيف تُرَدُّ عليه، وقد وقعت الفُرقة بينهما؟! ووجه الشبهة في صيغة وثيقة الصُّلح جاءَ من صيغة التذكير، فظنَّ المشركون أنه يشمل الإناث على طريقة التغليب، بحسب العُرف، إذا عُبِّر عن مجموع المذكر والمؤنث يُكتفى بلفظ المذكر، ويُراد به المذكر والمؤنث. ولكن النبيَّ ﷺ لم يقصد إلا الذكور، فنزلت هذه الآية حاسمةً للأمر، ومُفسِّرة لمنطوق الوثيقة.

وفرار النساءِ هذا يدلُّ على أنهنَّ يلقَيْنَ الأذى ويتعرَّضْنَ للفتنة في الدِّين، كما يدلُّ على قوة إيمانهنَّ وعِظَم شجاعتِهنَّ وانتهازهنَّ فرصةَ الهدنة.

ثم أمر سبحانه وتعالى المسلمين أن يُطلِّقوا نساءَهم من المشركات؛ تَتْميماً لهذا الحكم، فقال: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي: بعقود أنكحتهنّ؛ لأن العقد عصمةٌ ومنع، فالمراد: نهيُ المؤمنين عن المُقام على نكاح المشركات.

قال الحسن: كان في صدر الإسلام تكون المسلمة تحت الكافر، والكافرة تحت المسلم، فنَسَخَتْه هذه الآية. وقال الزهري: لما نزلت هذه الآية طلّق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأتين كانتا بمكة مشركتَين، وطلّق غيرُه كذلك[2].

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨: ٦١).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٣٣٢).

أقول: وذلك لأنَّ بعض زوجات المسلمين المهاجرين تمسَّكن بكُفْرهنَّ، ولما هاجَرَ أزواجُهنَّ رَفَضْنَ اللحوقَ بهم، وفَضَّلنَ البقاء مع أهلهنَّ الكفار في مكة، وبعضهنَّ لحقنَ بهم وهُنَّ كافرات، ثم عُدْنَ إلى أهلهنَّ بعد الطلاق.

ثم ذكر حالَ الرجالِ المهاجرين ضمن هذا الحكم العامِّ، على سُنَّة القرآن في مثله، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: من مهور نسائكم الكافرات اللاتي تركتُموهنَّ عند الكفار أو لحقنَ بهم، ﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ من مهور زوجاتهم اللاتي هاجَرْنَ إليكم مؤمنات. فبيَّنت الآية أنَّ الذي يهاجر مؤمناً ويترك زوجتَه الكافرة عند أهلها الكفار يأخذ مهرَها، والتي تهاجر مؤمنةً وتترك زوجَها الكافر، فله الحقُّ أن يأخذ مهرَها. وقد أكّد الحكم بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ يشرع ما تقتضيه الحكمةُ البالغة والعَدْلُ الدقيق.

وقد جَعَلَ الحكم على الكفّار بأداءِ مهر الزوجة الكافرة الباقية عندهم وزوجُها قد آمن وهاجر، جَعَله أساساً للحكم الآتي، فقد قال الزهري: لما نزلت هذه الآية آمن المؤمنون بحكم الله، وأدَّوا ما أُمِروا به من نفقات المشركين على نسائهم المهاجرات، وأبى المشركون أن يقرُّوا بحكم الله من أداءِ نفقات المسلمين على زوجاتهم الكافرات الباقيات عند أهلهنَّ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وهُنَّ زوجاتُ مَنْ هاجروا إليكم وتركوا زوجاتِهم الكافرات عند أهليهنَّ الكفار، ولم يَرْضَوا أن يؤتوا مهورَهن ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: فغَزَوْتُم وأصبتُم من الكفار عُقْبى، وهي الغنيمة، ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ عليهنَّ من المهور من رأس الغنيمة.

ثم حثَّهم على العدل في ذلك، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ ولا تتجاوزوا حدودَه.

وبعد أن بيَّن صورةَ قَبول المؤمنات المهاجرات، بيَّن صورةَ مبايعتهن، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ[١] يَفْتَرِينَهُۥ[٢] بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾[٣] والمراد به: أن تَبهَتَ المرأةُ المرأةَ بشيءٍ من الفحش أو غيره تفتريه عليها، وقد بالغ في شناعة الافتراء، فوصفه بالوضوح والبيان، وقال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، أو المراد: من أنفسهنّ، وعلى كلٍّ فهو بمعنى الافتراء الصريح. ويجوز أن يكون الأول كناية عن مثل السرقة، والثاني عن مثل الزنى، أي: لا يبهت بعضُهنَّ بعضاً بذلك، ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: فيما تأمرهُنَّ به من معروف، فإن جئْنَك كذلك، ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ عمَّا سلف؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ إذا وَفَّيْنَ بما بايَعْنَ عليه.

وقد رُوِيَ عن هند بنت عُتبة: لـمّا سمعت من رسول الله ﷺ عند مبايعة النساء قوله: «ولا تزنين» قالت: «أو تزني الحرَّة؟!» وفي رواية: «ما زنت منهنَّ امرأة قط»، ولما سمعت قوله: «ولا تأتين ببهتان تفترينه». قالت: «إنَّ البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرُّشد ومكارم الأخلاق»، ولما قال: «ولا تعصينني في معروف» قالت: «والله ما جلسنا مجلسَنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيَك في شيء، فتبسَّم ﷺ من قولها»[٤].

---

(١) «بهتان»: أصلُ البهتانِ هو الشيءُ الذي يَبهَت العقول. أي: يُحيِّرها. والمراد به هنا الولد الذي تدَّعيه المرأة أنه من زوجها، وهو في الحقيقة ليس منه.

(٢) ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾ المراد: يَكذِبْن في نسبتِه لأزواجهنَّ.

(٣) ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: كناية عن أنه ولدهنّ من أزواجهنّ؛ لأنَّ الولدَ يُحمَلُ في البطن التي هي بين اليدَين، ويولَد بينَ الرِّجلين.

(٤) «الكشاف» للزمخشري (٤: ٥٢٠)، و«تفسير الرازي» (٢٩: ٥٢٣- ٥٢٤)، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣: ٤٦٢): غريب بهذا اللفظ.

وهذه الآية تردُّ على أعداء الإسلام المُتقوِّلين عليه بأنه لم يحفل بالنساء، وبأنه عَدَّهُنَّ من المتاع، وتلطمُهم على وجوههم. نعم، إنَّ الإسلام قد أعطاهُنَّ الحقوق اللائقة بمقامهنَّ في المجتمع، والمتناسبة مع طبيعتهنَّ حقيقةً وحقاً، ولم يُعطِهِنَّ ما فيه شَيْنٌ عليهنَّ وعلى عوائِلهن، كالتبرُّج والهتك اللذَيْن الآن هُنَّ عليه.

ثم ختم السورة بما بدأها به، تقريراً للنهي وتمكيناً له، بزيادة وصفٍ للكفار يُبيِّن به حالهم، ويبكتهم عليه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: من نعيمها، إذْ لا حظَّ لهم فيه، فعبَّر عن ذلك باليأس، مبالغةً في تحقيق المعنى. ثم نظَّر ذلك بقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ أي: كما يئس أموات الكفار من نعيم الآخرة، حين وقفوا بعد الموت على حقيقة الحال، وعلموا أنْ لا نصيبَ لهم من النعيم، وأن نصيبَهم إنما هو من العذاب الأليم.

وقيل: بل المراد من يأسهم من الآخرة: إنكارُهم للبعث ويأسُهم منه. فالمعنى: كما يئس الكفار من بَعْث أصحاب القبور، فيكون تبكيتاً للكفار إثر تبكيتِ المشركين على تكذيبهم بالآخرة، وذلك من الاستطراد البديع، وتكون لفظة ﴿مِنْ﴾ على المعنى الأول بيانية، وعلى المعنى الثاني للتعدية، ومُتعلِّقةً بـ﴿يَئِسَ﴾. وكلا المعنيين منسجمٌ ومتلائم.

وقد جَعَلَ الكفارَ صنفاً مستقلاً عن المشركين؛ إذ أراد بهم ـ والله أعلم ـ ما يشمل المُلحِدين الذين ينكرون وجود الله سبحانه فوق إنكارهم للبعث.

* * *



مدنيَّة، وقيل: مكيَّة

وهي أربع عشرة آية

وموضوعها:

الحثُّ على الجهاد مع رسول الله ﷺ؛ لأنه أُرسل بالهدى ودينِ الحق.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام على مثل هذه الآية في سورة الحديد وسورة الحشر، فارجع إليه. وفيها إثارةٌ للشعور بعَظَمة الله والحذر من مخالفته، وجعله مقدِّمةً لِمَا بعدها، وقد ابتدأه بحَثِّ المؤمنين على الجهاد، وصدَّر الحثَّ بالعتاب والتأنيب على التهاون فيه، مُبالغةً في الحمل عليه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ ينكر على بعض المؤمنين أن لا يقترنَ قولُهم بالعمل المصدِّق له.

وقد ذكر المفسِّرون لمصداق هذه الآية صُوراً واقعيّة؛ منها ما قاله محمد بن كعب: إنَّ الله سبحانه لـمّا أخبر رسوله ﷺ بثوابِ شُهداء بدر، قال بعض الصحابة: لئن لقينا بَعْدُ قتالاً لنُفرِغَنَّ فيه وُسْعَنا، ثمَ فرُّوا يوم أُحُد[1]، فعيَّرهم الله تعالى بذلك تأديباً لهم، وبالغ في قُبْح ما فعلوه بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ والمقت: أشدُّ البغض. وصاحب هذا الرأي يجعل السورةَ مدنيةً.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما هو الممقوت عنده، بيّن ما هو المرضيُّ عنده تعالى؛ حثاً

(١) ذكره الثعلبي في «الكشف والبيان» (٩: ٣٠٢)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٨: ١٠٤).

عليه وتعريضاً بالفارِّين، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ وليس المراد ما يَتبادَرُ من ظاهر التعبير، وهو أن يكون الجند مُتراصِّين في صفِّ القتال؛ لأنَّ ذلك مخالفٌ لقواعد التعبئة الصحيحة على ما أظن، والله أعلم، ولا سيّما الآن، وإنما هو من باب المجاز للتعريض بالفارِّين، وليشمل بمفهومه التكاتفَ والتعاونَ ضدّ المعتدين، بأن يقوم سائر أصناف الأمة بالواجب الحربيّ، ويساهم كلُّ واحد بحسب اختصاصه، فيشترك في أداءِ هذا الواجب الجنديُّ والمتموِّلُ والعامل والطبيب والكاتب والخطيب، كلٌّ بحَسَب حرفته وقابليّته واختصاصه، يصرفها في تقوية الحرب وتغذيتها، مادياً أو معنوياً، فتكون الأمة في مجموعها ذلك صفاً واحداً، كالجسد الواحد، وكالبنيان المتراصّ مع بعضه، والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

ولما أنَّب الذين قصَّروا في وقعة أُحُد، ومنهم الذين خالفوا أمْرَ رسول الله ﷺ لهم بأن لا يتركوا مكانهم من الثغر، وإن رأوا النصر والغَلَبة للمؤمنين، ولَحِقَ من مخالفتِهم وتَرْكِهم الثغرَ ضررٌ عظيم، حيث تبدَّل نصرُ المؤمنين بالخذلان؛ أردَفَ ذلك بقصَّتين، فحوى الأولى: التحذير من أن يكونوا كقوم موسى عليه السلام، في إيذائهم له بعدم الامتثال، وفحوى الثانية: الإغراء بأنَّ محمداً رسول الله كما يعلمون، وقد بشَّر به عيسى عليه السلام، فيجب أن يُنصَرَ ويُطاع، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ

﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالمخالفة والعصيان فيما آمركم به، ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

وقد بيّن سبحانه وتعالى سرَّ تلك المخالفة والعصيان في أنفسهم بقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: أنَّ سبب صَرْف الله لهم عن الحق هو زَيْغُهم عنه، ومَيْلُهم إلى الضلال، بإفسادهم لطبيعتهم بمفاسد التربية وسوء القدوة، وتحريفهم بذلك لغريزتهم وما خُلِقَت عليه من الاستعداد للخير والتزكية والإيمان.

ثم بيَّن تعالى أنّ مِثلَ ذلك أمر طبيعي في أخلاق الإنسان المحرَّفة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ أي: مَضَتْ سنَّته تعالى في الراسخين في الفسوق والخروج عن هداية الفطرة ونور البصيرة ـ بإفسادِهم لطبائعهم وتَدسِيَتهم لأنفسهم ورسوخِهم في تمرُّدهم ـ أن يفقدوا الاستعداد للإيمان والعمل الصالح، فلا يهتدون إليه سبيلاً[1].

ثم ذكر القصة الثانية، وهي قصَّة قوم عيسى المُستَلزِمة لصحَّة رسالة محمد ﷺ، حيث بشَّر به، ولكنهم ضربوا بتلك البشارة عرضَ الحائط، وأنكروا رسالة محمد ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ والاسم: الوصف، وهو إما بمعنى: كثير الحمد لله، أو بمعنى: أنه يُحمَدُ كثيراً لعِظَمِ فعاله.

قال الرازي: أي: اذكروا بأنّي رسول الله إليكم، أُرسِلتُ بالوصف الذي وُصِفتُ به في التوراة، ومُصدِّقاً بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعاً، ممَّن تقدَّم وتأخَّر، ومُبشِّراً

---

(١) أو معنى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لا يحكم لهم بالهداية، وقد اختاروا لأنفسِهما لـمَيْلٍ عن الحق، إلى المتاهات والضلالات. وهم قوم خارجون عن طاعتِه وهدايتِه، وهذا الحكم عليهم هو مقْتضى الحقِّ والعدل.

برسول يُصدِّق بالتوراة على مثل تصديقي، ووَصْفُه أحمد. وهذه الصيغة تحتمل أن تكون لمبالغةِ اسم الفاعل أو المفعول[١].

أقول: وعلى الأول يكون معناها: أنه يحمد الله كثيراً، وعلى الثاني يكون معناها: أنه محمود بين الناس كثيراً.

ثم قال: ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام في الإنجيل بمَقْدَم محمد ﷺ، وذلك في عدَّة مواضع منه، فقد ذكر في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يُوحَنّا هكذا: «وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط، حتى يكون معكم إلى الأبد». والفارقليط: هو روح الحق المبين. أقول: والفارقليط بالعبرية معناه: أحمد؛ لأنه مُعرَّب عن: بيريكلتوس، ومعناه: الذي له حَمدٌ كثير.

وذكر في الإصحاح الخامس عشر: «وأما الفارقليط روح الله يُرسِلُه أبي باسمي، أي: بصفتي، ويعلِّمكم ويمنحكم جميعَ الأشياء، وهو يذكركم ما قلت لكم». ثم ذكر بعد هذا بقليل: «وإني خبَّرتكم بهذا قبل أن يكون، حتى إذا كان ذلك تؤمنون».

وذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا: «ولكن أقول لكم الآن حتماً يقيناً: انطلاقي عنكم خيرٌ لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتِكم الفارقليط، وإن انطلقتُ أرسَلَه[٢] إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويُدِينهم ويَمْنحُهُم ويُوقِفُهم على الخطيئة والبرِّ والدِّين». وذكر بعد هذا بقليل هكذا: «فإنَّ لي كلاماً كثيراً أُريد أن أقوله لكم، ولكن لا تقدرون على قبوله والاحتفاظ له، ولكن إذا جاءَ روحُ الحق إليكم يُلهمكم

---

(١) «تفسير الرازي» (٢٩: ٥٢٨).

(٢) في «تفسير الرازي»: «أرسلته».

ويؤيِّدكم بجميع الحق؛ لأنه ليس يتكلّم بدعةً من تلقاء نفسه». هذا ما في الإنجيل. انتهى كلام الرازي[١].

ومعنى الإنجيل في السُّريانية: البشارة، وإنما سُمِّي بذلك لأنَّ أعظم ما فيه البشارة بمحمد ﷺ خاتم النبيين، والمرسول بأكمل شريعة خُتمت بها الشرائعُ أجمعون، أُرسِلَ إلى الناس عامَّة بعد أن تكامل النوع الإنساني في تدرُّجه في مدارج الكمال، وسَعَة الإدراك، وسُمُوِّ العرفان، بما حَصَل عليه من العلوم والمعارف، وكان ذا بصيرة تامَّـة، وتأهُّل للجامعة العامة، وهي الدخول في السِّلم كافَّة، وفرض عليه توحيد لغة الدين الذي أُريد به توحيد البشر بالنظام والدين والتفاهم باللغة العربية للمسلمين.

ولذلك اهتمَّ المسلمون ـ لا سيما الأعاجم ـ باللغة العربية، واستَنْبطوا منها علوماً عديدة، كما فعل سيبويه والفيروزآبادي والجرجاني، وكانت الدول الأعجمية الإسلامية تجعل اللغة الرسمية في الدولة عربية، وكان بعضُ ملوكها كالبويهيين والسلجوقيين والأتابكيين شعراءَ من الطبقة العليا، يتباهون ويفتخرون، والمدارس العربية والدينية منتشرة في بلادهم، يهتمُّون بها أكبر اهتمام، كما تُؤْذِنُ بذلك تواريخُ تلك العصور.

وبقي هذا الأمر إلى ما بعد الثمانمئة الهجرية، فبدَّل السلطان العاشر من العثمانيين اللغة الرسمية العربية في الدولة بلغة تركية، ثم تَبِعَتْه بقيَّة الدول الأعجمية الإسلامية بتبديل اللغة العربية بلغاتهم، فقضى على فهم الإسلام وأدائه بالوجه الصحيح؛ لأنَّ طبيعته عربية، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وبقي فيهم الإسلام جسماً بلا روح؛ لفَقْدِه الوسيلة التي بها يُفهم. فجاء الدين الإسلامي واللغة العربية عالميين للناس أجمعين.

---

(١) في «تفسيره» (٢٩: ٥٢٨-٥٢٩).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ لهذا الأمر محمدٌ ﷺ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات، وهو ما في هذا القرآن العظيم من بيان وبرهان وتثقيف كامل للإنسان، كفروا به و﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ لِـمَا رأو من شدَّة تأثيره على نفوس المستمعين.

فوبَّخهم سبحانه وتعالى على ذلك وتَوعَّدهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ[1] وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: مَنْ أظلَمُ ممَّن افترى على الله الكذبَ، فوصفَ كتابه بالسِّحر، وهو يدعوه إلى الإسلام الموحِّد للبشر، ويُوصله لسعادة الدارَيْن، فقد جاء التبشير بمحمد ﷺ في التوراة والإنجيل الصحيحَيْن المنزَّلين من عند الله، وبالأمر بالإيمان به إذا جاء، كما ذكرَت آية ١٥٧ من سورة الأعراف.

ثم ذكر منشأ ذلك فيهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ أي: مَضَت سُنَّته تعالى في الراسخين في ظلمهم وكفرهم، أن يفقدوا الاستعداد للهداية إلى الإيمان، ومعرفة الحق بالبرهان.

ثم بيَّن سخافتَهم وجهالتَهم في محاولة الدعاية ضدَّ هذا النُّور الإلهيّ والقرآن العظيم، بأكاذيبهم عليه، وتمويهاتهم في أمره، فقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟[2] نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾،

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ معرَّفاً بالألف واللام، وفي سائر المواضع: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١ و٩٣ و١٤٤، الأعراف: ٣٧، يونس: ١٧، العنكبوت: ٦٨] منكَّراً؛ لأن المراد بآية الصف: كذب خاص، وهو جعلهم البيِّنات سحراً.
والمراد في بقية المواضع: أيُّ كذب كان، ولذلك نكَّره وعطف عليه: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦ﴾ [يونس: ١٧]، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [العنكبوت: ٦٨]. «كشف المعاني» لابن جماعة، ص ٣٧٨.

(٢) ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ اللام بمعنى (أنْ) بفتحٍ فسكون؛ التي تَجعَلُ ما بعدَها في قوّةِ مصدر. أي: يريدون إطفاء نور الله.

وصورة التعبير في منتهى السُّخرية والتسخيف لهم، حيث تضمَّنت تشبيهَهم بمَنْ يحاول بنفخِهِ إطفاءَ نورٍ مُنْبثٍّ في الآفاق، أو مَنْ يحاولُ إطفاء نور الشمس بفيه، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم بيَّن كيفيّة هذا الإتمام، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾، وقد عَنْوَنهم بعنوان الكفر والشِّرك؛ للإشارة إلى أنهم جمعوا بينهما.

وقد اختلفوا في مرجع الضمير من كلمة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ فقيل: إنه راجع إلى الرسول ﷺ، والمعنى: أنه سبحانه يُظهِرُ هذا الرسولَ ويُطلِعُه على كلِّ ما يحتاج إليه البشر، من أمور الدين؛ عقائدِه وآدابِه وسياستِه وأحكامِه. وكتبُ سائر الأديان ليست كذلك.

وقيل: بل الضمير لـ«دين الحقِّ» الذي أرسله الله به، ومعناه: أنه تعالى يُعْلي هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان بالـحُجَّة والبرهان، والهداية والعرفان، والعلم والعمران.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وبعد أن ذكر الرسولَ ﷺ والنورَ الذي أنزله إليه رحمةً للعالمين، ومحاولةَ المشركين لإطفائه، عقَّب ذلك بالدعوة إلى قَبول هذا النُّور ونُصْرة الرسول، بأبلغ عبارة مُؤثِّرةٍ على النفوس، حافزةٍ لها، وأضاف إلى هذا الغَرَض غَرَضاً آخر، وهو السَّداد في أمر

الجهاد، بعد أن ندَّد سبحانه في أول السورة على التقصير فيه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾، فعبَّر سبحانه عن أعمال البرِّ الآتية بالتجارة التي هي أعظم وسيلة للربح، واستفزَّ الشعور نحوها، ثم فصَّلها بقوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، وهذه الآيةُ على حدِّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ...﴾ [التوبة: ١١١].

وبعد أن نَدَبهم إلى هذه الأعمال، واستفزَّ شعورهم نحوها، بالغ في الحثِّ عليها بقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والعرفان والنظر الصحيح.

ثم صرَّح بذلك الربح بقوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ ومنها السالفة في التقصير في الجهاد، ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ[1] فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ خالدةٍ لا نهاية لها. ثم نوَّه بشأن هذا الربح، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾.

وهذه السعادةُ العُظمى هي ربحُ هذه التجارة في الآخرة، أما ربحُها في الدنيا فهي السيادة العُليا التي ذكرها بقوله: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾، فجَعَل لهذه التجارة ربحَيْن: السيادة في الدنيا، والسعادة في الأخرى. وقرن ذلك بالتبشير؛ تحقيقاً للوعد، وتقريراً له، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣﴾ أي: بعظيم ما يسرُّهم ويُسعِدُهم سعادةً لا حدّ لها.

ثم نَدَب المؤمنين لنُصْرة هذا الدين دون تَهاونٍ ولا تقصير، كما نصر الحواريُّون عيسى عليه السلام، وبيَّن سبحانه ما كان من أمر عيسى مع بني إسرائيل، وأنهم افترقوا فرقتين: فرقة آمنت به، وفرقة كفرت بما جاء به، واشتبكت الفرقتان بالمخاصَمة

---

(١) «مساكن طيبة» أي: مساكن طاهرة زكيَّة، تسكن فيها نفوسكم، وتسكنون فيها إلى أزواجكم من الحور العين الطيِّبات الطاهرات الزاكيات.

والمقاتَلة، فكانت العاقبةُ للمؤمنين على الكافرين، وجعل هذا البيان حثاً للمؤمنين إلى نُصْرة الله ورسوله، وتأييداً لعزمهم، وتسليةً للنبي ﷺ، ووعداً بأن العاقبة تكون لهم على المعارضين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ على غِرار ما كان الحواريُّون أنصارَ الله لعيسى عليه السلام، حين ندبهم لنُصْرته، ﴿كَمَا﴾ حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ والحواريُّون: أصفياء عيسى عليه السلام[2]، وأولُ مَنْ آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً. وحواريُّ الرجل: صفيُّه؛ من الحَوَر، وهو البياض الخالص، فاستُعمِلَ للصحبة الخالصة.

ثم أجمل سبحانه وتعالى القصة بقوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأطاعوا عيسى عليه السلام بما أمرهم به من نُصرة الدين، ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ منهم وقاتلوا المؤمنين، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بالحُجَّة وبالمقاومة الناجحة، ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ عليهم غالبينَ لهم. ومُؤَدَّى هذا البيان: الوعدُ للمؤمنين بنصرهم على المشركين، وتأييدهم عليهم.

* * *

(١) أي: مَنْ الذين ينْصُرونني، ساعين إلى بلوغ مرضاة الله، بالجهاد الدعويِّ في سبيله، مُبلِّغين دينَه مهما تلقَّوا من أذىً واضْطِهاد؟

(٢) جمع حواريّ بتشديد الياء. وتقدَّم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

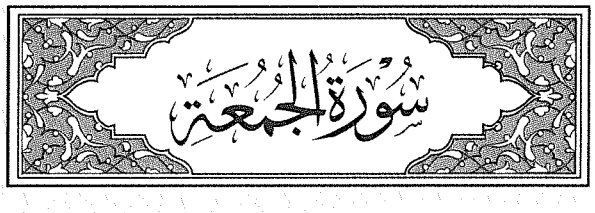

مدنيَّة، وهي إحدى عشرة آية

جاء فيها:

ـ الحثُّ على العمل بالعلم.

ـ وتوبيخ مَنْ لم يعمل بعِلمِه من اليهود والمنافقين.

ـ والرد عليهم فيما يدَّعونه من أنَّ النبوَّة مقصورةٌ على بني إسرائيل، يقولون ذلك رُغماً عن أنَّ التوراة بيَّنت لهم عن مجيء هذا الرسول ﷺ، وأنه يجبُ عليهم اتِّباعُه.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ أتى بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، وأتى بـ﴿مَا﴾ دون (مَنْ) تغليباً لغير العاقل، لأنه أكثر. وقد مرَّ الكلام على هذا التسبيح في سورة الحديد وسورة الحشر، فارجع إليه.

والقدُّوس: المُنزَّه عن كلِّ نقص وعَيْب. وفي مضمون هذه الآية إثارةٌ للشعور بعظمة الله والحذر من مخالفته، جَعَلها مُقدِّمةً لمضمون ما بعدها، وحَمْلاً عليه، وهو التَّصديق بهذا الرسول وما جاء به، والتمسُّك بمندرجات كتابه، لأنه مُنزَّلٌ من حكيم عليم.

وقد سبك ذلك على التنويه بشأن نعمته على العرب بإرسال رسولٍ منهم إليهم؛ ليفهموا عنه ما يهديهم إليه، ممّا به خيرُ الدنيا والآخرة، وضمَّنه الردَّ على بني إسرائيل في دَعْواهم أنَّ النبوَّة مقصورةٌ عليهم، وأنهم أولياءُ الله وأحبَّاؤه، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ والأميُّون: العرب؛ لأنها كانت بأكثريِّتها أُمّةً أُمّيّة، لا تكتب

ولا تقرأ. والأمّيّة لا تنافي التهذيب والتثقيف، كما يدلُّ على ذلك تاريخ الأمة العربية ومناحي شعرها، في الحكمة والتدبير والدراية والسياسة وغير ذلك، وقيل: إنما سُمُّوا أُميِّين لنسبتهم إلى مكة أمِّ القرى.

ثم بيَّن تعالى ما جاءَهم به هذا الرسول من الكمال، فقال: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: آياتِ الله التي جاءَهم بها ليُخرِجَهم من الظلمات إلى النور، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من خبائث العقائد والأعمال؛ لأنَّ هذا القرآن العظيم يُزكِّي الأرواحَ والأبدان، ويُهذِّبها قولاً وفعلاً، فتكون مصدراً للأعمال الصحيحة الشريفة، والأخلاق العالية الفاضلة، والمقاصد السامية النبيلة.

ثم أضاف سبحانه لهذه الآيات صفتَيْن أُخرَيين، بطريقة عطف السبب على المسبَّب، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ بها ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]؛ لينصّ بأنها مُنزَّلةٌ من الله، ومحتويةٌ على حِكَمٍ بالغة.

وعَطْفُ (الحكمةِ) على (الكتاب) من عطفِ الشيء على ما يحتوي عليه[2].

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى أنَّ هذا الإرسال إليهم، إنما هو على إثر شدَّة افتقارهم إليه، فقال: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾. و﴿إِنْ﴾ هذه هي المخفَّفة، واسمُها ضمير الشان، واللامُ تدلُّ على ذلك. والمراد من هذا البيان: الامتنان على العرب بهذه المنقبة، واستدراجهم للدخول في زمرته ﷺ في أول بعثته.

---

(١) أي: يُعلِّمهم معاني القرآن وحقائقه، وأحكام السنَّة المُطهَّرة المبيِّنة والشَّارحة للكتاب، كما يُرشِدُهم إلى وَضْع الأشياء في مواضعها، اعتقاداً، أو فكراً، أو معرفةً، أو عملاً.

(٢) بل الحكمة أعمُّ من الكتاب، فهي تشمله وغيرَه، وأهم ما يدخل في هذا الغير: السنة النبوية الشريفة، فقد بثَّ فيها النبي ﷺ كثيراً من تعاليمه.

ولا يلزم من تخصيص الشيء بالذكر نَفْيُ ما عداه، لا سيما إذا كان في ذلك غَرَضٌ، وهو هنا المبالغة في التَّمنُّن عليهم، والتقريع للمُعارضين منهم، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله تعالى ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وأمثال ذلك من الآيات.

وإنما خصَّ العرب؛ لأنه تعالى انتدبهم ليحملوا نبراس هذا الدين، ويطوفوا به في العالمين، يرشدونهم إليه ويحملونهم عليه. على أنَّ بعض المفسِّرين ـ وعلى رأسهم ابن عباس رضي الله عنهما ـ قالوا في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾[1]:

---

(١) قضى سبحانه أن تتدرَّج شرائع البشر بتدرُّج النوع الإنساني في العلم والمعرفة، فكانت الشريعة الأولى بسيطة، وتدرَّجت في الرقي، وذلك فيما عدا الأسس العامة الثابتة في كل الشرائع، وهي الإيمان بوجود الله سبحانه، وأنه منفرد بالألوهية، منزَّه عن الشريك والمثال، والإيمان بملائكة الله وبرسله من البشر، وأنه سبحانه يرسل شرائعه إلى هؤلاء الرسل بواسطة الوحي من الملائكة على الأكثر، والإيمان بالصحف والكتب التي تنزل على الأنبياء لينشروها بين الناس، والإيمان باليوم الآخر، وبالنشور فيه والحساب، ثم دخول البشر الجنة أو النار، بمقتضى اتِّباعهم لهذه الشرائع، أو إعراضهم عنها، ودرجتهم فيها بحسب درجتهم في ذلك، وأنَّ الله سبحانه لا يغفر أن يُشْرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك من هفوات المؤمنين.

وكان سبحانه يعدُ في كل شريعة أنه سيُرسل ـ عندما يتكامل النوع الإنساني في العلم والمعرفة أول تكامله ـ شريعةً عالمية واحدة، تقوم مقام كل تلك الشرائع، وتكون ناسخة لها وخاتمة للشرائع، لا ينزل بعدها أخرى؛ لأنها تسدُّ حاجةَ البشر إلى يوم القيامة، وجاء الإنجيل يُبشِّر بقُرب مجيء هذه الشريعة، ومعنى الإنجيل في السريانية: البشارة، ثم أنزل الله سبحانه تلك الشريعة المنتظرة على محمد ﷺ بهذا القرآن العظيم، فكانت شريعةً عالميةً لجميع البشر على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، وإنما أنزلها باللغة العربية؛ لأن قرآنها وما احتوى عليه من معانٍ =

هم الأعاجم من سائر الأمم غير العرب، والذين سيتبعون العرب في هذا الدين[١]، وجعلهم ﴿مِنْهُمْ﴾ للإشارة إلى أنَّ الجميع يصيرونَ أُمَّةً واحدة بالإسلام، يقال لها: المسلمون، فكلهم عرب بطابع الدين، وإن اختلفت أجناسهم. وقد نهض الأعاجم نهضةً صادقة بالاهتمام باللغة العربية تأليفاً وتصنيفاً ونشراً، كسيبويه والجرجاني والفيروزآبادي والرازي وأبي السعود العمادي وأمثالهم كثيرون.

وقال مقاتل: إنما يعني بالآخرين: التابعين من هذه الأمة إلى يوم الدين[٢]، بما فيهم العرب وغيرهم من سائر الأمم.

وعلى كلٍّ؛ فهو معطوف على ضمير ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، والمراد من العرب: ما انطبعوا بالطابع العربي، وهو اللغة والدين، كما قال ﷺ: «ليست العربية بأحدكم من أُم ولا أب، إنما هي اللسان»[٣].

= ومفاهيم لا يمكن لكلِّ لغة أن تقوم ببيانه سوى اللغة العربية، فكانت هذه اللغة لغةً عالمية أيضاً كالقرآن، يُسألُ كل بشر إذا لم يتعلمها إلى جانب لغته، كما يُسأل عن القرآن والإسلام، ولذلك اهتم الصدر الأول بنشر اللغة اهتماماً كبيراً، وأكبَّ الناس على العربية يتدارسونها ويؤلفون فيها وفي بلاغتها وأنواع فنونها. وما أعظم فائدة البشر واتحاده بهذا الدين وهذه اللغة، فإنَّ وحدةَ الدين واللغة رابطة عظمى بين البشر في التفاهم والاتّحاد وقلَّة النزاع والخصام، إلا في أمور بسيطة يرجع في حلِّها إلى هذا القرآن.

ولكن البشر ـ يا للأسف ـ لم يقبل كلُّه هذا الصلاح، وابتعد عن سعادة الأخرى كما ابتعد عن الراحة في الدنيا، اللذَيْن أرادهما الله، ولا حَوْل ولا قوة إلا بالله. (المؤلف).

(١) ينظر «تفسير الرازي» (٣٠: ٥٣٨).

(٢) «تفسير مقاتل» (٤: ٣٢٥).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢١: ٤٠٧)، عن عبد الرحمن بن أبي سلمة، مرسلاً.

ولـمّا كان هذا الأمر الذي بيّنه مَبْنياً على الحكمة والعزَّة، ختمه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾، يشير إلى وَجْه تمكين رجلٍ أُمّيٍّ من ذلك الأمر العظيم، واصطفائه من بين سائر البشر، واصطفاء قومه لهذا الشأن العظيم من بين سائر الأُمم، بمعنى أنَّ ذلك كان بحسب الحكمة الجليلة وقُدرة الله البالغة.

ثم نوَّه بشأن هذا الاصطفاء، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ وفيه إيماءٌ وتسفيهٌ لِـمَا يزعمُه اليهود من أنَّ النبوَّة لا تكون في غيرهم، فهم لذلك لم يؤمنوا بهذا الرسول، يقولون هذا مع أنَّ التوراة تأمرهم بالإيمان به.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

وقد شنَّع عليه تَرْكَهم العملَ بالتوراة في كثير من أوامره ونواهيه، فهم لا يقرنون العِلمَ بالعمل، وضرب لهم في ذلك مثلاً بالحمار يحمل أسفاراً، في أنَّ كلًّا منهما لا يستفيد ممَّا يحمل، مع أنه من أعظم ما يُستفاد منه ويُعتمد عليه، والغرض من ذلك: التهجين لليهود، والتنفير للمؤمنين من أن يكونوا مثلهم، فيتركوا العمل بكتابهم هذا، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: عُلِّموها وكُلِّفوا العمل بها، فلم يعملوا بما فيها، ومِنْ ذلك أنها تنطق بنُبوَّة محمد ﷺ، وتحملهم على الإيمان به وهم منكرون، فمَثَلُهم في ذلك ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ أي: كتباً من العلم لا يستفيد منها.

وهذا المَثَلُ من أعلى الأمثال بلاغةً في الانطباق على هذا المقصود؛ لأن التوراة لم تؤثِّر على نفسيَّتهم فتُزكِّيها، فهم وهذا الحمار في ذلك سواء.

ثم أنَّبهم ونعى عليهم بقوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

ثم بيَّن السرَّ في عدم اهتدائهم بالتوراة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ أي: مَضَتْ سُنَّته تعالى في أخلاق البشر وطباعهم أنَّ من تَشَبَّع منهم بالظلم والضلال، يفقد الاستعداد للهداية والرَّشاد[1].

ولـمّا كانوا مع ذلك يَتبجَّحون بأنهم أبناءُ الله وأحبّاؤه، ويدَّعون أن الدار الآخرة لـهم خالصةً، ويقولون: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: ١١١]، أمره سبحانه أن يُخاطبهم بما يُفحِمُهم ويُظهِرُ كذبهم لأنفسهم، فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟[2] إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦﴾ وهذه حُجَّةٌ عليهم في أنفسهم، لا حُجَّة إلزاميَّة أمام الناس. ووَجْهُها: أنَّ العقيدة الراسخة في أمر من الأمور، تدفع النفوس إليه راغبةً به، فإذا كانوا يعتقدون حقيقةً أنهم أولياءُ لله، وأنَّ نعيم الآخرة مكفولٌ لهم، فلِمَ لا تَـتُوقُ إليه نفوسُهم ويتمنَّون الموت، وعلى الأقل لا يَجْزَعون منه؛ لأنه هو الطريق الوحيد للوصول إلى ذلك؟! ولكن الحقيقة أنَّ هذه أقوال يقولونها بأفواههم، وقلوبهم تعلمُ خلافَها، لِـمَا انطووا عليه من الكفر والنفاق، وإنكارهم نُبوَّة محمد ﷺ وما جاءَ به، وهم يعلمون أنه الحقُّ مُنزَّلٌ من ربِّهم، وإنما كفروا عِناداً وبَغْياً أن يُنزِّل الله رسالتَه على مَنْ يشاءُ من عباده.

---

(١) أو المعنى أيضاً: والله لا يحكم بالهداية للقوم الذين ظلموا أنفسَهم بتكذيبِ آيات الله وأنبيائه، وعرَّضوا أنفسَهم للعذاب الأليم في نار الجحيم.

(٢) أي: صاروا يهوداً.

وقد أردَفَ هذا الإلزام بالتقرير، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا[1] بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يقرِّر سبحانه وتعالى بمضمون هذه الجملة ما تُكِنُّه نفوسُهم، وهو خوفُهم عاقبةَ أعمالهم، ونكرانُهم رسالةَ محمد ﷺ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءَهم، وأنهم يخافون الموتَ خوفاً مُضاعَفاً، حَذَراً من عذاب الله. وقد توعَّدهم على ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾.

ثم أكَّد الوعيد بما يناسب السياق، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ ويُجازيكم عليه جزاءً وفاقاً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾.

ولـمّا كان الرسول عليه السلام جاء ليتلوَ على أتباعه آياتِ الله ويُزكِّيهم ويعلِّمهم

---

(١) وفي سورة البقرة: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [٩٥] لأنه لما كانت دعواهم أن الدار الآخرة لهم خاصة؛ أكّدَ نفيَ ذلك بـ(لن)؛ لأنها أبلغ في النفي من (لا)؛ لظهورها في الاستغراق. وفي سورة الجمعة، ادَّعوا ولاية الله، ولا يلزم من الولاية لله اختصاصهم بثواب الله وجنَّته، فأتى بـ(لا) النافية للولاية، وكلاهما مؤكّد بالتأبيد، لكن في البقرة أبلغ.

وجواب آخر: أن آية البقرة وردت بعدما تقدَّم منهم من الكفر والعصيان وقتل الأنبياء، فناسب حرف المبالغة في النفي لتمنِّيهم الموت، لما يعلمون ما لهم بعدَه من العذاب؛ لأنَّ (لن) أبلغ في النفي عند كثير من أئمة العربية، وآية (الجمعة) لم يتقدَّمها ذلك، فجاءت بـ(لا) الدالة على مطلق النفي من غير مبالغة. «كشف المعاني» لابن جماعة، ص ٤٩.

الكتاب والحكمة، وكان السبتُ عند اليهود من جملة ما يفتخرون به، ويَتَبجَّحون فيه بأنَّ الله خصَّهم به، لأنهم أولياء الله من دون الناس، وكانوا يعبدون فيه ويُقيمونه كما أمرهم الله؛ شَرَعَ سبحانه وتعالى الجمعةَ للمسلمين، ووضع لها هذا النظام الذي أمرهم فيه بمحافظتها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ[١] وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾[٢]، ثم أردف الحكم بما يحمل على التمسُّك به، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ[٣] خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾.

وهذه الآية تمنع من البيع والشراء ومزاولة الأعمال بسائر أنواعها وقتَ الصلاة فقط، ولم يجعل سبحانه المنع في كلِّ النهار كما في السبت عند اليهود، وقد صرَّح بذلك في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤] لإقامة مصالحكم ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[٥]، وهكذا جَمَعَ الله للمؤمنين بين الدين والدنيا، وأمرهم أن يأخذوا لدنياهم كما يأخذون لأُخْراهم.

ثم أشار سبحانه إلى ما يتضمَّن الوَجْهَ في قَصْر المنع من مزاولة الأعمال على وقت الصلاة، أشار إلى ذلك ببيان أنَّ الإنسان لا يقتصر ذِكرُه لله تعالى في أوقات الصَّلوات فقط، بل يجب أن يتذكَّره كلَّ وقت، بكلِّ ما يُبصِّره ويُحسِّسه بجلاله سبحانه من أعماله العظيمة ونِعَمِه الجليلة في هذا الكون، مُدركاً أنه تعالى مفيضُ ذلك الخير والجود، وهو الملجأ والمعاذ والمعبود، فقال: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾.

---

(١) أي: امْضُوا بهمّة ونشاط إلى سماع الخُطبة وأداء الصلاة؛ لأنهما يذكر فيهما اسم الله.

(٢) المراد بالبيع: المعاملات مطلقاً من بيع وإجارة وغير ذلك ممَّا يشغل عن ذكر الله.

(٣) أي: ما ذُكِرَ من السعي وتَرْكِ ما يَشغلُ من أمور الدنيا. وفيه تفخيمٌ وتعظيمٌ باللام المؤكّدة للبُعدِ وميم الجمع.

(٤) أي: تفرَّقوا للتصرُّف في حاجاتكم. والأمر للإباحة.

(٥) أي: اطلبوا بعضَ فضل الله ممَّا كان ممنوعاً بعدَ الأذان وقبل الصلاة.

وآية الجمعة هذه قانونٌ عظيمٌ يتضمَّن الحثَّ على العمل، ويمقت الخمول والكسل، وقد حدَّدت المنعَ والتحريمَ في وقتٍ قصير فقط، وهو وقتُ صلاة الجمعة، ولم تجعله كل النهار، حفظاً للمصالح العامة، فهي قانونٌ عظيم، يُحتِّم على المؤمن أن يعمل في كلِّ أوقاته دائباً مستمراً، إلا هذا الوقت القصير الذي خصَّه الله فيما بينه وبين العبد؛ ليعبدَه ويقفَ فيه بين يديه، في هذا اليوم العظيم.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «إن الله تعالى كتب يوم الجمعة على مَنْ كان قبلنا فاختلفوا فيه، وهدانا الله إليه، وذلك أن الله سبحانه فرض عليهم يوماً يتفرَّغون فيه للعبادة، ووَكَلَ إليهم اختياره، فاختار اليهود يوم السبت، واختار النصارى يوم الأحد، وضلّوا عن يوم الجمعة، فادَّخره الله لنا»[١].

وللحثِّ على شدَّة الاهتمام بوقت صلاةِ الجمعة، وبَّخ سبحانه وتعالى المؤمنين في جملتهم، وأدّبهم تأديباً عاماً على تضييع أفرادٍ منهم ضِعافِ الإيمان لهذا الوقت القصير الفضيل، في حادثة خصوصية حدثت في أول الإسلام؛ ليكون الحكم عاماً مستمرَّ المدى، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ أي: على المنبر تخطب، وذلك أنه عليه السلام كان يخطب للجمعة فمرَّت قافلة تجارية، وكان من عادتهم يتلقَّونها بالطبل والـمزمار، فخرج بعضُ الناس إليها من المسجد[٢]، فأنكر الله سبحانه ذلك عليهم، وأمر نبيَّه ﷺ أن يُبيِّن لهم أنَّ هذا التأخير

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً، والنصارى بعد غد»، رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه: «بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ أقبلت عير تحمل طعاماً، =

القليل لأجل الصلاة لا يُفوِّت عليهم الرزق، ويحفظ لهم ما عند الله، فقال: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

* * *

= فالتفتوا إليها، حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً...»، رواه البخاري (٩٣٦)، ومسلم (٨٦٣)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(١) ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: الرازق هو خالق الأرزاق، وهو سبحانَه خيرُ مَنْ يُعطي ويَرزق؛ لأنَّ كلَّ رزقٍ من سواه، فهو من رزقِ الله، أجراه الله على يدَيه، وهوالرزاق الحقيقي الذي لا رازق سواه.



مدنيّة، وهي إحدى عشرة آية

وموضوعها:

فضيحةُ تفوُّهِ المنافقين بإخراج المؤمنين من المدينة، أثناء رجوعهم من غزوة بني المصطلق، ومؤامراتهم الخبيثة.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ وكُسِرَت ﴿إِنَّ﴾ في الجمل الثلاث؛ لأن ما قبلها في موضع القَسَم، وهي واقعة في الجواب. ونَظْمُ الآية من أعلى درجات البلاغة، ولا سِيَّما توقيع قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ بين الشهادتَيْن المتقابلتَيْن.

والمراد من الكذب هنا: عَدَمُ مطابقة القول للاعتقاد، وهو أحدُ معنيَي الكذب، لأنه إما عدم مطابقة الكلام للواقع، وإما عدم مطابقة الكلام للاعتقاد، وهذا من النوع الثاني؛ لأنَّ المنافقين لا يعتقدون في نبوَّته، وإنما دخلوا في الدين رياءً. وقد قرَّره بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: سترةً يسترون بها من الكفر، كما يُفصِحُ عنه قوله: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرضوا عنه[1].

---

(١) أي: أعرَضوا بأنفسِهم عن طاعة الله ورسوله، ومنعوا الناسَ عن الإيمان بمحمد ﷺ، والجهاد معه.

ثم شنَّع عليهم وعنَّفهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ من هذا النفاق والصُّدود عن سبيل الله.

ثم ذكر مصدر ذلك النفاق فيهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ قال مقاتل: أي: ذلك الكذبُ فيهم لأنهم آمنوا في الظاهر ثم كفروا في السِّرّ[1]، ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حسب سُنَّة الله تعالى في طبيعة الإنسان إذا رسخ اعتقادُه في شيء لا يميل إلى ضدِّه، فلمَّا رسخ الكفر فيهم وانطبعوا عليه أعرضوا عن الإيمان بتاتاً، لأنهم فقدوا الاستعداد لذلك.

وقال أبو مسلم: لـمّا أَلِفوا الكفر والعناد، ولم يُصْغوا إلى الحق، ولا فكَّروا في المعاد، خلَّاهم الله واختيارهم، فصار ذلك طبعاً على قلوبهم، وهو إلْفُهم لِـمَا اعتادوه من الكفر، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ حقيقةَ الإيمان، ولا يعرفون حقِّيَّته أصلاً.

وما قال أبو مسلم هو مُؤدَّى ما ذكرناه من حُكم سُنَّة الله في طبيعة الإنسان، وهو الطبع على القلوب إذا رَسَخَ فيها ما يفسدها.

ثم تابع الوصف لنفاقهم ببيان أنَّ ظاهرَهم لامِع وباطنَهم متجهِّم، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾[2] قال ابن عباس: كان عبد الله بن أُبيٍّ جسيماً فصيحاً ذَلِقَ اللسان[3]، فإذا قال سمع النبيُّ ﷺ قوله. ويجوز أن يكون الكلام نهياً بصورة الخبر.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٥٤٦).

(٢) أي: إذا رأيتَ ـ يا رسول الله ـ المنافقين تُعجِبُكَ مناظرهم الحَسَنة، وإن يقولوا تَسْمَع لأقوالهم المنمّقة، فهم يتصنَّعون الظواهر التي تخدع الأنظار، ويُحسنون القول فصاحةً وبياناً وانتقاءً للمعاني.

(٣) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٥٤٧).

ثم تابع الكلام ببيان خلّوهم من النفع والخير، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، فشبَّههم في مجلس رسول الله ﷺ بخشب مُسَنَّدة إلى حائط، في كونهم أشباحاً خالية من العلم والخير، وقيل: بل (خُشُب) جمع (خشباء)، وهي الخشبة التي فَسَدَ جوفُها، فشُبِّهوا في نفاقهم وفساد بواطنهم ـ بما انطووا عليه من الحنق وخُبْث الطويَّة نحو دين الله ورسوله ـ بالخشب الفاسد الأجواف. ولخوفهم من ظهور أمرهم هذا ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، فكانوا على وَجَل من أن ينزل فيهم ما يهتك أستارَهم، ويبيح دماءَهم وأموالهم، وإذا سمعوا صَيْحةً من القرآن فزعوا من أنها عليهم.

ثم حذَّر نبيَّه ﷺ كي لا ينخدع بظاهرهم اللامع عن باطنهم المتجهِّم، فقال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾(١).

ثم وبَّخهم وأنّبهم بقوله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ(٢) أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ أي: يُصرَفون عن الحق مع توفُّر الدلائل عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ

---

(١) أي: هم وحدَهم الكاملون في العداوة، الراسخون فيها؛ لمُخالطتهم ومُداخَلتهم ومصانعتِهم، وتظاهُرِهم بالإسلام، ومعرفتِهم مَقاتلَ المسلمين، وثغرات الضعف التي يُمكِن أن يَنفذوا إليها، فاحذرهم ـ يا رسول الله ـ، وراقب كلَّ حركة من حركاتهم، وكلَّ تصرُّف من تصرُّفاتهم، واتَّخذ كلَّ الوسائل التي تحميك والمسلمين من مَكرِهم ومَكايدِهم، ولا تَدَعْ لهم مَنْفَذاً ينفُذون منه للإضْرار بالمسلمين، وإفساد أحوالهم، ولا تأمَنهم على سرِّك؛ لأنهم عيونٌ لأعدائك من الكفار، ينقلون إليهم أسرارك.

(٢) أي: لعنهم الله وطردهم من رحمته طرداً أبدياً.

حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم ذكر حالهم مع غير النبيِّ ﷺ من الناس المطَّلعين على أمرهم والناصحين لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾[1] استهزاءً، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾[2] وذلك أنه قيل لعبد الله بن أُبيّ: نزلت فيك آيٌ شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوى رأسه وقال: أمرتموني أن أُومِنَ فآمنت، وأمرتموني أن أُزكِّيَ مالي فزكَّيْت، وما بقي لي إلا أن أسجُدَ لمحمد[3].

ثم يأّس نبيَّه ﷺ من إيمانهم وغفران ذنوبهم، فقال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لإصرارهم على الفسق ورسوخهم في الكفر، كما بيَّن ذلك على وجه للتعليل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ أي: مضت سُنَّته تعالى في أخلاق البشر أنّ مَنْ رسخ في الفسوق يَفقِدُ الاستعداد للهداية إلى الإيمان والإصلاح في الأعمال[4].

---

(١) ﴿لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ المراد: أمالوا رؤوسهم بسرعة وعنف، رغبةً عن الاستغفار، وصرفوا وجوههم عن المتكلم إعراضاً عن كلامه، وهذه عادة الكافر المصمّم على الكفر.

(٢) أي: يُحجمون عمَّا دُعوا إليه، ويَصرفون من يَتأثَّر بهم عن سلوك سبيل الله، وهم مستكبرون عن اتِّباعك وطاعتك واستغفارك لهم، والسبب في ذلك: أنهم كافرون باطناً، فهم لا يؤمنون بأنهم عُصاة حتى يشعروا بالحاجة إلى أن يستغفر لهم الرسول، ويُعرضون عن كل عمل فيه مرضاة لله تعالى، أو طاعة لرسوله ﷺ، ويرَون أنّهم أحقُّ بالزعامة والقيادة.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٣٩٩).

(٤) أو المعنى: إنَّ الله لا يحكم بالهداية للحقِّ على القومِ الخارجين على أمره، الذين سلكوا بإراداتهم =

ثم تابع الكلام في بيان قبائحهم ومؤامراتهم ضدَّ المؤمنين، فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ يعنون فقراء المهاجرين، ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ عنه ويتركوه.

فردَّ عليهم سبحانه وسخَّفهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾ لجهلهم بشؤون الله.

ثم ذكر لهم قبيحةً أخرى، فقال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ من سفرنا ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعنون بالأعزّ: أنفُسَهم، وبالأذلّ: رسولَ الله ﷺ والمؤمنين، فردَّ سبحانه عليهم بطريقة القول بالموجب وردِّ الوصف ـ وهي من خصائص اللغة وآدابها ـ فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا لهم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ لجهلهم بذات الله وصفاته، وبأنه تعالى يقول للشيء: كن، فيكون[1].

= الحرَّة مَسْلكَ الكفر والضلال. فالحكم بالمغفرة والهداية التي تجعل العاصي من أهل النجاةِ والهداية، إنما يكونان لأهل الإيمان فقط، أما مَن هبط عن أدنى درجات الإيمان، ودخل في دَرَكات الكفر فلا حظَّ له بشيءٍ منهما.

(١) قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ثم قال بعده: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأن الآية الأولى جواب لقول المنافقين: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فختم الآية بأنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفهمون أن الأرزاق على الله تعالى، وأن منعهم لا يضرّهم؛ لأن الله يرزقهم ـ إذا منعوهم ـ من جهة أخرى، فلما كان إدراك ذلك أمراً خفيّاً يحتاج إلى فكر، قال: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾. وأما ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ فردٌّ على عبد الله بن أبي حين قال: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾؛ لأن ذلك يدل على عدم علمه: أن العزة لله والرسول، يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، فمنه العزة تستمد، وهو يعطيها لمن يشاء، وذلك من الأمور الظاهرة لِمَن عرف الله تعالى، فجهَّلهم بقولهم ذلك مع ظهور دليله. «كشف المعاني» لابن جماعة، ص٣٨١.

وكان لعبد الله ابن سلول قائلِ هذا القول ولدٌ مؤمنٌ صالح، اسمه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ ابن سلول، تقلَّد سلاحَه وجاء بأبيه وأوقفه أمام رسول الله ﷺ، وقال له: والله لا تَبرَحُ من مكانك حتى تُقِرَّ أنك الذليل، وأنَّ رسول الله هو العزيز، فاعترف بذلك، وصرَّح بردِّ الوصف عليه[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

ثم حثّ سبحانه المؤمنين على التمسُّك بهذا الدين المبين، وأن لا تلهيَهم أموالهم وأولادهم عن ذلك، كما ألهت أُولئك المنافقين، حيث صدَّهم عن الإيمان خوفُهم على مراكزهم، وجرّأهم على ذلك اعتزازُهم بأولادهم، مُلمعاً إلى الأنصار أن لا يرهفوا لقول ابن أُبيٍّ السابق: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، وقال أبو مسلم: أي: في جميع طاعاته، وقيل: بل المراد: عن الصلوات الخمس المفروضة، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾[٢] كيف لا وقد باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني. وكثيراً ما تصدُّ الأموال والأولاد عن الواجبات والحقوق[٣].

---

(١) أخرجه مختصراً الترمذي (٣٣١٥) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح.

(٢) أي: مَنْ شَغَله مالُهُ وولدُه عن ذكر الله، فأولئكَ البُعداء عن مراتِبِ المؤمنين هم الخاسرون في تجارتهم، الذين خسروا رأسَ مالهم في هذه الحياة، وهو: عمرُهم المحدود، ومَنْ خسر ذاته كان هو الخاسر الأكبر.

(٣) لأن منْ وجَّه كلَّ همِّه في الحياة الدنيا للأموال وجمْعها وعدِّها وتنميتها، وللأولاد وحاجاتهم =

ومعنى هذه الآية: جزءٌ من معنى آية التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ..﴾ [التوبة: ٢٤] المتضمِّنة لإنكار الذات. ويجوز أن يكون فيها تعريضٌ بمن انفضُّوا في آية الجمعة، ذكره في سورة «المنافقون» للمبالغة في التأنيب.

ثم تابع الإرشاد بالحضِّ على الإنفاق، وأن لا يسمعوا لأولئك المنافقين القائلين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، على نهج القرآن في تعقيب السلب بالإيجاب، والعكس، وأدمج فيه المبالغة في الحثِّ، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ(١) فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ(٢) أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾، فبيَّن سبحانه ما يَعْتري الإنسان من الحسْرة والندامة في ذلك الوقت العصيب، وأوقَفَه على جليَّة الأمر هزّاً له وتبصيراً، وقد بالغ في الهزِّ بقوله: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ مشيراً إلى أن هذا المال لله، فهو الذي أعطاه، إن شاءَ سلبه، وإن شاءَ أبقاه.

ومن مباحث اللفظ: قوله: ﴿وَأَكُن﴾ بالجزْم، عطفٌ على موضع الفاء وما بعدها؛ لأنها معه في موضع الجواب للتمنِّي المتضمن للشرط؛ إذ الكلام في عداد قوله: إنَّ أخَّرتَني أصّدّقْ وأكنْ من الصالحين.

= ومطالبهم التي لا تنتهي، اضطُرَّ أن يُنفق في ذلك كلَّ طاقات فِكرِه ونفسه، حتى تَمَّحي من تصوُّراته عقائد الإيمان وأوامر الله التي كلَّفه بها، ويحلّ محلّها مفهومات أهل النفاق ومطالبهم من الحياة الدنيا، فيتفق في مفهوماته وسلوكه معهم.

(١) المراد: مقدِّمات الموت.

(٢) ﴿لَوْلَآ﴾ حرف يدلُّ على طلب حصول ما بعده. ويعبِّر عنه العلماء عن معناه بكلمة (هلّا) بتشديد اللام. وهذا الحرف يجعل الفعل بعده مستقبلاً، وإن كان بلفظ الماضي. فالمعنى: أطلبُ أنْ تُؤخِّرَني.

وقرأ جمعٌ من الصحابة والتابعين بالنصب جرياً على اللفظ[١]، وقرأ بعضهم بالرفع على الاستئناف[٢].

ثم بالغ سبحانه وتعالى بالإغراء على التعجيل في الإنفاق وعمل الخير، ببيان أنه لا يؤخِّر من انقَضَت مدّتُه وحضر أجلُه، فقال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾، فلا تَتَباطؤوا عن عمل الخير وتَتوانَوْا فيه.

ثم بالغ في الحض بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ يُحصيه لكم، ثمَّ يجازيكم عليه، إنْ خَيْراً فخير، وإنْ شرّاً فشرّ.

* * *

(١) وهي قراءة ابن محيصن وأبي عمرو. «تفسير الطبري» (٢٣: ٤١٢)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦: ٢٩٣).

(٢) وهي قراءة عبيد بن عمير، كما في «الدر المصون» (١٠: ٣٤٦).



مختلفٌ فيها، أمكيَّة أم مدنيَّة

وهي ثماني عشرة آية

وملخَّص الغرض منها:

إنذارُ الكافرين بعذاب الدنيا والأخرى، وأخذُهم في ذلك بالترهيب والترغيب، كأمثالها من السور.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ مرَّ الكلام على مثل هذه الآية في أول سورَتَي الحديد والحشر، فارجع إليه.

ولما بيَّن سبحانه أنه يسبِّح له ما في السماوات وما في الأرض، بيَّن أنه خلق الإنسان مستعداً لذلك، ما لم يُفسِد هذا الاستعداد بمفاسد التربية وسوءِ القدوة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خلقاً بديعاً حاوياً الاستعدادَ لجميع مبادئ الكمالات العلميّة والعمليّة؛ إذ جعل للإنسان عقلاً يتصرَّف في أنواع شعوره، وفكراً يجول في طرق حاجاته البدنيّة والنفسيّة، وجعل ارتقاءَه في إدراكه وتسديد أفكاره كسبياً؛ ينشأ ضعيفاً، فيقوى بالتدريج، ويتطوَّر بحسب التربية التي تحيط به والتعليم الذي يتلقَّاه وتأثير حوادث الزمان والمكان والأسوة والتجارب، وجعل هدايةَ الدين بالشريعة أمراً اختيارياً لا وَضْعاً اضطرارياً، فهي معروضةٌ أمامه، يأخذ منها بقدر استعداده وفكره المتأثِّر بنوع التربية التي تربّاها، كما هو شأنه في ذلك عند الأخذ بسائر أنواع الهداية والاستفادة من منافع الكون.

هذه هي سُنَّة الله تعالى في خَلْق الإنسان، وهي منشأ اختلافه في الكفر والإيمان،

كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ أي: فكان منكم كافرٌ بالألوهيَّة وما يتبعها، وذلك بنتيجة إفسادِه لطبيعته وتحريف استعدادِه للإيمان، ﴿وَ﴾ كان ﴿مِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله، وذلك من محافظته على سلامة فطرته واستعداده للإيمان.

ثم ختم الكلام بما يُحذِّر عن الأُولى ويُغْري بالثانية، فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ فيُجازيكم بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً.

ومُحصَّلُ معنى الآية ما لمح إليه في سورة الشمس[1]: أنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، فكان مستعداً للخير والشر باختياره، فهو يفعل الخير إذا حافظ على سلامة فطرته، ويفعل الشرَّ إذا أفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فإذا حافظ عليها وزكَّاها سلك مسلك الهدى ونجا، وإذا أفسدها ودسَّاها اتَّبع طريقَ الضلال وهوى، فكلٌّ يعمل على شاكلته وتربيته، ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازي كلًّا بعمله، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

ومُجمَل معنى الآية: أن الله سبحانه الذي يُسبِّح له ما في السماوات والأرض هو الذي خلقكم في أحسن تقويم، فمنكم مَنْ قدَّر خالقَه وآمن به، وهو الذي حافظ فطرته، ومنكم مَنْ لم يُقدِّره وكفر بخالقه، وهو الذي أفسد فطرته.

ولما توعَّد الكافر ووعد المؤمن أيَّد ذلك ببيان أنَّ الله سبحانه لم يخلق هذا الكون عبثاً، ولكنه أمرٌ له ما بعده، فإنَّ تكوين هذا العالم وإبداع صورة بني آدم والعدول به عن صورة الحيوان الأعجم ـ ولا سيما في الروح والعقل واستعداد النظر ـ إنْ هو إلا أمرٌ مؤسَّس على قواعد الحكمة البالغة، مُسْتَتْبِع للغايات الجليلة، لا مُسْتَتْبَع للعدم

---

(١) في قوله سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

المحض كالحيوان، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالحكمة البالغة والغَرَض[١] الحق، وهو أن يكون لها النهاية العظيمة الشأن، في مصير هذا الإنسان.

﴿وَ﴾ كذلك خَلْقُكم العجيب أمرٌ له ما بعده، فقد ﴿صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٢] حيث عَدَلكم عن صُور الحيوان إلى صُورةٍ بديعةِ الجمال، مُستعدّةٍ لغاية الكمال ـ فإنه سبحانه «خلق آدم على صورته»[٣] سبحانه في العلم والعمل، كما جاء في الأثر ـ وإدراكٍ واسعٍ، ونظرٍ ثاقب، وقُدرةٍ على العمل تأتي بالعجائب، وكلام فصيح يُعبِّر عن الخواطر، وإرادةٍ مطلقة ناجمة عن تفكير؛ ليكون خليفةً في الأرض؛ يستفيد من خيراتها، ويعمِّر في جَنَباتها ما يزيد في كمالها وجمالها، يفعل بها ذلك بعلمه وعمله وإرادته، فكيف ينتهي مثلُ هذا نهايةَ الحيوان الأعجم، أو يكون عَبَثاً محضاً وعَدَماً صِرْفاً؟ ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

بل ينتهي إلى سعادةٍ أو شقاءٍ مع خلود دائم وبقاء، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ ولا تخفى عليه منكم خافية؛ لأنه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وقد قرَّر المعنى وأيَّده بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ أي: إنّ عِلمَه تعالى شاملٌ لجميع الأشياء، حتى المُضْمَرات المُسْتكنَّة في الصدور، فكيف تخفى عليه منكم خافية؟ كلا، بل يُحصيها كلَّها لكم، ثم يُوفِّيكم

---

(١) أفعال الله تعالى مقرونة بالحِكم لا مُعلَّلة بالأغراض، لأن الحكمة هي غاية الفعل، أما الغرض فهو باعثٌ على الفعل داعٍ له، فيكون له تأثير على الفاعل بحيث يُبطل اختياره وكمال إرادته أم يُنقصها على أقل تقدير، ولذلك كان الغرض منفياً في أفعال الله.

(٢) فيه إلماعٌ إلى أنَّ الكفر إنما يكون منه، بإفساده لهذه الخِلْقة الحسنة المُشْبعة بخصائص الإيمان، ومعرفة الرحمن، ومراقبة الدَّيان. (المؤلف).

(٣) سبق تخريجه (٢: ٦٨).

إيَّاها، فمن وَجَد خيراً فليحمد الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَ�ٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾.

ثم نبَّه الكفار إلى ما جرى على أمثالهم في الأمم الماضية، تهديداً لهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح، عارضوا رُسُلَهم ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾.

ثم ذكر على وجه التعليل صورةَ المعارضة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[1]؟ ينكرون رسالة البشر، ولا ينكرون عبادة الحجر، وهكذا شأن مَنْ يرسخ فيه الضلال، وقد تمكَّن منهم، ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ عن النُّذُر، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عن إيمانهم، ولم يُؤثِّر ذلك في أرضه وسماواته أدنى شيء، ولكنْ كان كفرُهم وتولِّيهم سبباً لهلاكهم وقطع دابرهم.

ثمّ علَّل الاستغناء عن إيمانهم وعدم الاهتمام له بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾ أي: غنيٌّ عن العالمين وعن إيمانهم، مُسْتَحِقٌّ للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد، لِعِظَم نِعَمِه وآثاره.

---

(١) ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ...﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري المُشْرَب معنى التعجب.

وقد جاءَ في الحديث القدسي: «يا عبادي، لو أنَّ أوَّلكم وآخركم كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، ولو أنَّ أوَّلكم وآخركم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم، ثم أُوفِّيكم إيَّاها، فمَنْ وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه»[1].

ثم خصَّ بالذكر مِن كُفرِ هؤلاءِ المعارضين إنكارَهم للبعث، وردَّه عليهم بطريقة التقرير لا بطريقة التدليل؛ لأن ذلك قد بيَّنه سبحانه بياناً طويلاً عديداً، فلا حاجة إليه بعد كثرة البيان، وإنما قرَّره وأدمَجَ فيه التوعُّد، فقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ﴾ وتُحاسَبُنَّ عليه وتُجزَون به، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ البعثُ والجزاء ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾.

وبعد هذا الوعيد المسبوك على التبصرة والتنبيه، دعاهم إلى ما فيه الخير والسعادة، وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَاۚ﴾ وهو هذا القرآن العظيم الذي يهدي إلى سعادة الدارَيْن، ويضيء الطريق الموصل لها، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨﴾ فيُجازيكم بالإحسان إحساناً، وبالسُّوء سوءاً.

ثم ذكر اليوم الذي يكون فيه الجزاء، فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ﴾ وهو يوم البعث والحساب.

ثم وصف ذلك اليوم بوصف آخر، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾، وهذا الوَصْفُ مُستَعارٌ من الغُبْن في البيع والشراء[2]؛ إذ يكون الخاسر في ذلك اليوم مغبوناً، والرابح

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) تقول العرب: غَبِنَ فلان الشيء ـ بفتح الغَين وكسر الباء ـ غَبَناً ـ بفتح الباء ـ أي: نَسيَه، أو =

غابناً، ولا غَبْنَ أفظعُ من هذا الغبن وأعظم، ولذلك خصَّ هذا اليوم بهذا الوصف؛ للإيذان بأنَّ التغابن الحقيقي هو ما يقع في الدنيا، فيلوم الكافرُ نفسَه لِـمَا يرى من غُبنه وخسرانه، ويلوم المؤمنُ نفسَه لِـمَا يرى من غبنٍ بالنسبة إلى من هو فوقَه[1]. وهذا هو معنى لَوْم النفس اللّوامة، كما جاء في سورة القيامة، على أحد المعنيَيْن فيها.

وقد روي عن النبيِّ ﷺ: «ما من عبدٍ مؤمن يدخل الجنة إلا أُريَ مقعدَه من

= أغفله، أو جهله. وتقول العرب أيضاً: غَـبَنَ زيدٌ غيرَه بوزنِ ضرب: إذا مرَّ به وهو واقف أمامه ولم يـرَه. فالمعنى: يوم التـناسي والذهول الذي يحصل بين الناس، وهو يوم القيامة من شدَّة الهول. قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠-١٤]. وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

أو المعنى ـ كما قلت في تفسيري «المعين» ص٥٥٦ ـ: ذلك اليوم الذي يخسر فيه الكافرون والعصاة منازلَهم ومراتبَهم التي كانت مُعدَّةً لهم في الجنة، وكانوا يستحقُّونها لو أنهم آمنوا وأطاعوا، فيقع عليهم الغَبْنُ الذي غَبنوا به أنفسَهم؛ إذ يورث الله عزَّ وجلّ المؤمنين مراتبهم ومنازلهم فيها، وهو يومٌ تظهر فيه خَسارة صفقة الكافرين خسراناً عظيماً، ورِبْح صفقة المؤمنين رِبحاً عظيماً». انتهى.

فالتغابن: الغَبْن وهو فَقْدُ النصيبِ وضياعُ ما كان ممكناً. وتغابُن: تفاعُل، مصدر: تغابَن، والزيادة في «تغابن» للمبالغة؛ لأنه من طرفٍ واحدٍ وليست للمشاركة، إذ الكافر ليس له فيه نصيب إلا الخسارة. «المُفَصَّل» لفخر الدين قباوة ص ١٩٦٧.

(١) ما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى من لوم المؤمن نفسَه فيه نظر، فإن الله تعالى إذا أدخل المؤمنين الجنة، وأنزل كلَّ واحد منهم منزلته رضّاهم بمنازلـهم، كما قال سبحانه: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، فلا يلومُ أحدهم نفسه، بل يكون سعيداً تمام السعادة، راضياً تمام الرضا، وقد أخبر سبحانه في مواضع من كتابه عن وصف أهل الجنة بأنهم ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وينظر ما ذكرته في معنى التغابن في التعليقة السابقة.

النار لو أساء؛ ليزدادَ شكراً. وما من عبد يدخل النار إلا أُري مقعدَه من الجنة لو أحسن؛ ليزداد حَسْرة»[١].

ثم وضَّح هذا التغابن، ورغَّب بعمل الخير الذي يربح به صاحبُه في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ والصفقةُ الرابحة.

وبعد أن ذكر مصير المؤمنين ذكر مصير الكافرين، على نهج القرآن في المقابلة؛ تحذيراً من غُبْن ذلك اليوم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ وقد لخَّص بهاتين الآيتَيْن صورةَ التغابن الذي سيقع في اليوم الآخر.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ثم هوّن على المؤمنين القائمين بأمر الدعوة ما ينالهم من جرَّاء ذلك من مصائب، وذكر السُّنّةَ العامة فيها، فقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتقديره وإرادته، حيث جَعَل في هذا الكون سُنناً في أسباب المصالح العامَّة والخاصَّة، ومعاكستُها والانحرافُ عنها يُولِّد المفاسد والمصائب[٢]، بحكم ردِّ الفعل، وهذه سنة عامة في

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٦٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) القول بالتولد غير صحيح، بل المفاسد والمصائب واقعة بإرادة الله تعالى وتقديره، ومخالفة سنن الله تعالى سببٌ أقامه الله تعالى وقرن به إيقاع هذه المفاسد والمصائب، لكن لما كانت هذه المفاسد واقعة بسبب من بني آدم لم تنسب إلى إرادة الله تعالى مطلقاً، وكان الأدب معه تعالى أن ينسبها العبد إلى نفسه.

الكون، فإذا نظر العاقل إلى سائر الشرور والمصائب التي تقع في العالم الإنساني من كليَّة وجزئيَّة، فرديَّة أو عموميَّة، لم يجد لها علَّة إيجابيَّة، ولكن عللاً سلبيَّة، هي الإعراض والميل عن قوانين الفطرة والانحراف عن سنن الله في خليقتـه؛ إذ قد أذن الله لقانون الفطرة والطبيعة أن يعاكس من عاكسه وانحرف عنه، وأن يصيبه بأذى[1]، حسب ترتيب نظامه وتكوينه.

وقال البلخي: معنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أن يُخلِّي الله بين المصائب وبين من يتصدَّى لها. وهذا هو مؤدَّى ما ذكرناه من أنَّ المصائب تقع بفعل الإنسان نفسه، أي: وذلك من معاكسته للسنن.

وقيل: بل معنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: بعلم الله، أي: لا تصيبكم مصيبة في سبيل الدعوة إلا والله عالم بها أزلاً؛ لأنَّ عِلمَه في الكائنات أزلي قبل وجودها.

ثم بيَّن أن الإيمان الصحيح مصدرٌ للطمأنينة والثبات تجاه المصائب الحادثة، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ للثبات عند حلولها، ويَعلَمْ أن ذلك من تقصيره في قانون الفطرة الموضوع عن علم وحكمة، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ وكلُّ أعماله مبنيَّة على العلم الدقيق والحكمة البالغة، وما يعلمه لا يتبدّل، لذلك قال ﷺ: «اعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليُخطِئَك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبَك»[2].

وبعد أن أشار إلى أنَّ المصائب ناشئة عن معاكسة سُنَنِ الله في هذا الكون، سواءٌ كانت ماديَّة أو روحيَّة، أمرهم باتِّباع تلك السُّنن والتعاليم التي جاءَتهم على لسان

---

(١) وهذا فيه نظر كالذي قبله، فمعاكسة السنن هي سبب في إصابة الإنسان بالأذى، وهو واقع عليه بإرادة الله وتقديره، لكن بسبب الإنسان وكسبه، ففعل الله مطلقاً لا يوصف بالأذى، ولكن من حيث هو بكسب الإنسان يوصف بذلك.

(٢) رواه أحمد (٢١٥٨٩) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي.

الرسول ﷺ، فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما جاءَكم به من عند الله، ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ وقد فعل وقام بواجبه، وأعرضتُم ولم تقوموا بواجبكم، فالتَّبعةُ عليكم وحدَكم. وفيه أيضاً لونٌ من ألوان إقامة الحُجَّة على المُعْرِضين أصحابِ الجحيم، بعد أن بيَّن لهم الحجَّة الواضحة على لسان رسوله الأمين.

ثم ذكر أهمَّ ما في ذلك البلاغ مَخْضاً للنتيجة، وساوَقَ به السياق، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ ولا يُعيقهم عن القيام بواجبهم نحو هذه الدعوة ما يستهدفون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

وبعد أن هوَّن سبحانه وتعالى ببيان هذا القانون العام، أمرَ المصائب والنوازل التي تعترض الدعوة إلى الإسلام من الأعداء والمعارضين، حذَّر من الأزواج والأولاد الذي يصدُّون الآباء عن ذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال الكلبي: كان الرجل إذا أراد الهجرة تعلّق به بنوه وزوجتُه، فقالوا: أنت تذهبُ وتذرُنا ضائعين، أو: لا نجد هناك ما نعيش به. ومنهم من يطيع أهلَه ويقيم، فحذَّرهم سبحانه من ذلك[1]، ومنهم من لا يهاجر

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٥٥٦).

خوفاً أن تضيع عياله بعده. وسُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية، فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة، أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة، فلم يَدَعْهم أزواجُهم وأولادهم[١].

وكان بعض هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا بالهجرة وفقهوا بالدين، همَّ أن يُعاقب زوجتَه ووَلَدَه الذين منعوه الهجرة، لا سيما بعد أن وصفهم الله سبحانه بالعداوة لهم، لذلك أردفه سبحانه بقوله: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ [٢] فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٤٢٣).

(٢) «تعفوا»: أي: لا تعاقبوهم على ذنوبهم القابلة للعفو. و«تصفحوا»: أي: تُعرِضوا عن توبيخهم، و«تغفروا»: تستروا إساءتَهم إليكم، ولا تُطلِعوا عليها أحداً.

قال الأستاذ إبراهيم البنا رحمه الله: «ومن الترتيب البديع في آي القرآن الكريم ما نراه في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهو ترتيبٌ قصدَ به التدرُّجَ والترقي بخَلقِ المسلمينَ في معاملةِ أعدائهم، فيما يخصُّ أمرَ أنفسِهم، ولا ينال أمراً عاماً من أمور المسلمين، وذلك أنَّ النفسَ تميلُ إلى الانتقام، فدعا الله المسلمين إلى أن يتجاوزوا عن إساءةِ المسيء إليهم، ورَقيَ بهم من منزلةٍ إلى أخرى أسمى منها، وكانت المنزلة الأولى منزلةَ العفو، والمنزلةُ الثانية منزلة الصفح، وعُليا هذه المنازل المغفرة.

فأما العفو: فهو تَرْكُ المعاقبةِ على الذنب، وربما يكون مصحوباً بتقريعٍ ولومٍ لِمَن أذنب في حقِّك، ومصحوباً أيضاً بذِكْرِ ذلك الذنب في الناس وإشاعتِه.

وأما الصفح فرتبةٌ أعلى من مرتبة العفو، لأنَّ مَن صفح يُعْرِض عن مواجهةِ المذنبِ بذكر ذلك الذنب، ويُعرِضُ عن لَومِه، ذلك أنَّ الإنسانَ إذا أعرضَ عن شيءٍ ولّاه صَفحةَ وجهِه، أي: جانبه وعارضه. وذلك كناية عن عدم الحديث معه، فأمّا العفو فقد يكون فيه لومٌ وتوبيخ، ومن هنا كان الصفح مرتبةً فوق مرتبة العفو، وهو معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. =

ثم أردف هذا الحكمَ الخاصَّ بحكم عام يشمله وغيرَه، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ واختبارٌ يتبيَّن بهم مقدارُ ما قد بقي فيكم من استقامة الفطرة ونور البصيرة في استئثار طاعة الله عليهم. ثم رغَّب في ذلك، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ فلا تُؤْثروا الدنيا على ما عند الله. وجماعُ هذه الآية: آيةُ التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ...﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم أتى بالآية الآتية تأييداً لِـمَا قبلها وتمهيداً لِـمَا بعدها، وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، والاستطاعة في نهج القرآن إنما تكون لأقصى القدرة لا لأدناها، أي: ابذلوا جهدكم وطاقتكم في ذلك، ولا تتركوا من استطاعتكم شيئاً؛ لأن تقوى الله ربح رابح، يُغْبَنُ من فَرَّط فيه أو قصَّر، فابذُلوا جهدكم في تقوى الله، ﴿وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ ما يأمركم به وينهاكم عنه، وخصَّ الإنفاق بالذِّكر، فقال: ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ مبالغةً في الاهتمام به، وضمَّن ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ معنى: افعلوا، ويجوز أن تجعل ﴿خَيْرًا﴾

= لكن مَن صَفَحَ قد يَذكُرُ ذلكَ الذنب للناسِ شاكياً لهم ومتألِّماً، فأمرَ المسلمَ بِغَفْرِ ذلك الذنب وسَتْره، وهو أعلى الدرجات في التجاوز عن الذنب، وصاحبها ينبغي أن يتحلى بالصبر، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وأنه إذا كانت المغفرةُ أعلى المراتب، والصفحُ دونها، ودونهما العفو، فلماذا يَسلكُ في تقديمها هذا المسلك؟ وهلّا قدَّمَ الأفضلَ لفضلِه وكماله؟ والإجابة: أنَّ الذي دعا إلى الترتيب على هذا النحو ما قدَّمناه من أنه قُصِد التدرُّج والترقي بأمر المسلمين في معاملاتهم لأعدائهم. وقد روعي هذا الترتيبُ حيثُ ذكرَ الله تعالى العفوَ والصفح، يقول تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وقال: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩] . فليس كلُّ موطنٍ يتقدَّم فيه الأفضل لفضلِه، بل قد يَعْرِض من الأسباب ما يجعل غير الأفضل أولى بالتقدّم. ويُمكِن القول في هذه الآية المتقدمة أنه روعي في الترتيب الرتبة، فالعفو أقرب للصفح، وهذا أقرب للمغفرة.

خبراً لـ(يكن) المحذوفة. ثم ذيَّل الأمر بالإنفاق بما يحثُّ عليه، فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ وقد تكرَّرت هذه الآية في القرآن زيادةً في التنبيه على استعداد النفس للشحِّ، وطلب الوقاية منه، لأنه يُسيء التأثير في النفوس إلى حدّ بعيد، والشحُّ يكون في الأعمال أيضاً. وقد جعل هذه الآية تأييداً لِـمَا قبلها وتمهيداً لِـمَا بعدها، فرغَّب في الإنفاق بأبلغ صورة تهزُّ النفوس، ووَعَد عليه بمضاعفة الأجر وغفران الوزر، فقال: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ هَفَواتِكم، وقد مرَّ الكلام على مثل هذه الآية في سورة الحديد[1]، فارجع إليه.

ثم ذيَّل السياق بما فيه تعليقٌ عليه وعلى السورة أجمع، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل في مقابلة النَّزْر القليل، ﴿حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ يصبر على المعارضين، ولا يُعجِّل لهم العقوبة، رجاءَ أن يثوبوا إلى رُشْدهم، وذلك من علمه وحكمته، وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فأعماله كلُّها مَبْنيةٌ على دقَّة العلم وبالغ الحكمة، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾، والتعرُّض لوصفي العزَّة والحكمة، للإشارة إلى أنَّ أناتَه في المعارضين وإمهالَه لهم، لم يكن عن عَجْزٍ في القدرة، ولا عن قهر للإرادة، ولكنه جارٍ بمقتضى الحكمة البالغة.

* * *

(١) يعني الآية ١١ منها.



مدنيّة، وهي اثنتا عشرة آية

ومُلخَّص الغرض منها:

بيان عِدَّة الطلاق، إبطالاً لأحكام الجاهليّة الجائرة في ذلك.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال الحسن وغيره: نادى سبحانه نبيَّه ﷺ، ثم خاطبه بخطاب الجمع ليتناول أُمته. أقول: فهو من خطاب الخاصِّ مُراداً به العموم، على خصائص اللغة في خطاب المرؤوسين بشخص الرئيس، فقد خصَّص النداء وعمَّم الخطاب؛ لأنه ﷺ إمامُ أُمته ورئيسُها، فنداؤه كندائهم.

والمعنى: إنْ أردتُم طلاق النساء ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[1] أي: لزمان عِدّتِهنَّ، لأن اللام في الأزمان وشبهها للتوقيت، وذلك أن يُطَلِّقها في طُهْر لم يجامعها فيه، كما

---

(١) العدة: فترة من الزمن لانقضاء ما بقي من آثار الزوجية، ولا سيما ظهور الحمل، وإذا كان الطلاق رجعياً خصَّت العدة بأن يعيش الزوجان في بيت واحد، ينفق عليها، ولا تحرم عليها الزينة فيها، فإذا كان بقية من أمل أو محبة يظهر أثرها في هذه الصورة، فتكون وسيلة لإمعان الفكر ولعَوْدة الألفة والمحبة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. (المؤلف).

فسَّرته السنَّة، فهذا هو الطلاق للعدَّة؛ لأنها تعتدُّ بذلك الطهر، بمعنى: يُعَدُّ من عدّتها وتباشر العدّة على أثر الطلاق، فلا تَضرَّرُ بطول المدة. وهناك حكمة أُخرى، وهي أن الرغبة الجنسيّة تكون في الطهر وافرة منها، وغير ممنوعة منه، فإذا طلَّقها فيه يكون دليلاً على استحكام النُّفرة، بخلاف الحيض، إذ تكون الرغبة ممنوعة منه، وفاترة منها.

ثم أمرهم بإحصاء العدَّة وضَبْطها، فقال: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: ثلاثة أقراء، وحذَّرهم من الإضرار بالمُطلَّقات مُذكِّراً بالاسم الجليل والوصف الجليل؛ مبالغةً في التحذير، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: في تطويل العدة والإضرار بالمطلَّقات، وكذلك ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: لا يجوز للزوج أن يُخرج المطلَّقة رجعياً من مسكنها التي كانت تسكنه قبل الطلاق في داره، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ من نفسهن، وفي ذلك غايةٌ واضحةٌ هي فَسْحُ المجال للزوجين في إعادة العلاقة بينهما، وتخفيف حدَّة الخلاف، فتكون وسيلة لعودة الألفة والوفاق، ولذلك لم يُحرِّم الله عليها الزينةَ وتوابعها.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ مُختَلَفٌ في بيانه؛ فالمرويُّ عن ابن عباس وابن عمر: أنه تعليل للنهي الأول بصورة استثناء، وقيل: هو تتميم للنهي الثاني بوصف مبشِّع له. والمعنى: لا يَخرُجْنَ من نفسهنَّ؛ لأنَّ ذلك فاحشة منهنَّ، والفاحشة: كلُّ معصيةٍ لله تعالى ظاهرةٍ بيّنة.

وعلى هذا، يكون مفاد التركيب: لا يَخْرُجْنَ إلا أن يرضين لأنفسهن بهذه الوَصْمة، وهي أنهنَّ يكُنَّ قد أتين بفاحشة مبيِّنة؛ لأنَّ الخروج معصيةٌ لله، وكلُّ معصية لله ظاهرة فهي فاحشة مبيِّنة.

وعلى الأول، هو بيانٌ للسبب المبرِّر للإخراج، والاستثناء على بابه. والمراد

بالفاحشة: أن تؤذي أهل زوجها إيذاءً لا يطاق، أو أن تأتي بالزنى أو دواعيه، والمعنى: لا تُخرجوهنَّ إلا أن يأتين بفاحشةٍ ظاهرةٍ لا تطاق.

ثم توعَّد مَنْ يخالف هذه الأحكام، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضها للعقاب[1].

ثم ذكر الحكمة في عدم الإخراج، فقال: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝١﴾ كأنْ يتغيَّر رأيُ الزوج لرجعتها، وتعودُ الألفة والمحبة. فإن لم يحصل ذلك الأمر ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: شارَفْنَ آخرَ عدَّتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: فراجعوهنَّ وأمسِكوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وذلك بإيفاء الحق واتِّقاء الضرر، ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الرجعة أو الفرقة.

قال المفسرون: أُمروا أن يُشْهِدوا عند الطلاق وعند الرجعة شاهدَيْ عَدْل، وقيل: عند الطلاق فقط. وفي ذلك فائدة أُخرى فوق تحقُّق الإثبات، وهي أنَّ هذَيْن العَدْلَيْن إذا حَضَرا قد يحملان المطلِّق على مراجعة نفسه قبل إيقاع الطلاق، فيُعرِض عن ذلك ويراجع.

ثم خاطب الشهود أن يُؤدُّوا الشهادة على وجهها، وحذَّرهم من التلاعب والكتمان، فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾، ثم كرَّر الحثَّ على التمسُّك بهذه الأحكام، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

ثم أوصى الطرفين بتقوى الله، وأداءِ هذه الواجبات، وبالتوكّل على الله، لينالوا لُطفَه، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ من المضائق التي يقع فيها، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من وجهٍ لم يكن بالحُسْبان.

---

(١) أي: ومَنْ يتجاوز هذه الأحكام، فقد ضرَّ نفسَه وظلمَها، وأوردَها مَوْرد الهلاك. والنهيُ عن تجاوز حدود الله نهيٌ تحريميٌّ؛ لأنه لا يدخل فيها إلا بأن يمسَّ منطقة الحرام.

وهذا ناظرٌ إلى نوع من الشقاق، يكون من الفقر وضيق النفقة. وما قبله عامٌّ يشمل سائر الأنواع، فهو من إجراء الكلام على خاصٍّ بعد إجرائه على عام، وذلك من أساليب القرآن.

ثم شجَّعهما على المضيِّ إن أرادا الفراق، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ ومُنفِذُه، لا يفوته مراد، ولا يُعجزه مطلوب، ولكن ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ وأجلاً ينتهي إليه، وقيل: بل المعنى: إنه تعالى بيَّن لكلِّ شيء مقداراً بحسب المصلحة في الإباحة أو الإيجاب أو المنع أو التأجيل أو الإنجاز.

ويفيد عمومُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أنَّ من اتقى معاكسة السنن الطبيعيّة التي وضعها سبحانه في هذا الكون؛ سَلِمَ من العِثار. فإنْ أخذ بالأسباب الطبيعيّة التي وضعها الله لنيْل الرزق في هذه الحياة، واتَّقى الأسباب العكسيَّة التي تؤدِّي إلى الفشل؛ نال الرزق الرغيد والحال السعيد، فمن أراد الدنيا وسَعَى لها سَعْيَها على الوجه الصحيح بمقتضى السُّنن الكونية؛ نالَ مُبْتغاه. وهكذا الأمر في حالة الآخرة؛ مَنْ سعى لها سعيها، وتمسَّك بالأسباب التي وضعها الله لنيْل السعادة فيها؛ نال السعادة الكبرى، ومن أعرض عنها شقيَ في الأخرى شقاءً لا مزيدَ عليه. والمراد من هذا البيان: تشجيع المرأة بعد الطلاق. والله أعلم.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾.

وبعد أن ذكر الطلاق وذكر العدّة، بيَّن اختلاف أحوال النساء، فقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ فلا تدرون: لِكبَرِ ارتفع حيضُهُنَّ أم لعارض؟

﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾، والمراد بهنَّ: اللواتي تحيض أمثالهن؛ لأنهنَّ لو كُنَّ في سنٍّ لا تحيض أمثالهنَّ؟ لم يكن للارتياب معنىً، ﴿وَ﴾ سوَّى بهنّ في الحكم المراهقاتِ ﴿ٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ بعد، أي: واللائي لم يحضْنَ إن ارتبتُم أكان ذلك لعدم بلوغ المحيض أم لعلة؟ فعدتهنّ ثلاثة أشهر أيضاً. ويجوز أن يُخَصَّ قيدُ الارتياب بالصنف الأول.

ثم ذكر عدَّة الحاملات، فقال: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وقد اختلفوا في هذا الحكم لأُولات الأحمال، فقال بعضهم: هو خاصٌّ بالمطلَّقات كما يقتضيه السياق وتقتضيه السورة، فلا يعارض قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]؛ لأنها خاصَّة بالمتوفّى عنها زوجها، ومن أرباب هذا القول: عليّ رضي الله عنه[١]. وقال بعضهم: هو عامٌّ يشمل المتوفَّى عنها زوجها أيضاً، ومُخَصِّصٌ لِـمَا في سورة البقرة؛ لأنها نزلت بعدها، ومن أرباب هذا القول: ابن مسعود رضي الله عنه، وممّا يدلُّ عليه خبر سبيعة بنت الحارث الأسلمية، وَلَدَتْ بعد وفاة زوجها بليال، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لها: «قد حَلَلتِ فتزوَّجي»[٢].

وعند ابن عباس رضي الله عنهما: عدّةُ الحامل المتوفَّى عنها زوجها: أبعَدُ الأجلَيْن، عملاً بالآيتين[٣].

ثم هوَّن على المطلَّقة أمرها ورغَّبها بالتمسُّك بهذه الأحكام، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالتمسُّك بأحكامه ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ أي: يُسَهِّل عليه أمرَه ويوفِّقه للخير؛ لأن أحكام الله كلَّها خير ورفاه.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٥: ٧٩).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٩٩١)، ومسلم (١٤٨٤).

(٣) «تفسير الرازي» (٣٠: ٥٦٣).

وبعد أن بيّن نتيجة هذه الأحكام وفوائدها في الحياة الدنيا، بيّن ثمرتها في الآخرة، وسَبَك العبارة على وجوب الاهتمام بهذه الأحكام، وساوَقَ بها السياق، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالمحافظة على أوامره ونواهيه، ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾ بمضاعفته له، فَضْلاً منه ومنَّةً كبرى.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾.

ثم بيّن سبحانه واجباتِ المطلَّقة وحقوقَها في النفقة والسُّكنى، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: بعضَ مكان سُكْناكم الذي تسكنونه ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: مما تُطيقونه وتقدرون عليه وتجدونه، ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في السُّكنى، ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ وتُلجِئوهُنَّ إلى الخروج، ﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلَّقات ﴿أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيَخرُجْنَ من العدة، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد انقطاع النكاح ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع، ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: تَشاوروا واتَّفقوا على الشكل الذي يلائمُ الطرفين، ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ ولم تتفقوا ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ أي: فلْتُرضع له مرضعةٌ أُخرى غير أُمِّه. وإنما أورد الأمر على صورة الخبر؛ ليكون فيه تأنيبٌ للأم. والله أعلم.

ثم رغَّبَ سبحانه أهل السَّعَة بسَعَة الإنفاق على المرأة المُطلَّقة المرضعة، ورَخَّص لأهل الضيق أن ينفقوا بمقدار وُسْعِهم، فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ

﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ وإن قلَّ، أي: ليُنْفق كلُّ واحد من المُوسِر والمُعْسِر ما يبلغُه وُسْعُه، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[1].

ثم هوَّن على أهل الضيق ضيقَهم بما وعدهم سبحانه بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾، ففيه تسليةٌ للفقير، وعِدَةٌ له بالترفيه. وقيل: بل كان الغالب في ذلك الوقت الفقر والفاقة بسبب الهجرة، فأعلمهم سبحانه أنْ سيَجعَلُ بعد عُسْرهم هذا يُسْراً مرفَّهاً سعيداً.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾.

---

(١) أي: لا يُكلِّف الله نفساً في النفقة إلا ما آتاها من الجود والسخاء، فلا يُكلَّف الجواد الكريم مثل ما يُكلَّف الشَّحيح في النفقة، سيجعل الله بعدَ ضيق وشدَّة غنىً وسَعة.

دلَّت هذه الآية على أنَّ التكليف والمسؤوليَّة على مقْدار الهبة الربَّانيَّة، وما لا قدرة للإنسان عليه؛ هو خارجٌ عن دائرة مسؤوليَّته، فمسؤولية الإنسان المفطور على نسبة عاليةٍ من الشحِّ أخفُّ من مسؤولية الإنسان المفطور على نسبةٍ عاليةٍ من الكرم، وكلٌّ منهما تقفُ حدودُ مسؤوليَّته عندَ حدودِ استطاعتِه مغالبةَ نفسه، فمتى وصل إلى المستوى الذي لا يستطيعه، فإنَّ مسؤوليَّته عندئذ ترتفع، ولكن لا ترتفع المسؤولية في تكليف عام لاحَظَ فيه الشارع حدود الاستطاعة الموجودة لدى مختلف طبائع الناس، كالزكاة والنفقة الواجبة في باب البذل والإنفاق.

ثم أردَفَ السياق بما يحمل على التمسُّك بما فيه من أحكام الله تعالى ووجوب طاعته، على نهج القرآن في مزج الأحكام بالإرشاد والدعوة إلى الرشاد، أو العكس، وكلاهما لهذا الغرض، وسبك ذلك على التهديد لمن يخالف أوامر الله بما جرى على مَنْ كان كذلك في الأمم الماضية، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ[1] عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: أعرَضَت إعراضَ العاتي المعاند، وتمرَّدت على ما أمرها به الله، ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا[2] ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ[3] أَمْرِهَا﴾ بعذابِ الاستئصال في الدنيا، ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ هائلاً في الأخرى، فصَّله بعض التفصيل بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ بياناً لعذابِ الاستئصال في الدنيا، وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بياناً لِـمَا سيناهم من العذاب في الأخرى.

ثم التفت إلى أُولي الألباب مُحذِّراً لهم، ونادباً إيَّاهم، ومُنبِّهاً لهم بهذا البيان، وأدمَجَ فيه فضائل هذا الدِّين المبين زيادةً في الحثِّ على التمسُّك به، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتمسَّكوا كلَّ التمسُّك بما أنزله إليكم، إذ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ وأرسَلَ به إليكم ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

---

(١) «كأين»: كثير، «من قرية»: بيان لهذا الكثير.

(٢) ﴿نُّكْرًا﴾: أي: منكراً غير معروف عند الناس. فالمعنى: شديد لم يُعهد مثله.

(٣) ﴿وَبَالَ﴾: أصل الوبال: الثقل والشدة، الناتجة عن أمر. ومنه: طعام وبيل. أي: ثقيل على المعدة. ومطر وابل، أي: ثقيل القطر. ويستعمله العرب في كلِّ ما يُؤذي معنوياً؛ لأنه ثقيل على النفس.

ثم نوَّه بذلك الجزاء وألـمع إلى ثمرات تلك الجنان، فقال: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ قال الزجّاج: أي: رَزَقَه اللهُ الجنةَ التي لا ينقطع نعيمُها[١].

ثم أردَفَ هذا الوعد والوعيد ببيان قدرته، تحقيقاً لـها، وتقريراً لقدرته على إنجازهما، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ والسبع للتكثير[٢]. والمراد بها ـ والله أعلم ـ طبقات النجوم[٣]، لأنَّ كلَّ طبقة هي فوق التي تحتها بمسافات شاسعة، وتحت التي فوقها كذلك، ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ والـمِثلُ: ما يشبه غيره في صفةٍ واحدة أو أكثر، والظاهر أن الـممثَّل به مجرَّدُ السماوات دون العدد، فهو غير داخل في المثليّة، فالمراد: أنَّ الأرض شبيهة بأحد أجرام السماء، والله أعلم[٤].

---

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ١٨٨).

(٢) بل للتحديد، كما سبق بيانه تعليقاً في أول سورة البقرة (٢: ٥٦).

(٣) لا يجوز تأويل سبع سماوات إلى طبقات النجوم، فالسماوات سبع بالنص القرآني القاطع الذي ليس فيه احتمال ولا إجمال، والسماوات السبع طباق بعضُها فوق بعض. وأما الكواكب والنجوم فليست طباقاً قطعاً، بل هي هنا وهناك، كما أنَّ هذه النجوم والكواكب هي زينة للسماء الدنيا، ومن المعلوم أن زينة السقف غير السقف.

(٤) بيَّن القرآن الكريم عدد الأرضين، وأنها سبع أرضين، فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ينصُّ على المماثلة في كونها سبعاً؛ لأن المماثلة يجب أن تحمل على المذكور نصّاً. ويدل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يدل ظاهراً على أنها طباق، لأنه سبحانه وصف السماوات في بعض الآيات بأنها سبع طباق. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣] فالمماثلة تشمل الطبقية أيضاً. ويؤيِّد ذلك الكثير من الأحاديث الصحيحة التي تدل على أن الأرضين هي طباق بعضها فوق بعض، فمن ذلك ما رواه البخاري (٢٤٥٤) في «صحيحه» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقِّه خُسِف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»، فالظاهر من هذه الآية أنّ الأرضين سبع طباق غير متراكمة، بل كلُّ واحدة منها منفصلة عن =

و«مِن» للتجريد، على حدِّ قوله: وجدت منه بحراً، بمعنى: وجدتُه بحراً. أي: وخلق الأرض مِثلَهن، بمعنى: جعلها جرماً من تلك الأجرام، ومثلها في الشكل والتكوير والتجاذب وغير ذلك، ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمرُ الله وسُنَنُه ونظامه وقضاؤه وتدبيره وسلطانه بين هذه الأجرام التي منها الأرض، وذلك مثل استفادة ما عليها من المخلوقات حياةً ونماءً، من الشمس والقمر والرياح والأمطار وغيرها من عظائم المواهب والخصائص التي لا تُحصى، في حياتها ونموِّها وبقائها.

وقد ذكَّركم بذلك الخلق العظيم والتدبير الحكيم؛ ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأنه مُنفِّذ وعده ووعيده السابقَين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ فكان أثره وعمله على ما تَرَوْنَ من الدقَّة في نظام تلك الأجرام، ولا يخفى عليه من أمرِكم خافية، وسيجازيكم بالإحسان حُسْناً وبالسُّوءِ سوءاً.

وفي الآيةِ إيذانٌ بأنَّ الأرض جزءٌ من أجزاء السماء، وجُرْم من أجرامها[1].

ويقول العلم الحديث: في السماءِ عدَّة مجرّات، في كلٍّ منها شمس وأرض كما في مجرَّتنا، ولكن الإنسان مختصٌّ بأرضنا لا غير.

وقد ذكر العلم الحديث أيضاً: أنَّ الشمس تحيط بها سبع طبقات أثيرية شاسعة المدى، كلُّ طبقة منها أخفُّ من التي تحتها، وهكذا كل كوكب ونجم من الكواكب والنجوم المُنْبثَّة في هذا الكون العُلوي، تحيط به هذه الطبقات، ومثلهنَّ الأرض. ويقال

= الأخرى ومتباعدة، كما هو الشأن في السماوات السبع. وعلى هذا الظاهر جرى أكثر العلماء المحقِّقين وجمهور أهل العلم.

(١) ليس في الآية ما يدلُّ على هذه الدعوى، بل تدلُّ على أنَّ الأرضين سبع طباق، وهي قائمةٌ بإقامة الله تعالى لها في هذا الفضاء، وتحيط بها السماوات بعضها فوق بعض.

ـ والله أعلم ـ: إنَّ الطبقاتِ الأثيريةَ المحيطةَ بالأرض هي مسكن الأرواح بعد الموت، كلُّ واحدة مسكن لصنف بحسب أعماله في الدنيا. ولا يعلم هذا الغيب إلا الله.

وقال بعض أهل العلم: إن الأجرام السماويّة صنفان: صنف مُلتهب، وهو مصدر الضياء، ويسمَّى النجوم، وصنف كثيف مظلم، ينعكس عليه الضياء من غيره، ويسمَّى الكواكب، ومنه الأرض والقمر.

هذا ما خطر لي في تفسير هذه الآية، والله أعلم بمراده، فإن أخطأت فأستغفر الله، وإن أصبتُ فالحمد لله.

❊ ❊ ❊



مدنيَّـة، وهي اثنتا عشرة آية

ومُلخَّص الغرض منها:

بيان مظاهرة غَيْرة نسائية حدثت بين نساء النبي ﷺ لأسباب عائليّة بيتيّة، ممّا يحدث أمثاله بين الضرائر، فأدَّبهنَّ سبحانه وتعالى عن ذلك، ثم أدَّب سائر المؤمنين عن مثله. وبالغ في الحمْل على ذلك الأدب.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ[1] مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾[2] عن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كانت له أمةٌ يطؤها، فلم تزل به حفصة وعائشة حتى حرَّمها، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ..﴾ الآية[3].

أقول: وهذه هي مارية القبطية جاريتُه وأُمُّ ولده إبراهيم عليه السلام، وربما كان ذلك في أول الأمر ـ والله أعلم ـ قبل أن حملت بإبراهيم، فعَزَمَ على اعتزالها تخفيفاً

---

(١) ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ المراد: لأيِّ سبب تمتنع عن الحلال مع اعتقادك أنه حلال. لأنه ﷺ أعلم الخلق بأنه لا يجوز تحريم ما أحل الله. فالاستفهام للعتاب.

(٢) المراد: عائشة وحفصة فقط بدليل قوله تعالى: ﴿تَتُوبَآ﴾ و﴿تَظَٰهَرَا﴾، فالإضافة في ﴿أَزْوَٰجِكَ﴾ لجنس الزوجات الصادق بالواحد والأكثر.

(٣) رواه النسائي (٣٩٥٩).

لغيرتهنَّ. وفي قول: إن ذلك كان بعد ولادة إبراهيم، وغيرة أزواجه من ذلك، لا سيما وقد مال إليها بحكم هذه الولادة. والله أعلم.

وقد أردف هذا التأديب له ﷺ المُسْتتبع لوحشة العتاب، أردفه بإيناس العفو والمغفرة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١﴾.

ثم أمره سبحانه أن يعود إليها، وشرع تَحِلَّةَ اليمين، فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۝١﴾ ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يتولّى أموركم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُصلِحُكم فيَشرَعُه لكم، ﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ في أحكامه، فلا يأمركم وينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة البالغة. وقد جاء في تحلَّة اليمين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «من حَلَف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فَلْيأتِ الذي هو خير، وليكفِّر عن يمينه»[٢].

وقيل في تتمَّة السياق في القصة: إنَّ النبيَّ ﷺ قد استرسل مع عائشة وحَفْصة في الكلام، حتى ذكر لهما أنه يخلفُ من بعده أبو بكر وعمر، واستكتَمَهما الخبر. وقد جعل ذلك امتحاناً لهما ووسيلةً لإفهامهما أنهما لا يكتمان سراً، وتمهيداً لتأديبهما بما سيأتي. وقد حكى ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلع الله النبيَّ ﷺ على إفشاء حفصة للسِّرّ، فلمَّا اطَّلع عليه ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ قيل: هو حديث الإمامة، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لها: «ألم أقل لكِ: اكتُمي عليّ». قالت: والذي بعثك بالحق نبياً، ما ملكت نفسي[٣]. تعني:

---

(١) أي: تحليلاً تخرجون به من مسؤوليَّتها بالكفَّارة عنها، في سورة المائدة في الآية (٨٩) وهي: إطعامُ عشرة مساكين، أو كِسْوتُهم، أو تحريرُ رقبة، فَمَنْ لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

(٢) رواه مسلم (١٦٥٠)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٥٦٦)، ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢: ١١٧)، بنحوه، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فرحاً بالكرامة التي خصَّ الله تعالى بها أباها. ﴿وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ أي: عن تعريف بعض تكرُّماً، قيل: يعني حديث مارية.

وقد ذكروا في حديث مارية السابق وجهاً آخر، وهو أنَّ أزواج النبيِّ ﷺ اشتَدَّت غيرتُهنّ من مارية بعد أن ولدت إبراهيم، وكان ﷺ خلا بها في يوم حفصة وفي حجرتها، وكانت حفصة قد زارت أباها، فلما وقفت على الأمر غضبت، وقالت مُدلّةً على زوجها: أما رأيتَ لي حرمةً وحقاً، ما كنت تصنع هذا بامرأة منهنَّ، فأرضاها رسول الله ﷺ بتحريم مارية على نفسه، وبحديث الإمامة، واستكتمها الخبر، فلمّا نبّأت به، أظهره الله عليه، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ الذي لا تخفى عليه خافية.

وروي عن عائشة رضي الله عنها في آية التحريم صورة ثانية، وهي: أنَّ رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواطأتُ أنا وحفصةُ: أيتُنا دخل عليها النبيُّ ﷺ فَلْتقل: إني أجدُ منك ريح المغافير، أكلتَ مغافير؟ والمغافير: صمغ حلو غير جيد الرائحة، يغشُّ به العسل أو تأكل النحل منه، فيظهر الأثر في عسلها، فدخل على إحداهما، فقالت له ذلك، فقال: «لا، بل شربت عسلاً عند زينب، ولن أعود، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً». فنزلت الآية[1]. وكان ﷺ يكره ويشقُّ عليه أن يجد أو يوجد منه رائحة غير طيبة وإن قلَّت. هذا ما روي عن عائشة رضي الله عنها في آية التحريم.

ويجوز أن يكون الأمران واقعَيْن. والله أعلم[2].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٦٩١)، ومسلم (١٤٧٤).

(٢) مهما يكن من أمر الروايات في هذه القصة، فالآيات تتضمَّن صورة حادث بيتي وقع بين النبي ﷺ وبعض نسائه بدافع الغيرة النسائية، فأحبَّ أن يتصرَّف فيه بين اثنتين تصرُّفاً فيه =

وكان لهذه القضية ارتباك بين نساء النبي ﷺ ورجَّة بيتيَّة بدافع الغيرة، أدَّت إلى طلاق حفصة واعتزال نسائه تسعة وعشرين يوماً تأديباً لهنَّ، وقعد في مَشْرُبة مارية حتى نزلت آية التخيير من سورة الأحزاب، تُخيِّرهن بين رضائهنَّ معه بما تطمئنّ به نفسه ولا يتعارض مع مهمَّته وخُلُقه، وبين انصرافهنَّ عنه، فاختَرْنَ العيش معه على ما يريد. ولا تعارض مع ما جاء في سورة الأحزاب عن سبب نزول آية التخيير، إذ يجوز وقوع السببين معاً. ولـمّا رضينَ بما يريد استرجع حفصة، وعادَ إلى نسائه.

وقيل: إنَّ جبريل عليه السلام قال له: أرجِعْ حفصة، فإنها صوَّامة قوَّامة، وإنها زوجتك في الجنة[1]. وقيل: لم يطلِّقها ولكن عرَّض وورَّى في ذلك.

وقد أدَّبهما الله تعالى بقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والخطاب لعائشة وحفصة[2]؛ لأنهما كانتا سبب هذه الثورة. وقد علَّل طلب التوبة بقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[3]

= مسايرة ومراضاة، فاستغلّت إحداهما هذا الموقف الكريم منه، وأفشت ما حدَّثها أو ما وعدها به من كرامةٍ بدافع الطبيعة النسوية في حبِّ إظهار ما لها من الكرامة والمنزلة عند زوجها، لا سيما ذات الضرائر.

فآلـمه ﷺ ذلك الإفشـاء، وحزَّ في نفسه، فأوحى الله له بهذه الآيات التي فيها إرشادٌ وبيانٌ لطبيعة النساء، وتعليمٌ لصورة تأديبهنَّ، وكيفية معاشرتهنّ ومسايرتهنّ والتحمُّل منهنّ، وتأديبٌ لـهنَّ بما يجب أن يكُـنَّ عليه من الأخلاق وصفاء العشـرة وسلامة الطوية وأمثال ذلك. (المؤلف).

(١) رواه البزّار (١٤٠١)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وجاء بذلك ليكون مقدِّمة لمواجهتهما بالتهديد الآتي.

(٣) جاء في هذا الحادث عن الشـفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ وأنا عند حفصة، فقال لي: «ألا تعلِّمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة»، ورقية النملة مقال تأديبي يدور =

انحرفت ومالت قلوبكما عمَّا يجب عليكما في معاملة رسول الله ﷺ، وحبِّ ما يحبُّه، وكره ما يكرهه. والفاء للتعليل، أي: لأنه قد وُجد منكما ما يُوجب التوبة، وجواب الشرط محذوف، على نهج القرآن؛ لأنه يُفهَمُ من السياق والمقابلة، والتقدير: يكن خيراً لكما.

والمراد من الجمع للقلوب في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ التثنية، قال الفرّاء: وإنما اختير الجمع على التثنية؛ لأن أكثر ما يكون عليه الجوارح اثنان اثنان، كاليدين والرجلين والعينين، فلما جرى أكثره على ذلك، ذهب بالواحد منه إذا أُضيف إلى اثنين، مذهب الاثنين[1]، كأنّ لكلِّ واحد قلبين والمجموع أربعة.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ وهو مضارع محذوف التاء، أي: تتظاهرا، بمعنى: تتآمرا وتتعاونا على الوقيعة بينه وبين بقية نسائه، أو بما يسوؤُه مطلقاً، بدافع الإفراط في الغيرة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ[2] وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فكلُّهم يتولَّونه وينصرونه. قال ابن عباس: يريد بصالح المؤمنين: أبويهما أبا بكر

= بين النساء، وهو: للعروس تحتفل وتختضب وتكتمل، وكل شيء يفتعل، غير أن لا تعصي الرجل، فأراد ﷺ بهذا المقال تأنيب حفصة والتأديب لها تعريضاً؛ لأنه ألقى إليها سراً فأفشَتْه، على ما شهد به التنزيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ الآيات.

والنملة: اسم لمرض، وهو قروح تخرج من الجنب أو الجنبين. ووجه المناسبة في تسمية هذا المقال برقية النملة تشبيهُ بواعث الغيرة من المرأة للرجل بهذا المرض؛ لأن كليهما محلُّه الجوانب والجوائح، أحدهما في الداخل، والآخر في الخارج. هذا ما أراه في وجه المناسبة. والله أعلم. (المؤلف).

وحديث الشفاء رواه أحمد (٢٧٠٩٥)، وقال مخرِّجوه: رجاله ثقات رجال الشيخين.

(١) «معاني القرآن» (١: ٣٠٧).

(٢) المراد: ناصره. والأحسن أن يقف القارئ على ﴿مَوۡلَىٰهُ﴾ وما بعده مبتدأ خبره ﴿ظَهِيرٞ﴾ الآتية.

وعمر[١]. قالوا: لأن بيان مظاهرتهما له عليه الصلاة والسلام أشدُّ تأثيراً في قلوب بنتيهما، وتوهيناً لأمرهما، فكان حقيقاً بالتقديم على الملائكة الذين بيَّن عنهم بقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[٢] بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾[٣] قال أبو علي: ويجيء «فعيل» مفرداً يُراد به الكثرة، أي: فَوْجٌ مظاهر له من الملائكة، كأنهم يدٌ واحدةٌ على مَنْ يُعاديه. فماذا يكون شأن تظاهُر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظهراؤه، والله مَوْلاه وجبريل. وهذا أعظم تخويف وترهيب لهما.

ثم وجّه التأديب إلى عموم نسائه، وأجرى الكلام عليهنَّ وخوَّفهنَّ بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ في الصفات التي تُفاخِرْنَ وتُدلِلْن بها، وهي التي سَرَدَها بقوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ[٤] تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: مهاجراتٍ يُهاجرن إليه، وقيل: صائمات، وسُمِّي الصائم سائحاً؛ لأنه يسيح في النهار بلا زاد. ويجوز أن يكون بمعنى: زاهدات، من قولهم: ساح؛ إذا ذهب في الأرض للعبادة والترهُّب، فأراد به مجرَّد الزهد، من ذِكرِ الخاص وإرادة العام. والله أعلم.

ثم ختم الوصف بقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ لأنهنَّ كنَّ كذلك.

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٨٢٠) عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٤٣٤٩): فيه فرات بن السائب، وهو متروك.

(٢) ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ذكرها بعد جبريل من ذكر العام بعد الخاص.

(٣) الحكمة في هذا الوعيد الشديد للمتظاهرتَيْن، أنه أمر يتعلَّق ببيت رسول الله ﷺ، القدوة لبيوت المسلمين جميعاً، وما يجري فيه يستمدُّ المسلمون منه أحكام دينهم، ومناهج حياتهم الأسريَّة. فينبغي أن يُنزَّه هذا البيت من ألاعيب النساء وحيلهنَّ لكسْب قلب الزوج، وتحوُّله عن ضرائرهنَّ بدافع الغيرة النسائية.

(٤) ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: خاضعات خضوعاًتامّاً كما تقدَّم في الآية ٣١ من سورة الأحزاب: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ والمراد: تداوم على الخضوع التامِّ لربِّها سبحانه.

ومهما يكن من أمر الروايات في هذه القصة، فالآيات تتضمَّن صورة حادثٍ بيتيٍّ وقع بين النبيِّ ﷺ وبعض نسائه بدافع الغيرة النسائيَّة، وأنَّ اثنتَيْن منهما كانتا متآمرتَين فيه، وأنّ النبيَّ ﷺ أحبَّ أن يتصرَّف في الحادث تصرُّفاً فيه مسايرةٌ ومُراضاة، فاستغلَّت إحداهما هذا الموقف الكريم منه، وأفشَت ما حدَّثها أو ما وَعَدها به من الكرامة، بدافع الطبيعة النسويَّة في حبِّ إظهار ما لها من الكرامة والمنزلة عند زوجها، لا سيَّما ذات الضرائر، وإنْ آلمه هذا وحزَّ فيه نفسه حتى همَّ بتطليق نسائه، ثم أوحى الله إليه بهذه الآيات التي اكتفى بها بالتنديد والإنذار.

والظاهر أن هذه القصة نفس قصة الأحزاب، ذكر في كلٍّ واحدة بعضَ الوجوه دون بعض، على نهج القرآن في تكرار القصص، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾.

وبعد أن أدَّب سبحانه نساءَ النبيِّ ﷺ، أمر المؤمنين بتأديب نسائهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ وهذا الوصف

للتهويل والمبالغة في التحذير، وكذلك ما بعده. قال مقاتل: هو أن يؤدِّب الرجل المسلم نفسَه وأهلَه، ويعلِّمهم الخير، وينهاهم عن الشر[1]، فذلك حقُّ المسلم أن يفعله بنفسه وأهله وعبيده وإمائه.

ثم تابع وَصْفَ النار الهائل، فقال: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ وقد جمع بين الفعل ونفي ضدِّه لتقرير المعنى، على نهج القرآن في مثله.

وبعد أن ذكر شدَّة العذاب بالنار، واشتداد الملائكة على مَنْ فيها، أضاف إلى ذلك حكاية ما يقال لهم؛ مبالغةً في تحذير المؤمنين، وتمكيناً لإرشادهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ فلا ينفعكم الاعتذار ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾ أي: إنما أعمالكم السيِّئة ألزمتكم هذا العذاب، بمقتضى سُنَّة الله المكوَّنة بالحكمة البالغة والحقِّ والعدل.

ثم تابع السياق بما يناسبه، وهو الأمر بالتوبة من المعاصي المؤدِّية إلى هذه النار، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: خالصةً من شوائب الرجوع، أو بالغةً في النُّصح. وعلى المعنى الثاني، فقد وُصِفَت التوبة بهذا الوصف على طريقة المجاز في الإسناد؛ لأنه وَصْفٌ للتائبين، يُراد به أن ينصحوا بالتوبة أنفسَهم، فيأتوا بها على أكمل الصُّور وأصْدَقِها.

ثم علَّل الأمر بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

ثم ذكر اليوم الذي يكون فيه ذلك، واسْتَتْبَعَ ببيان تقرير السعادة لرسول الله ﷺ

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٥٧٢).

وأتباعه المؤمنين في ذلك اليوم، ترغيباً في طريقتهم، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وفي صورة التعبير تعريضٌ بمَنْ يُخزيهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق في ذلك اليوم، وتَمُنُّ على المؤمنين؛ إذْ عَصَمَهم من مثل حالهم. اللهمَّ اهدِنا لطريقة محمد وأصحابه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ثم تابع البيان عن سعادتهم في ذلك اليوم وكرامة الله لهم، فقال: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ [1] يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [2] اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ولما ذكر ثمرة هذا الدين العظيمة، حثَّ على نشره وكفِّ الأذى والإعاقة عن طريق الدعوة إليه، وأدمج فيه تهديد الكفار والمنافقين العائقين عنه، وبيان مصيرهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في جهادك لهم في الدنيا، ﴿وَ﴾ في الأخرى ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

ثم بيّن سبحانه وتعالى أنَّ قرابتهم للنبيِّ أو للمؤمنين لا تُجْديهم نفعاً في الآخرة، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ [3]

---

(١) أي: نورُهم الخاصُّ بكلِّ واحد منهم بحسب إيمانه وعمله الصَّالح، يسير أمامهم؛ لكشف طرقاتهم على مقادير سعيهم في طاعة الله ومراضيه في الدنيا، وهذا النور يبثُّونه ويوجِّهونه بأيمانهم.

(٢) أي: يقولون: يا ربَّنا أتْمِمْ لنا نُورَنا بسبب ما كان منا من تَقْصيرات وذنوب ارتكبناها في الحياة الدنيا، حتى نكون مع السابقين، واسْتُرْ علينا ذنوبنا، إنك على كلِّ شيء تشاؤه عظيم القدرة، إذا أردتَ شيئاً كان أسرع ما يكون.

(٣) ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾: العرب تقول: فلانة تحت فلان، كناية عن أنها في عصمتهن مهيأةٌ للتأثّر بأخلاقه وأفعاله.

مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾[١] والظاهر أنَّ ذلك بعدم الإخلاص بالإيمان بهما[٢] ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[٣] وفي هذا البيان وما تضمَّنه إلماعٌ إلى التعريض بأُمَّي المؤمنين حفصةَ وعائشةَ رضي الله عنهما لِـمَا فرط منهما، وتحذيرٌ لهما على أغلظِ الوجوه وأشدِّها.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَ﴾ بعد أن ضرب الله مثلاً للذين كفروا في عدم انتفاعهم في الآخرة من أقربائهم المؤمنين بامرأة نوح وامرأة لوط، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ في لزوم الصبر على الأذى في سبيل الدين ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وهي آسيا بنت مُزاحِم، ﴿إِذْ﴾ آمنت بموسى فعذَّبها فرعون أشدَّ العذاب، فصَبرت وفضَّلت الموت وهي مؤمنةٌ على الحياة وهي كافرة، و﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ بديلَ بيتي الذي أعيش فيه مذلولةً مفتونةً عن الدين، ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: من القبط التابعين له في الظلم.

---

(١) ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾: المراد: أخْفَتْ كلٌّ منهما الكفر، وأظهرَتِ الإيمان، وكانت تُساعد خصومَه سرّاً.

(٢) بل هو المُتيقَّنُ الذي لا ينبغي القول بغيره.

(٣) المراد: أخبرَتْهما الملائكة عند الموت بأنّهما من أهل النار، مسارعةً في إزعاجهما، كما تبشِّر المؤمن عند الموت، بأنه من أهل الجنة، مسارعةً في إدخال السرور عليه. كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

وضَرَبَ مثلاً آخر في ذلك مريمَ بنتَ عمران، إذ تحمَّلت في سبيل الله أشدَّ الأذى من قومها وأفظعَه، فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[١] وهو ذيل الثوب أو جيب القميص، يُكني به عن الطهارة والحصانة، ويردُّ به على المتقوِّلين عليها، ويُبيِّن أنَّ حملها إنما كان بإذن الله وبسُنَّة من سننه الطبيعيّة[٢]، وإن لم يُهتَدَ إليها، وتكريماً لها من أن يمسَّها إنسان، ومع ذلك كان عيسى إنساناً كاملاً؛ إذ يقول: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: كما نفخنا في آدم وفي سائر أفراد البشر من هذه الروح[٣]، فهو على وتيرتهم، وإن كانت سُنَّته الطبيعيّة غير سُنَّتهم[٤].

والإضافة في كلمة ﴿رُّوحِنَا﴾ على معنى المِلك، كما تقول: منحناه من مقتنياتنا الثمينة أو مصنوعاتنا الممتازة؛ لأنَّ الروح أكرم وأثمن ما عند الله من المخلوقات.

والتعبير بالنفخ عن خَلْق الروح ـ والله أعلم ـ للإشعار بأنَّ الروح جسمٌ لطيفٌ، وأنه مستقلٌّ عن البدن، لا ممتزج فيه، وأنَّ البدن كالظرف له والغلاف، وهو غير الحياة.

وقد جاء مثل هذه الآية في سورة الأنبياء[٥] فارجع إليها.

---

(١) أي: حفِظَتْه فكانت عفيفة.

(٢) بل بآية خارقة للسنن الطبيعية.

(٣) التي هي مخلوق من مخلوقات الله تعالى، وأضافه الله عز وجل إلى نفسه تشريفاً، أو على معنى الملك كما سيذكره المؤلف رحمه الله تعالى.

(٤) بل خَلْقُ عيسى عليه السلام كان معجزة خارقة للسنة الطبيعية، فالصواب أن يقال: وإن كان مخلوقاً بمعجزةٍ خارقةٍ لسُنَّتهم.

(٥) في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. وجاء بلفظِ التذكيرِ هنا في سورة التحريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ لأنَّ لفظَ التذكير عند العرب أخفُّ من التأنيث، وهاهنا تكرَّر =

ثم ذكر إيمانها، فقال: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ المنزَّلة، ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي: من عِدادِ المواظبين على الطاعة لله.

والتذكير للتغليب، وللإشعار بأنَّ طاعتها لم تَقْصُر عن طاعة الرجال الطائعين، حتى عُدَّت من جملتهم. أو المعنى: فكانت من نَسْل القانتين لأنها من أعقاب هارون أخي موسى عليهما السلام.

وعن النبي ﷺ: «كَمُلَ من الرجل كثير، ولم يَكْمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد. وفَضْل عائشة على النساء كفَضْل الثَّريد على سائر الطعام»[1].

وفي السورة بيانٌ لطبيعة النساء، وتعليمٌ لصورة تهذيبهنَّ ومعاشرتهنَّ والتحمُّل منهنَّ، وتأديبٌ لهنَّ بما يجب أن يَكُنَّ عليه من الأخلاق وصفاءِ العِشْرة وسَلامة الطويَّة.

* * *

= لفظ التأنيث بقوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ﴾ و﴿ٱبْنَتَ﴾، و﴿أَحْصَنَتْ﴾، و﴿فَرْجَهَا﴾، فناسب التذكير، تخفيفاً من زيادة تكرُّر التأنيث، وأما في سورة الأنبياء فلم يتكرَّر لفظ التأنيث كتكريره في (التحريم) فجاء مؤنثاً. كما أفاده البدر ابن جماعة في «كشف المعاني» ص٢٤٢.

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.



مكيَّة، وهي ثلاثون آية

ومُلخَّصُ الغرض منها:

الدعوة إلى الإيمان، مقرونة بالدليل تارةً، والترغيب أخرى، كأمثالها من السُّور.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: تَعاظَمَ وتعالى وتكاثَرَ خيرُه، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ تجري الأمور حسبما تقتضيه مشيئته المبنيَّة على الحِكَم البالغة.

وهو ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ على قوانين الحِكَم والمصالح والغايات الجليلة التي أشار إليها بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: فيُجازي المُحسِنَ بإحسانه والمُسيء بإساءته.

والآية تُؤْذِنُ بأنَّ الإنسان مختار في تصرُّفاته، وأنه ينال السعادة والشقاء بواسطة عقائده وأقواله وأعماله، وتُؤْذِنُ بأنَّ الحياة الدنيا وسيلة للآخرة، والسعادة والشقاء فيها تابعان طبيعيان لنوع العقائد والأعمال في الدنيا يترتَّبان عليهما ترتيب المعلول على العلَّة، والمسبَّب على السبب[1].

---

(١) تقدَّم في التعليق مراراً بيانُ أن سعادة الآخرة وشقاءها مرتَّبان على العقيدة والعمل في الدنيا ترتيباً شرعياً لا طبيعياً، بمعنى: أنه محكوم بإخبار الله تعالى بذلك في شريعته، لا بقانون طبيعي.

وقد عقَّب ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يفوته من أساء العمل، و﴿ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ أي: لمن تاب منهم وأحسن العمل، ومحا السيِّئ بالحسن.

ثم تابع الكلام عن قدرته البالغة المنجِّزة لذلك الوعد والوعيد، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[١] والمراد بها: طبقات النجوم[٢]، وبينَ كلِّ طبقة والتي تليها بَوْنٌ بعيد ومسافات عظيمة، والعدد للتكثير لا للتحديد[٣].

وقد مرَّ الكلام على الطبقات في آخر سورة الطلاق، وفي أول سورة المؤمنون، فارجع إليه.

وقيل: الطبقات: مصدر بمعنى المطابقة، والمراد به: المشابهة بين الأجرام السماويَّة في الشكل والكرويَّة والإتقان والانتظام والاتِّساق[٤].

---

(١) أي: بعضها فوق بعض، وبَيْنَ كل واحدة وأخرى أبعاد واسعة، وقد دلَّت أحاديث المعراج على أنها سبع طباق بعضها فوق بعض، وأن لها أبواباً، وعلى كل باب خَزَنة، وقد دلَّت الآيات القرآنية على أنَّ كل سماء لها أمرها الخاص بها، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢].

(٢) بل هي سبع سماوات بعضها فوق بعض كما جاء في سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [١٥]؟ وقد جعل الله عزَّ وجل السماوات السبع طباقاً، أي: جعل بعضها فوق بعض بتتابع، كثوب فوقه ثوب آخر، وهكذا إلى سبعة أثواب، أو مثل كرات متداخلاتٍ، فالكرة الوسطى فوقها كرة أخرى حولها، وهكذا إلى سبع كرات، كل كرة تاليةٍ تحيط بالكرة الداخلة فيها.

(٣) بل العدد للتحديد، كما تقدَّم بيانُه تعليقاً في مواضع. ينظر على سبيل المثال (٢: ٥٦).

(٤) المراد بالمطابقة: الموافقة والتساوي. تقول: طابقتُ بين القميصين، أو بين الثوبين. أي: لبست أحدهما على الآخر.

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[١] واختلال، ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾[٢] أي: من وَهْن وخَلَل وقصور.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: كرِّر النظر لتتحقَّق الأمر، فكلَّما بالغتَ في الإمعان والتفتيش عن القصور، ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: صاغراً محروماً من إصابة ما تلتمسُه من عَيْب وخَلَل، ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ أي: كليلٌ لطول المعاوَدة وكثرة المراجعة والنظر.

والمعنى: إنَّ بصر هذا الناظر الملتمس للعيب والخلل في خلق السماوات والأرض وما فيهما، يرجع بعد الإعياء خائباً في بُغْيته، خاسئاً في طلبته. والمراد بهذا البيان: نفي الخلل من كلِّ وجه وبكلِّ تأكيد وإتقان. جلَّت قدرة القدير العظيم الشأن.

ومُحصَّل الكلام: أنَّ كلَّ ما احتوت عليه هذه الأكوان السماويّة ـ بما فيها الأرض ـ من أوضاع دقيقة وأحوال بديعة وإتقان في العمل وسداد، يدلُّ دلالة واضحة على حكمة الخالق وتعاليه، وكثرة خيره وتساميه، واستحقاقه وحده لأن يُعبَد.

ويدلُّ ذلك على أنَّ تشريعه وتوجيهه للناس بهذه المثابة من النفع والإتقان والصَّلاح والكمال للإنسان، وأنه سبحانه قادر كلَّ القدرة على الإعادة والجزاء، بما بيَّنه سبحانه في ثنايا القرآن من سعادة وشقاء.

---

(١) ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ (من): حرف يُفيد النصَّ على عموم نفي ما بعده. والمراد بالتفاوت: التنافر وعدم التناسب.

(٢) ﴿مِن فُطُورٍ﴾ (من): كسابقتها. والفطور جمع فَطْر ـ بفتح فسكون ـ وأصله الشقّ. والمراد: الخلل.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن قدرته وعظمته في أعماله فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[1] وإنما قيَّد السماء بالدنيا للإشارة إلى أنَّ ما نراه من الأجرام العلويّة إنما هو القريب منا والذي تحت نظرنا، وأنَّ ما نُبصِرُه بالنسبة إلى ما لا نُبصِرُه قليلٌ من كثير، وإنَّ أرباب الفن على دوام اجتهادهم في تحسين الآلات بُغْيَةَ زيادة الاطِّلاع على العالم العلوي بنجومه ونظامه، يعترفون بأنَّ ما اطَّلعوا عليه وسَيَطَّلعون ما هو إلا قطرة من بحر، وأنَّ ما ينظر بالبصر من نجوم السماء هو ثلاثة آلاف نجم فقط مما لا يُحصى عدداً من ملايين ملايين الملايين.

وقد مرَّ الكلام على نظرية النظام الفلكي الحديثة في سورة البقرة، عند قوله

---

(١) يقول بعض أهل العلم: إنَّ المراد من السماء الدنيا طبقات الجوِّ العليا فإنها هي التي تُظهِرُ زينة النجوم، ولولاها لم تظهر كذلك، وعرف التخاطب يعدُّ جوَّ الأرض أقرب سماء فوقها. (المؤلف).
قلت: هذا قول بعيد، والصواب: أن النجوم زينة للسماء الدنيا التي هي محيطةٌ بهذه النجوم تحتها أجمع، محتويةٌ عليها، فإذا نظر الإنسان إلى السماء من الأرض التي هو فيها رآها مزينةً بما تحتها من نجوم، كسقف البيت يتزيَّن بما تحته من مصابيح.

تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾ [البقرة: ١٦٤]، فارجع إليها، ولا عَجَب من قدرة الله، فهو على كل شيء قدير.

ثم ذكر لها خاصَّة متعلقة بما تضمَّنه السياق من الإشارة إلى عناد المشركين الذي يُكذِّبون بيوم الدين، مُستَنِدين على أنَّ الكهنة ـ الذين يأخذون المعلومات عن مُسْتَرِقةِ الشياطين ـ لم يخبروا بذلك، فأشار سبحانه إلى أن هؤلاء المسترقة لا يمكنهم أن يعلموا شيئاً، فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ فلا تقدر أن تعلم شيئاً من خبر السماوات، يُبطِلُ بذلك ما هو مألوف عندهم ومتعارف بينهم من أنَّ المُسترِقة تعلم خبر السماء وتُخبرُ الكَهَنةَ به فيُذيعونه في الناس، وضمير ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ للجنس، وهو يصدق بشيءٍ من أفراده، أو يكون الكلام من نسبة ما للبعض إلى الكل.

وقد اختلفوا في هذه الشهب المتساقطة؛ فقيل: إنها قطع تنفصل من النجوم، ولا تزال تائهة حتى إذا مرَّت بهواء الأرض وكانت من المواد المشتعلة التهبت، وقد تبقى منها بقية تسقط على الأرض بعد أن تنطفئ، فتسمى نَيْزكاً. وقيل: بل هي قطع تنفصل من حلقات تدور حول الشمس مكوَّنة من قطع صغيرة الحجم، وهذه الحلقات مختلفة الميْل على دائرة البروج، فإذا قربت منها الأرض، جذبت بعض تلك القطع فتسقط عليها، فإذا كانت من المواد المشتعلة تلتهب إذا مرَّت بكرة الهواء.

وقد مرَّ الكلام على مثل هذا في سورة الحِجْر عند قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨]، وفي سورة الصافات، عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦-٧]، فارجع إليه.

وبعد أن ذكر ما يتعلَّل به المشركون في إنكار نبوّة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، من أنَّ مُسترِقةَ السمع لم تخبر الكهّان بهذا الخبر، وردَّ عليهم بأنَّ هؤلاء المسترقة يكذبون

ولا يعلمون شيئاً عن خبر السماء، وإنما يحاولون فيُرجَمون، ولا يبعدون عن الأرض إلا قليلاً، ويكذبون على الكهّان.

فبعد أن ذكر هذا بيَّن عذاب هؤلاء المسترقة في الآخرة بعد رجمهم في الدنيا، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ لأنهم من كَـفَرة الجن، على نهج القرآن في تعقيب عذاب الدنيا بعذاب الأخرى، ثم أردَفَ هذا بما أعدَّ للكافرين عموماً، بما فيهم هؤلاء المشركون الذين ينكرون نبوة محمد وإنزال القرآن عليه، مستندين على هؤلاء الشياطين وكهَّانهم المجرمين، على نهج القرآن في تعقيب الأعمال والأحكام بقواعد عامة تشملها وغيرَها.

وعاد إلى السياق، فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾ بما فيهم المُنكِرون لكَوْن القرآن من الله بهذه الحجة والبيان.

ثم صوَّر جهنَّم تصويراً مدهشاً يأخذ بالألباب، فقال: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا[1] وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ[2] مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ فصوّر هذه النار بصورة مخلوق رهيب عابس مُكفَهِرّ الوجه يَغْلي صدرُه حقداً وغيظاً على فريسته.

وبعد أن بيَّن حالَـها الرهيب، بيَّنَ حالَ أهلها، فقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ توبيخاً وتقريعاً، ليزدادوا عذاباً وحَسْـرةً وندامةً، وقالوا لهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ[3] نَذِيرٌ ۝٨﴾ يتلُو عليكم آيات ربِّكم وينذركم لقاء يومكم هذا؟

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ وقد جمعوا بين حرف الجواب ونفس الجواب مبالغةً في الاعتراف بمجيء النذير، وتحسُّراً على ما فاتهم من السعادة لو صَدَّقوا ذلك النذير،

---

(١) ﴿شَهِيقًا﴾: أصلُ الشهيق: هو الصوتُ المزعجُ كصوتِ الحمار.

(٢) ﴿تَمَيَّزُ﴾: أصلُه تتميّز، أي: ينفصلُ بعضُها عن بعض.

(٣) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخي.

وتمهيداً لبيان ما وقع منهم من التفريط والندم والاغتمام على ذلك، أي: قال كلُّ فوج منهم: قد جاءنا نذير وتلا علينا ما نزَّل الله تعالى عليه من الآيات ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير، ﴿وَقُلْنَا﴾ في حقِّ ما تلاه علينا من الآيات ـ إفراطاً في التكذيب، وتمادياً في العناد ـ: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحدٍ ﴿مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ﴾ في ادِّعائكم أنه نزَّل عليكم آياتٍ تُنذِرون بها ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾.

ثم سجَّلوا على أنفسهم التقصير والاعتراف بالذنب ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ في الدنيا سماعَ مُتفكِّر، ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عَقْلَ متبصِّر متدبِّر ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾.

وقد سجَّل عليهم سبحانه ولَـحاهُم وقبَّحهم بقوله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ أي: فبُعْداً لهم من رحمة الله.

وللمبالغة في تأنيبهم وتنديمهم وتبصيرهم، قَرَنَ مصيرهم هذا بمصير المؤمنين، على نهج القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: بما غاب عنهم من أمر الآخرة، ويؤمنون به اعتماداً على ما جاءهم به الرُّسُلُ وثقةً بهم، أُولئك ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢﴾ لا يُقدَر قَدْرُه.

ثم بعد الالتفات ـ على نهج القرآن ـ عاد إلى السياق، فتوعَّد هؤلاء الكَـفَرة المعاندين، فقال: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾ فلا تَخْفى عليه من أمركم خافية.

ثم استَشهَدَ على ذلك بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ[1] مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ أي: العالم بما لَطُف ودقَّ.

---

(١) ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري المفيد للنفي، و(لا) للنفي: ونفي النفي يُقرِّرُ الإثبات. والمراد: أنه يُعلَم قطعاً.

وفي معنى هذه الآية أقوال: أحدها: ألا يعلم ما في الصّدور مَنْ خَلَقَ الصدورَ. الثاني: أن المعنى: ألا يعلم سرَّ العبدِ مَنْ خَلَقَه. وعلى هذين الوجهَيْن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ بمعنى: الخالق. والثالث: أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ بمعنى: المخلوق، والمراد: ألا يعلم اللهُ مخلوقَه وما انطبع عليه وهو اللطيف الخبير.

ثم ذكر قدرته ومنَّته، وأردف به السياق؛ تحقيقاً لقدرته على إنجاز ما جاء فيه من الوعد والوعيد، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: سهلةَ التصرُّف فيها والسَّيْر عليها براً وبحراً، ولم يجعلها كلَّها جبالاً عاصية وصخوراً قاسية، ولا من مادة غيرِ قابلة للاستفادة منها، كالمادة الصُّلبة والسائلة، بل جَعَلها من مادةٍ ليِّنةٍ صالحةٍ للسُّكنى والسَّيْر والإنبات واستخراج ما فيها من معادِن وخيرات، ففي الأرض من مصادر الرزق مضعافُ ما يحتاج إليه البشر كما في الماء، ومن تذليلها: اعتدال قربها من الشمس ونظامها الشمسي، وبقية السيَّارات ليست كذلك.

ثم أمرنا بالسَّعي والاستفاد من هذه الأرض، مرشداً إلى طريقة استغلالها، وقال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾[1] أي: في جوانبها، لأن الرزق موقوف على السعي فيها والاستفادة من خيراتها ومحصولاتها، لذلك عطف عليه قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ للإيذان بأنَّ مَنْ قصَّر فلا يلومَنَّ إلا نفسَه، وعبَّر بالمشي بَدَلَ العمل ليشمل التجارة. ويتضمَّن هذا الأمر الامتنان.

وقد أردف ذلك بما يُنظِّمُه ويوقف الساعي عند الاعتدال في الحد المطلوب، بحيث لا يضرُّ سعيُه بحقوق الغير، ولا يفرط في حقوق الله، فذكر الحساب فقال:

---

(١) ﴿مَنَاكِبِهَا﴾ جمع منكِب، بوزن مجلِس.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ أي: الرجوع بعد البعث، فيجازي المحسنَ بإحسانه والمسيءَ بإساءته، جزاءً وفاقاً.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلى محوره السابق، وهدَّد الكفار بعذاب الدنيا زاجراً لهم ومخوِّفاً، فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ أي: تَضْطرب ذهاباً وإياباً، على خلاف ما هي عليه الآن من السكينة والاطمئنان.

ثم أضرَبَ إلى وجهٍ آخر من التهديد، فقال: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً تَحْصبكم بالحجارة المُهلِكة، كما أرسل على قوم لوط.

ثم بالغ في التهديد بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ أي: فستعلمون كيف كان إنذاري وتَتَحَقَّقون عند مُشاهدتكم للعذاب. وهذا وَصْف بمعنى المصدر.

ثم استشهد على ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفَّار الأمم السالفة، كقوم نوح وعاد وأضرابهم، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾؟ أي: كيف كان إنكاري عليهم بإنزال العذاب؟ وهذه الصيغة الاستفهامية للمبالغة في التهويل، أي: كان على كيفيَّة لا يحيط بها الوصف، ومثلُها الصيغة التي قبلها.

ثم أيَّد التهديد بدليل القدرة تحقيقاً لإنجازه، وإثباتاً للقدرة على البعث والنشور، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾، وقد ضمَّن ﴿يَرَوْا۟﴾ معنى: ينظروا،

وعدَّاه تعديته. وهذا الوصف يُصوِّر الطيران، إذ هو بَسْطُ الجناح وقبضُه بعد البسط، أي: ألم يَرَوْها طائرةً فوقهم في الجوِّ كالسابح في الماء، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ حيث خلق لهنَّ استعداد الطيران ووسائل له، وهداهُنَّ لذلك، وخلق في الهواء قابليَّة حَمْل الأثقال، كما جَعَل مِثلَ ذلك في الماء، تعالَتْ حكمةُ الله العلي القدير، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ يعلم كيفيَّة إبداع المُبْدَعات وتدبير المصنوعات، قدَّر فهدى، وهو على كلِّ شيء قدير، فلا يُعجِزُه إعادة الأموات.

ثم أضاف التبكيت والتندُّر والإنكار إلى التهديد لهؤلاء الكافرين، فقال: ﴿أَمَّنْ[1] هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بمعنى: أيُّ جند لكم ينصركم مني؟! فالاستفهام إنكاري هازئ مسفِّه لهم، كأنه سبحانه يقول لهم: بأيِّ قوة تعصونني؟! ألكم جند يدفع عنكم عذابي غير رحمتي؟! وأتى بكلمة ﴿ٱلَّذِى﴾ ليتناول الفرد.

ثم أردف الإنكار بالتقرير والنَّعي عليهم، فقال: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ فهم مغرورون، حيث يزعمون أن آلهتهم تحفظهم من دوننا وتمنعهم من بأس الله.

ثم تابع التوعُّد مقروناً بالتحسيس، فقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ أي: هل ترزقكم آلهتكم إنْ أمسَكَ اللهُ رزقَه عنكم؟! فالكلام وعيدٌ وإنكارٌ وتحسيسٌ بجهلهم وتعرُّضهم لغضب الله، وبإفاضة النِّعَم عليهم مع كفرهم، على نهج القرآن في ازدحام المعاني في أساليبه وتراكيبه.

ثم أضرَبَ عن الإنكار إلى بيان الحال، فقال: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: لم تنفعهم المواعظ، وتمادوا في التباعد عن الحقِّ والإيمان به.

---

(١) ﴿أَمَّنْ...﴾ أصلها: (أم من) و(أم) بمعنى (بل) الدالة على الانتقال من توبيخ على عدم التأمِّل فيما سبق مع التهديد إلى توبيخ وتهديد آخر. و(مَنْ): اسم استفهام.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ثم أردف السياق بضرب المثل للكافر والمؤمن والتباين الشديد بينهما، فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾؟ والمكبُّ: هو الذي ينكِّس رأسه إلى الأرض، فلا يبصر الطريق ولا من يستقبله، والسويُّ: هو الذي يستوي قائماً، فيبصر الطريق وجميع الجهات، مثَّل بهما للمؤمن المتبصِّر والكافر المُعرِض، بطريقة الاستفهام الإنكاري التبصيري.

ثم عاد إلى دليل القدرة والمنَّة والتنبيه، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: العقول، ولكنكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ باستعمالها لِـمَا خُلِقَت لأجله. و﴿مَّا﴾ مزيدة للمبالغة في القِلَّة، فيجوز أن يكون المراد قِلَّة شكرهم، ويجوز أن يكون المراد قلة مَنْ يشكر، أي: فلم ينتفع أكثركم بها. وقد ضمَّن دليل القدرة والمنَّة نقداً وتقريعاً.

ثم تابع الدليل، وقرن به العاقبة والمآل، إغراءً وتحذيراً، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم وكثَّركم فيها، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ للجزاء ثواباً أو عقاباً. وفي صورة النَّظم استدلالٌ بالخلق على قدرة الإعادة، لأنها أسهلُ من الإبداع، وليست بأعجَبَ منه لو كانوا يعقلون.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ

ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۢ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم وَصَلَ الكلام بتقريعهم على إنكار هذا الوعيد الأخروي، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ[1] إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾؟ فأمره أن يُبيِّن الحقيقة، وهي أن وقت إنجاز ذلك من علم الله، ولا يعلمه أحد من البشر، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾[2] وقيل: بل المراد من الوعد: ما توعَّدهم به من عذاب الدنيا. أقول: ويجوز أن يكون الكلام شاملاً للأمرين معاً.

وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب الدنيوي أو الأخروي أو ما يعمُّهما ﴿زُلْفَةً﴾[3] أي: قريباً منهم ومحيطاً بهم، ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: عَلَتْها الكآبة، ﴿وَقِيلَ﴾ توبيخاً لهم وتشديداً لإيلامهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾، وكلمة ﴿تَدَّعُونَ﴾ هذه هي صيغة افتعل، مِن: دَعَاه، بمعنى: استحضره، أي: هذا الذي كنتم تطلبون حضوره ووقوعه استهزاءً وإنكاراً. ويجوز أن يكون من الدعوى، أي: هذا الذي كنتم تدَّعونه من أنه لا بَعْثَ ولا حساب؛ يهزؤون بهم ويُندِّمونهم على ذلك القول ويؤنِّبونهم.

ثم توعَّدهم سبحانه وتعالى بسُلطانه القاهر المُطلَق وبهَوْل المستقبل، على طريقة الإنصاف مع الخصم والتَّنزُّل، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا

---

(١) ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ المراد: الموعود به؛ وهو يوم القيامة.

(٢) ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: محذِّرٌ من غضبه تعالى، واضح التحذير.

(٣) ﴿زُلْفَةً﴾ اسم مصدر من فعل (أَزْلَفَه) أي: قرَّبه. فهي بمعنى قُرْباً، وأريد بهذا المصدر اسم الفاعل مبالغة، أي: قريباً، كما تقول: هذا رجلٌ عَدْل، أي: عادل.

فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾[1]؟ ومؤدَّى الكلام: أننا ـ مع إيماننا ـ بين الخوف والرجاء فمَنْ يُجيركم من العذاب مع كفركم هذا؟

ثم أمَرَه بأن يُصرِّح بالحقِّ الذي يدعوهم إليه، وضمَّنه الرجاء للمؤمنين من أرحم الراحمين، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: إنَّ الذي أدعوكم لعبادته هو مُولي النِّعَم كلِّها، ومصدر الرحمة كلِّها، ونحن قد ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحده لا نشرك به شيئاً، فلنا في رحمته كبير الرجاء والأمل، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنَّ ما عداه بمَعْزِل عن النفع والضر، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب، بعيد الموت ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ منا ومنكم.

ثم ختم السورة بنفس الأسلوب الذي اتبعه فيها، وهو دليل القدرة والمنَّة المسبوك على التبصير والتهديد والوعيد، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً في الأرض لا تقدرون عليه ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أشركاؤكم تفعل ذلك؟! وما أصعَبَ الموت عطشاً! والحياة بدون ماء!

قال الجُبّائيُّ وأبو مسلم: ﴿مَّعِينٍ﴾ أي: ظاهر للعيان، فهو ضدّ الغائر، يريد سبحانه: أنه هو المُنعِم بالأرزاق الناتجة عن المياه والمتأتية منها، فاشكروه واعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً.

اللهمَّ إني أعوذ بك من أن أُشرِكَ بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرُك لِمَا لا أعلم، إنك أنت الغفور الرحيم.

---

(١) تُلهِمُ هذه الآية أنهم كانوا يناقشونه بأنهم على ما يرضي الله؛ لأنهم لم يَسْعَوا في تفريق الأمة عن عبادتها، ولكنه قد سعى في ذلك، فسينتقم الله منه. فالآية ردٌّ لمزاعمهم بطريق اللين والتساهل معهم. والله أعلم. أي: إذا كان حالي كما تزعمون، فكيف يكون حالكم؟ ويجوز أن يكون الكلام جواباً لقولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. (المؤلف).



مكيَّة، وهي اثنتان وخمسون آية

وقد جاء في هذه السورة تثبيتُه ﷺ تجاه تقوُّلات المشركين، وتوعُّدهم بالعذاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿نٓ﴾ قد مرَّ الكلام على الحروف التي تبتدأ بها بعض السور في أول سورة البقرة، وأصحُّ الأقوال فيها: أنها لإثارة الشعور والاهتمام لما يأتي بعدها، ومنه قوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ قيل: هذا تطمينٌ له ﷺ؛ لأنه ظنَّ في أول اتِّصال الوحي به أنه مسٌّ من الجن، وهو رأيٌ وجيه لو لم يتَّصل الكلام بالسياق الآتي الذي يردُّ على المشركين، فالأَوْلى أن يكون هذا أيضاً رداً على تقوُّلاتهم جمعاً بين المعنيين، فقد كان المشركون يقولون للرسول ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، أي: لك تابع من الجن.

وقد جاء الجواب بالسَّلب المؤكَّد، فأقسم سبحانه بأخصِّ أدوات العلم وبالعلم نفسه على تنزيه النبيِّ ﷺ عمَّا رَمَوْه به زُوراً وبهتاناً، وألمع إلى أنه مِنْ أعظم الرجال العالمين، وأنَّ ما يأتيه هو علمٌ لدنيّ من العلم الحكيم.

فالقلم من أوائل أدوات العلم، ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هو العِلمُ نفسه، وكلُّ ذلك من خصائص الإنسان العاقل، بل هي أجلى مزاياه وأسماها، ميَّزه الله بها حيث علّمه بالقلم. فالمناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه ظاهرة جليَّة، أي: ولكنه علَّمك بدون وسائط.

وقوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ يريد به النبوَّة التي ينكرونها عليه، والباء للمُصاحَبة، أي: ما أنت وقد صحبتك نعمةُ ربِّك بمجنون، ولكن في فَضْل كبير، ونعمة عُظْمى، وعلم من الله جليل، علَّمك به ما لا يعلمون. وفي التمنُّن عليه بنعمة ربه إيذانٌ بأنه تعالى سيُتمُّ نعمتَه عليه، ويُبلِّغه إلى غايةٍ ما وراءَها غاية.

ثم وعده بهذا الوعد الكريم تجاه مقاساته لألوان الشدائد من جهتهم، وتحمُّله لأعباءِ الرسالة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ أي: غير مقطوع، كقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وقال أبو مسلم: بل معناه: لا يُمنُّ به عليك.

ثم سجَّل له هذه المنقبة الكماليَّة مُقدِّراً لها ومُنوِّهاً بشأنها، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ حيث تحتمل منهم ما لا يحتمله البشر. والجملتان معطوفتان على جواب القسم، فهما منه.

وقد سُئِلَت عائشة رضي الله عنها عن خُلقه ﷺ؟ فقالت: «كان خُلُقُه القرآن، ألست تقرأ القرآن: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾؟» [المؤمنون: ١][1].

أقول: وكان ﷺ خيرَ أسوة لكل صنف من البشر؛ للمربِّين والمرشدين والقوَّاد والقضاة والحكماء والأئمة والناشئة والمعاهدين والعابدين والزاهدين، فهو مَثَلٌ أعلى للفرد في أُمته، والزوج مع زوجته، والأب مع ولده، والتاجر في تجارته، والمربِّي مع

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

تلميذه، والواعظ مع مستمعيه، والجندي في حَوْمة[١] الوغى، والقائد في تدبيره، والمشرِّع في أحكام شريعته، والقاضي في ولايته، والسياسي في حكومته، والمَلِك في رعيته، والمسالم لأوليائه، والمحارب لأعدائه، والعابد في محرابه، والزاهد مع قناعته.

كلُّ هؤلاء يجدون من صفاته ﷺ وفي سيرته وحياته العامة والخاصَّة مُثلاً عُليا يَحْتذُونها، وروحاً يَقوَوْنَ بها على مزاولة أعمالهم، وإماماً يسيرون على أثره في تحقيق مآربهم، ومَرَدّاً يرجعون إليه عن حَيْرتهم. من أجل ذلك وجب اتِّباعُه وامتثالُ سُنَّته السَّنيَّة، واقتفاء طريقته المرضيَّة وسيرته الزكيَّة، وهَدْيه المِفْضال، والاقتداء به في الأخلاق والأفعال، والانقياد لأوامره في جميع الأعمال، والتأسِّي في حربه وسِلمِه، والأخذ بقوله، والرضا بحكمه، فخير الهدى هُداه، والناجح المفلح من عقَّب أثره واقتفاه، ومَنْ أطاع الرسول فقد أطاع الله.

وبعد أن قدَّر ثباته تجاه معارضتهم وسفاهتهم، أتى بما فيه وَعدٌ له ووعيدٌ لهم، فقال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾، والباء زائدة للتقرير، والمعنى: ستبصرون أيكم الذي فُتِنَ بالجنون.

ثم علَّل ما تضمَّنه الكلام من الوعد والوعيد، بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾ وسيجازي كلًّا بعمله.

ثم نهاه عن مصانعتهم، وقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾، وعبَّر عن ذلك بالطاعة مبالغةً في الزجر والتنفير منها.

ثم أوضح ذلك وصاغ العبارة بصيغة التعليل للنهي، فقال: ﴿وَدُّوا[٢] لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ أي: ودُّوا أن تلينَ لهم في دينك فيلينوا في دينهم، وإنهم يُدهِنون

---

(١) حَومةُ كلِّ شيء: مُعْظمُه، وحَومة القتال: معظمُه وأشدُّ موضع فيه. «لسان العرب» (حوم).
(٢) أي: تمنَّوا وأحبّوا.

معك بُـغْيَةَ أن تُدهِنَ معهم، فلا تُطِعْهم في ذلك. قال ابن عباس: شبَّـه التليـين في الدين بتليـين الأشياء بالدهن[١]. وأصل الادهان: الجريان في ظاهر الحال على المقاربة، مع إخفاء المعارَضة أو العداوة، وهو مثل النفاق. وقال الحسن: بل المعنى: ودّوا لو تُصانِعُهم فيُصانعونك.

أقول: وإطاعتُه ومصانعتُه لهم غير مقصودة الوقوع منه ﷺ، ولكن مبنى هذا الكلام على التهيـيج، ليزدادَ في تحمُّل معارضاتهم ومقاومتهم ويتـثبَّت عليه، ومثل ذلك من أساليب القرآن. ولا يجوز أن يخطر ببالنا أنَّ هذا وأمثاله مخالف لِـمَا في نفسه، حاشاه الله من ذلك.

ثم أردف النهي عن إطاعتهم بالنهي عن إطاعة أحد متبوعيهم، مُعدِّداً صفاته، مبالغةً في التنفيـر منهم، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: كثير الـحَلِف بالبـاطل، ﴿مَّهِينٍ ۝١٠﴾ من المهانة، وهي القلَّة في الرأي والتمييز، ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن عباس: أي: وقَّاع في الناس مغتاب[٢]، ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾ أي: ساعٍ بالنميمة يفسد بين الناس، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ[٣] ۝١٢ عُتُلٍّۭ﴾ أي: جافٍ غليظٍ شديدِ الخصومة بالباطل، و﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ[٤] زَنِيمٍ ۝١٣﴾ أي: دعيٌّ مُلصَقٌ بقوم ليس منهم.

قال ابن عباس: لا نعلم أن الله وصف أحداً بما وصف هذا به من العيوب[٥].

---

(١) لم أقف عليه من كلام ابن عباس رضي الله عنه، وإنما ورد في كلام بعض المفسرين، كالطبري في «تفسيره» (٢٣: ٥٣٤).

(٢) ذكره بنحوه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠: ٣٣٦٥).

(٣) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: بخيلٍ بالمالِ وكلِّ ما فيه نفع في الدنيا والآخرة. ﴿مُعْتَدٍ﴾: شديد التعدّي والظلم. ﴿أَثِيمٍ﴾: كثير الآثام والذنوب.

(٤) ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: أي: إضافة إلى ما ذُكر من الشرور والمفاسد، وأبعد منه.

(٥) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤: ٣٢٢).

وهو دائرٌ بين أشخاص ثلاثة عند المفسِّرين، فقيل: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: هو الأخنس بن شُرَيْق. وقيل: هو الأسود بن عبد يغوث. والأول مرويٌّ عن ابن عباس، والثاني عن عطاء، والثالث عن مجاهد.

ثم ختم هذا البيان المخذِّل له بما يُؤنِّبه أشدَّ تأنيب، فقال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ أي: ألأنْ كان ذا مال وبنين يجحد بآياتنا، لقد بدَّل نعمة الله كفراً. ويجوز أن يكون قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ تعليلاً لإطاعته، ومبالغةً في النَّهي عن مقاربته ومصانعته لرياسته، أي: لا تُطِعْه لأنْ كان ذا مال وبنين. وقد ذكرنا أن مثل هذا لا يخالف ما في نفسه، وإنما هو من أساليب القرآن، لا يريد به حقيقة المعنى، بل التسلية والتثبيت.

وبعد هذا البيان الفاضح زاده تهجيناً له بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ فهذه الآيةُ نفسُها وَسْمٌ على الخرطوم، وأيُّ وَسْم أعظم من هذه الآية. وقال العتبي[1]: العرب تقول: قد وَسَمَه مَيْسَم سُوء؛ يريدون: ألصقَ به عاراً لا يفارقه. وقد ألحق الله بمَنْ وصفه في القرآن بهذه الصفات عاراً أبدياً.

واستعمل المضارع المقرون بالسين للاستمرار في ثبوت هذا الوَسْم بالعار، أي: سيكون هذه الوصف عاراً عليه إلى يوم القيامة، أو إلى الأمد المديد. والخرطوم: هو فمُ الفيل، وقد استُعير للفم الذي قال عن القرآن: هو أساطير الأولين، تهجيناً له وتحقيراً.

وتُلهم هذه الآيات أنَّ المكذِّبين في هذه المرَّة لم يستعملوا الشدَّة التي تُلهمها سورة العَلَق في المعارضة، بل تظاهروا بالمُلاينة خداعاً، وكان رئيسهم يُقسِمُ الأيمانَ للنبيِّ ﷺ باستعداده لمُجاراته، وهو يُضْمِرُ التكذيب، ولم يَلبَث أن جاهَرَ بطويَّته، وقال

---

(١) هكذا في الأصل، والصواب: القُتَبي، وهو ابن قتيبة الدينوري.

عن القرآن: أساطير الأوَّلين. ولقد ظلت هاتان الصورتان ـ صورة الشدَّة في المخاصمة كما في سورة العَلَق، وصورة اللين كما هنا ـ تتكرَّران في القرآن بألوان منوَّعة في مواد معينة طيلة العهد المكي.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ثم ضرب سبحانه مَثَلاً لأهل مكة، وفيهم المكذِّبون الذين اشتدُّوا على المؤمنين في المقاطعة والأذى حتى اضطرُّوهم إلى الهجرة بأنفسهم، واستولوا على أموالهم وأملاكهم، ثم ضاعفوا الأذى على المستضعفين الذين لم يتمكَّنوا من الخروج والهجرة. وقد كان في المكذِّبين أناسٌ لم يفقدوا نور البصيرة بالمرَّة، فأخذوا يلومون جماعتهم على اشتدادهم بهذه الصورة على المؤمنين، ثم ابتلاهم الله سبحانه بالقحط والجوع سبع سنين، حتى بلغ الضرُّ منهم الجهد، فثاب أكثرهم إلى الرُّشد وآمنوا بعد صُلح الحديبية، ولا سيما بعد الفتح، وأخذ يلوم بعضهم بعضاً على ما فرط منهم.

فضرب الله سبحانه لهم الـمَثَل بأصحاب هذه الجنة، فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: امتَحَنَّاهم واختبرناهم في علانيتهم ونَجْواهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[1] ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا

(١) أي: إنّا اختبرنا كُبراءَ مُشركي مكة بعَوْن المحتاجين وإطعام الجائعين، كما اختبرنا أصحابَ الحديقة.

﴿مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ والصَّرْم: قَطْعُ التمر عن النَّخْل، قيل: كان أصحاب هذه الجنة من بني إسرائيل، وقيل: كانوا من صنعاء، وكانت هذه البستان في أوّل أمرها لرجل ينادي الفقراء وقت الصِّرام، أي: وقت قطع البَلَح، ويترك لهم ما أخطأه القاطع أو ألقَتْه الريح، فيجتمع لهم شيءٌ كثير، فلما مات قال بنوه: إنْ فَعَلنا كما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر؛ لكثرة عيالنا، فحَلفوا فيما بينهم لَيَصرِمُنَّها مُصْبحين، ولا يستثنون للمساكين شيئاً.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ لا يشعرون بذلك. والطائف: الطارق ليلاً، استُعير للبلاء الذي أصابها ليلاً وهم غافلون عمَّا جَرَت به المقادير، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾[1] أي: كالبستان الذي قُطِعت أثماره.

ثم تابع الكلام في إتمام القصَّة وبيان ما كان من أمرهم، وقال: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: وقتَ الصباح؛ ﴿أَنِ ٱغْدُواْ[2] عَلَىٰ حَرْثِكُمْ[3] إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ[4] ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾[5] فيما بينهم: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: لا تُمكِّنوه من الدخول.

فندَّد سبحانه بهم وأنَّبهم على الاغترار بقدرتهم، وإهمالهم قدرة الله عليهم، فقال:

---

(١) «الصريم» أصله: هو المنقطع عن غيره. وأطلقَه العرب على الليل لانقطاعِه عن النهار، فأصبحَتِ الجنةُ محترقةً كسوادِ الليل.

(٢) ﴿أَنِ ٱغْدُواْ...﴾ (أن): حرف يدل على أنَّ ما بعدَه بيان للتنادي السابق. كأنه قال: كان تناديهم هو قولهم: اغدوا... و(اغدوا) أي: اذهبوا وقت الغُدوة ـ بضم الغين ـ وهو الصباح الباكر.

(٣) ﴿حَرْثِكُمْ﴾ المراد به: ما تُنتِجُه الأرض من ثمارِ الأشجارِ والزرع.

(٤) ﴿صَٰرِمِينَ﴾ أي: مُريدينَ قطعَ ثمارِ الجنة. وانظر الآية ١٧ المتقدِّمة في هذه السورة.

(٥) ﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾ المراد: يتحدّثونَ بصوتٍ منخفضٍ لئلّا يَسمعهم المساكين.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ والحرد: المنع مع الغضب والحنق، أي: غَدَوا مُصَمِّمين على مَنْع الفقراء، مُعْتَزِّين بقُدرتهم على ذلك، غير ذاكرين لقدرة الله عليهم، فاكتَسَحها الله منهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ كذلك انتبهوا لحالهم وما جَنَت عليهم أنفسُهم، و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ بإضمارنا هذا الرأي، ولم نحرم بذلك المساكين فحسب، ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ منها أكثر من حرمانهم.

ويجوز أن يكون المعنى: فلمَّا رأوها أوّلَ ما رأوها لم يعرفوها، وقالوا: إنا لَضَالُّون جنَّتنا، وما هذه هي. وبعد وَعْي وتأمُّل عرفوا أنها هي، وقالوا: بل نحن محرومون، أي: بل هذه هي جنتُنا بعينها، وقد حَرَمنا الله منها، بما قرَّرنا في أنفسنا من حرمان المساكين.

وعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أعدَلُهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا[1] تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾؟ أي: ألم أُحرِّضْكم على ذِكرِ الله تعالى، والخوف منه، والإقلاع عن نيَّتكم هذه، وقد كان قال لهم ذلك حين عَزَموا على فعلهم هذا.

ولما ذكّرهم بذلك عَمَدوا إلى التوبة بعد انقضاء الأمر ووقوعه، و﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ لأنفسنا بإضمارنا هذا الإضمار.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يَلومُ بعضُهم بعضاً، يقول هذا لذاك: أنت أشَرْتَ علينا بهذا الرأي، ويقول ذلك لهذا: أنت خوَّفتنا بالفقر، ويقول الثالث لغيره: أنت الذي رَغَّبتَنا بالحرص وجَمْع المال من غير وجهه.

---

(١) ﴿لَوْلَا﴾ كلمة تدلُّ على طلب تحصيل ما بعدها، ويعبِّرون عن معناها بحرف (هلّا) بتشديد اللام.

ثم نادَوْا على أنفسهم بالوَيْل و﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾، فاستعظموا جُرْمَهم هذا وأنابوا إلى الله، وقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ ولعَفوِه راجون.

ومِثلُ هؤلاء أيضاً كان حال أهل مكة بعد الفتح، فقد ثابُوا لرُشْدِهم، وآمنوا وحَسُنَ إسلامُهم، ولامَ بعضُهم بعضاً على ما كان منهم من تمنُّع وإحجام عن دخولهم في دين الله، حرصاً على مراكزهم وأموالهم، حتى إن بعضهم كان يقول لبعضهم: أعَلَى هذا النُّور المبين والصِّراط المستقيم كنا نعارض هذا الرجل، ونُنكِر عليه؟! يلومون أنفسهم ويؤنِّبونها.

وبعد أن انتهى ضَرْبُ المثل، قَرَنَ به على وجه التهويل والتحسيس ما كان أخذ به كفّارَ مكة الذين ضَرَبَ لهم هذا المثل قبل أن يؤمنوا، حين كان قد أخذهم بالقحط المديد والجوع الشديد، فوق القلق والاضطراب، والتناحر والاكتئاب، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: وهكذا كان عذابُ أهل مكة في الدنيا، أو: وهكذا يكون العذاب في الدنيا لمن فرَّط في جَنْب الله.

ثم أضاف إليه الوعيد بعذاب الآخرة، فقال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يُهدِّد بها مَنْ بقي على الشرك ومات عليه، والعياذ بالله.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وبعد أن ذكر سبحانه ما أعدَّه للكافرين وضرب لهم الأمثال، أردَفَه بما أعدَّه للمؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم أيَّد ذلك وقرَّره بأبدع الأساليب في الاستدلال عليه، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ ونُسوِّي بينهما في المصير؟! ينكر ذلك إنكاراً تهكُّمياً مبنياً على فَرْض وتنزيل أنهم يقولون به.

ثم يؤكِّد الإنكار باستفهامَيْن متواليَيْن، تعجيباً من حكمهم هذا، واستبعاداً له، وإيذاناً بأنه لا يصدر عن عاقل، فيقول: ﴿مَا لَكُمْ﴾ كذلك؟! ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ مِثلَ هذا الحكم الفاسد؟!

ثم هَجَّن أمرهم وسَخَّف رأيهم بوجه آخر، يهزأ بهم فيه، ويردُّ عليهم بالرد النقلي بعد الردِّ العقلي، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: أم عندكم كتابٌ سماويّ تجدون فيه ما تشتهيه أنفسكم من العقائد والأحكام، وما تريدونه من السلوك والإجرام؟!

ثم سلك وجهاً آخر من المسالك الهازئة بهم، مُنتزِعاً المعنى من حال المخاطبين في الضمان والمواثيق، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾[1]

---

(١) أي: هل لكم علينا عهودٌ مؤكَّدة بالأيمان بالغةُ التوكيد ثابتةٌ علينا إلى يوم القيامة: إنَّ لكم ملء الحرية ومطلق التصرُّف في مقدَّرات الناس، فتجعلون ـ حسب أهوائكم وأذواقكم ـ هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار؟! أو هل لكم علينا معاهدة بالغة إلى يوم القيامة: إنَّ لكم في ذلك اليوم ما تحبون وما تشتهون، وإنكم في ذلك اليوم سعداء مرضيون؟

ثم زاد في السخرية بقوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] أي: تولَّى عَقْدَ هذه المعاهدة مع الله، الوليد بن المغيرة، أم الأخنس بن شريق، أم الأسود بن عبد يغوث؟ يتهكَّم بهم في ذلك بأبلغ وجوه السخرية والتسخيف. (المؤلف).

أي: أم ضَمِنّا لكم بأيمان مُغلَّظة متناهية في التوكيد؛ أنَّ لكم يوم القيامة كلَّ ما تريدون وما تَتَمنَّون؟!

وقد زاد في التهكُّم بقوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: مَنْ منهم بذلك الميثاق كفيل، تولَّى عَقْد هذا الحِلف معنا وتبنَّاه؟! يهزأ بهم ويسخر منهم بأبلغ وجوه الردِّ والتسفيه.

وبعد بيان هذه المسالك الملوَّنة في البطلان، المبنيَّة على السخرية والتجهيل، قرَّر الحقيقة الراهنة التي هم عليها، وقَرَنها بالإبطال أيضاً، على نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾ أي: أم لهم معبودات يعتقدون أنها شركاء لله في أعماله وأُلوهيَّته، وأنها ستجعلهم في الآخرة خيراً من الموحِّدين في الثواب والخلاص من العقاب، ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ هؤلاءِ ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ في أنَّ لهم من الأمر شيئاً؟!

فَلْـيُنقذوهم مما هم فيه ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وهذا مَثَـلٌ يُضْرَبُ لاشتداد الأمر، أي: يوم يشتدُّ عليهم الحال ويَصعُب الخطب، أو يوم يُكشَفُ عن الأمر فتظهر حقائقه وتكون عياناً، ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخاً وتعنيفاً على تركهم إيَّاه في الدنيا، بإعراضهم عن الدين، وتحسيراً لهم على تفريطهم في ذلك، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لفوات وقته. فعبَّر عن نفي الانتفاع به بنفي الاستطاعة عليه، مبالغةً في ذلك، كما تقول: إذا فات وقتُ الزرع لا تستطيع أن تزرع. فالكلام تنبيهٌ لتدارك الأمر، وحثٌّ على الإيمان قبل فوات الأوان. والله أعلم.

وتراهم حينئذ ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ من شدَّة خوفهم، مما أعدّ لهم من الهوْل.

ثمَّ علَّل هذه المصير البائس بما يلائم السياق مما أدَّى حالهم إليه ويُندِّمهم، فقال: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا، ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ متمكِّنون منه أقوى تمكُّن، فلا يُجيبونَ إليه، وضَيَّعوا عليهم الفرصة من الربح الوفير، وخسروا خسراناً مبيناً.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم أردَفَ هذا السياق المتضمِّن لمناقشة المشركين في مسالكهم المفضوحة البطلان، بما فيه توعُّدٌ لهم وتهديد، وقال: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: دَعْني وإيَّاهم، وخَلِّ بيني وبينهم. وهذا تهديدٌ رهيبٌ مستعار من أساليب المخاطَبين التهديديَّة، على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

ثم أقام مقامَ البيان لهذا الوعيد مُحصَّلَ أسبابه التي أدَّت إليه، فقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وليس المراد أنه سبحانه يستدرجهم قَصْداً[1] وفعلاً، فذلك محالٌ على الله سبحانه ومنزَّه عنه، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، تعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً، وإنما المراد ضلالهم من أنفسهم بتعاطي الأسباب المؤدِّية إليه على حدِّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، أي: أنهم سيسترسلون في غيِّهم درجةً بعد درجة، ولا يدرون عاقبةَ أمرهم ولا ما هم فيه من الضلال؛ إذ يصبح لهم خُلقاً وديناً.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ في ذلك بحسب السُّنة العامَّة في أخلاق البشر إن انطبع على الباطل، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ إذ لا تبديلَ لسُنَّة الله وما وضعه في أخلاق البشر من النظام التطبُّعي، ومن ذلك أنَّ مَنْ تدرَّج منهم في شيء ينطبع عليه، ولا يكاد يحسُّ بشرِّه وسوء مَغَبَّته إن كان شراً.

ثم عاد بالكلام إلى سَنَنِهِ السابق، وهو تبكيتهم بالتبكيتات المتوالية المتردِّدة في مدارج البطلان، ينتقل من واحدٍ إلى آخرَ أشدَّ تفضيحاً وتشنيعاً وأظهر بطلاناً، فقال:

---

(١) الصواب أن يقال: جبراً وفعلاً، فهذا الاستدراج مرادٌ لله تعالى ومقصود له، لكنه ليس جبراً منه عليهم، ولا فعلاً منه فيهم من غير كسب لهم.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ دنيوياً على هذا الإبلاغ والإرشاد، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: فلا يؤمنون لأنهم يستثقلون الغرامة التي تطلبها منهم على الإيمان. وهذا التبكيت مبنيٌّ على الأمر الذي طالما ذكره القرآن، يردُّ به إعراضَ المُعرِضين وتشكيكَ المتشكِّكين في دعوى النبوة. ومحصَّله: إنَّ هؤلاء الأنبياء لا يطلبون حظوظاً دنيوية وغايات شخصية حتى يُتَّهموا بأنهم لذلك قاموا بهذه الدعوى والدعوة.

ثم أردَفَه بتبكيتٍ آخر، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: أم جاءَهم وحيٌ بصِحَّة ما يدَّعونه من الشركاء، اختصُّوا به، لا يعلمُه غيرهم، فهم يكتبونه ويتوارثونه؟! يتهكَّم بهم في ذلك ويُسَخِّفهم ويُؤَنِّبهم بأن أمر الدين والشريعة لا يجوز أن يُؤخَذَ إلا عن الغيب من الله، بطريق النبوة والوحي.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

ثم التفت إلى النبيِّ ﷺ، يُثبِّته تجاه تصرُّفاتهم وتقوُّلاتهم التي أثَّرت في نفسه أثراً غير يسير، ويُذكِّره بقصَّة يونس عليه السلام، ويقول: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم وتأخيرُ نُصْرتك عليهم، ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وهو يونس عليه السلام؛ إذ استعجل وخَرَج من قومه المعارضين له فالتقمه الحوت، وكان من أمره ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ربَّه[1] ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾[2] في بطن الحوت، ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ﴾ لطفٌ و﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: في الصَّحراء ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾.

---

(١) أي بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

(٢) ﴿مَكْظُومٌ﴾: أحاطَ به الغضبُ والغمُّ من كلِّ جهة حتى صار كأنَّه محبوس فيهما.

ولكنْ تداركه الله بلطفه ورحمته، فنُبذ غير مذموم، كما قال: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ قال ابن عباس: ردَّ الله إليه الوحي، وشفَّعه في قومه[1]. وقال قوم من العلماء: لعلَّه ما كان رسولاً صاحبَ وحي قبل هذه الواقعة، ولكن كان مُهيَّأً لذلك، وكان ينصحُ قومه ويدعوهم إلى نَبْذ عبادة الأوثان، ويعارضونه، وبعد ابتلائه هذا أرسَلَه الله إليهم. وعلى القول الأول يكون احتباسه في بطن الحوت وعدم موته معجزة له، وأما على القول الثاني فيكون ذلك إرهاصاً؛ لأنَّ الإرهاص ما يظهر للمُرشَّح للنبوَّة من خوارق العادات.

ثم خَتَم السورة ببيان حال الكفار مع النبيِّ ﷺ عندما يتلو القرآن؛ من الحنق والدهشة، فقال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١﴾ أي: يثورُ عند سماعه بُغضُهُم وحَنَقُهُم، ويقولون: إنَّ جِنِّيَّهُ بليغ، وصيغة الآية تدلُّ على أنَّ الكفار لم يكونوا يقصدون نَعْتَ النبيِّ ﷺ بالجنون المَرَضيِّ، وإنما يعنونَ أنَّ الجنَّ تُلهِمُه ذلك على طريقة الكهانة، أي: إنهم كانوا يُحملِقون في وجهه، وتكاد عيونهم تأكله عَجَباً ودَهْشة لما يسمعونه من آيات القرآن، قائلين: إنَّ الجنَّ تُلهمُه هذا الكلام العجيب، لأنَّ العرب كانت تعتقد باتِّصال الجن بالسَّحَرة والكُهَّان والشُّعراء.

ويجوز أن يكون معنى الكلام: إنَّهم ينظرون إليك عند تلاوةِ القرآن والدعاء إلى التوحيد، نَظَرَ عَداوةٍ وبُغْض وإنكار لِمَا يسمعونه من القرآن، حتى إنهم ليكادون يَصْرعونك بحِدَّةِ نظرهم الغاضب، ويُزيلونك عن مَوْضعك؛ يُصوِّر شدَّة ذلك منهم. وهذا التعبير من عُرف اللغة، يقال: نظر إليَّ فلان نظراً كاد يَصرَعُني، أو كاد يأكلني.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤: ٣٤٢).

والآية قريبة من آية الحج: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

ثم ردَّ على ما تضمَّنه الكلام من إنكارهم لهذا القرآن بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ يُذكِّرهم مصيرَهم وعاقبةَ أمرِهم، ويهديهم لرُشْدِهم وللعاقبة الحُسْنى.

* * *

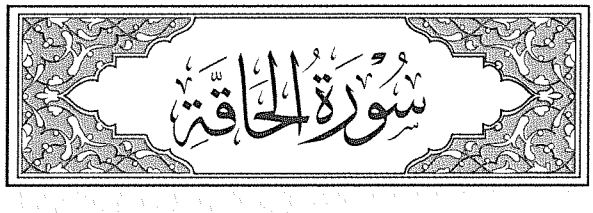

مكيَّة، وهي اثنتان وخمسون آية

جاء في هذه السورة إثباتُ يوم القيامة، وما يكون بعدها من ثواب وعقاب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ۝١٢﴾.

﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾ صفةٌ من صفات يوم القيامة، أي: التي تحقُّ وتقع فيها الأمور، بمعنى: تُعرَف فيها الحقائق، أي: تُحقِّق الحقائقَ وتُثبتها وتُنجِزُها.

ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾؟ وهذا التركيب يأتي في القرآن للتهويل والتعظيم. وقال الثوري: يقال للمعلوم في الجملة: ما أدراك، ولِمَا ليس بمعلوم: ما يُدريك، في جميع القرآن[1].

ثم أخبر سبحانه عن المكذِّبين بها، فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤﴾ وهذه صفةٌ أُخرى من صفات يوم القيامة، عبَّر بها بَدَلَ الضمير زيادةً في التهويل، وإنما سُمِّيت قارعة ـ والله أعلم ـ لأنَّ الأجرام السماوية يقرع بعضها بعضاً في حادثة القيامة بصورةٍ هائلة؛ صوَّرها سبحانه وتعالى في سورة الحج بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ

(١) رواه بنحوه ابن أبي حاتم (١٠: ٣١٥٧) من قول سفيان بن عيينة.

عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾. [الحج: ١-٢].

ثم بيَّن سبحانه كيفيَّةَ إهلاكهم وفظاعتَه، نتيجةَ تكذيبهم بالقارعة، وما يحدثُ بعدها من الحشر والحساب بقوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهُم قوم صالح، ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾. قال قتادة والجُبّائيُّ وأبو مسلم: أي: بالصيحة الطاغية التي جاوزت المقدار حتى أهلكتهم[1]. ولكن ألا يجوز أن يراد بالطاغية: الجبّار الذي عَقَرَ الناقة، وتكون التاء للمبالغة في الوصف لا للتأنيث، ويكون في الآية إيجاز الاكتفاء من أنواع إعجاز القرآن، حيث ذكر في الأولى المسبّب للهلاك، وفي الثانية: نفس الهلاك[2]، على حدِّ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]، أي: جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مُبْصِراً لتبتغوا من فضله، فاكتفى بالتعليل الأول عن التعليل الثاني، وبالوصف الثاني عن الوصف الأول، وذلك من أساليب القرآن. هذا رأيي، والله أعلم، هنا أوجَزَ في كلٍّ بعضَ الآخر.

---

(١) رواه عن قتادة الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٥٧١)، وذكره عنه أيضاً القرطبي في «تفسيره» (١٨: ٢٥٨).

(٢) هذا بعيد، فلو كان هذا صحيحاً لكان المناسب أن يتبعه مثلُه في قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ...﴾، ولكن الذي ورد فيها هو الهلاك نفسه لا المُسبِّب للهلاك، وهو قوله: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾، فنظمُ السياق إذن يقتضي أن يكون كلاً من قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ تفسيراً للقارعة المذكورة في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، لأنه أجمل السياق أولاً، ثم فصَّله.

أما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] فليس هو تفضيل بعد إجمال، بل هو مسوقٌ للتمنُّن، وهو حاصل بما ذكر في الجهتين، فكان الاكتفاء فيه واضحاً، بخلاف ما هنا.

وقال في إتمام البيان: ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ وهم قوم هود، ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ والصَّرْصَر: الريح الشديدة الصوت، وقيل: شديدة البرد. عَتَتْ عليهم فلم يقدروا أن يتخلَّصوا منها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: حاسمةً للخير عنهم وشُؤْماً عليهم وبلاءً. وقال ابن عباس وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة: أي: متتابعةً ليس فيها فترة[1]. وقال الخليل: أي: قاطعة؛ لأنها أهلكتهم. وقال وهب: هي التي تُسمِّيها العرب أيام العَجوز[2] ـ بفتح العين ـ وهي أيامٌ سبعٌ بين شهرَيْ شباط وآذار، لأنَّ عجوزاً دخلت سِرْباً فتبعتها الريح، فانتزعتها وأهلكتها. وقيل: إنما تسمِّي العربُ آخر الشتاء بهذا الاسم، لأنه أصبح في دور العَجْز، وربما ضمُّوا العين لتكونَ صيغةَ جمع، أي: أواخر الشتاء.

أقول: ويجوز أن يكون هذا الاسمُ «أيامَ العُجوز» بضم العين، وأن يكون مُوَلَّداً من هذه الحادثة بعد نزول القرآن وتشبيهه الهلكى بأعجاز النخل في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ أي: أُصولَ نخل باليةٍ متآكلةِ الأجواف.

وقد زاد في التهويل بقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾؟

ثم ذكر فرعونَ وقومَ لوط وما أصابهم من جرَّاء تكذيبهم بالرسل، فقال: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي: ومَنْ كان قبله من الأمم التي كفرت كما كفر، وقرئ: (ومَنْ قِبَلَه) بكسر القاف وفتح الباء[3]، أي: مَنْ عِندَه من أتباعه وجنوده، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قال

---

(١) روى هذه الأقوال الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٥٧٣).

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨: ٢٦٠).

(٣) وهي قراءة عاصم في رواية أبان، وقراءة أبي عمرو والكسائي كما في «الحجة للقراء السبعة»، (٦: ٣١٤).

قتادة: هي قرى قوم لوط، وسُمِّيت بالمُؤْتفكات لأنها ائتَفَكت بأهلها، أي: انقلبت[١]، حيث جاؤوا ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ أي: بالخطيئة. والكلمة مصدر كالخطأ، وهي في الصيغة مثل: العافية والعاقبة والطاغية، مصادر أو أوصاف يُعبَّر بها عن المصادر، وذلك من خصائص اللغة، كما يعبَّر بالمصدر عن الوَصْفُ. وقيل: بل المراد بالكلمة الوَصْفُ لا المصدر، والمعنى: بالأفعال الخاطئة التي من جملتها تكذيبُ البعث والقيامة.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: فعَصَتْ كلُّ أمة رسولـها وكذَّبتـه، ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ قال ابن عباس: أي: زائدة في الشِّدَّة[٢]، وقيل: نامية مستمرة.

ثم بيّن سبحانه قصَّة نوح مع قومه بنفس الأسلوب الإجمالي، وخاطب بها مَنْ نزل فيهم القرآن، مُبالغةً في التحسيس، فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ أي: في السفينة. وفي الكلام نسبةُ ما للأصل إلى الفرع، فقد نُسِبَ إليهم الحَمْلُ باعتبارهم ذريَّة تلك البقيَّة التي نَجَتْ من الغرق، بواسطة هذه السفينة، يَـتَمنَّن سبحانه وتعالى عليهم في ذلك. ومثل هذا من نهج اللغة ومجَازاتها، وهو معروفٌ في مخاطبات العرب. وفيه إشارة إلى أنَّ البشر من بعد نوح كلَّه منه تقريباً؛ لأنه منه ومن السبعين الذين نَجَوا معه؛ لذلك يقال لنوح: آدم الثاني.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ أي: لنجعلَ تلك الفِعْلة التي فعلناها في إغراق قوم نوح، ونجاة من حَمَلنا في السفينة عبرةً لكم وموعظةً تتَّعظون بها وتتذكَّرون بها نِعَمَ الله تعالى وتشكرونه عليها، وتتفكَّرون في نِقَمِه وتَخشَونها. وفيها تلميحٌ بالتهديد والوعيد الرهيب.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤: ٣٤٥).

(٢) المصدر السابق (٢٣: ٥٧٧).

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وبعد أن ذكّر بالأمم التي كذَّبت بالقيامة والحشر، وبيَّن ما جرى عليها، يُحذِّر به المشركين ويُنذِرُهم؛ عاد إلى مَجْرى السياق السابق، وهو الكلام عن الحاقَّةِ ومظاهرها الرهيبة، وقال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: نفخةٌ أُولى، بمعنى: إذا أُعطيت الإشارةُ الأولى[1] اصطدمت الأجرام السماويّة والأرض مع بعضها؛ لاختلال بنائها بتقادُم العهد عليها[2]، والله أعلم.

---

(١) كأن المؤلف رحمه الله يُلمحُ بهذه العبارة إلى حَمْل النفخ في الصور على وجه مجازي غير حقيقي، وهو إعطاء الإشارة، وهذا غير صحيح، فالأصل حَمْلُ الكلام على الحقيقة ما دامت غيرَ ممتنعة، ثم إن هذا النفخ المذكور في القرآن مجملاً لحقه البيان من السنة النبوية الصحيحة، ومنها زيادة تأكيد على أنه نفخٌ حقيقيّ في صُور ـ وهو القَرْن ـ حقيقي.

(٢) اصطدام الأجرام السماوية واختلال نظامها ليس ناتجاً عن تقادم العهد عليها، لأنها مخلوقة على أبدع نظام وأحسن تركيب، وإنما يحصل ذلك إذا أراد الله تعالى بأمره سبحانه لها بذلك، وحديث أبي ذر ـ في استئذان الشمس كل يوم من أين تطلع، فتؤمر بالمشرق، حتى إذا كان يوم القيامة أُمرت أن تطلع من المغرب، وقد رواه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩) ـ دالٌّ على ذلك.

ثم عطف على النفخ والإنذار ما يجري بعده، فقال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ بنتيجة ذلك الاصطدام الهائل، حتى تصير ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]؛ لأنها تُسحَقُ وتُبَسُّ بسّاً، وتكون كرةً من تراب ناعم مسحوق، ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ أي: حينئذ تكون قد قامت القيامة.

ثم تابع الكلام عن تلك المظاهر، فقال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ أي: مُضْمَحِلّة، كالشيء الخَلِق الذي يتلاشى، وذلك لمرور ما لا يُحصيه إلا الله عليها من الدهور، وكل شيء يَضمَحِلُّ بتقادُم العهد عليه مهما كان قوياً[١]. والله أعلم.

ثم تابع الكلام، فقال: ﴿وَٱلْمَلَكُ[٢] عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾[٣] قال الحسن وقتادة: أي: على أطرافها[٤]. وقال البيضاوي: لعلَّه تمثيلٌ لخراب السماء بخراب البنيان وانضواء أهله إلى أطرافه[٥]، وإن كان الكلام على ظاهره فلعلَّه[٦] هلاك الملائكة إثرَ ذلك[٧].

أقول: وهكذا يقال في قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ...﴾، والضمير للخلائق، أي: فوق الخلائق، سواءٌ ماتوا أو يموتون على إثر ذلك، أو يكون هذا بعد الحشر، وهو الأنسب، والله أعلم.

---

(١) هذه سنة من سنن الله في الأرض، ففي تعميمها على كل شيء لتشمل الإجرام العلوية ـ بل الجنة والنار أيضاً ـ نَظَر.

(٢) «الملك» المراد: جنس الملك، فيشمل جماعة منهم.

(٣) ﴿أَرْجَآئِهَا﴾ الضمير يعودُ على السماءِ الجديدة. كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. ومفرد أرجاء: رجاً؛ منوّناً بوزن (فتى) ومعناه: جانب.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٥٨٢) من قول مجاهد.

(٥) في «تفسير البيضاوي»: «أهلها إلى أطرافها».

(٦) في «تفسير البيضاوي»: «فلعل».

(٧) «تفسير البيضاوي» (٥: ٢٤٠).

ويجوز أن يعود إلى الحَمَلة الذين يحملونه كما قال مقاتل، يعني: أن الحَمَلة يحملون العرش فوق رؤوسهم[١] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وهم ﴿ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾ أفراد أو أصناف أو صفوف من الأملاك لا يعلم عددهم إلا الله، كما رُوي ذلك عن الضحّاك[٢]. والإضمار قبل الذِّكر جائز إذا عاد إلى متقدِّم رتبة، كقولهم: في بيته يُؤْتى الحَكَم.

والسَّلَف الصالح يمرُّون بعبارات الصفات دون حَمْلٍ على الظاهر، ولا على التأويل، والخَلَف يُؤوِّلون كما قيل: إن الكلام على التمثيل وتصوير العظمة[٣]، وقد استعير من أحوال المخاطبين، على نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة). وإنما جيء به لتمثيل عَظَمة الله ورَهْبته يومئذ بما يشاهد من أحوال السلاطين يوم خُروجهم على الناس لقضاء المظالم أو محاكمة المعتدين.

ولذلك أردفه بالكلام عن الحساب، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي: للمناقشة والحساب، ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ إذ قد أحصى سبحانه كلَّ ما فعلتموه.

ثم فصَّل نتائجَ الحساب، وفَرَحَ المؤمنِ ومُباهاته بنتيجته وفلاحه، وخِذْلانَ الكافرِ وحزنَه من عاقبته ومصيره، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهي علامة

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٦٢٦).

(٢) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٦٠٢).

(٣) بل هذا مما لا يُؤوِّله الخلف أيضاً، لأن حَمْله على ظاهره غير محال، وذلك أن حَمْلَ الملائكة للعرش هو حَمْلُ مخلوق لمخلوق، ومثلُه لا امتناع فيه أبداً، فلِمَ يُؤوَّل؟! وإنما الذي يُؤوِّله الخلف ويُفوِّضه السلف هو ما ورد من نصوص موهمة للتشبيه في حق الله تعالى، كالاستواء على العرش والنزول واليد والعين... إلى آخره، فهذا الذي يَرِدُ فيه كلام المؤلف.

الناجين الفائزين، ﴿فَيَقُولُ﴾ ابتهاجاً ومباهاة: ﴿هَآؤُمُ[١] ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾[٢] أي: خذوا اقرؤوا كتابيَهْ، ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ أي: كنت أظنُّ أنَّ الله سيُحاسبني ويُؤاخذني بهفواتي، ولكنْ تفضَّل عليَّ بالعفو عنها.

وقال كثير من المفسِّرين: ظننتُ، بمعنى: عَلِمتُ، إذ الظنّ قد يأتي بمعنى أقوى الاعتقاد، أي: علمتُ أني مُلاقٍ حسابي، فعملتُ ونَجَوْت. وقال الرازي: إذا أُريد المبالغة في التكثير يُقرَنُ الكلامُ بلفظ يدلُّ على التقليل، وإذا أُريد المبالغة في اليقين يُقرَنُ الكلام بلفظ وُضِعَ للشك.

ثم بيَّن سبحانه مصيرَه بقوله: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: مَرْضيَّة، فاستعمل اسم الفاعل موضع اسم المفعول، على طريقة المجاز العقلي، وذلك من خصائص اللغة، للمبالغة في الوصف.

ثم فصّل تلك العيشة الراضية، وقال: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ولا يخفى ما في مقابلة ﴿عَالِيَةٍ﴾ بـ﴿دَانِيَةٌ﴾ من الإبداع البليغ. ومعنى ﴿قُطُوفُهَا[٣] دَانِيَةٌ﴾: أنَّ ثمرتها يتناولها القاعد.

ويُقالُ لهم مبالغةً في التهنئة والتأنيس: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ فقد نلتُم هذا ﴿بِمَآ

---

(١) ﴿هَآؤُمُ﴾: (هاء) اسم فعل معناه: (خذ). والميم يدلّ على أن المخاطَب جمع. فالمعنى: خذوا كتابي يا مَن تُسرُّون بسروري، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

(٢) ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾: الهاء هنا، وفي ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾ تسمى هاء السكت، وهي حرف يلحقه العرب بالكلمة إذا أرادوا السكوت بعدها، ثم توسَّعوا وأثبتوه حتى مع الوصل.

(٣) ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطف ـ بكسر فسكون ـ بمعنى مقطوف. كذِبح بمعنى مذبوح؛ كما في الآية ١٠٧ من سورة الصافات. والقِطف: هو ما يُقطَف؛ أي: يُجْنى بسهولة.

﴿أَسْلَفْتُمْ﴾ أي: بما قدَّمتُم من الأعمال الصالحة ﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: السالفة في الدنيا. وقال مجاهد: يعني: أيام الصيام[1].

وقد روي أن الله سبحانه وتعالى يقول: «يا أوليائي، طالما نظرتُ إليكم في الدنيا وقد قَلَصَت شفاهُكم عن الأشربة، وغارت أعينكم، وخَمَصَت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم، وكلوا واشربوا بما أسلفتُم»[2]. اللهمَّ اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

وبعد أن ذكرَ مصيرَ المؤمن، ذكَرَ مصيرَ الكافر، فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ لِما شاهد وأحسَّ من سُوء العاقبة.

ثم يقول: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ يَتمنَّى أن كانت المَوْتةُ التي ماتها هي القاطعةَ لأمره، فلم يُبعَث بعده ولم يَلقَ ما لقي، وخابَ ما كان يُؤمِّله من العاقبة، ونال عكس المأمول. وهذه الحالة النفسيَّة ذُكِرَت في مقابلة حالة المؤمن النفسيَّة السابقة.

ثم يزيد في إظهار الحسرة والندم بقوله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم يُغْنِ عنِّي مالي، وما كان لي من سُلطان، ولم ينفعني شيئاً في دفع هذا الوبال[3]. وإنما خصَّهما بالذكر لأنهما كانا السبب في الإعراض؛ لأنهم كانوا يحرصون على مراكزهم أن يَفقِدوها إذا آمنوا بمحمد ﷺ وكانوا من أتباعه.

---

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤: ٦٠٣).

(٢) المصدر السابق (٤: ٦٠٣).

(٣) أو المراد بالسلطان: الحُجَّة. والمراد: بُطلان ما كانَ يحتج به الكافر في الدنيا من حُجج واهية. وحملت الآية على المعنيين في تفسيري «المعين» فقلت في معنى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: زال عني مُلكي وقوَّتي وتسلُّطي على الناس، وبقيتُ ذليلاً حقيراً فقيراً، وفَنِيَ مُبتعداً عني كلُّ ما كنت أُحاجج به وأجادل، فقد ظهر الحقُّ لِلعيان، وأسكت الواقعُ كلَّ لسان.

ومن مباحث اللفظ: أنَّ الهاءَ اللاحقة لياء المتكلم هي للسَّكْت، وهاءُ السَّكْت تَثبُتُ في الوقف، وتَسقُطُ في الوصل.

ثم أصدر حُكمَه سبحانه فيه بقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾ أي: شدُّوه بالأغلال، ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ أي: اجعَلوه يَصْلى فيها، ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾[1] وهذا العدد للتكثير والتهويل لا للتحديد.

ثم علَّل هذا الحكم الصادر بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ[2] ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ يذكر أخصَّ صفاته. وإنما خصَّ الأمرَيْن بالذكر؛ لأنّ أقبَحَ العقائد الكفر، وأشنَعَ الرذائل البخل. وذكر الحضّ دون الفعل؛ ليُعلَم أنَّ تارك الحضِّ بهذه المنزلة، فكيف بمَنْ يترك الفعل؟

ثم تابع البيان عن صُورة عقابه بقوله: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ أبداً، وهو القريب الذي يُشفِقُ عليه ويحميه؛ يُكنِّي بذلك عن اليأس من النجاة، ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ وهو ما مِنْ شأنه أن يُغسَلَ من الأبدان، كالقيح والصَّديد. وقيل: هو غُسالةُ الجرح التي يختلط بالدم والقيح، وقيل: هو ما يسيل من أهل النار من صديد. وهذا ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾، وهم المشركون أرباب الخطيئة التي لا تُغْفَر، فإنَّ الله لا يغفر أن يُشرَكَ به.

ومن مباحث اللفظ: ما يقال من أنَّ أمثال (غسلين) و(سينين) و(إلياسين) من الأوزان هي من لغة أهل اليمن وعرب الجنوب.

---

(١) أي: أدخلوه فيها.

(٢) ﴿طَعَامِ﴾ المراد: إطعام. فهو مصدر كالعطاء بمعنى الإعطاء.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾.

ثم أكَّد ما تقدَّم من البيان بالقَسَم على حقيقة هذا القرآن، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ ويدلُّ هذا الكلام بدلالة الإشارة على ما في هذا الكون من العَظَمة والخفايا والأسرار، وقد أثبت ذلك العِلمُ الحديث. ومفاد قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أنَّ الأمر لا يحتاج إلى قَسَم لظهوره[1].

وقد ذكر المُقسَمَ عليه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾ أي: إنَّ القرآنَ قولُ رسولٍ يبلِّغه عن المُرسِل، وهو الله. والمناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه: أنَّ عظائم الله لا تُحصى، فما وَجْهُ إنكاركم لِـمَا جاء في هذا القرآن من أمر الحشر والحساب؟ أو أنَّ ما في هذا القرآن من العظائم والفوائد، أكثر مما في هذا الكون من مزايا وعجائب؛ لأنه كلام الله، والكون من صنع الله، والله أعلم.

ثم قرَّر المُقسَمَ عليه بنفي ضدِّه، وسَبَك ذلك على ردِّ تقوُّلاتهم، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١﴾ والقلَّة ليس لها سلطان على القلوب، والإيمان بالشيء

---

(١) ومعنى القسم المنفي في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾: لا فائدة مِنْ أنْ أُقسم لكم بآياتي في كوني التي تشاهدونها والتي لا تشاهدونها، مع أنها تستحقُّ أن أُقسم بها؛ لأنكم بَلغتم من الإصرارِ على المُعَاندة مَبلغاً شنيعاً، فما سبق أن نزل من القرآن كافٍ لأن يمحوَ كلَّ أثرٍ للشكِّ فيه.

يَنْبعث عن العِلم به، ودرجته بدرجته، فقلَّة إيمانهم لا تُؤهِّلهم للإيمان بحقيَّة القرآن والتصديق به، ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ[1] قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وقلة تذكُّرهم لا تُؤهِّلهم لِتَبيُّنِ حقيقتِهِ وحَقِّيَّته، فإنَّ هذا القرآن يأبى بطبيعته وبطابعه[2] أن يكونَ من قول البشر.

وبعد الردِّ عليهم قرَّر الحقيقة، فقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم أحاط هذه الحقيقة بالتأييد، فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾[3] هذا الرسولُ ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾[4] في تبليغه الرسالة، أي: لو افترى محمَّدٌ علينا بعض المُفتَريات في تبليغه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ[5] ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾، وقد وصف ﴿أَحَدٍ﴾ بصيغة الجمع لعمومه في سياق النفي. والوتين: شريان الحلق المتَّصل بالقلب.

والجملة تمثيلٌ مُقتبَسٌ من حال المُخاطَبين، وهي تُمثِّل إهلاكه بأفظع ما يفعله

---

(١) ﴿كَاهِنٍ﴾: هو الذي يدَّعي علم الغيب، يَستغل به الدهماء من الناس.

(٢) استعمال مثل هذين اللفظين في القرآن الكريم مُوهِم، فالأَوْلى اجتنابهما.

(٣) ﴿تَقَوَّلَ﴾: تكلَّف القول. والمراد: افترى قولاً من عندِ نفسِه ونسَبِه إلينا.

(٤) ﴿ٱلْأَقَاوِيلِ﴾: جمع (أقوال) التي هي جمع (قول)، ولكنّها اشتهرت في الأقوال المكذوبة احتقاراً لها، كما يقولون: أضاحيك وأعاجيب.

(٥) المعنى: واعلموا حقيقةً أخرى تدلُّ على أنَّ القرآن تنزيلٌ من ربِّ العالمين على رسوله محمد ﷺ، وهي أنه لو كان يكذب علينا شيئاً من عند نفسه لم نَقُلْه نحن، ولم نُوحِ إليه مع تأييدنا له بالمعجزات، لَـما تركناه على قيْد الحياة، بل لأخذناه بالقوَّة والقدرة، وانتقمنا منه بالحقِّ، ثم لقطعنا منه نياط القلب فنُميتُه، فلا يقدر أحدٌ على دفع عقوبتنا عنه. لكنه لم يتقوَّل علينا كلمة أو حرفاً، فهو صادق أمين، معصوم، بدليل أننا لم نعاقبه، فلم نأخذ منه باليمين، ولم نقطع منه الوتين.

الملوك بمن يغضبون عليه، وذلك بأن يأخذ القاتل بيمين المقتول ويكفحه بالسيف؛ يضرب عنقه. والغرض منها: تحقيق أنه ﷺ رسولٌ أمين، كشأنِ بقيَّة الرسل، وأنَّ ما جاء به إنما هو من عند الله، ليس فيه نقص ولا زيادة.

ثم تابع الكلام عن القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ يَتذكَّرون به مصيرَهم السعيد وعاقبتهم الحُسْنى، ويهتدون به لرُشْدهم، وللطريقة الفُضْلى.

ثم ندَّد بالمشركين المكذِّبين به، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

وقد توعَّدهم بنتيجةِ هذا التكذيب ضمن هذا البيان العام، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إنَّ تكذيبهم وكفرهم به ليعودُ عليهم بالحَسْرة والنَّدامة يوم القيامة.

ثم قابل تكذيبهم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾[1] وهذا التركيب من إضافة أحدِ الوَصْفَين إلى الآخر للتأكيد، مثل: مسجد الجامع، أي: إنه حقٌّ يقينٌ لا بطلانَ ولا رَيْبَ فيه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ تنزيهاً له عمَّا يتقوَّلون، وشكراً على ما أوحى إليك. ويجوز أن يُراد بالتسبيح: الصَّلاة؛ لأنَّ القرآن يأمر رسول الله ﷺ بها في كلِّ موقفٍ يشتدُّ ضِيقاً به تجاه المشركين.

* * *

(١) المعنى: حين يدخل المكذِّبون النار يَصِلُ عِلمُهم بما يذوقونَه من عذابٍ إلى مرتبةِ حقِّ اليقين، إذ صار بالنسبة إليهم حقيقة واقعةً يذوقونها بحواسِّهم، ويُدرِكونها بكلِّ ما لديهم من قُدرات إدراك. وتقدَّم الكلام على هذه المرتبة وبقيةِ مراتب العلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].



مكيَّة، وهي أربع وأربعون آية

جاء في هذه السورة بيانُ قُرب العذاب الذي أُنذِرَ به الكافرون.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾.

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾

قال مجاهد: هذا السائل هو الحارث بن كلدة[1]، الذي قال استهزاءً وإنكاراً: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: هو أبو جهل، حيث قال: فأسقِطْ علينا كسفاً من السماء إن كنتَ من الصَّادقين. ويجوز أن يكون عاماً في المشركين الذين يستعجلون بالعذاب استهزاءً واستنكاراً.

وعلى الأول، يكون المعنى: دَعا داعٍ على نفسه بعذاب واقع مستعجلاً له، وهو واقعٌ لا محالة. وعلى الثاني، يكون لفظُ «دعا» مُتَضمِّناً معنى: استهزأ، ولذلك عدَّاه بالباء.

وقيل: بل السائل هو الرسول ﷺ؛ استعجل عذابَه[2].

---

(١) الذي في «تفسير الطبري» (١٣: ٥٠٦): «هو النضر بن الحارث بن كلدة».

(٢) أي: عذابَ الله للكافرين.

والمراد من المعارج[١]: ما يَعرُجُ فيها الكَلِمُ الطيِّب والعمل الصالح إلى الله، و﴿تَعْرُجُ﴾ فيها ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ[٢] إِلَيْهِ﴾.

أما قوله: ﴿فِي يَوْمٍ[٣] كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾[٤] فقد قيل فيه: إنه مجرَّد بيان لمزيد ارتفاع تلك المعارج، على طريقة التمثيل والتخييل للفضاء الشاهق الواسع، الدالّ على قدرة الله القادر المرهوب الجانب. وفيه دلالة على قوة المَلَك وسرعته؛ لأنه روح مجرَّدة، أي: إنّ الملائكة يصعدون في اليوم الواحد ما لا يُستطاع بلوغه في خمسين ألف سنة عندكم.

وقيل: بل المراد مدَّة الدنيا؛ لأن الدهر عند الله يومان: أحدهما: مدة الدينا، والثاني: مدة الأخرى، أي: يوم الحساب، وقد كان ذلك بالنسبة إلى الكافر؛ لِمَا يلقىٰ فيه من الشدائد، وأما المؤمن فيكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة، والله أعلم. وعلى كلٍّ، فالعدد للتكثير، ولا يُراد به التحديد[٥].

---

(١) «المعارج»: جمع مَعْرَج؛ بفتح الميم والراء بينهما عينٌ ساكنة. والمعراج: مكان العروج. أي: الصعود.

(٢) أي: جبريل عليه السلام.

(٣) هو يوم القيامة.

(٤) من سني الدنيا لو صعد فيها غير الملائكة.

(٥) لا داعي لصرف العدد إلى ما ادّعاه المؤلف، فليس هو من الأعداد التي تطلقُها العرب للتكثير، كالسبعة والسبعين، فيبقى الأصلُ فيه حملُه على حقيقته حتى يدلّ دليل على أن المراد به التكثير، ولا دليل عليه هنا.

وللفائدة أذكر الآيات الواردة في ذلك، ففي سورة الحج قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٤٧]، وفي سورة السجدة قال الله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [٥]، وفي سورة المعارج قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [٤]. =

وبما أنَّ السؤال كان استهزاءً من المشركين، أو كان منه ﷺ استبطاءً للنصر، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾[1] أي: تجاه هؤلاء المتعنِّتين، ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ﴾ أي: العذابَ المتوعَّدين به ﴿بَعِيدٗا ۝٦﴾ غيرَ واقع، ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾ واقعاً لا محالة، وذلك ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨﴾ وهو ذائبُ الفضَّة والمعادن؛ لِـمَا يحدثُ فيها من الانصِهار، والله أعلم، لأنَّ الكواكب فيها كثير من المعادن، فإذا اقتربت واختلطت بالنجوم ذوات الموادّ المشتعلة المسمَّاة بالشموس انصَهَرت[2]، والله أعلم.

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩﴾ وهو الصُّوف المنفوش. وقيل: المصبوغ؛ لأن الجبال مختلفةُ الموادِّ والمعادن. والكلامُ بيانٌ لـهَوْلِ القارعة عند اصطِدام الأجرام وتَفَتُّتها.

ثم تابع البيان عن ذلك اليوم الذي ينكرونه وما فيه من هَوْل بقوله: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾ عن أحواله لشُغل كلِّ إنسان بنفسه. والحميم: الصديق الصميم، أي: حتى إنَّ الأصدقاء الأوفياء لا يسألون عن أحوال أصدقائهم، وهم ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾

= وقد تكلم العلماء على ذلك، ولهم فيه أقوال:

القول الأول: أنها يوم واحد، وأن آية السجدة تذكر المسافة بين الأرض والسماء الدنيا، أما آية المعارج فتذكر المسافة بين الأرض السابعة السفلى وبين العرش.

القول الثاني: أن آية السجدة هي في نزول الملائكة بالأمر وعروجهم به في الدنيا، وأن آية المعارج هي في يوم القيامة.

القول الثالث: أنهما في يوم القيامة، فهو على قوم كألف سنة، وعلى آخرين كخمسين ألف سنة.

ولعل القول الثاني هو الأقرب، والله أعلم.

(١) الصبر الجميل: هو الذي لا يخالطه ضجر، ولا شكوى مخلوق.

(٢) هذا المعنى لا إشكال فيه في نفسه، لكن في تفسير الآية به نظر، لأن الآية تتحدث عن السماء، لا عن الكواكب، والمؤلف يُفسِّر السماوات السبع بالكواكب السيَّارة، كما سلف في مواضع من هذا التفسير، وعلَّقنا عليه فيها بنقد هذا القول، فما ذكره هنا مبنيٌّ على تفسيره المُتعقَّب.

أي: يُبصَّرُ بعضُهم بعضاً، وما يمنعهم من التساؤل إلا تشاغلها بحال أنفسهم، والجملة مستأنفة.

ثم بيَّن سبحانه ذلك الهوْل، بما يُؤذِنُ أنَّ الصداقة والقرابة تتلاشى إذ ذاك، ولا يهمُّ المرءُ إلا نفسَه، فقال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾[1] أي: عشيرتِهِ التي كانت تحميه وتمنعه في الدنيا. بمعنى: يتمنَّى اليوم أن يفتدي بهم، وقد كان في الدنيا يفديهم بنفسه.

ثم توسَّع إلى ما هو أوسع، فقال: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: جميع مخلوقاتها، فهو يتمنَّى لو أُتيح له أن يفتدي بكل ذلك، ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ ذلك الافتداء، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء، والمعنى: يتمنَّى لو كان كلُّ أولئك تحت قبضته، ويبذلهم في فداءِ نفسه، ثم يُنجيه ذلك، وهيهات!

﴿كَلَّآ﴾ بل ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي: إنَّ الحالة والقصة إنما هي مصيرٌ لجهنَّم لا غير.

ثم ذكر هَوْلَ صفاتها بقوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ قال مقاتل: أي: تَنْزع الأطراف فلا تترك لحماً ولا جلْداً[2]. وقال ابن عباس: تَنْزع الجلدَ وأُمَّ الرأس[3].

ثم ذكر أهلها بقوله: ﴿تَدْعُوا۟﴾ إليها ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ والمفروضات، ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ عنها مُعْرِضاً، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي: جَمَعَ المال وجعله في وعاء، وكَنَزه

---

(١) يُنظر السرّ في ترتيب أفرادِ الأسرة ـ عندَ التماسِ النجاة من أهوال يوم القيامة في هذه الآيات من سورة المعارج، وترتيبهم في سورة عبس [الآيات ٣٤-٣٦] ـ فيما كتبتُه على كتاب: «زهرة التفاسير» للشيخ طاهر الكردي المكي يسَّر الله صدوره.

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (٣٠: ٦٤٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٣: ٦٠٨).

ولم يُؤدِّ زكاتَه وحقوقه، وتَشاغَلَ به عن الدين، وأنكَرَ الحقَّ واليقين، يُعرِّض بذلك السائل المستهزئ، ويُؤنِّبه بهذا الوعيد. اللهمَّ أَجِرْنا يا أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم ذكر مصدر ذلك في الإنسان، وهو إفسادُه لفطرته حتى ينقلبَ ما طُبع عليه من حبِّ الخير والإحسان للغير إلى جبن وبخل متناهيَيْن، وإعراض عمَّا لا يخفى لذي عينَيْن، وجَعَلَ الكلام ذا وجهَيْن، فهو بمقتضى نظمه بياناً لحال الإنسان، وتتميماً لِـمَا قبله من الوعيد، ومثل هذا من أساليب القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ أي: مستعداً للهَلَع بإفساده لفطرته، وهو ما فسَّره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: مبالغاً في الجُبْن والجَزَع، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ أي: مبالغاً في البخل والإمساك والإعراض عما لا يخفى عن الإدراك.

ثم استثنى من ذلك المحافظين على سَلامة فِطَرِهم، وذكَرَهم بصفةٍ من صفات الإيمان الصادق، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ صلاةً مُقَامةً بالإخلاص فيها لله، والصِّدق في التوجُّه إليه، والخشوع لِعَظَمته وجَلالِه، غيرَ مفكِّرين في أثناء الصلاة بغيرها، وهذا لا يتهيأ إلا بكثرة المِرانِ والتدرُّب عليه، حتى تكون عادة طبيعية، فإنها تُلطِّف طبيعة الإنسان، وتأخذ به نحو الاعتدال، وتُوَطِّن النفس على الثبات في كلِّ ما يجري لها أو عليها من خير أو شر، وتُهذِّب الروح وتفيض عليها الكمالَ وعلوَّ الأخلاق.

ثم تابع الكلام عن صفات هذا الإنسان الكامل، مُبيِّناً أثرَ كماله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ لا يَشغَلُهم عنها ولا عن إدراك معانيها شاغل، ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ الذي لا يسأل الناس إلحافاً، ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ فيجهدون في الطاعات البدنية والمالية طمعاً بالمثوبة الأخروية.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: خائفون أن يمسَّهم لَفْحةٌ من عذاب ربهم؛ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ لا يَسْلَمُ منه إلا مَنْ رحم الله، وبما ذكرَ متَّصفون.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾ والمحافظة تَتَضمَّنُ نَفيَ الكشف والإظهار، لذلك عدَّاها تعديتَه بعد ﴿إِلَّا﴾، والاستثناء مُفرَّغ، والحَمْلُ على المعنى من خصائص اللغة وأساليب القرآن.

والمراد ممَّا ملكت أيمانهم: أسيرات الحرب الصحيحة التي هي لإعلاء كلمة الله، إذا لم يتهيّأ لهنّ فِكاكٌ من الأسْر ولم تُؤسَر معهنَّ أزواجُهنّ، فمِن مصلحتهنّ أن يكُنّ أمهاتِ أولادٍ عند المُتموِّلين، لذلك أحلَّتْهُنَّ للأسياد الشريعة الغراء، ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما عَدا مَنْ ذُكِرنَ من الأزواج والمملوكات، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾ لحدود الله.

إنَّ الشريعة الإسلامية قيَّدت حرية الشهوة، ووَضَعَت حولها الضوابط، وأقامت أمامها شتَّى السدود، لتكون في تعقُّل واعتدال، وما أبدَعَ المجتمع الذي يكون بهذا الحال!

ثم تابع سَرْدَ صفات الكمال، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ لا يُخِلُّونَ بشيءٍ من تلك الحقوق، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يقيمونها بالعدل، ولا يخافون في الله لَوْمة لائم، ولا عاديةَ معتدٍ جائر.

ثم أعاد التنويه بشأن محافظتهم على الصلاة، اهتماماً بها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وقيل: بل المرادُ في هذه الفقرة المحافظةُ عليها في أوقاتها الأُولى، أو المحافظة على صُورة كمالها وأدائها مُقامةً على الوجه الذي مرَّ بيانه، فهي بمعنى: والذين يقيمون الصلاة.

ثم سجَّل لأرباب هذه الصفات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ فيها بما «لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر»، كما جاء ذلك في صحيح الأثر[1].

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن صفات المؤمنين ومصيرَهم، ذكر صفاتِ المنافقين والمشركين ومصيرَهم، بأسلوب بليغ من أساليب الإنكار والتيئيس، وقال: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما فيهم هؤلاء السائلون والمنافقون، ﴿قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: حَوْلك مادِّي العُنق، مُديمي النظر، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾[2] أي: عن يمينك وعن شمالك جماعاتٍ جماعات، فما بالُهم حَوْلك مجتمعين، يُنكِرون عليك، ويسألونك مستهزئين بوعيدك للمشركين والمنافقين، ﴿أَيَطْمَعُ[3] كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾﴾ كما يدخلُها المؤمنون؟

---

(١) سبق تخريجه (٢: ٥٥٤).

(٢) ﴿عِزِينَ﴾: جمع عِزَة ـ بكسر أوَّله وفتح ثانيه ـ وهي الجماعة. والمراد: جماعات جماعات.

(٣) الهمزة للاستفهام التوبيخي.

﴿كَلَّآ[١] إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وهذا التعليل يُؤذِنُ بأنَّ الإنسانَ لا يصلح لدخولِ الجنَّة بمُجرَّد خِلْقَتِه الجسيمة، ما لم يُكمِّل روحَه ويُثقِّفها بالكمالات التي أوحى الله بها على لسان أنبيائه في كتبه المنزلة، من الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته، والإيمان بالله واليوم الآخر على وجهه الصحيح، والإيمان برسل الله وكتبه وملائكته، والعمل بما جاءَ في تلك الكتب من أوامر، وتَرْك ما جاءَ فيها من نَوَاهٍ، فبذلك يُهيِّئ له شخصيةً روحيةً بها يتأهَّل لمنازل الكاملين، وجنَّات رب العالمين.

وليس لهذه الجسمية المخلوقة مما يعلمون أهليَّةٌ لذلك ما لم تُستكمل الأرواح بهذه الكمالات المؤهِّلة لدخول الجنات، فلا يطمع أن يدخل الجنَّة لكونه جسيماً وسيماً، رئيساً عظيماً، ذا أثاث ورياش، ومالٍ وبنين، وإذا تُليت عليه آياتُ الله قال: أساطير الأوَّلين، كلا، ليست هذه بأسباب لدخول الجنان ورضا الرحمن.

ويجوز أن يكون الكلامُ سِيقَ دليلاً على قدرته على ما يُنكِرونه من البعث والحساب؛ لأن الذي خَلَقَهم من نُطفةٍ أمشاج، وجَعَلهم بهذه المثابة من الخلقة الممتازة، يَقدِرُ على إعادتهم وبَعْثهم بعد الموت. يُعرِّض في ذلك بالسائلين المستهزئين.

وقال أبو السُّعود: قوله ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كلامٌ سِيقَ تمهيداً لِـمَا بعده من بيان قُدرة الله تعالى على أن يُهلِكَهم لكفرهم بالبعث والجزاء، واستهزائهم برسول الله ﷺ وبما نَزَل عليه من الوحي، وادِّعائهم دخولَ الجنة بطريق السخرية، يُهلِكهم ويُنشِئ بَدَلَهم قوماً آخرين، فإنَّ قدرته تعالى على ما يعلمون من كيفيَّة نشأتهم الأولى حُجَّةٌ بيِّنةٌ على قدرته على ذلك، كما تُفصِحُ عنه الفاء في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[٢]

---

(١) ﴿كَلَّآ﴾: حرف يدل على الزجر عما قبله.

(٢) أي: لا فائدة مِنْ أن أُقسِمَ بخالقِ المشارق والمغارب، ولكن سيأتي مَنْ يدرك هذه الحقيقة من =

حيث قَدَرْنا أن نجعل الأرض تتحرك على نفسها وفي فلكها حتى كان فيها هذه الظاهرة، ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي: نُهلِكهم ونأتي بخَلقٍ أمثَلَ منهم، وما نحن بمغلوبين على ذلك إن أردنا.

أقول: ويجوز أن يُراد بهذا التبديل: الإعادةُ والحشر، فتشمل المعنيين معاً، على نهج القرآن.

وأتى بوصف الخيريَّة مقابلةً لِـمَا أشار إليه في قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، لأن الجسم الذي ينشأ بالإعادة يمتاز عن هذا الجسم بطريقة خِلْقتِه وبصلاحِه للخلود، سواءٌ في النعيم أو في الجحيم، بخلاف هذا الجسم. والله أعلم.

وإنما جمع ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ ليُنبِّه إلى تنقُّلات الشمس بنظام مُتْقَن لا يختلف، يظهر أثرُه بتبدُّل المشرق والمغرب كلَّ يوم، ويظهر ذلك جلياً كلَّ شهر أو فَصْل من فصول السنة.

وهذا الأثر هو وَجْهُ المناسبة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه؛ لدلالته على كمال قُدرة الله تعالى، التي لا يكون التبديل أو الإعادة في جانبها شيئاً عظيما، بل هو على الله يسير.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم واستهزائهم، ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ودينهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ وهو يوم البعث والجزاء الذي ينكرونه ويستهزئون به، والذي وصفه بقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ[1] سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ

= حقائق نظام الكون الناشئة عن حركة الأرض حَوْل نفسها في اتِّجاه الشمس؛ إذ تحدث مُتدرِّجة مُتَتابعة، فهو سبحانه المهيمن بصفات ربوبيَّتِه خلقاً وتدبيراً على الشروق والغروب، وعلى أمكنة وأزمنة الشروق والغروب، فلا أحدَ غير الله له ربوبيَّة في شيءٍ من ذلك.

(١) ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جَدَث ـ بفتح أوَّلِه وثانيه ـ: وهو القبر.

﴿يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: كأنَّهم يُسرِعون إلى عَلَمٍ نُصِبَ لهم وطُلِبَ منهم أن يأتوه مُسرِعين. وقال الجُبّائيُّ وأبو مسلم: يتوجَّهون مُسرِعين إلى جهة عُيِّنت لهم.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ فَرَقاً من الهول، ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ وهوان.

ثم ختم الوعيد والتأنيب، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ به في الدنيا، فيُنكِرون ويَهزَؤون ويَتَندَّرون.

* * *

فهرس محتويات المجلد السابع

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الدخان	٥-٢١
تفسير سورة الجاثية	٢٣-٣٧
تفسير سورة الأحقاف	٣٩-٥٧
تفسير سورة محمد ﷺ	٥٩-٧٨
تفسير سورة الفتح	٧٩-١٠٥
تفسير سورة الحجرات	١٠٧-١٣١
تفسير سورة ق	١٣٣-١٥١
تفسير سورة الذاريات	١٥٣-١٧١
تفسير سورة الطور	١٧٣-١٨٦
تفسير سورة النجم	١٨٧-٢٠٥
تفسير سورة القمر	٢٠٧-٢٢٥
تفسير سورة الرحمن	٢٢٧-٢٥١
تفسير سورة الواقعة	٢٥٣-٢٨٠
تفسير سورة الحديد	٢٨١-٣١٣
تفسير سورة المجادلة	٣١٥-٣٣١
تفسير سورة الحشر	٣٣٣-٣٥٠

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة الممتحنة	٣٥١-٣٦٤
تفسير سورة الصف	٣٦٥-٣٧٥
تفسير سورة الجمعة	٣٧٧-٣٨٨
تفسير سورة المنافقون	٣٨٩-٣٩٨
تفسير سورة التغابن	٣٩٩-٤١٢
تفسير سورة الطلاق	٤١٣-٤٢٥
تفسير سورة التحريم	٤٢٧-٤٤٠
تفسير سورة الملك	٤٤١-٤٥٥
تفسير سورة القلم	٤٥٧-٤٧٣
تفسير سورة الحاقة	٤٧٥-٤٨٩
تفسير سورة المعارج	٤٩١-٥٠٢

❊ ❊ ❊